التربية الإسلامية

نظمها - فلسفتها - تاريخها

وضعه بالانجليزية وترجمه الى العربية

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه في الفلسفة من جامعة كمبردج

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

اعتمدت جامعة كمبردج هذه الدراسة لدرجة الدكتوراه في الفلسفة

وقررت جامعة القاهرة طبعها على نفقتها

الطبعة السادسة (١٩٧٨) مع بعض التنقيحات والزيادات

الطبعة الأولى — ١٩٥٤
الطبعة الثانية — ١٩٦٠
الطبعة الثالثة — ١٩٦٦
الطبعة الرابعة — ١٩٧٣
الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٥
الطبعة السادسة سنة ١٩٧٨

عنوان هذا الكتاب فى الطبعات الأولى كان :

تاريخ التربية الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

« هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ »

(قرآن كريم)
سورة الزمر الآية التاسعة

الحضارة الإسلامية . . . .
منحة الإسلام لهداية البشرية

دكتور أحمد شلبي

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء ، لتاريخ العالم الإسلامى كله ، من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى :

١ ـ الجزء الأول : (الطبعة الثامنة)

ـ مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى ، تفسير التاريخ ، هل التاريخ علم ؟ فلسفة التاريخ ، فائدة التاريخ ، مراحل تدوين التاريخ ، قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الاسلامى ـ علم التاريخ بين المسيحية والاسلام

ـ تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر ـ حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية

ـ السيرة النبوية المطهرة ـ الدعوة الإسلامية وفلسفتها

ـ عصر الخلفاء الراشدين .

٢ ـ الجزء الثانى : (الطبعة الخامسة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٣ ـ الجزء الثالث : (الطبعة السادسة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ ـ الجزء الرابع : (الطبعة الخامسة)

ـ الأندلس الاسلامية وانتقال الحضارة الاسلامية إلى أوروبا عن طريقها .

ـ المغرب ، الجزائر ، تونس ، ليبيا ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر ، السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ـ الجزء الخامس : « الطبعة الرابعة »

ـ مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر .

ـ الحروب الصليبية ؟ دوافعها ، أدوارها ، نتائجها .

ـ الإمبراطورية العثمانية « تركيا » منذ نشأتها حتى الآن .

٦ ـ الجزء السادس : « الطبعة الثالثة »

الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن :

ـ دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :

مراكز الشمال ، هجرات عربية وغير عربية ، التجار ، الطرق الصوفية، مراكز داخلية

ـ الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربي :

غانة ، مالى ، صنغى ، دول الهوسا ، برنو ، باجرمى ، واداى ، الفونج مقدشيو ، مملكة الزنج .

ـ الدول الاسلامية الحالية

موريتانيا ، السنغال ، جامبيا ، غينيا ، مالى ، النيجر ، نيجيريا ، تشاد السودان ، الصومال .

٧ ـ الجزء السابع :

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

ـ دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر :

المملكة العربية السعودية ـ عمان ـ اليمن ـ جمهورية اليمن الديمقراطية ـ دول الخليج العربى : الكويت ، البحرين ، قطر ، دولة الإمارات العربية ثم العراق

٨ ـ الجزء الثامن :

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن : إيران . أفغانستان . الباكستان . بنجلاديش . ماليزيا . إندونيسيا . الأقليات . الاسلامية فى روسيا والصين وتايلاند . .

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ ـ الجزء التاسع :

ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر محمد نجيب وعصر جمال عبد الناصر .

١٠ ـ الجزء العاشر :

ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر محمد أنور السادات

كتب للمؤلف

ثانياً ـ موسوعة النظم والحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الإسلام لهداية البشر فى شئون الفكر والسياسة والاقتصاد ، وفى مجال الحياة الاجتماعية ، والتربوية ، والعسكرية والتشريعية ، والقضائية ، وتشمل :

١١ ـ الجزء الأول : تاريخ المناهج الإسلامية

مناهج التعليم فى صدر الإسلام ـ انحرافاتها فى عصور الظلام ـ وجوب تصحيحها

١٢ ـ الجزء الثانى : الفكر الإسلامى : مناهجه وآثاره (الطبعة السادسة) مترجم عن الإنجليزية ـ مصدر بمقدمة شاملة عن الحضارة الإسلامية بقلم الدكتور أحمد شلبى

١٣ ـ الجزء الثالث : السياسة والاقتصاد فى التفكير الاسلامى : (الطبعة الرابعة)

دراسة شاملة للسياسة والاقتصاد فى التفكير الاسلامى مع المقارنة بالاتجاهات السياسية والاقتصادية الحديثة .

١٤ ـ الجزء الرابع : المجتمع الاسلامى (الطبعة الخامسة)

أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته .

١٥ ـ الجزء الخامس تاريخ التربية الاسلامية (الطبعة الخامسة)

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم ، وأمكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والإجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين . وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مطالبهم .

وغير ذلك من الدراسات التربوية الرائعة .

١٦ ـ الجزء السادس : الحياة الاجتماعية فى التفكير الاسلامى : (الطبعة الثالثة)

ـ فى نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة .
ـ وفى نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء .
ـ وفى نطاق المال : كصناديق التوفير والبنك الإسلامى والربا .

١٧ ـ الجزء السابع : الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الإسلامي (الطبعة الثالثة)
بحث علمي يبرز موقف الإسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات الإسلام في مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، وأخلاق المجاهد ، والخديعة في الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ، والتجسس والخيانة ، والهدنة والأسرى .

١٨ ـ الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي (الطبعة الثانية)
وتاريخ النظم القضائية في الإسلام
مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع

ودراسة تاريخ التشريع تشمل :
مصادر التشريع الإسلامي ودراسات عنها : القرآن الكريم ـ الحديث الشريف . الاجتهاد ـ القياس ـ الإجماع ـ الاستحسان ـ المصالح المرسلة ـ التشريع عند الشيعة : المذاهب الأربعة ـ التشريع بعد عصر المذاهب ـ التشريع الإسلامي وصلاحيته لكل زمان ومكان ـ مميزات التشريع الإسلامي .
ودراسة النظم القضائية بها الموضوعات التالية :
بحوث افتتاحية عن النظم القضائية ـ مؤسسات النظم القضائية في الإسلام ـ بحوث مهمة عن القضاء ـ بحوث مهمة عن القضاة ـ نبذة تاريخية عن القضاة والمحاكم من صدر الإسلام حتى الآن .

١٩ ـ الجزء التاسع : رحلة حياة (الطبعة الثانية)
تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية .

٢٠ ـ الجزء العاشر : النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور
وأثر الفكر الإسلامي فيها .
مع دراسة مهمة عن خطر الشيوعية على الأديان والإنسان والدول

وتشمل هذه الدراسة :
الشيوعية البدائية ـ عهد الرق والاقتصاد العبودي النظام الإقطاعي ـ الرأسمالية ـ الأديان والعدالة الاجتماعية ـ الإسلام ونظمه الاقتصادية ـ كيف أثر الإسلام في كل المذاهب الاقتصادية ـ الاشتراكية وكيف انبثقت من الإسلام وانحرفت أحياناً ـ الماركسية ونقدها وخطرها .
(ترجمت هذه الكتب للأوردية والإنجليزية والفرنسية والإندونيسية والتركية)

كتب للمؤلف

ثالثا ـ مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع بمختلف اللغات . وتمتاز دراستها بالجدة والعمق وتشمل :

٢١ ـ الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة الخامسة)

دراسة لشق المسائل اليهودية : اليهود فى التاريخ من عهد إبراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى إسرائيل ، عقيدة بنى إسرائيل ، يهوه إله بنى إسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين .

ـ مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .

ـ اليهود فى الظلام : الماسونية ، الروتارى ، الاغتيال ، التجسس ، البابية والبهائية

ـ من صور التشريع فى اليهودية .

٢٢ ـ الجزء الثانى : المسيحية : (الطبعة الخامسة)

ـ المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكتيبة .

ـ بولس واضع المسيحية الحالية : التثليث ، صلب المسيح التكفير عن خطيئة البشر .

ـ شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والأديرة ، خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون . حركة الإصلاح الدينى ونتائجها ونقدها .

٢٣ ـ الجزء الثالث : الإسلام : (الطبعة الخامسة)

ـ الله فى التفكير الإسلامى ، النبوة فى التفكير الإسلامى ، الروح والمادة فى التفكير الإسلامى ، فلسفة العبادات فى الإسلام ، غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى . الدين المعاملة ، المرأة فى الإسلام ، الرق وموقف الإسلام منه ، السياسة والاقتصاد فى الإسلام .

٢٤ ـ الجزء الرابع : أديان الهند الكبرى :

« الهندوسية ـ الجينية ـ البوذية » (الطبعة الخامسة)

ـ تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الأديان فى الهند .

ـ دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا ، مهابهارتا ، بوجاوا ستها ، كيتا .

ـ أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ الانطلاق والنرفانا . وحدة الوجود .

تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها ... ...

ترجمت هذه السلسلة للأوردية والإنجليزية والفرنسية والإندونيسية والتركية.

كتاب للمؤلف

رابعا — كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ — كيف تكتب بحثاً أو رسالة : (الطبعة العاشرة)
دراسة منهجية لكتابة البحوث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه.

باللغة الإنجليزية :

٢٦ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals. (مكتبة النهضة المصرية)
٢٧ — History of Muslim Education (دار الكشاف بيروت والقاهرة)

باللغة الإندونيسية والماليزية :

٢٨ — Negara dan Pemerintahan dalam Islam
٢٩ — Musjarakat Islam
٣٠ — Hukum Islam
٣١ — I Sedjarah dan Kebudajaan Islam
٣٢ — II " " " "
٣٣ — III " " " "
٣٤ — Perbandingan Agama (Jahudi)
٣٥ — " " (Masihi)
٣٦ — " " (Islam)
٣٧ — " " (Agama2 yang Terbeser di India:Hindu - Jaina-Buddha)
٣٨ — Sedjarah Pendidikan Islam
٣٩ — Politik dam Ekonomi Dalan Islam
٤٠ — Social dalan Islam

(Items 29–40: Nabhan (Surabaja) Dan Pustaka Natioual (Singapore))

٤١ — Perkembangan Keagamaan dalam Islam dan Masehi — Sjamsijah (solo)
٤٢ Perang Salib

كتب للمؤلف

خامساً — تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

— برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
— أول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
— دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
— تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٣ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الثانية)
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب إلى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الإسلامى والعربى اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت فى أسلوب مناسب ، مع أمثلة وتمرينات مفيدة .

٤٤ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الثانية)
عرض لجميع أبواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لأهم أبوب الصرف

هذا الكتاب ضرورة للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعاد طبعها .

٤٥ — فى عصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٤٦ — الحكومة والدولة فى الإسلام :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .

٤٧ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى .
وأكثر مادة هذا الكتاب رقم ١٩ من هذه القائمة .

محتويات الكتاب

الباب الأول

أمكنة التعليم ٤١ — ١٣٦

الموضـوع | الصفحة

الباب الثانى

المكتبات ١٣٧ — ٢٠٥

الباب الثالث

المدرسون ٢٠٧ — ٢٨٢

الموضوع | الصفحة

الباب الرابع

التلاميذ ٢٨٣ — ٣٥٢

الباب الخامس

رعاة العلم وفلسفة النظم بالمعاهد العلمية ٣٥٣ — ٣٨٥

الباب السادس

نظم تعليمية جديدة بمصر فى العهد الفاطمى

٣٨٧—٤١٠

فهرس الأشكال والمخططات

from PROFESSOR A. J. ARBERRY, PEMBROKE COLLEGE, CAMBRIDGE

10 October 1952

I have much pleasure in warmly recommending the publication of Dr Ahmad Shalaby's thesis entitled "The Historycof Muslim Education with special reference to Egypt". This work, which secured for Dr Shalaby the award of the Degree of Doctor of Philosophy in this University, is a most valuable contribution to knowledge. Based very largely upon unpublished manuscripts, together with extremely wide reading of printed texts, it collects together a vast range of important information, which has been critically examined and competently arranged. The publication of this book will be a great service to scholarship.

[signature]

توصية الأستاذ الدكتور آرثر أربرى بطبع هذه الدراسة

يسرنى بالغ السرور أن أوصى بطبع الدراسة التى قام بها الدكتور أحمد شلبى فى رسالته التى قدمها لجامعة كبردج ، ونال بها درجة الدكتوراه وعنوانها « تاريخ التربية الإسلامية » فهذه الدراسة ثمينة للغاية وإسهام كبير لخدمة الثقافة والفكر ، وقد اعتمدت بشكل واسع على مجموعة نادرة من المخطوطات بالإضافة إلى قراءات واسعة فى الكتب المطبوعة ، ومن هذه المراجع وتلك جمع المؤلف مادة غزيرة واختبرها أدق اختبار ، ونظمها أروع نظام مما يجعل هذا البحث خدمة عظيمة للفكر والمفكرين .

آرثر أربرى

الأستاذ بجامعة كبردج

كلية دار العلوم

مطلوب الرد :

بشأن موافقة الجامعة على طبع رسالة الدكتور احمد شلبي للدكتوراه على نفقتها .

يرجى عند الرد ذكر هذا الرقم ١٠٦٦

القاهرة في ٢١/٤/٥٢ (٢١ أبريل سنة ١٩٥٢)

مرفقات

جامعة فؤاد الأول

المكتبة العامة

٤١٧٨ — ١٩٥٢/٤/١٨

١٩٥٢/٤/١٨

حضرة الأستاذ الدكتور عميد كلية دار العلوم

أتشرف بأن أخبر حضرتكم أن حضرات أعضاء لجنة الترجمة والتأليف والنشر قد وافقوا على أن تطبع على نفقة الجامعة رسالة حضرة الدكتور احمد شلبي المدرس بالكلية التي حصل بها على الدكتوراه من جامعة كمبردج وأرجو التكرم بتكليف حضرته تقديم أصول الرسالة الى مطبعة الجامعة في أقرب فرصة .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،

المراقب العام

للمكتبات الجامعية

(توقيع)

حضرة الدكتور احمد جاب الله شلبي

يسرني أن أبلغ حضرتكم صورة مذكرة الى الكلية من الجامعة بشأن موافقة لجنة الترجمة والتأليف والنشر على طبع رسالتكم للدكتوراه على نفقة الجامعة ،

مع قبول خالص التحية والتقدير .

عميد الكلية

ا. ابراهيم اللبان

كرّمت جامعة القاهرة هذا الكتاب فقرّرت طبعه على نفقتها

تقدير واعتراف

أحس أنى مدين ديناً عظيما لجامعة القاهرة التى رشحتنى عضواً لإحدى بعثاتها ومدين كذلك للحكومة المصرية التى تفضلت فوافقت على هذا الترشيح ، وأتاحت لى أن أدرس بجامعات انجلترا بضع سنوات ، وأن أزور أقطاراً أخرى فى الشرق والغرب لهذه الأغراض العلمية ، فلهذه الجامعة شكرى وتقديرى ، ولمصر العزيزة حبى ووفائى .

ويطيب لى أن أسجل عميق شكرى لأستاذى البروفسور آرثر أربرى ، الذى اقترح هذا الموضوع وأشرف على إعداده ، والحق أنه كان لتوجيهات البروفسور أربرى ، واقتراحاته النافعة ، ونقده البنائى ، وقيادته الملهمة ، فضل كبير فى إنتاج هذه الرسالة .

وفى أثناء الرحلة العلمية التى قمت بها للبحث والدراسة ، إبان إعداد هذه الرسالة ، لاقيت كثيراً من الرعاية ، وموفوراً من العون ، من هيئات متعددة ، وأفراد كثيرين ، وكان لأبناء العروبة الأفاضل القدح المعلى فى هـذا الشأن ، فقد احتفوا بى ، ويسروا مهمتى ، فى دمشق الفيحاء ، وفى حلب ، وبيروت ، وبغداد ، والنجف ، وغيرها ، وكان لكثير من العلماء والمشرفين على دور الكتب فى انجلترا وهولندة وأسبانيا والقاهرة واستانبول فضل لاينسى ، فإلى هؤلاء جميعاً أزجى عميق شكرى وصادق تقديرى .

ديسمبر سنة ١٩٥١ — دكتور أحمد شلبى

FOREWORD

Islam has many chaims upon the admiration and gratitude of mankimd. Much has been written of the contribition made by the Muslim peoples to art, literature science, politics. None of these achievements would have been possible but for that devotion to learning and education which has characterised those peoples throughout their history; men and women who obeyed implicitly their Prophet's command, "Seek after Knowledge even if it be in china." To investigate and describe the educational systems established in Islam is therefore obviously a most important and interesting task.

In the present book, my friend and former pupil Dr. Ahmad Shalaby publishes the results of his investigation, which he undertook as candidate for the degree of Doctor of Philosophy in the University of Cambridge. Every reader will agree that this reseerch has been both profound, and highly successful. Many printed works, and a large number of unpublished manuscripts were consulted in the course of the study. In choosing and using these sources Dr. Shalaby has displayad the qualities so necessary to the researcher, patience, throughness, enthusiasm, discrimination a capacity te recognise and go to the heart of a problem, a gift of clear and orderly exposition The book is not only a substantial contribution to knowldge; it is also a pleasure to read, a volume to gratify the pride of every Muslim lover of knowledge.

It gives me great pleasure to congratulate Dr. Ahmad Shalaby on bringing his doctorate thesis to print, and to Commend what he has written to the serious attention of his readers,

A. J. ARBERRY

Pembroke College — Professor of Arabic and Islamic Studies
Cambridge. — in the University of Cambridge.

تصدير الكتاب

الترجمة العربية للأصل الإنجليزى السابق الذى كتبه الأستاذ
الدكتور أربر أربرى أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة كمبردج
والذى كان مشرف على الرسالة

للإسلام على الجنس البشرى مآثر تدعو إلى الإعجاب وتستدعى الشكران ، ولدينا مؤلفات عدة تصف ما أسهم به المسلمون فى ترقية الفنون والآداب والعلوم والسياسة ، ومن الواضح أن المسلمين ما كانوا يصلون إلى تحقيق هذه الأهداف العلمية الرفيعة لولا حرصهم البالغ على التعلم والتعليم ، ذلك الحرص الذى تميز به الشعب الإسلامى خلال تاريخه الطويل ، فهب رجاله ونساؤه مستجيبين لدعوة الرسول : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

ومن أجل هذا كانت دراسة المعاهد التعليمية ونظمها عملا عظيم الأهمية جليل الخطر ، وفى هذا الكتاب يقدم صديقى وتلميذى سابقاً الدكتور أحمد شلبى نتيجة أبحاثه ودراساته فى ذلك الموضوع ، وهى التى قدمها إلى جامعة كمبردج فحصل بها على درجة الدكتوراه . وسوف يتفق معى كل قارىء على أن هذه الدراسة قوية الدعائم وناجحة إلى أقصى حدود النجاح ، وقد اعتمد الباحث فى إخراجها على المصادر الأصلية المتعددة وبخاصة مجموعة كبيرة من المخطوطات التى تيسر له قراءتها فى أثناء رحلاته العلمية إلى دول أوربا وإلى دول الشرق الأوسط ، وأشهد أن الدكتور شلبى فى اختياره لهذه المصادر وفى دراسته لها وانتفاعه بها قد تجلت فيه مواهب البحاثة الدقيق ، من جلد ، وعمق ، وإحاطة ، وحماسة ، وامتياز ، ومقدرة على الوصول إلى قلب المشكلة ، وموهبة الوضوح ، وحسن

النظام ، وروعة العرض . وكل هذا جعل الكتاب يسد جانباً ضرورياً من الدراسات الإسلامية وهو ـ إلى جانب هذا ـ كتاب يحقق لهواة الثقافة من المسلمين مزيداً من الفخر والاعتزاز .

إنه ليسرني بالغ السرور أن أهنىء الدكتور أحمد شلبي على قيامه بطبع هذه الدراسة ونشرها ، كما يهمني أن أدعو القارىء للعناية البالغة بهذه الدراسة المثمرة .

أرثر أربري

أستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة كمبردج

كتاب

« تاريخ التربية الإسلامية »

أول دعامة

لموسوعة الحضارة الإسلامية

ارتبطتُ بدراسة الحضارة الإسلامية طيلة ربع قرن ، وبوجه التحديد منذ سنة ١٩٤٧ حين اخترتُ « تاريخ التربية الإسلامية » ليكون موضوع رسالتي للدكتوراه بجامعة كمبردج ، ومرت فى دراسة هذا الموضوع بصبر ومثابرة ، وكان واضحاً لى وللأستاذ المشرف المرحوم الدكتور أربر أربرى وللأساتذة والزملاء بقسم الدراسات الإسلامية بالجامعة أن موضوعى حلقة من دراسة ينبغى أن تتم عن الحضارة الإسلامية ، فلما أكملت دراستى عن تاريخ التربية الاسلامية رأيتنى أحمل العبء لأكمل الشوط ، ولأكتب عن الحضارة الإسلامية كلها ، وقد شجعنى المحيطون بى على هذا العمل ذاكرين أننى تعرفت على أهم مصادرها وأنا أدرس التربية ، بل جمعت بعض المادة العلمية التى تتصل بالفروع الأخرى للحضارة غير التربية ، وهذا ما سيجعل الموضوع أيسر لى من سواى .

وعشت فى الموضوع منذ ذلك الحين .

ثم أخذت أدرس التاريخ الإسلامى وأعلق على أحداثه ، وأبين ما استطاع المسلمون أن يقدموه للبشرية من فكر وحضارة فى الطب والفلسفة وعلوم الرياضة والعمران وغيرها ، وقد قادتنى هذه الدراسة كما قادتنى الدراسة السابقة إلى حقيقة وتخطيط يمكن القول إننى لم أُسبق إليه ، بل يمكن القول إننى به أصحح ماسبقنى

من اتجاهات ، فالذين كتبوا عن الحضارة الإسلامية كآدم متز وجورجى زيدان خلطوا فى دراستهم بين موضوعين لايجوز الخلط بينهما، هما رأى الإسلام فى شىء، وموقف المسلمين منه ، وكثيرا ما تحدثوا عن شىء عمله المسلمون على أنه تصرف إسلامى ، وعابوه على الإسلام ، والإسلام منه براء .

لهذا عزلتُ الحضارة الإسلامية عن حضارة المسلمين ، فتحدثت عن حضارة المسلمين مرتبطة بتاريخهم دولة دولة ، وخصصت موسوعة الحضارة الإسلامية لدراسة حضارة الإسلام ، وإن كان العرف جرى على أن يطلق على هذه وتلك « الحضارة الإسلامية » .

وإذا كانت حضارة المسلمين تختلف من مكان إلى مكان ، ومن زمن إلى زمن ، فإن حضارة الإسلام لا تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فرأى الإسلام فى السياسة ورأيه فى الاقتصاد والحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية لا يختلف مع مرور الزمن ومع تغير المكان ، وإن كانت ظروف الاجتهاد أو المصالح المرسلة قد تقضى بتطوير الحكم أو اقتراح حكم ، ولكن على أن يكون ذلك فى إطار الإسلام العام .

ولكتاب « تاريخ التربية الإسلامية » الفضل فى كتابة هذه الموسوعة لأنه كان نواة هذه الدراسة التى استنفدت ربع قرن من الزمان ، واحتاجت إلى كثير من الصبر والأناة ، لأن المصادر المباشرة فى الحضارة الإسلامية تكاد تكون معدومة ، وعلى الذى يمارس هذا العمل أن يتذرع بالصبر ليجمع أشتات الفكر من هنا وهناك كما أوضحنا ذلك فى مقدمات كل حلقة من حلقات هذه الموسوعة .

وكتاب « تاريخ التربية الإسلامية » يسد فراغا كبيرا فى المكتبة العربية والإسلامية ، فقد كان المثقفون المسلمون يعرفون الكثير عن التربية الإغريقية والإنجليزية . . . . ولا يعرفون شيئاً ذا بال عن التربية الإسلامية .

وإنى أحس بغبطة شاملة إذ تكتمل الأجزاء العشر لهذه الموسوعة ، ويسرنى أن أقدمها أطيب هدية لعشاق الفكر الإسلامى ودارسى ثقافته واتجاهاته .

وقد لاقى كتاب « تاريخ التربية الإسلامية » الذى أتشرف بتقديمه الآن عناية كبيرة من المثقفين فى شتى ربوع العالم ، فعدّه الباحثون فى التربية مرجعاً رئيسياً لم يسبق فى مجاله ، وتُرْجِم إلى عدة لغات .

والله أسأل أن يحقق النفع بهذه الموسوعة ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم .

دكتور أحمد شلبى

مقدمة الطبعة السادسة

فى تقديم هذه الطبعة أتقدم لله واهب النعم فى انحناءة شاكر، وتسبيحة ذاكر، فلقد حبانى — سبحانه — من تأييده وتوفيقه ما يسّر الصعب وذلّل الشاق، ثم حبّب إلى الناس عملى، فذاع وشاع كلُّ ما كتبتُ فى كل الربوع.

صحيح أننى تعلمت من أدب الإسلام أن أجوّد عملى، وألاّ أضن عليه بشىء من الجهد والفكر والمراجعة، وقد نفّذت ذلك بإصرار فى كل كتبى، ولكن عون الله كان أساس النجاح وباب التوفيق.

شكراً للسيد من عبده، ولا يملك العبد إلاّ شكر سيده، واعترافاً بأننى طالما استغلق علىّ أمر فدَقَقْتُ بابك أستلهم ومضة من علمك، فعرفت عقب ذلك ما لم أكن أعرف، واتضح لى ما كان غامضاً مضطرباً، فالخير منك، والشكر لك، ويدفعنا جودك الفسيح أن نرجو منك المزيد من العون لنقدم المزيد من الفكر، لعلنا ننير بالإسلام طريق البشرية، وننقذ بنى الإنسان من الانحراف والتيه.

واجعل اللهم هذا العمل خالصا لوجهك، وانفعنا به، إنك سميع مجيب.

المعادى فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٧٨

دكتور أحمد شلبى

مقدمة البحث
ودراسة عن مراجعه

تقدمت لدراسة « تاريخ التربية الإسلامية » بخطا بطيئة ولكنها ثابتة ، فقد كنت أدرك ما يحتاجه هذا الموضوع من تفكير وجهد وعمق ، وهو موضوع بكر لأنه لم يعالج من قبل على النسق الذى يُعرض به الآن ، وكل ما كتب عنه لا يعدو بضع مقالات قليلة وإشارات استطرادية من بعض المؤلفين ، ثم إن ما كتب عنه لم يعتمد على المخطوطات والمراجع التى أتيح لى أن أعتمد عليها عند كتابتى لهذه الرسالة.

ودراسة تاريخ التربية — كدراسة غيره من موضوعات الحضارة — تحتاج إلى صبر ودأب ومثابرة ، ويقول Paul Monroe فى مقدمة كتابه :

" The Educational Renaissance of the Sixteenth century "
(النهضة التعليمية فى القرن السادس عشر) ما ترجمته : « إنه لمن الشاق العسير أن يحاول الإنسان أن يحصل على معلومات دقيقة فيما يختص بالنشاط التعليمى فى العهود الماضية ، وخاصة فيما يتعلق بتفاصيل عن الحياة المدرسية » وقد لمست أن ما قرره Monroe عن صعوبة الحصول على هذه المادة فيما يتعلق بالتعليم فى أوروبا ، ينطبق تمام الانطباق على النظم التعليمية عند المسلمين ، ولهذا احتاجت هذه الرسالة إلى جد متصل ، وكفاح طويل فى سبيل إتمامها ، وأذكر أننى طالما قرأت كتباً ضخمة بعضها يقع فى عدة أجزاء وكنت آمل أن أجد فيها ما يفيدنى فى هذا الموضوع ، ولكننى كنت أخرج منها بمحصول ضئيل ، أو أخرج بلا شىء . ويرجع السبب فى ذلك ، إلى أن المؤرخين المسلمين ركّزوا جهدهم فى تسجيل

النشاط السياسي والعسكري للخلفاء والملوك والعظماء ، ولم يهتموا اهتماماً يذكر بتسجيل الإصلاحات التعليمية . ومن ذلك مثلا أن هؤلاء المؤرخين تحدثوا فى سطور قليلة جداً عن مدارس نظام الملك ذات الشهرة الواسعة ولكنهم تحدثوا بإفاضة عن إصلاحاته الاقتصادية وانتصاراته العسكرية . ومما يثير الدهشة أكثر من هذا ، أن كتاب « المحاسن اليوسفية » الذى ألفه عن صلاح الدين قاضيه ابن شداد ، قد خلا تماماً من أية إشارة للنهضة التعليمية التى رعاها مؤسس أسرة الأيوبيين . وبينما يشمل الكتاب تفاصيل دقيقة عن مولد صلاح الدين ، وحياته ، وأخلاقه ، وحروبه تراه لا يذكر شيئاً قط عن مدارسه ، ومنهاجه التعليمى . بل إن الرسائل التى كتبها المسلمون عن التعليم من أمثال ابن جماعة وابن سحنون والزرنوجى والعاملى لم تعد تشفى غلة الباحث فى العصر الحاضر ، لأنها مقتضبة ، ولأن بعضها تكرار للبعض الآخر ، وتميل غالباً إلى الحديث عن أخلاق الطلاب والمدرسين وواجباتهم ، ثم تذكر من أسباب قوة الحفظ ، وأسباب عدم النسيان ، وما ماثلها ، ألواناً إن كانت قد قبلت فى الزمن الماضى ، فهى غير مقبولة فى العصر الحديث ، فإن الباحث الآن لا يميل إلى أن يعتقد أن قراءة تسابيح معينه تشحذ الذهن ، وأن قراءة ألواح القبور تورث النسيان . وغير ذلك مما ازدحمت به هذه الملخصات . فهذه الرسائل مع فائدتها لا تمد الباحث الحديث بالمادة المتنوعة التى يحتاج إليها لدراسة موضوع كهذا .

وهنالك حقيقة أخرى ذات أهمية كبرى ، هى أن كل باب من أبواب هذا الكتاب كان يحتاج إلى مصادر غير تلك التى تلزم عند كتابة باب آخر منه ، بل إن كل فصل من فصول الباب الواحد كان يحتاج إلى مصادر غير مصادر فصل آخر فى نفس الباب ، ففى الباب الأول مثلا لكل من الكتّاب ، ومنازل العلماء ، والصالونات الأدبية ، والمساجد ، والمدارس ، مراجع تكاد تكون خاصة .

وعلى ذلك فقد احتاج هذا الكتاب إلى عدد كبير من الكتب والمخطوطات والوثائق لتمد الموضوع بالمادة التى تشرح جوانبه وتكشف عن غموضه ؛ ومن أجل هذا قمت برحلة طويلة زرت فيها المكتبة الوطنية بباريس ومكتبة ليدن بهولندة ، ومكتبة الأسكوريال بأسبانيا ثم عرجت على الشرق الأوسط ، فزرت مكتبات عدة بمصر ، وسوريا ، والعراق ، ولبنان ، وفلسطين ، وتركيا ، كما استطعت فى هذه الرحلات أن أزور من أمكنة التعليم بهذه البلاد ما انحدر من العصور الوسطى التى ندرس تاريخ التربية فيها ، وقد أفادتنى هذه الزيارات فائدة عظيمة القيمة جليلة الشأن .

والمصادر التى أمدّتنى بالمادة لهذا الموضوع يمكن تقسيمها أربعة أقسام :

١ — دراسة الأمكنة و (اللوحات) التاريخية .

٢ — الرسائل التعليمية التى سبقت الإشارة إليها .

٣ — مؤلفات عن الثقافة العامة .

٤ — كتب التاريخ .

١ — أما دراسة الأمكنة واللوحات التاريخية فقد كانت ذات قيمة عظمى فى هذا الموضوع ، وبخاصة تلك البقاع وهذه اللوحات التى شاهدتها فى دمشق ؛ فلقد أتيح لى هناك أن أدرس عدة مدارس تنحدر من العصور الوسطى وبخاصة مدرسة نور الدين التى شيدت فى القرن السادس الهجرى ، وأتاح لى ذلك أن أضع يدى على نظم تخطيط المدارس ، وأبان لى أن الداخلية مثلا كانت من الملحقات الضرورية لكل مدرسة ، كما وضّح موقع مطبخ المدرسة ، وحجرة الطعام فيها ، وغير ذلك مما يظهر فيما ذكرته مفصلا فى مكانه ، وقد قرأت عدة لوحات أثبتُّ صور بعضها فى هذه الرسالة ، ومنها حصلت على معلومات كثيرة

القيمة فيما يختص بالأوقاف على التعليم وبحالة المدرسين المالية ، كما صححت بما هو مكتوب على بعضها ما وقع فيه بعض المؤرخين من هفوات نشأت — فيما يبدو — عن أنهم كتبوا عن هذه المدارس دون أن يزوروها .

٢ — الرسائل التعليمية : وهى مجموعة من الرسائل كتبها كبار الباحثين فى التربية والنظم التعليمية مثل :

الإمام الغزالى	أيها الولد
ابن جماعة	تذكرة السامع والمتكلم
ابن شداد	الأعلاق الخطيرة (مخطوط بدمشق)
النعيمى	الدارس فى تاريخ المدارس
ابن عبدون	رسالة ابن عبدون نشرت فى (Journal Asiatique 1934)
الجاحظ	رسالة المعلمين (مخطوط بالموصل)
القابسى	المفصلة
القطموى	ترغيب الناس إلى العلم (مخطوط باستانبول)
ابن سحنون	آداب المعلمين
؟	منهاج المتعلم (مخطوط بحلب : مؤلفه غير معروف)
أبو حنيفة	نصيحة لأحد تلاميذه (مخطوط باستانبول)
الوليد بن بكر	الوجازة فى أحكام الاجازة (مخطوط ببغداد)
الزرنوجى	تعليم المتعلم
الشهيد	النية (مخطوط بالنجف)
طاش كبرى زادة	رسالة فى علم الأدب (مخطوط ببغداد)
العاملى	أدب المفيد والمستفيد .

ولا نزاع أن المعلومات التى استقيتها من هذه الرسائل كانت ثمينة جداً ؛ فابن جماعة مثلا شرح لى بإفاضة عدة مسائل وبخاصة وصف الحلقة ، وآداب الطلاب فى الأقسام الداخلية ، وأعمار التلاميذ ثم نظُمَ استعارة الكتب من المكتبات ، وأكثر هذه المسائل لم يعالجها — فيما أعرف — غير ابن جماعة . وأما منهاج المتعلم — وهو هذه المخطوطة الثمينة التى كان لى حظ العثور عليها بين مجموعة كبيرة من المخطوطات التى كانت مكدسة فى صندوق مقفل بحلب — فيبدو لى أنها فريدة فيما تعرضت له من اختبار ذكاء الطلاب، وتوزيعهم فى فصول متعددة بحسب مواهبهم ودرجاتهم من الذكاء والفطنة . وقد تفضل الأستاذ عباس العزّاوى المحامى ببغداد بإطلاعى على مجموعة من المخطوطات من بينها « الوجازة فى صحة القول بأحكام الإجازة » وهى مصدر هام فيما يختص بالشهادات الدراسية التى يمنحها المدرسون للتلاميذ . وكانت رسالة المعلمين للجاحظ — التى كان يُعتَقَد أنها فُقِدت — مفيدة للغاية وبخاصة فيما يتعلق بحالة المدرسين الاجتماعية ، كما كان أدب المعلمين لابن سحنون الذى نسبه ابن خلدون سهواً لمحمد بن زيد المصدر الهام الذى وضح أن البنت كانت تتعلم فى مكان خاص لا مع الولد كما حكاه بعض الكتاب نتيجة لغفلة فى فهم النصوص . واقتبستُ معلومات هامة نافعة عن مدارس دمشق من النعيمى . وفى الحقيقة أن جميع الرسائل التعليمية التى ذكرت هنا أسهمت بشىء مفيد فى هذا البحث .

٣ — أما ذلك الانتاج الذى أسميناه « مؤلفات عن الثقافة العامة » فقد كان ذا فائدة عظمى استمدّت منه هذه الرسالة الشىء الكثير . ومن المعروف أن اللغة العربية تزخر بمثل هذا النوع من الانتاج الذى يشمل معلومات وافرة عن نواح متعددة من الحضارة الإسلامية : سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وثقافية ، فإذا

ما درس الباحث فى التعليم هـذا النوع بشىء من الأناة والدقة فإنه يخرج منه بمحصول وفير . ويمكن تقسيم هذه المؤلفات إلى المجموعات الآتية :

(أ) كتب الرحالة والجغرافيين من أمثال :

كتاب البلدان	لليعقوبى
البلدان	لابن الفقيه
أحسن التقاسيم	للمقدسى
المسالك والممالك	لابن حوقل
الرحلة	لابن جبير
معجم البلدان	لياقوت
تحفة النظار	لابن بطوطة

وقد حفلت هذه الكتب بالمفيد النافع ، ذلك لأن هؤلاء الرحالة قاموا بهذه الرحلات الطويلة عَبْرَ العالم الإسلامى ، وسجلوا عن كل مكان ما رأوا فيه ، وما سمعوا عنه من الثقات ، ومن ذلك وصف مسجد دمشق وذكر تكاليف تشييده ، وقد أخذت ذلك من كتاب « البلدان » . كما وجدت فى أحسن التقاسيم للمقدسى مادة نافعة عن ملابس المدرسين . ووجدت فى رحلة ابن جبير مادة غزيرة عن مجموعة من النقاط كالأوقاف على التعليم وكالمكتبات ووصف الحلقات الدراسية وغيرها .

(ب) كتب التراجم : يقول Von Grunebaum فى مقال نشره فى The Journal of General Education [1] « إن مجموعة كتب التراجم التى أنتجها المسلمون لشىء يدعو إلى الدهشة والإعجاب ، لكثرتها ، ودقتها ،

---

(١) العدد الرابع ص ٢٥

وما جمعته من مادة رائعة ، وإن علماء الغرب فى العصور الوسطى ليس لديهم ما يقرن بنتاج معاصريهم من العرب فى هذا الميدان » وفى الحقيقة أن مجموعة كتب التراجم لتمثل جانباً غنياً فى الأدب العربى ، وهى بجانب كثرتها منظمة تنظيماً دقيقاً ، فللأطباء تراجمهم الحافلة ، وللأدباء والأعيان معاجمهم ، وللشعراء والعلماء والفقهاء طبقاتهم وسيرهم ، وهناك بجانب ـ هذا التوزيع العلمى ـ توزيع زمنى مثل الدور الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، والضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، والكواكب السائرة فى تراجم علماء المائة العاشرة ، وخلاصة الأثر فى تراجم علماء القرن الحادى عشر ، وسلك الدرر فى ذكر أعيان القرن الثانى عشر . وهكذا .

ومن تراجم الأشخاص الذين عاشوا فى العهد الذى قمت بدراسته كنت أستخلص مادة ذات قيمة كبيرة ابثت فى أعطاف هذا البحث ، وعلى هذا فالقارىء سيرى فى أغلب الفصول إشارة إلى المراجع الآتية :

الأغانى	لأبى الفرج الأصفهانى
الفهرست	لابن النديم
طبقات الأدباء	للابيارى
تاريخ بغداد	للخطيب البغدادى
معجم الأدباء	لياقوت
وفيات الأعيان	لابن خلكان
فوات الوفيات	لابن شاكر الكتبى
الوافى	للصفدى (مخطوط بدار الكتب المصرية)
أخبار الحكماء	للقفطى
عيون الأنباء	لابن أبى أصيبعة
طبقات الشافعية	للسبكى
نفح الطيب	للمقرى

مناقب الشافعى وأصحابه	لابن قاضى شهبة	(مخطوط بدمشق)
أخبار النساء	للسيوطى	(مخطوط بدمشق)

فالأغانى مثلا كان مصدراً أساسياً للفصل الذى عقد للحديث عن الصالونات الأدبية ، وكذلك عن تعليم البنت ، وفى الموضوع الأخير كانت مخطوطة السيوطى سالفة الذكر ذات فائدة كبرى ، أما مؤلفات ياقوت ، وابن خلكان ، والقفطى ، وابن أبى أصيبعة ، فقد كانت مصادر هامة لنقط متعددة : كالتدريس بالمساجد ، وملابس المدرسين ، وحالتهم المالية والاجتماعية ، وعدد تلاميذ الفصل الدراسى ، والرحلات للتعليم ، ومجهود التلاميذ لتحصيل العلم ، وغيرها .

جـ — كتب الحسبة : فى كتب الحسبة دائماً فصل يعقد للحديث عن «الحسبة على المدرسين» . ومن ذلك الفصل حصلت على مادة توضح مكان تعليم الصبيان القرآن ، ومسألة العقوبات التى كان ينزلها المدرسون بالتلاميذ . وعلى هذا فقد قرأت من كتب الحسبة :

نهاية الرتبة	للشيزرى
معالم القربة	للقرشى
الحسبة	لعبد الرازق الحصان

د — كتب أخرى يتعذر وضعها تحت عنوان واحد ؛ مثل :

العقد الفريد	ابن عبد ربه	
البيان والتبيين	الجاحظ	
التاج فى أخلاق الملوك	»	
الامتناع والمؤانسة	أبو حيان التوحيدى	
المقابسات	»	»
الصداقة والصديق	»	»

القانون	لابن سينا	
جامع بيان العلم	لابن عبد البر	
رسوم دار الخلافة	للصابى	(مخطوط ببغداد)
أدب النديم	لكشاجم	
الأحياء	للغزالى	
المدخل	للعبدرى	
مفيد النعم	للسبكى	
المقدمة	لابن خلدون	
الخطط	للمقريزى	
حسن المحاضرة	للسيوطى	
صبح الأعشى	للقلقشندى	

ومن هذه الكتب حفلت الرسالة بمعلومات وفيرة ، فلقد اعتمدت إلى حد كبير على كتب أبى حيان التوحيدى عند كتابة الفصل الخاص بالدراسة فى منازل العلماء، ومن كتاب الأحياء وكتاب أيها الولد أخذت رأى الغزالى فيما يتعلق بتربية الأطفال، أما كتب الجاحظ فهى دوائر معارف ، حافلة بألوان من العلم والمعرفة فى نواح متعددة ، ومنها استقيت معلومات كثيرة عن المنهاج العلمى الذى وضع لأولاد الملوك ، وعن حالة المدرسين الاجتماعية ، وقيمة الكتب الأدبية ، وعن الآداب التى يجب أن يتحلى بها أولئك الذين يتاح لهم أن يحضروا الصالونات الأدبية . وفى هذه النقطة الأخيرة أسهم بنصيب وافر كل من كشاجم فى كتابه « أدب النديم » والصابى فى « رسوم دار الخلافة » . أما الخطط وحسن المحاضرة فكانا مع ابن دقماق مراجع مهمة فى كل ما يتعلق بمدارس مصر .

٤ — كتب التاريخ : فى العرض التاريخى الذى استدعته هذه الرسالة ،

انتفعت انتفاعاً كبيراً بكتب التاريخ ، سواء منها العام وهو ما دوّن تاريخ العالم الإسلامى كله ، كالطبرى ، وابن الأثير ، والعبر ، أو كتب التاريخ المحلية التى تحدث كل منها عن جزء معين من العالم الإسلامى ، كتاريخ آل سلجوق ، وتاريخ الأمم المنقطعة ، (مخطوط بالمتحف البريطانى) والروضتين ، ومفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، (مخطوط بمكتبة جامعة كمبردج) واتعاظ الحنفا ، وغيرها ، وينبغى أن أخص الروضتين لأبى شامة بكلمة ، إذ سبق هذا الكتاب غيره من الكتب التاريخية فيما قدمه لهذه الرسالة من عون وإفادة ، وبخاصة فى توضيح النهضة التعليمية التى قام بها نور الدين زنكى فى مملكته قصيرة العمر .

وقد أسهمت الكتب الحديثة بنصيب يذكر فى انتاج هذا الكتاب فقد كان كتاب Lammens عن :

Etudes sur le Régne du Calife Omaiyade Moawia Ier

مرشداً هاماً فى الفصل الذى عقدناه هنا لدراسة التعليم الأولى لأولاد العظماء . ومن الفصول الأربعة التى عقدها Adam Mez فى كتابه «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى» عن العلماء ، وعلوم الدين ، والمذاهب الفقهية ، والقضاة ، اقتبست مادة مفيدة جداً عن المكتبات ، وملابس المدرسين ، والتعليم الأولى لأولاد الخلفاء والعظماء بقصور أهليهم . وكانت كتب Lane-Poole عن : Saladin Cairo, Egypt in the Middle Ages, ذات فائدة عظمى ، وبخاصة فى الكلام عن مجانية التعليم وعن الداخلية فى التعليم بمصر ، كما كان كتابا الأستاذ Gibb : Arabic Literature and Muhammadanism مفيدين كل الفائدة فى عدة نقط وبخاصة فى الصالونات الأدبية . وهناك كتب أخرى حديثة غير هذه يجدر بنا ذكرها لما لها من عظيم الأثر فى هذا النتاج وهى :

Richard Coke	Baghdad : The City of Peace.
Palmer	Harun al Rashid.
Nicholson	A Literary History of the Arabs.
Browne	A Literary History of Persia
Khuda Bukhsh	Islamic Civilization.
Amir Ali	A Short Histoy of the Saracens.
Barthold	Muslim Culture.
Stern	Marriage in Early Islam.
Hitti	The History of the Arabs.

كوركيس عواد	خزائن الكتب فى العراق
أحمد أمين	فجر الإسلام
أحمد أمين	ضحى الإسلام

كما أن هناك كثيراً من المجلات العلمية الدورية الحافلة بالأبحاث التى أفادتنى فائدة جديرة بالذكر ، ومن هذه المجلات :

Islamic Culture.
Journal of Education.
The Nineteenth Century.

وسيجد القارىء إشارة لهذه المجلات ولغيرها هنا وهناك فى أعطاف هذا الكتاب .

ويجدر بى أن أقرر أن طبيعة العمل فى بعض عناصر هذا الموضوع كانت تحتاج إلى أن تعرض عرضا تاريخياً متطوراً ، كما كانت هناك عناصر أخرى هى بالمبادئ أشبه ، فلا تحتاج إلى عرض تاريخى وإنما تحتاج إلى أن تُقرَّر ويقام الدليل عليها .

ومن النوع الأول ما كان يحتاج إلى عرض منذ نشأته إلى نهاية الفترة التاريخية التى نتحدث عنها ، كالمساجد وكحالة المدرسين المالية ، ومنها ما كنت

أتتبعه فى تطوره التاريخى حتى يستقر فى فترة ما فأتوقف عن مواصلة البحث فيه، كملابس المدرسين التى تطورت من عهد إلى آخر حتى وضع الإمام أبو يوسف نظاماً لها ظل قدوة لمن جاء بعده، وكالشهادات الدراسية.

ومن النوع الثانى العقوبات والجوائز والمكافآت ونقابة المدرسين فهذه وأمثالها بالمبادىء أشبه فلا تحتاج لعرض تاريخى وكل ما يُحتاج إليه فى دراستها أن تُقرَّر وأن يورد من النصوص ما يدل على أنها وجدت فى معاهد التعليم.

* * *

وحينما كنت أسير فى معالجة أى موضوع سيراً تاريخياً كنت أجد لزاماً علىَّ عندما أصل إلى القرن الرابع الهجرى ـ أن أهتم بمصر اهتماماً خاصاً، فقد كانت مصر منذ ذلك العهد مركزاً ثقافياً عظيم الأهمية فى العالم الإسلامى. ومن ظواهر الاهتمام بمصر الفصل الأخير الذى وضع للحديث عن التعليم فى العهد الفاطمى، ثم من ظواهر هذا الاهتمام أيضاً العناية بالدولة الأيوبية التى قامت على أنقاض الفاطميين وورثت حضارتهم ثم تسلمت قيادة النهضة التى ابتدأها نظام الملك وورثها نور الدين عن السلاجقة وورثها عنه صلاح الدين، فاجتمعت فى مصر فى العهد الأيوبى حضارة الخلافة العباسية وحضارة الخلافة الفاطمية وتطلعت عيون المسلمين إلى مصر، فنجحت فى أداء رسالتها نجاحاً عظيما، وبسقوط الأيوبيين فى مصر سنة ٦٤٨ وقفت هذه الدراسة وإن كان تيار الحياة العلمية ظل يسير فى العهود التالية فى المجرى الذى انتظم له فى عهد الأيوبيين.

وإنى أرجو أن يملأ هذا الكتاب فراغا فى المكتبة الإسلامية، وأن يقدم لعشاق التراث الإسلامى زاداً جديراً بما بذل فى إعداده من جهد وصبر، والله أسأل أن يحقق به النفع، إنه سميع مجيب.

كمبردج فى أبريل سنة ١٩٥١

مقدمة الترجمة العربية

قابلت كثيراً من العلماء والمشتغلين بالدراسات الإسلامية فى أثناء زياراتى للدول العربية وبعض أقطار أوروبا ، وكان جلّهم يشجعوننى ويبذلون لى كثيراً من المساعدات والتيسير ، ويُبدون أملهم أن يظهر للوجود موضوع تاريخ التربية الإسلامية فى أقرب فرصة .

وكان كل يوم يمر إبان دراستى لذلك الموضوع يزيدنى تعلقاً به وحباً له ، فما كدت أنتهى منه حتى كان قد أصبح قطعة من نفسى أو كانت نفسى قطعة منه ، ولقد سررت كثيراً بالنتائج التى حصلت عليها ، والتى أوضحت مدى الرقى الذى وصلت إليه التربية الإسلامية فى تلك العصور .

وكان أستاذى Professor A. J. Arberry يبدى رغبة شديدة أن ينشر هذا البحث سريعاً ، وقد تفضل فكتب تقريره وتوصيته بطبعه ونشره ، وهى توصية رقيقة ، تنم عن خلقه الكريم ، وعنايته بتلاميذه ، فى أثناء عملهم معه ، وبعد أن يستقلوا عنه ، وقد أوردنا فى مطلع هذا الكتاب صورة زنكوغرافية لهذه التوصية .

ولما حصلت على الدكتوراه ، أدركت أن عملى لم ينته بعد فبدأت أفكر فى نشر هذا البحث باللغة الإنجليزية وباللغة العربية وبغيرهما إن أمكن ، وسرعان ما تحقق لى هذا الأمل فنشرته باللغة الإنجليزية ليتمكن المستشرقون والمسلمون الذين يعرفون الإنجليزية من الاطلاع عليه ، بل سرعان ما ترجم للغة الأوردية واللغة الإندونيسية وحظى بحفاوة بالغة من قرائه بهاتين اللغتين .

وبقى علىّ أن أخرجه باللغة العربية لأقدمه للناطقين بالضاد ، فعكفت على ترجمته ، وكان من الممكن أن يكون عملى سهلاً يسيراً لو قمت بالترجمة من الأصل

الإنجليزى إلى اللغة العربية ، ولكنى عدت إلى بطاقاتى وأوراقى وإلى الكتب نفسها التى اقتبست منها ، لأحصل على المادة الأصلية من المراجع الأساسية ، ولأنقل للقارىء لغة المؤلفين العرب من مراجعها المختلفة كلما استشهدت بها .

وكان على ، وأنا أكتب رسالتى باللغة الإنجليزية ، أن أوجز ، إذ يحتم القانون بجامعة كمبردج ألا تتجاوز رسالة الدكتوراه فى التاريخ أو الأدب ستين ألف كلمة ، ولكننى وأنا بصدد ترجمتها للغة العربية كنت فى حل من ذلك الشرط ، ولهذا فقد فصّلت فى الترجمة العربية ما أجملت أحياناً فى الأصل الإنجليزى ، وشرحت هنا ما أوجزت هناك .

وفى الترجمة العربية — بجانب ذلك — معلومات جديدة استطعت أن أحصل عليها من متابعة الدراسات الحديثة ومن استمرار القراءة فى الكتب الأصلية ، وقد كان حظ الترجمة العربية فى ذلك أوفر من الأصل الإنجليزى إذ كانت الفترة بين نشر الأصل الإنجليزى ونشر الترجمة العربية خصبة فى هذا الشأن ، وقد استدعى ذلك تغيير بعض الفصول تغييراً تاماً كموضوع نقابة المدرسين كما استدعى إحداث كثير من الحذف والإضافة على كثير من الفصول الأخرى .

وختمته بفهارس شاملة تعين القارىء على تتبع ما قد يحتاج إليه ، وإنى إذ أقدم ثمرة جهدى المتواضع أرجو أن أكون قد وُفِّقت فى أن أقدم للمسلمين والمشتغلين بالدراسات الإسلامية ولأبناء اللغة العربية شيئاً فيه جدوى وغناء .

المعادى فى الثالث من يوليو سنة ١٩٥٣

الباب الأول

أمكنة التعليم

يعتبر عام ٤٥٩ ﻫ حداً فاصلا فيما يختص بأمكنة التعليم عند المسلمين ؛ ففي هذا العام افتتحت في بغداد أول مدرسة من مجموعة المدارس الكبيرة المنظمة التي أنشأها الوزير السلجوقي العظيم نظام الملك ، وقد انتشرت هذه المدارس في العالم الاسلامي حتى شملت البلدان والقرى الصغيرة ، بالإضافة إلى المدارس الكبرى في عواصم الأقاليم ، ثم اقتدى بنظام الملك كثير من الملوك والعظماء في ذلك المضمار على ما سيأتي تفصيله .

وقبل انتشار المدارس كانت حلقات التعليم لا تعقد في أمكنة من طراز واحد ، بل تعقد في أمكنة مختلفة المشارب ، كالمساجد ، ومنازل العلماء ، ودكاكين بيع الكتب ، وغيرها ، فلما انتشرت المدارس وهيئت فيها فرص أوسع للمدرسين والطلاب ، ووجدت فيها نظم مهذبة واستعدادات كاملة ، جذبت لها جلة الأساتذة والجمهرة العظمى من الطلاب . وبذلك قلّ الإقبال على الأنواع الأخرى التي كانت عامرة من قبل وإن ظلت محتفظة بطابعها ، واستمرت تؤدي عملها التقليدي مع قلتها وقلة المقبلين عليها .

وعلى هذا ففي دراستنا لأمكنة التعليم سندرس نوعين :

١ — أمكنة التعليم قبل انتشار المدارس.

٢ — المدارس .

ولن نقف بطبيعة الحال في دراستنا لأمكنة التعليم قبل انتشار المدارس عند سنة ٤٥٩ ، بل سنتخطى ذلك ، لأن هذه الأمكنة — كما قلنا آنفاً — استمرت تؤدي مهمتها بعد إنشاء المدارس وانتشارها .

أولا ـ أمكنة التعلم قبل انتشار المدارس :

١ ـ الكتاب لتعليم القراءة والكتابة

وجد هذا النوع من الكتاتيب قبل ظهور الإسلام ولو أنه كان قليل الانتشار . ويقال إن أول من تعلم الكتابة العربية من أهل مكة هو سفيان بن أمية ابن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وقد تعلماها من بشر ابن عبد الملك الذى تعلمها من الحيرة[١] . ويروى ابن خلدون[٢] « أن الذى تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية وأخذها من أسلم ابن سدرة » والخط من الصنائع الحضرية كما يقول ابن خلدون[٣] ، وقد تعلمه هؤلاء المكيون من البلاد المتحضرة التى كانوا يرحلون إليها فى تجارتهم ، ولكن أول شخص اتخذ تعليم الخط مهنة له فى جزيرة العرب هو رجل من وادى القرى أقام بها وعلم الخط قوماً من أهلها[٤] .

وبهذا بدأت القراءة والكتابة تنتشر فى جزيرة العرب ولكن انتشارها كان بطيئاً إذ أنه لما جاء الإسلام كان عدد القرشيين الذين يستطيعون القراءة والكتابة سبعة عشر رجلا فقط[٥] ولكن الدين الجديد والنظام السياسى الذى نشأ فى أحضانه شجعا الناس على تعلم القراءة والكتابة ، إذ أصبحتا ضروريتين وبخاصة لذوى الطموح وكبار الآمال الذين كانوا يطمعون أن يشغلوا المناصب للعهد الجديد ، ثم كانت القراءة والكتابة ضروريتين كذلك للذين رغبوا فى أن يكونوا رواة لأحاديث الرسول ، إذ اعتبر المكفوفون من المحدثين غير ثقات ،

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٧ (٢) المقدمة ص ٢٩٣
(٣) المصدر نفسه ص ٣٩٤ (٤) البلاذرى ص ٤٥٧ (٥) المصدر نفسه

لعدم استطاعتهم القراءة والكتابة اللتين تعينان على الضبط والدقة[١] ولما تقدم العهد بالإسلام وترجمت الدواوين إلى اللغة العربية فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، ظهرت وظائف كثيرة ولكن لهؤلاء الذين يجيدون القراءة والكتابة . ثم ظهر بعد ذلك الجاحظ وهو فى القمة من الأدباء الكبار الذين رفعوا شأن القراءة والكتابة وأعلوا قدرها . استمع إليه وهو يقول فى رسالة المعلمين[٢] « ولولا الكتاب (الكتابة) لاختلت أخبار الماضين وانقطعت آثار الغائبين ، وإنما اللسان للشاهد لك ، والقلم للغائب عنك ، والماضى قبلك ، والغابر بعدك . فصار نفعه أعم والدواوين إليه أفقر ، والملك المقيم بالواسطة لا يدرك مصالح أطرافه ، وسد ثغوره ، وتقويم سكان مملكته إلا بالكتاب ، ولولا الكتاب لما تم تدبير ولا استقامت الأمور ، وقد رأينا عمود صلاح الدين والدنيا إنما يعتدل فى نصابه ويقوم على أساسه بالكتاب والحساب » .

كل هذا جعل الناس يتجهون نحو تعلم القراءة والكتابة ، وقد بدأ ذلك منذ مطلع الإسلام وكلما تقدم بهم الزمن جد دافع جديد يحسن لهم إجادة هذا الفن بل الإبداع فيه .

ولما كان عدد المسلمين الذين يعرفون القراءة والكتابة قليلا فى صدر الإسلام فقد استخدمهم الرسول كلهم أو جلهم للكتابة بين يديه[٣] ، ومن ثم اضطلع الذميون بمهمة تعليم القراءة والكتابة للراغبين فى تعلمها . وفى غزوة بدر وقع كثير من أهل مكة فى الأسر وقد جعل الرسول للقارئين منهم أن يفتدوا أنفسهم بتعليم القراءة والكتابة عدداً من أبناء المسلمين[٤] ومن أجل هذا أصبح

---

(١) النووى : تهذيب الأسماء ص ٧٣ (٢) مخطوط ورقة ٨ ب

(٣) انظر البلاذرى ١٤٧ ، ٤٥٩ (٤) الكامل للمبرد طبعة Weight ص ١٧١

من الشائع المتعارف عليه أن يقوم غير المسلمين بمهنة تعليم القراءة والكتابة[١] .

وكان هذا النوع من التعليم يجرى فى منازل المعلمين وربما خصص هؤلاء حجرة فى بيوتهم لاستقبال الطلاب ، وقد حافظ الكتّاب من هذا النوع فى الكثير الغالب على استقلاله التام عن الكُتاب الآخر الذى سنتحدث عنه فيما بعد والذى كان يجرى به تعليم القرآن الكريم ومبادىء الدين الإسلامى . وكثير من الباحثين لم يفرقوا بين نوعى الكتاب هذين وقرروا أنه كان هنالك نوع واحد من الكتاتيب تُعلم فيه القراءة والكتابة ويُحفظ فيه القرآن وتدرس به علوم الدين . ومن هؤلاء الباحثين الدكتور فيليب حتى الذى يقول[٢] :

« وكان منهاج المدرسة الأولية (الكتّاب) يتركز فى القرآن الذى كان يقوم مقام كتاب المطالعة ليتعلم التلاميذ القراءة ، ثم يختارون منه ما يكتبون ليتعلموا الكتابة ، ومع القراءة والكتابة كان التلاميذ يتعلمون قواعد اللغة العربية وقصص الأنبياء وبخاصة أحاديث الرسول محمد » .

وقد قرر الأستاذ أحمد أمين هذه النتيجة أيضاً إذ يقول[٣] « وبعض المكاتب كان لتعليم مبادىء القراءة والكتابة والقرآن ، وبعضها كان يعلم فيه أيضاً اللغة وما إليها » .

ولكن النصوص التى حصلت عليها تجعلنى أعتقد أن هذا النوع من الكتاتيب حافظ غالباً على استقلاله عن الكتاب الآخر وبخاصة فى بلاد المشرق ، وأنا أسوق على هذا من الأدلة ما يدعم هذا الرأى . وهذه الأدلة كما سيرى

---

(١) انظر البلاذرى فى المواضع السابقة وانظر كذلك : Lammens p. 361

(٢) History of the Arabs, P. 408

(٣) ضحى الإسلام ٢ : ٥٠

القارىء متسلسلة فى عصور مختلفة مما يدل على أن فكرة الفصل بين الكتابين ظلت موجودة على مر السنين :

١ — وأول هذه الأدلة يتعلق بالعصر الإسلامى الأول وقد سبقت الإشارة إليه وهو أن تعلم القراءة والكتابة كان من أعمال الذميين وأسرى بدر وليس لهؤلاء بطبيعة الحال أية صلة بالقرآن الكريم ولا بالدين الإسلامى ، وقد تلت هذه الفترة حقبة أخرى كان المتعارف عليه فيها أن هذا العمل هو من أعمال الذميين ، أما من تعلم القراءة والكتابة من المسلمين فقد كان لا يجلس مجلس معلم القراءة والكتابة ، إذ كانت مهام أخطر تنتظره على ما سبق إيراده .

٢ — وأكثر صراحة من هذا ما يسجله العالم الأندلسى أبو بكر بن العربى (٥٤٢ هـ) فى ذلك الموضوع حيث يقول « وللقوم فى التعليم سيرة بديعة ، وهى أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه إلى المكتب فيتعلم الخط والحساب والعربية فإذا حذقه كله أوحذق منه ما قدّر له، خرج إلى المقرىء فلقنه كتاب الله فحفظ منه كل يوم ربع حزب أو نصفه أو حزبا[1] .

٣ — ثم يجىء ما شاهده الرحالة العظيم ابن جبير (٦١٤ هـ) وسجله فى الرحلة[2] ونصه « وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين ، ويعلمون الخط فى الأشعار وغيرها تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو ، وقد يكون فى أكثر البلاد الملقّن على حدة ، والمكتّب على حدة . فينفصل من التلقين إلى التكتيب . لهم فى ذلك سيرة حسنة . ولذلك يأتى لهم حسن الخط لأن المعلم له لا يشتغل بغيره ، فهو يستفرغ جهده فى التعليم والصبى فى التعلم كذلك » .

---

(١) أحكام القرآن ج ٣ : ص ٢٩١ (٢) ص ٢٧٢

٤ — ومثل هذا ما سجله ابن بطوطة[1] (٧٧٩ ه) إذ يقول : ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الأشعار وسواها ، ولا يكتبون القرآن فى الألواح تنزيهاً له ، فينصرف الصبى من التعليم إلى التكتيب لأن معلم الخط لا يعلم غيره

٥ — ويقول ابن خلدون[2] (٨٠٨ ه) « ولتعليم الخط عند أهل المشرق قانون خاص ومعلمون له على انفراد ، كما تتعلم سائر الصنائع ، ولا يتداولونها فى مكاتب الصبيان ، وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة ، ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة فى طلبه ويبتغيه من أهل صنعته .

وعلى هذا فقد كان هذا النوع من الكتاتيب أسبق أنواع المعاهد التعليمية وجوداً فى العالم الإسلامى ، وقد اشتق اسم هذا المعهد (الكتاب) من التكتيب وتعليم الكتابة ، وهى المهمة التى اضطلع بها ، ويؤيد ذلك ما ورد فى اللسان[3] من أن « الكتَّاب موضع تعليم الكتاب » أى الكتابة وهذا أيضاً يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الكتاب وجد مرتبطا فى الغالب بتعليم الكتابة والقراءة ولا شىء سواهما ، ولما كان الصبيان هم الذين يتعلمون فى هذا الكتَّاب وهم الذين يتعلمون فى المعهد الآخر الذى كان مخصصاً لتعليم القرآن والدين فقد كان ذلك سبباً فى أن أطلق اسم الكتَّاب على المعهد الثانى أيضاً ثم شاع هذا الإطلاق وأصبح اسم الكتاب يطلق على المعهد الذى يتعلم فيه الصبيان أياً كان الموضوع الذى يتعلمونه قرآناً كان أو قراءة وكتابة . ومن هنا خالف المبردُ صاحبَ اللسان وعرف الكتَّاب بأنه « موضع التعليم بوجه عام »[4] غير أن هذا لا يعنى بطبيعة الحال أن المعهدين التقيا وأصبحا معهداً واحداً .

---

(١) تحفة النظار ١ : ٢١٣ (٢) المقدمة ٣٩٨

(٣) لسان العرب ح ٢ : ص ١٩٢ (٤) المبرد ح ٢ : ص ١٩٣

٢ — الكتاب لتعليم القرآن ومبادىء الدين الاسلامى

كتب Goldziher مقالا مهماً فى دائرة معارف الأديان والأخلاق عن التعليم الأولى عند المسلمين ، وقد حاول فيه أن يثبت أن كتاب تعليم القرآن ومبادىء الدين الاسلامى قد أنشىء فى عهد مبكر ، وأنه يرجع إلى صدر الاسلام، وقد دعم رأيه بالأسانيد الآتية :

١ — أرسلت أم سلمة ، إحدى زوجات الرسول مرة إلى معلم كتّاب تطلب منه أن يرسل لها بعض تلاميذ كتابه ليساعدوها فى ندف الصوف وغزله .

٢ — كان عمر بن ميمون يحفظ الصيغة التى تقى الانسان شر العين ، وقد أسندها إلى سعد بن أبى وقاص الذى كان يعلمها أولاده ويكتبها لهم ، قائلا : إنى أفعل ذلك كما يفعل المدرس مع تلاميذه .

٣ — مرّ ابن عمر وأبو أسيد فى مناسبة ما بكتّاب فلفتا إليهما أنظار التلاميذ.

٤ — كان اللوح المخصص للكتابة موجوداً فى وقت مبكر جداً ؛ فلقد رُوى عن أم الدرداء أنها كتبت على لوح من هذا النوع عبارات فى الحكمة ليقلدها تلميذ كانت تعلمه الكتابة والقراءة(١) .

ذلك مجمل ما أدلى به الباحث Goldziher من براهين ، و Goldziher لم يميز بين نوعى الكُتّاب ، ومن أجل هذا اتخذ أية إشارة إلى اللوح أو الكُتّاب كأنها دليل على أن كتاب تعليم القرآن قدظهر للوجود فى وقت مبكر ، ولكنى أعتقد أن هذا المعهد نشأ فى عهد متأخر نوعاً ما . وأن المقصود من الكتّاب فى العبارات التى أوردها Goldziher إنما هو كتّاب تعليم القراءة والكتابة ،

(١) Encyclopeadia of Religions & Ethics Vol. vp. 199.

وقد ظهر هذا بشكل واضح فى الدليل الثانى والرابع اللذين نُصّ فيهما على تعليم الكتابة وعلى التدريب عليها باستعمال صيغة الرقية أو عبارات الحكمة .

والذى دعانى إلى الاعتقاد أن الكتاب الذى نتحدث عنه الآن لم يظهر فى وقت مبكر ، أن منهاجه مبنىٌّ على القرآن ، مما يجعل وجوده متوقفا على وجود حَفَظَةٍ للقرآن الكريم ، وهذا يدعونا إلى أن نُبرزَ حقيقة هامة وهى أن حِفظَ شخص للقرآن فى العهد الاسلامى المبكر كان نادراً جداً ؛ يقول ابن العربى[1] : « ومنهم (من المتعلمين) وهو الأكثر ، من يؤخر حفظ القرآن ويتعلم الفقه والحديث وما شاء الله فربما كان إماما وهو لا يحفظه ، وما رأيت بعينى إماماً يحفظ القرآن ، ولا رأيت فقيهاً يحفظه إلا اثنين » وقد اتجه المتعلمون هذا الاتجاه لأن القرآن رسمه لهم فى الآية الكريمة « كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته »[2] إذ فهموا أنه لم يكن المقصود الحفظ وإنما التدبر والتفكير والعمل بهدى القرآن ، يروى السيوطى[3] « أن الرجل من الصحابة كان يحفظ من القرآن عشر آيات ثم لا يتجاوزها حتى يفهم معناها ويؤدى ما طلب فيها » وعلى هذا أمضى ابن عمر ثمانى سنوات فى حفظ سورة البقرة وأخرج ابن اشته فى المصاحف بسند صحيح عن محمد بن سيرين قال مات أبو بكر ولم يجمع القرآن ، وقتل عمر ولم يجمع القرآن ، قال ابن اشته قال بعضهم يعنى لم يُقرَأ جميع القرآن حفظًا[4] وروى ابن حنبل فى مسنده[5] أنه « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا . يعنى عَظم » .

وأولئك الذين حفظوا القرآن من الصحابة كانت تنتظرهم أعمال

---

(١) أحكام القرآن ٢ : ٢٩١ (٢) سورة ٣٨ الآية ٢٧
(٣) الاتقان فى علوم القرآن ٢ : ٢٠٨ (٤) الاتقان فى علوم القرآن ٢ : ٢٠٨
(٥) ج ٣ ص ١٢٠

أعظم ومهام أضخم من تعليم الأطفال ، يقول ابن خلدون [1] « ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم ، وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن ، العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه ، وسائر دلالته ، بما تلقوه من النبى صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منهم من السابقين ، وكانوا يُسمَّون لذلك القراء ، أى الذين يقرءون الكتاب ، لأن العرب كانوا أمة أميَّة فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ ، وبقى الأمر كذلك زمناً ، ثم عظمت أمصار الاسلام ، وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب ، وتمكن الاستنباط ، وكمل الفقه ، وأصبح صناعة وعلماً ، فبدَّلوا اسم الفقهاء والعلماء من القراء » .

والنتيجة التى نقررها بناء على ذلك هى أن الكتَّاب من هذا النوع لم يظهر خلال العهد المبكر للاسلام ، بل كانت قلة من الأطفال يتعلمون عن طريق الاندساس بين الكبار فى حلقات المساجد كما كان يفعل على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس ، أما جمهرة الأطفال فكانوا يتلقون القرآن عن آبائهم وذويهم ، أو عن معلمين خصوصيين ، ومن هنا يمكن تفسير ظاهرة هامة ، هى أن النصائح التى كانت تتصل بتعليم الأطفال كانت توجه لا إلى معلمى الكتاتيب كما حدث فيما بعد ، بل إلى الآباء والمدرسين الخصوصيين كما سيظهر من النصائح التى حدَّدت منهاج التعليم لهؤلاء الأطفال والتى وجهها ولاة الأمور للآباء والمؤدبين ، وسنورد فيما بعد نماذج منها .

وإذا كان الكتَّاب من هذا النوع لم يظهر فى العهد الاسلامى المبكر فمتى ظهر ؟ لقد حاولت فى دراستى أن أحدد تاريخاً تقريبياً لنشأة هذا المعهد ،

(١) المقدمة ص ٣١٢

وانتهيت فى محاولاتى إلى أن هذا الكتَّاب كمعهد عام كان تطوراً لتعليم أولاد الملوك والعظماء فى قصور ذويهم ، وتعليم الأولاد بمعرفة أهليهم ، ومما يدل على ذلك ماسنورده فيما بعد من أن عمر كان يوصى الآباء بتعليم أبنائهم كذا وكذا من العلوم ، فلما أنشىء الكتاب كانت الوصايا تتجه للمعلمين ، ويبدو أن الحجاج بن يوسف كان يمثل مرحلة الانتقال من معلمى أولاد امرئ إلى معلم عامّ ، والذى يدعو إلى هذا الاعتقاد أن اسم الحجاج كمعلم لم يرد — فيما أعرف — مرتبطاً بكلمة كتَّاب ، وإنما بكلمة صبيان ، فيقال له فى جميع المراجع « معلم صبيان »ومن هنا تنشأ فكرة أن الكتَّاب من هذا النوع لم يكن قد وُجد فى ذلك الوقت ، أما صلة الحجاج بتعليم الصبيان فيحددها القزوينى[١] بقوله : « إن الحجاج كان فى أول أمره معلماً لوشاقية سليمان بن نعيم ، وزير عبد الملك بن مروان ، فاختاره سليمان ليعمل فى بلاط عبد الملك حيث ترقى فيه . . . » (كلمة وشاقية فرسية ومعناها الأولاد والأتباع) .

ومن ذلك يفهم أن الحجاج كان مؤدباً إلا أنه خطا خطوة جديدة فلم يعد مؤدباً لأولاد الخاصة فقط ، ولكن لأتباعهم أيضاً ، ولم يكن مؤدباً لأمير أو أميرين كما كان العهد بالمؤدبين ، وإنما أصبح معلماً لعدد من الأولاد والأتباع . ولكن المسألة لم تصل إلى حد تكوين الكتَّاب وبهذا نستطيع التوفيق بين الروايات والظروف المختلفة لهذه المسألة[٢] . وهناك شىء آخر يدعم الاتجاه

---

(١) أخبار البلاد وآثار العباد ص ٦٥ .

(٢) ليس من المسلم به ما ذكره ابن خلكان (١ : ١٧٣) من أن الحجاج وأباه كان يعلمان الصبيان بالطائف ، وقد أورد ابن نباته مايوحى بالتشكيك فى رواية ابن خلكان ، قال فى سرح العيون (١٠٢ — ١٠٤) :

وزعم بعض الرواة أن الحجاج كان أول أمره معلم صبيان ويسمى كليباً وفيه يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال ... وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلك دائر ... وآخر كالقمر الأزهر =

الذى يميل إليه ، وهو ما ورد عن كتّاب أبى القاسم البلخى [١] من أنه كان يتعلم به ٣٠٠٠ تلميذ ومثل هذا العـدد الضخم يوحى بأن هذا النوع من الـكتاتيب كان ـ فى نهاية القرن الأول ومطلع الثانى ـ حديث الوجود وقليل الانتشار ، مما دعا إلى أن يؤمّه جمهرة عظيمة من التلاميذ .

أما عن المـكان الذى كان يوجد به الـكتّاب من هـذا النوع ، فقد وردت توصيات كثيرة بألا يكون فى المسجد . ومن ذلك ما قاله الإمام مالك حينما سئل عن ذلك « لا أرى ذلك يجوز ، لأن الأطفال لا يتحفظون من النجاسة [٢] » .

وقد ورد فى كتب الحسبة ما يؤيد ذلك فقد نصّتْ على أنه « لا يجوز تعليم الأطفال فى المسجد لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسوِّدون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات ، بل يُتَّخذ لتعليمهم حوانيت فى الدروب وأطراف الأسواق » [٣] .

= وعلق ابن نباتة على ذلك بقوله : وبعض الرواة ينكر هذا القول ويقول إن هذه من أكاذيب الشعراء .

ويروى ابن نباتة كذلك أن يوسف بن أبى عقيل الثقفى والد الحجاج كان رجلا نبيلا ، جليل القدر ، ويستدل على ذلك بأنه لما هم بالخروج لعبد الملك ومعه الحجاج ، أقبل سليم بن عمرو القاضى ، وكان من أروع الناس وأتقاهم ، فقام إليه يوسف فسلم عليه ، وقال له : إنى أريد أن آتى أمير المؤمنين فإن كان لك حاجة فأعلمنى . . . . . ولما انصرف القاضى قال الحجاج لأبيه : من هذا الذى قمت إليه ؟ فقال : يا بنى هذا سليم بن عمرو القاضى . فقال الحجاج : يغفر الله لك يا أبت ، أنت ابن أبى عقيل تقوم إلى رجل من كندة ؟

فرجل هكذا مكانته من عبد الملك ومكانته فى أهله لا يعقل أن يكون رزقه من الرغفان التى ترد مختلفة الاحجام والأشكال من بيوت الناس ، هذا إلى أن تسمية الحجاج كليباً ليست من المسلم به أيضاً . وقد شكك فى ذلك ابن نباتة كما سبق .

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٤ : ٢٧٢ .

(٢) التعليم عند القابسى ٦٧ب (مخطوط) .

(٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٠٣ ، القرشى : معالم القربة ص ١٧٠ وانظر أيضاً ابن عبدون محمد التجيبى Journal Asiatique, Tome cc XXIV of 1934

وأضاف الحصان[١] قوله « ويُمنع المعلمون من التعليم فى المساجد » .

ولكن على الرغم من كل هذا التحذير اتخذ المعلمون لهم زوايا بالمساجد ، وغرفاً ملتصقة بها لتعليم الأطفال ، مهملين لسبب أو لغيره هذه التوصيات الواضحة . والذى يقرأ رحلة ابن جبير ، ورحلة ابن بطوطة ، يجد ذكراً لكثير من الحلقات التى التف فيها الأطفال فى المسجد حول معلم يعلمهم القرآن ، وقد ذكر ابن حوقل[٢] أمثلة أخرى لهذا النوع .

وبجانب الكتاتيب التى اتخذت بالمسجد أو التصقت به نجد كتاتيب أخرى قامت مستقلة تمام الاستقلال يحدثنا الإمام الشافعى عن أحدها فيقول : كنت يتيماً فى حجر أمى فدفعتنى فى الكتّاب . . . فلما ختمت القرآن دخلت المسجد[٣] . وهناك كتّاب مهم سبقت الإشارة إليه ، وهو كتّاب أبى القاسم البلخى ، وكان يتعلم به ٣,٠٠٠ تلميذ ، وتدل رواية ياقوت[٤] على أن هذا الكتّاب بجانب استقلاله عن المسجد كان فسيحاً جداً ليتسع لهذا العدد الكبير ولهذا كان يحتاج البلخى أن يركب حماراً ليتردد بين هؤلاء وأولئك ، وليشرف على جميع تلاميذه . وكان هناك بلخى آخر اسمه أحمد بن سهل (٣٢٢ هـ) وكان فاضلا قائماً بجميع العلوم القديمة والحديثة يسلك فى مصنفاته طريقة الفلاسفة إلا أنه بأهل الأدب أشبه ، وكان معلماً للصبيان ثم رفعه العلم إلى مرتبة علية[٥] . . . وازداد عدد الكتاتيب وعدد المعلمين فى القرن الثانى الهجرى وما تلاه من قرون ، وكانت زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح بكل قرية كتاب بل ربما وجد فيها

---

(١) الحسبة ص ١٢٤ .
(٢) كتاب صورة الأرض ١٢١ ، ١٢٧ .
(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ١ ، ٩٨ .
(٤) معجم الأدباء ٤ ، ٢٧٢ .
(٥) المرجع السابق ١ : ١٤١ — ١٥٢ .

أكثر من كتّاب ، وقد ذكر ابن حوقل (١) أنه عدّ حوالى ٣٠٠ معلم كتاب فى مدينة واحدة هى مدينة بُلرم فى صقلية (٢) .

أما المنهاج المبكر الذى وضع لتعليم الأطفال فقد كتبه عمر بن الخطاب وبعث به إلى ساكنى الأمصار وهو : أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر (٣) وكان ابن التوأم يقول : من تمام ما يجب على الآباء من حفظ الأبناء أن يعلموهم الكتاب والحساب والسباحة (٤) .

ولما أنشئت الكتاتيب وتولى حفظة القرآن العمل بها ، أصبح القرآن الكريم نقطة الارتكاز فى هذه الدراسة الابتدائية ، وتبعته بعض المواد الأخرى ، فيوصى الغزالى بأن يتعلم الطفل فى المكتب القرآن ، وأحاديث الأخبار ، وحكايات الأبرار وأحوالهم ، ثم بعض الأحكام الدينية ، فالشعر ، على أن يُحَفَّظ الطفل من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله (٥) . ويضيف ابن مسكويه (٦) مبادئ الحساب ، وقليلا من قواعد اللغة العربية ، ويضع الجاحظ (٧) منهاجاً مفصلا هاك بعضه : « ولا تشغل قلب الصبى بالنحو إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام ، فى كتاب إن كتبه ، وشعر إن أنشده »

---

(١) كتاب صورة الأرض ١ ، ١٢٦ .

(٢) واضح أن هؤلاء المعلمين كانوا يعلمون فى أقل من ٣٠٠ كتاب ، فقد ذكر ابن حوقل نفسه ص ١٢٩ أنه رأى كتاباً واحداً يقوم بالعمل فيه خمسة من المعلمين ومن المحتمل أن يكون ذلك متكرراً فى كتاتيب أخرى؟ وعلى هذا فيجدر أن يصحح ما ذكره Earnst Diez فى مقاله بدائرة المعارف الإسلامية تحت عنوان (مسجد) من أن ابن حوقل عد فى بلرم ٣٠٠ كتاب .

(٣) البيان والتبيين ٢ : ٩٢ (٤) المصدر السابق .

(٥) الغزالى : الاحياء ٣ : ٥٧ (٦) تهذيب الأخلاق ص ٣٠

(٧) رسالة المعلمين مخطوط ورقة ١٣ ، ١٤ .

وشيء إن وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، كرواية الخبر الصادق ، والمثل الشاهد ، والمعنى البارع ، ويعرف بعض الحساب دون الهندسة والمساحة ، ويعلم كتابة الإنشاء بلفظ سهل وعبارة حلوه ، ويحذر التكلف ، ويحثه - فى قراءة كتب البلغاء - أن يستفيد المعانى لا الألفاظ » . .

ولا يمكن أن يقبل الباحث ما ورد فى دائرة المعارف الإسلامية (١) من أن « الأدب كان الموضوع الرئيسى الذى يعلم للأطفال مما دعا إلى أن تسمى الكتاتيب مجالس الأدب » وقد ذكر Earnst Diez أن مرجعه فى هذا الاقتباس هو الأغانى ١٨ : ١٠١ ، ولكن الأغانى لا يعنى هذا من قريب أو من بعيد ؛ فكل ما ورد فيه هو حديث الحسين بن عبد الله بن جبلة الذى يقول فيه : كان لجدى أولاد ، وكان على أصغرهم ، وكان الشيخ يرق عليه ، فجدر ، فذهبت إحدى عينيه فى الجدرى ، فأسلم فى الكتاب ، فحذق بعض ما يحذقه الصبيان ، فحمل على دابة ، ونثر عليه اللوز ، فوقعت على عينه الصحيحة لوزة ، فذهبت ، فقال الشيخ لولده ، أنتم لكم أرزاق من السلطان ، فإن أعنتمونى على هذا الصبى ، وإلا صرفت بعض أرزاقكم إليه ، فقلنا : وما تريد ؟ قال : تختلفون به إلى مجالس الأدب » فمجالس الأدب انضم إليها على بن جبلة بعد أن أتم دراسته بالكتاب بتفوق ، فهى مرحلة أخرى غير مرحلة الكتاب .

وما ذكرناه هنا عن منهاج تعليم الأطفال ، هو المنهاج العام ، ولكن اختلافاً جزئياً كان يحدث تبعاً لاختلاف الأمكنة ، وللعناية ببعض العلوم وتقديمها على البعض الآخر . وقد أوضح ابن خلدون ذلك فى فصل عقده

---

(١) جـ ٣ ص ٣٦٠ .

بالقدمة[١] وعنوانه « تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية فى طرقه » ويمكن تلخيصه فيما يلى : تعليم الولدان القرآن شعار من شعائر الدين ، أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم ، لما يسبق إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده بسبب آيات القرآن ومتون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات ، واختلفت طرقهم فى تعليم القرآن للولدان . فأما أهل المغرب فمذهبهم فى الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، مع العناية برسمه ، واختلاف حملة القرآن فيه ، ولا يخلطون ذلك بسواه فى مجالس تعليمهم ، لا من حديث ، ولا من فقه ، ولا من شعر ، ولا من كلام العرب .

وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو ، وهذا الذى يراعونه فى التعليم ، فلا يقتصرون على القرآن ، بل يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر ، والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية ، وتجويد الخط ، ولا تختص عنايتهم فى التعليم بالقرآن دون هذه ، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها .

وأما أهل إفريقية فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب ، ومدارسة قوانين العلوم (أى العلوم الدينية) ، وتلقين بعض مسائلها ، إلا أن عنايتهم بالقرآن ، واستظهار الولدان إياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر ، وعنايتهم بالخط تبع لذلك .

وأما أهل المشرق فيخلطون فى التعليم كذلك .

هذا وقد كان المعلمون يعنون عناية خاصة بتحفيظ الفتيات سورة النور[٢] .

---

(١) ص ٣٩٧ — ٣٩٩

(٢) البيان والتبيين للجاحظ حـ ٢ : ص ٩٢

ونختم هذا البحث بأن نذكر أسماء بعض المعلمين الموهوبين الذين بدءوا حياتهم معلمين للأطفال . ثم خطت بهم مواهبهم فأصبحوا لامعين فى المجتمع الإسلامى ، وانتقلوا إلى مكانة جديدة ضمنت لأسمائهم الخلود وهم :

الضحاك بن مزاحم	١٠٥ هـ
الكميت بن زيد	١٢٦ هـ
عبد الحميد الكاتب	١٣٢ هـ

٣ــ التعليم الأولى بالقصور

كان من الجلى الواضح عند المسلمين منذ العصور الأولى أن تتلون مناهج التعليم تبعاً لمستقبل المتعلمين وما ينتظرهم من مهام (١) . وفى ضوء هذه الفكرة وُجِد نوع من التعليم الابتدائى بقصور الخلفاء والعظماء ، يجد أبناء هؤلاء فيه ما يؤهلهم لتحمل الأعباء التى سينهضون بها فى المستقبل . فهذا النوع من التعليم مرتبط بالنوع الذى سبقه ، إذ أن كلا منهما مهمته تغذية الصبيان بنوع من الثقافة وقسط من المعرفة ، ولكن التعليم الأولى بالقصور يتبسط ويجاوز هذا الحد ، فالمنهاج هنا يضعه أو يشارك الأب فى وضعه ليكون ملائماً لابنه ، والمعلم هنا لا يسمى معلم صبيان أو معلم كتاب ، وإنما يطلق عليه لفظ « مؤدب » وقد « اشتق اسم المؤدب من الأدب والأدب إما خلق وإما رواية ، وقد أطلقوا كلمة مؤدب على معلمى أولاد الملوك إذ كانوا يتولون الناحيتين جميعاً » (٢) ثم إن المتعلم هنا يظل يتلقى العلم حتى يجاوز عهد الصبى ، وينتقل به من مستوى تلميذ الكتاب ، إلى مستوى الطالب فى حلقات المساجد أو المدارس .

---

(١) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ١ ص ٢٦٣ ومحاضرات الأدباء للأصفهانى جـ ١ ص ٢١

(٢) رسالة المعلمين للجاحظ : (مخطوط) ظهر الورقة رقم ١١

ويمتاز هذا التعليم بلون آخر ذى أهمية كبرى ، ذلك هو أن المؤدب كثيراً ما يخصص له جناح فى القصر يعيش فيه ، ليكون إشرافه على الأمير أحكم وأشمل ، قال أحمد بن يحيى أبو العباس ثعلب : أقعدنى محمد بن عبد الله بن طاهر مع ابنه طاهر ، وأفرد لى داراً فى داره ، وأقام لنا وظيفة ، فكنت أقعد معه إلى أربع ساعات من النهار ، ثم أنصرف إذا أراد الغداء ، فنما ذلك إلى أبيه ، فكسا البهو والأروقة، وضاعف ما كان يعد من الألوان ، فلما حضر وقت الانصراف انصرفت ، فنُمى ذلك إليه . فقال للخادم الموكل بنا : قد نمى إلىّ انصرافُ أحمد ابن يحيى فظننت أنه يستقل ما يحضر ولم يستطب الموضع فأمرنا بتضعيفه ثم نمى إلىّ أنه انصرف فقل له : أبيتك أبرد من بيتنا ؟ أو طعامك أطيب من طعامنا ؟... فلما عرّفنى الخادم ذلك أقمت فكنت على هذه الحال ثلاث عشرة سنة(1) .

وتتضح من وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده الأهداف التى حفزت الوالد أن يمهد لمؤدب ولده أن يعيش معه ، تلك الأهداف التى تتجاوز التعليم لتشمل أن يربىَ المؤدبُ عقلَ الولد وقلبه وجسمه . يقول عبد الملك : علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة فإنهم أسوأ الناس رعة(2) ، وأقلهم أدباً ، وجنبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة ، وأحفِ شعورَهم تغلظ رقابهم ، وأطعمهم اللحم يقووا ، وعلمهم الشعر يَمْجُدوا ويَنْجُدُوا ، ومرهم أن يستاكوا عرضا ، ويمصُّوا الماء مصًّا ولا يعبوه عبا ، وإذا احتجت إلى أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك فى ستر ، لا يعلم به أحد من الحاشية فيهونوا عليه(3) .

---

(1) ياقوت طبعة فريد رفاعى ٥ : ١٢٥ — ١٢٦

أما طبعة Margolioth التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث فغير دقيقة فى هذا الموضع انظر الجزء الثانى منها ص ١٤٤

(2) يقال سيء الرعة إذا كان قليل الورع .

(3) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٦٧ .

أما منهاج التعليم لهذه الطبقة فإنه يلتقى فى أسسه العامة بمنهاج التعليم الذى وضع لجميع الصبيان ، مع بعض الحذف أو الإضافة استجابة لتوجيه الوالد ، وتمشيا مع الرغبة فى إعداد هذا الصبى إعداداً خاصاً يناسب الأهداف والمسئوليات التى ستواجهه فى مستقبل حياته كما قلنا ، وفيما يلى أمثلة المناهج والارشادات التى وضعها الآباء بين أيدى المؤدبين ليسيروا فى ضوئها وليعملوا على تحقيقها :

١ — قال عمرو بن عتبة لمؤدب ولده : ليكن أولَ اصلاحك لولدى اصلاحُك لنفسك ، فان عيونهم معقودة بك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت ، علّمهم كتاب الله ولا تُملّهم فيه فيتركوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، وروّهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يُحكموه ، فان ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم ، وعلمهم سنن الحكماء ، وجنبهم محادثة النساء ، ولا تتكل على عذر منى فقد اتكلت على كفاية منك[1] .

٢ — قال هشام بن عبد الملك لسليمان الكلبى لما اتخذه مؤدباً لابنه : إن ابنى هذا هو جلدة ما بين عينىّ ، وقد وليتك تأديبه ، فعليك بتقوى الله ، وأداء الأمانة ، وأول ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله ، ثم روّه من الشعر أحسنه ، ثم تخلل به فى أحياء العرب فخذ من صالح شعرهم ، وبصّره طرفاً من الحلال والحرام

---

(١) العقد الفريد ١ : ٣٦٣

وردت هذه الوصية فى عيون الأخبار لابن قتيبة (٢ : ١٦٦) منسوبة الى عتبة بن أبى سفيان ، وموجهة لعبد الصمد مؤدب ولده ، ومغايرة فى بعض أجزائها للنص المنسوب الى عمرو بن عتبة ، وهاك نصها فى عيون الأخبار : ليكن إصلاحك ولدى إصلاحك نفسك ، فإن عيونهم معقودة بعينك ؟ فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح ما استقبحت ، وعلمهم سير الحكماء ، وأخلاق الأدباء ، وتهددهم بى ، وأدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء ، ولا تتكل على عذر منى فإنى قد اتكلت على كفاية منك .

والخطب والمغازى[١] .

٣ — ومن أحسن المناهج التربوية التى قدمها الآباء للمؤدبين ذلك المنهج الشامل الذى تقدم به الرشيد للأحمر معلم ولده الأمين ولى عهده والخليفة من بعده ، وفيه يقول : يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصيَّرَ يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصّره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورَفْع مجالس القواد إذا حضروا مجالسه ، ولا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تُمْعِن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعت بالقُرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة[٢] .

وقد خطا الفاطميون فى هذا المجال خطوات أوسع ، فأنشئوا فى قصورهم مدارس خاصة يلتحق بها أولاد عِليَة القوم وسراتهم ، ويسير المؤدبون فى تثقيف هؤلاء الصبيان على منهاج خاص ، يرمى إلى إعدادهم لخدمة الخلفاء وشغل المناصب الرئيسية فى دولة الخلافة[٣] .

وكانت هذه الوظيفة (وظيفة المؤدب) جذابة للغاية ، تضع من يشغلها فى مكانة عالية وتخلع عليه حلة من الجلال ، ومع هذا فقد أباها بعض العلماء ، يروى ابن الانبارى أن سليمان بن على وَجَّه وهو بالاهواز إلى الخليل بن أحمد لتأديب

---

(١) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٢٩ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ٣٩٩ والبيهقى : المحاسن والمساوى ٦١٧ .
(٣) المقريزى ١ : ٤٤٣ — ٤٤٤ .

ولده ، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً يابساً ، وقال : كلْ فما عندى غيره ، وما دمت أجده فلا حاجة لى إلى سليمان . فقال له الرسول : فما أبلغه ؟ فأنشأ :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سَعَةٍ ... وفى غنى ، غير أنى لست ذا مال
والفقر فى النفس لا فى المال تعرفه ... ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال[1]

وقد فعل عبد الله بن إدريس نظير ذلك فلم يقبل أن يختص المأمون بدرس وحده ، ولو سعى له المأمون ، وكان جوابه للرشيد وقد رجاه أن يحدِّث المأمون أن قال : إن جاءنا مع الجماعة حدثناه[2] .

٤ ـ حوانيت الوراقين

لعل من الممكن أن نربط بين أسواق العرب فى الجاهلية : عكاظ ومجنة وذى المجاز ، وبين دكاكين بيع الكتب فى الإسلام ، فى تلك الأسواق كان العرب يجتمعون للقيام ببعض الصفقات التجارية ، ولكنهم كانوا ينتهزون فرصة هذا الاجتماع ليقوموا بنشاط رائع فى الناحية الأدبية ، فينشدون الأشعار ، ويعقدون المناظرات ، ويلقون الخطب الرنانة[3] . وحاكتها فى ذلك دكاكين بيع الكتب ، هذه الدكاكين التى فُتحت فى الأصل لأعمال تجارية ، ثم إذا هى تصير مسرحاً للثقافة والحوار العلمى ، عندما أمَّها المثقفون والأدباء ، واتخذوا منها مكاناً لاجتماعاتهم وأبحاثهم .

ولم تكن دكاكين بيع الكتب محاكاة تامة لأسواق العرب فى الجاهلية ،

---

(١) طبقات الأدباء ٥٧ — ٥٨ .
(٢) ابن جماعة ص ٢١١ بالهامش .
(٣) انظر الأغانى ٤ : ٣٥ وانظر كذلك أبو الفدا ٢ : ٢٣ .

بل كانت هناك نقاط خلاف بين هذه وتلك، ومن أبرز هذه النقاط أن الاجتماعات الثقافية كانت يومية فى دكاكين بيع الكتب ، ولكنها فى أسواق العرب كانت ترتبط بعمران هذه الأسواق التى ما كانت تعمر إلا فى مواسم خاصة .

وقد ظهرت دكاكين بيع الكتب منذ مطلع الدولة العباسية[١] ، ثم انتشرت بسرعة انتشاراً ملحوظاً فى العواصم والبلدان المختلفة بالعالم الإسلامى ، وحفلت كل مدينة بل كل محلة بعدد وافر منها ، ذكر اليعقوبى[٢] فى جملة كلامه عن أرباض بغداد « . . . ثم ربض وضاح مولى أمير المؤمنين . . . وبه أكثر من مائة حانوت للوراقين » وكان فى مصر فى عهد الطولونيين والإخشيديين سوق عظيمة للوراقين تعرض فيها الكتب للبيع وأحياناً تدور فى دكاكينها المناظرات[٣] وقد تعرض المقريزى فى مواضع كثيرة من كتابه الخطط للحديث عن هذه المحال[٤] .

ولم يكن بائعو الكتب مجرد تجار ينشدون الربح ، وإنما كانوا ــ فى أغلب الأحايين ــ أدباء ذوى ثقافة ، يسعون للذة العقلية من وراء هذه الحرفة التى كانت تتيح لهم القراءة والاطلاع ، وتجذب لدكاكينهم العلماء والأدباء ، وعلى هذا فقد حفلت قائمة أسماء الوراقين بشخصيات لامعة ، كابن النديم صاحب الفهرست[٥] ، وعلى بن عيسى المعروف بابن كوجك وقد ذكر عنه ياقوت[٦]

---

(١) Hitti : History of the Arabs P. 414
(٢) البلدان ص ١٧ .
(٣) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصرى ٣٣، ٤٤ خط ١٤٦١ تاريخ تيمور بدار الكتب
(٤) ١ : ٣٦١ ، ٢ : ٩٦ ، ١٠٢ .
(٥) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٤٠٨ .
(٦) معجم الأدباء ٥ : ١٧٩ .

أنه كان وراقاً ، وكان أديباً فاضلا ، وقد ألف عدة كتب ، وكياقوت مؤلف معجم الأدباء ومعجم البلدان[١] .

ولم تكن مهنة الوراقة فى عهد الدولة العباسية تقف عند حد الصفقات التجارية وبيع الكتب ، وإنما كانت تتعدى ذلك إلى مهام ثقافية بالغة الأهمية فى ذلك الحين إذ كان الوراقون هم الذين ينسخون الكتب الهامة ويعرضونها للراغبين فيها ، ويتقاضون على ذلك أجراً متواضعاً متوسطه دينار عن كل كتاب[٢] . وكان الجاحظ ـ كما حدث بذلك أبو هفان الراوية ـ يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر[٣] ثم ـ وذلك ما يعنينا أن نوضحه هنا بشىء من التفصيل ـ كانت حوانيت الوراقين منتدى ومراحاً للطلاب والعلماء ، يتذاكرون فيها ويتناقشون ، وقد مرّ فى السطور السابقة إشارة لهذه الحقيقة ، ولكنا نوضحها هنا ببضعة أمثلة قليلة أخرى :

١ — كان ياقوت الحموي يتاجر فى الكتب ويزور أسواق الوراقين ليعرض بجلاته ، وكان متعصباً على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان قد طالع شيئاً من كتب الخوارج فاشتبك فى ذهنه منه طرفٌ قوى ، وتوجه إلى دمشق فى سنة ٦١٣ ، وقعد فى بعض أسواقها ، وناظر بعض من يتعصب لعلى ...[٤] .

---

(١) ابن خلكان : ٢ : ٣١١ — ٣١٢ .

ولا نزال حتى الوقت الحاضر نجد فى كثير من البلاد العربية علماء أفاضل يشتغلون بالمهنة ، وقد تحدث السندوبى وهو يقدم كتاب المقابسات لأبى حيان التوحيدى عن واحد من هؤلاء فقال : عرفت رجلا يبيع الكتب فى خان الخليلى يسمى الشيخ عبد الملك القشنى ، وكان على علم ومعرفة وسعة اطلاع ، وكان يدلنى بصدق وإخلاص على ما يلزمنى من الكتب القيمة والأسفار النافعة ، وقد كان يذاكرنى فى المسائل العلمية والأدبية ، ويفتح ذهنى إلى حقائق الأشياء ، ودقائق الأمور ، ويشير على بما يجب أن أقرأه من الكتب ، ويدلنى على الكيفية التى توصلنى إلى الانتفاع بها انتفاعاً ناجعاً مثمراً .

(٢) Ameer Ali : A short History of the Saracens p. 460.

(٣) ياقوت معجم الأدباء ٦ : ٥٦ (٤) ابن خلكان ٢ : ٣١١ .

٢ — كان من عادة الإمامين الشهيرين أبى الفرج الأصفهانى وأبى نصر الزجاج أن يلتقيا كثيراً فى دكان فى سوق الوراقين ، وفى إحدى جلساتهما كان أبو الحسن على بن يوسف الشاعر جالساً عند أبى الفتح بن الخزاز الوراق وهو ينشد أبيات ابراهيم بن العباس الصولى التى يقول فيها :

رأى خَلتى من حيث يخفى مكانُها　　فكانت قذى عينيه حتى تجلت

فلما بلغ إليه استحسنه وكرره ، حدث أبو نصر الزجاج قال : قال لى أبو الفرج : قم إليه فقل له : قد أسرفت فى استحسان هذا البيت ، وهو كذلك ، فأين موضع الصنعة فيه ؟ فقمت فقلت له ذلك فقال : قوله « وكانت قذى عينيه » فعدت إلى الأصفهانى وعرفته ذلك فقال : عد إليه فقل له أخطأت . الصنعةُ فى قوله « من حيث يخفى مكانها »(١) .

٣ — ووصف ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) سوق الوراقين ببغداد فى زمنه بقوله : إنها سوق كبيرة وهى مجالس العلماء والشعراء(٢) .

٤ — أما سوق الكتبيين بمصر فلنقتبس الحديث عنه من المقريزى(٣) وهاك موجز ما أورده : هذا السوق فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية أُحدث فيما أظن بعد سنة ٧٠٠ . . . وكان سوق الكتب قبل ذلك تجاه الجانب الشرقى من جامع عمرو . . . وما برح هذا السوق مجمعاً لأهل العلم يترددون عليه وقد أنشدت قديماً لبعضهم :

مجالسة السوق مذمومة　　ومنها مجالس قد تُجتَنَب
فلا تقربنْ غيرَ سوق الجياد　　وسوقِ السلاح وسوقِ الكتب
فهاتيك آلة أهل الوغى　　وهاتيك آلة أهل الأدب

(١) ياقوت ٥ : ١٥٧ : ١٥٨

(٢) ابن الجوزى : مناقب بغداد ص ٢٦　　(٣) الخطط ٢ : ١٠٢

وكان لحوانيت الوراقين أثر عقلي ملحوظ ، كثيراً ما تعدى الوراقين إلى أسرهم ومن أمثلة ذلك زينب وحمدة ابنتا زيد الوراق الذي كان يعيش في وادي الحمى بالقرب من غرناطة فقد برعتا في الآداب والعلوم وكانتا على قدم المساواة مع أساتذة العصر (١) .

ولم يقف النشاط العلمي بالدكاكين على حوانيت الوراقين بل انتقل منها إلى غيرها من محال البيع والشراء ، فإلى الحانوت المتواضع الذي كان أبو العتاهية يبيع فيه الجرار والفخار كان يتوافد الأحداث والمتأدبون فينشدهم أبو العتاهية أشعاره ثم يأخذ هؤلاء ما تكسر من الخزف فيكتبونها عليها (٢) . وكان أبو بكر الصبغي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ يعمل الصبغ بنفسه ويبيعه في حانوته ، وهو من أعيان فقهاء الشافعية ، كثير السماع والحديث ، وكان حانوته مجمع الحفاظ والمحدثين ، وكان عبد الله بن يعقوب يجلس على باب هذا الحانوت يقرأ للناس (٣) .

ويروي أبو الحاج عن بعض شيوخه أن رجلا رحل في طلب العلم إلى بغداد ، فقرأ ما شاء الله ثم أراد الانصراف إلى وطنه فاكترى دابة يركبها ليخرج من البلدة ، ولكنه وقف ليشتري صاحبُ الدابة بعضَ حاجاته فسمع الطالب نقاشاً علمياً يدور بين اثنين من أصحاب الحوانيت المتجاورة فطلب الطالب من صاحب الدابة إعادته إلى بغداد قائلا : إن بلداً باعته في هذه المنزلة من العلم لا ينبغي أن يرحل عنه (٤) .

٥ – منازل العلماء

لم يعدّ المسلمون المنازل مكاناً صالحاً للتعليم العام ؛ إذ أن السكان والطلاب جميعاً لا يجدون الراحة واليسر في التوفيق بين هذه المنزلة

(١) سيد أمير على ٥٦٩ بالهامش .
(٢) الأغاني ٣ : ١٢٩
(٣) طبقات الشافعية ٢ : ١٦٨
(٤) الألف با للألبا ١٤٧ أ مخطوط .

وجلاله ، وبين حلقة الدرس وما تستدعيه من حركة ونشاط . وقد أشار إلى ذلك كتاب الله فى الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النبى إلا أن يُؤذَن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ، والله لا يستحى من الحق »(1) .

وقد شرح العبدرى فى كتابه المدخل(2) هذه القضية ذا كراً أن « أفضل مواضع التدريس هو المسجد ، لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر به سنة ، أو تخمد به بدعة ، أو يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى ، والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوفراً ، لأنه موضع لاجتماع الناس ، رفيعهم ووضيعهم ، وعالمهم وجاهلهم ، بخلاف البيت ، فإنه محجور على الناس إلا من أبيح له ، والبيوت تحترم وتهاب حتى لو أبيحت للجميع » . ويقرر العبدرى فى مكان آخر(3) « إن المنازل مكان للدرس عند الضرورة فقط » .

وإذاً فاستجابة لإلحاح الضرورة وتحت ضغط أحوال معينة قامت حلقات علمية تعليمية بالمنازل الخاصة على ما يأتى :

جرى التعليم الإسلامى بالمنزل فى عهد الإسلام المبكر ، وقبل نشأة المساجد ، فلقد اتخذ الرسول عليه السلام دار الأرقم بن أبى الأرقم مركزاً يلتقى فيه بأصحابه ومن تبعه ، ليعلمهم مبادىء الدين الجديد ، ويقرئهم ما نزل من آيات الذكر الحكيم ، كما كان الرسول يستقبل فى هذا المنزل من جنحوا إلى الإسلام ومالوا إليه ، ليغمر الرسولُ قلوبَهم بإرشاده وتعليمه ، فيعتنقوا الإسلام وينضموا إلى جماعة المسلمين(4) .

---

(1) سورة الأحزاب الآية ٥٣ وانظر أيضا تفسير الفخر الرازى لهذه الآية ج ٧ ص ٣٤٧ وتفسير أبى السعود على هامش الفخر الرازى ج ٦ ص ٥٥٢ — ٥٥٣

(2) ١ : ٨٥ (3) ٢ : ٩٧ (4) انظر الطبرى ٣ : ١٣٣٥

وبالإضافة إلى دار الأرقم كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل إنشاء المساجد أيضاً يجلس بمنزله بمكة والمدينة، ويلتف حوله المسلمون ليعلمهم ويزكيهم ، وقد ظلوا كذلك إلى أن نزلت بالمدينة الآية الكريمة السابقة وكان نزولها بعد إنشاء المساجد، وقد خفف الله بها عن الرسول ما كان يعاني من تدفق الجوع على بيته تدفقاً يكاد يكون متصلا ، مما لا يدع له وقتاً للراحة والاستجمام .

ومن الواضح أن منزل الرسول فقط هو الذى أشارت إليه الآيةُ الكريمة ، وقد فُهِم من هذا عدم الرغبة فى اتخاذ البيوت مكاناً للدرس ، غير أن ذلك لم يرْقَ إلى درجة المنع ، فلظروف خاصة أصبحت بيوت متعددة ملتقى للطلاب والمدرسين ، ومركزاً علمياً هاماً على الرغم من انتشار المساجد .

ومن أهم هذه المنازل منزل الرئيس ابن سينا يقول الجورجانى صاحبه : « كان يجتمع كل ليلة فى دار ابن سينا طلبة العلم ، وكنت أقرأ معه الشفاء ، وكان يقرىء غيرى من القانون نوبة ، وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمةً للأمير (شمس الدولة) ، وقضينا على ذلك زمناً »[١] .

وكان أبو سليمان السجستانى (محمد بن طاهر بن بهرام) الذى توفى فى العقد الأخير للمائة الرابعة الهجرية ، أعور به وضح . فكان ذلك سبب انقطاعه عن الناس ولزومه منزله ، فلا يأتيه إلا مستفيد وطالب علم ، وكان منزله مقيلا لأهل العلوم القديمة ، فكان يتصدى لقراءتها ويقصده الرؤساء والأجلاء[٢] . وفى ترجمة أبى الحسن عبد الله المنجم يذكر القفطى[٣] أن أبا الحسن كان

(١) ابن أبى أصيبعة ٢ : ٤ القفطى ٤٢٠
(٢) القفطى . أخبار الحكماء ١٨١ — ١٨٣
(٣) المصدر نفسه ص ١١٤ ، ١١٥

صديقاً لأبي سليمان وملازما له ، وكان كثيراً ما يجتمع بمنزل أبي سليمان جماعة من سادة العلماء ، فيأخذون في المذاكرة والمناظرة في موضوعات شتى ، وكان لأبي سليمان الكلمة الفاصلة . وممن كانوا يحضرون هذا المجلس العلمي الرائع أبو محمد القدسي ، وأبو الفتح النوشجاني ، وأبو زكريا الصيمري ، وأبو بكر القومسي ، وغلام زحل ، وأبو حيان التوحيدي ، ويذكر أبو حيان التوحيدي[١] أن كل واحد من هؤلاء كان فريداً في علمه ، وقد سأل الوزير ابن سعدان مرة أبا حيان التوحيدي أن يحدثه بما أفاد في يوم معين ، فأخذ أبو حيان ينقل للوزير صورة ما دار في منزل أبي سليمان ، وآراء الأخير في النفس[٢] . وكثيراً ما نقل أبو حيان للوزير مما كان يدور في هذا المجلس من موضوعات شتى[٣] ، فقد كانوا يتعرضون كثيراً إلى آراء القدماء من الفلاسفة بالبحث والنقاش والشرح والتعليق ، فيتفقون معهم أو يختلفون عنهم[٤] ، فإذا قال سقراط : « الكلام اللطيف ينبو عن الفهم الكثيف » وافق أبو سليمان على ذلك وزاده شرحا بما ينقله عن فيلسوف آخر من أن المريض يفرح بالطبيب ويقبل نصيحته لأنه عالم بما عنده أما الجاهل فلا يفعل هذا مع العالم لعدم علمه بما عنده[٥] وإذا روى قول أفلاطون : « العلم مصباح النفس » قال أبو سليمان : ما أحسن المصباح إذا كان زجاجه نقياً[٦] ، وإذا قال أفلاطون : « من يصحب السلطان فلا يجزع من قسوته ، كما لا يجزع الغواص من ملوحة البحر » قال أبو سليمان : هذا كلام ضره أكثر من نفعه ، قواه صاحبه بالمثل ، والمثل يستجيب للحق كما يستجيب للباطل ، ولا يُبْعَد عن السلطان إلا إذا جار[٧] .

---

(١) المقابسات ١٢٠ (٢) الامتاع والمؤانسة ١ : ٤٠ .
(٣) انظر الجزء الثاني ١٨ و ٢٢ و ٢٤ و ٤٣ والجزء الثالث ٩٩ و ١٢٤ و ١٢٥
(٤) انظر الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٤٣ و ٤٩
(٥) المرجع نفسه ٢ : ٤٤ (٦) ٢ : ٤٥ (٧) ٢ : ٤٧ — ٤٨

وكما حفل الامتاع والمؤانسة بما دار فى هذه الجلسات الغنية ، فقد حفل بها كذلك المقابسات(١) .

ومن الدور الهامة التى كان يلجأ إليها الطلاب والدرسون فيستفيدون منها استفادة بالغة ، دار الإمام الغزالى (٥٠٤ هـ) التى كان يستقبل فيها تلاميذه بعد أن اعتزل العمل بنظامية نيسابور على أثر رحلته التى قام بها للحج والاعتكاف بالجامع الأموى بدمشق حيث كتب كتابه الشهير « إحياء علوم الدين »(٢) .

ولما اتهم على بن محمد الفصيحى (٥١٦ هـ) بالتشيع ، وسئل عن ذلك الاتهام فلم ينكره ، فُصِل من النظامية حيث كان من مشاهير مدرسيها ، ولكن أفواجاً من المتعلمين راحوا يقصدونه فى داره ليواصلوا القراءة عليه(٣) .

وكان يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى على معرفة واسعة بالمذهب الاسماعيلى ، وقد كتب فى فقه الاسماعيلية كتاباً كبيراً ضمنه كل ما سمعه من المعز والعزيز ، وكان منزله كل يوم جمعة مأوى للعلماء والطلاب ليقرأ لهم من هذا الكتاب ومن سواه(٤) .

وكان السلفى أحمد بن محمد أبو طاهر (٥٧٦ هـ) من العلماء الفقراء ، وطاف البلاد حتى وصل إلى الإسكندرية ، فتزوج امرأة ذات مال واتخذ من بيته بالإسكندرية مكانا للتعليم ، وفى الجزء الثالث من منتخباته من أصول

---

(١) انظر مثلا هذه الصفحات : ١٢٠ — ١٣٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠١ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٥٥ — ٣٥٨ .

(٢) انظر ترجمته فى صدر كتابه هذا ص ٣

(٣) ياقوت ٥ : ٤١٥

(٤) الخطط ٢ : ٤٣١

سماعات أبى الحسن على بن المشرف يقول : « بلغت من أوله قراءة وسماعا ومعى اسحق ومحمد ابنا أحمد بن موسى المروزانى ، وصح لنا ذلك فى منزلى بالإسكندرية[1] .

تلك أمثلة قليلة تعد نماذج فقط لسواها مما حفلت به كتب الأدب والتاريخ وهى تبين بوضوح أن منازل العلماء أسهمت بنصيب كبير فى نشر الثقافة وبخاصة قبل انتشار المدارس ، ولما كان البيت مكاناً خاصاً يحس روّاده بالوحشة والانقباض كان على صاحب البيت — وقد جعل منه ملتقى للطلاب — أن يقابل رواده ببشاشة وترحيب، ويسرى عنهم ، وإلا فقد يتسبب عن ذلك انقطاعهم عن الحضور[2] مما يجعل الدرس قليل الجدوى محدود الفائدة ، ويتحتم على الطلاب كذلك أن يتّسموا بالوقار والهدوء حفاظا على حرمة البيت وجلاله .

٦ ـ الصالونات الأدبية

يبدو لى أن الصالونات التى ظهرت ساذجة فى العصر الأموى ، وانتشرت رائعة غنية فى العصر العباسى ، ليست إلا تطورا لمجالس الخلفاء الراشدين ، فالخليفة فى الإسلام ينظم أعمال الدنيا ويفتى فى شئون الدين ، ومن أجل هذا كان من أهم شروطه العلم المؤدى إلى الاجتهاد[3] .

وعلى ذلك كان الخلفاء الراشدون — وهم الذين اختيروا اختياراً شرعياً — يجلسون إلى الناس بالمسجد أو خارجه ليُفتوهم فيما يعنّ لهم من مشكلات ، فإذا لم يستطع الخليفة أن يهتدى بنفسه إلى الحل استدعى الصحابة ليشاورهم

(١) ورقة رقم ٩ مخطوطة بمكتبة Prof Arberry انظر أيضاً تذكرة الحفاظ ٤ : ٩٣

(٢) الميدرى ٢ : ٩٧ — ٩٨

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٥ ، الفخرى ٢٠ — ٢١

فى الأمر ، وليستعين بهم وبآرائهم لحصول على جواب سديد[١] .

وهكذا تلتقى مجالس الخلفاء الراشدين مع الصالونات الأدبية فى أن كلا النوعين خدم التطور الثقافى وعمل على نشر المعرفة ، فى ظل الخليفة وحضرته وفيما عدا ذلك تظهر فوارق شاسعة بين تلك المجالس وهذه الصالونات ، ففى المجالس كان لكل واحد الحرية الكاملة فى أن ينضم إلى المجلس أو يدعه وفقا يشاء تبعاً لرغبته ، وكان الخليفة ينادى باسمه الخالص أو بعبارة « يا خليفة رسول الله » التى استبدل بها فيما بعد عبارة « يا أمير المؤمنين » وكان الحشد يجلس على سجادة متواضعة ، أو على حصير ، وأحياناً على الأرض الجرداء[٢] .

أما الصالونات الأدبية فقد وضحت فيها التقاليد والحضارات الأجنبية التى اقتبسها الخلفاء العرب من الممالك العظيمة التى خضعت لسلطانهم ، فأصبح الصالون يؤثث أثاثاً رائعاً ، تحدث عنه ابن عبد ربه[٣] ، والمقرى[٤] ، والمقريزى[٥] . ولم يكن الصالون يستقبل كل الراغبين ، وإنما كان يسمح لطبقة معينة من الناس بالدخول[٦] ، ولم يكن الحاضرون أحراراً فى اختيار الوعد الذى يحضرون فيه أو ينصرفون عنده ، وإنما كانوا يحضرون فى موعد محدد ، وينصرفون عند إشارة خاصة يشير بها الخليفة ، وقد اتخذ كل خليفة إشارة عرف بها ؛ فكان معاوية إذا قال « ذهب الليل » قام سماره ومن حضره ، وكان عبد الملك إذا ألقى المخصرة

(١) انظر « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف .

(٢) انظر التمدن الإسلامى ٥ : ١٣١

(٣) العقد الفريد ٤ : ١٠١ — ١٠٨

(٤) نفح الطيب ٢ : ١١٢٨

(٥) الخطط ١ : ٣٨٥ — ٣٨٦

(٦) التاج للجاحظ ص ٢١

قام من حضره ، وكان الوليد إذا قال « أستودعكم الله » قام من حضره ، وكان الهادى إذا قال «سلام عليكم» قام من حضره ، وكان الرشيد إذا قال « سبحانك اللهم وبحمدك » قام سماره ، وكان المعتصم إذا نظر إلى صاحب النعل قام من حضره ، وكان الواثق إذا مس عارضيه وتثاءب قام من حضره[١] . وكان الخليفة ولا أحد سواه يفتتح النقاش فى الصالونات[٢] ويروى ابن خلكان[٣] أن أحمد ابن أبى داود كان أول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكان لا يبدؤهم أحد حتى يبدءوه ، وأخيراً فإن الموضوعات التى تعرض للبحث والنقاش والمناظرة فى الصالونات الأدبية كانت أوسع وأعمق من تلك التى كانت تعرض فى مجالس الخلفاء الراشدين .

وللصالونات الأدبية آداب خاصة ، وتقاليد معيّنة ، يجب أن يرعاها أولئك الذين كان يسمح لهم بحضورها ، وقد سجلها مفصلة الصابى فى كتابه « رسوم دار الخلافة » (مخطوط) وكشاجم فى كتابه « أدب النديم » ونحن نقتبس منهما طرفاً يتحتم إيراده فى هذا المقام :

« فالداخل إلى حضرة الخليفة ، أو إلى مجلس سمره ، يجب أن يكون نظيفاً فى بزته وهيئته ، وقوراً فى خطوه ومشيته ، متبخراً بالبخور الذى تفوح روائحه . . وأن يتجنب منه ما يعلم أن السلطان يكرهه[٤] ، فإذا دخل الداخل إلى حضرة الخليفة قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . . وربما تقدم الداخل إذا كان وزيراً أو كبيراً فأعطاه الخليفة يده مغشاة بكمه إكراماً له بتقبيلها ، وأما ولاة العهود والأهل من بنى هاشم والقضاة والفقهاء فلا يقبلون يد الخليفة ويقتصرون على السلام[٥] .

---

(١) التاج ١١٩ ـ ١٢٠ (٢) التاج ٤٩ ـ ٥٠
(٣) الوفيات ١ : ٢١ (٤) الصابى ٤٦ ، ٤٧
(٥) ملخص من صفحتى ٤٥ ، ٤٦ من رسوم دار الخلافة

«ويأخذ الداخل مكانه المناسب لترتيبه من غير أن يتجاوزه إلا استجابة لدعاء الخليفة ، وعلى الجالس أن يقلل الالتفات إلى جانبيه وورائه ، والتحريك ليده أو شيء من أعضائه ، وأن يغض طرفه عن كل مرئى إلا شخص الخليفة وحده ، وألا يسارّ أحداً فى مجلسه ولا يشير إليه ، ولا يقرأ رقعة ولا كتاباً بين يدى الخليفة إلا ما احتاج الخليفة إلى قراءته وأذن له فيه ، ولا يخاطب من يخاطبه فى تعرّف أمر منه أو إقامة حجة عليه إلا بأخف الألفاظ وأشد الاستيفاء ، وأن يمتنع من الضحك وإن جرى ما يوجبه . . . وليعلم أن أجل ما يكون الإنسان فى عين صاحبه إذا كان شخصاً صمتاً ، وجسماً صلداً ، لا يخرج منه شيء كالبصاق والمخاط ، ولا يدخل إليه شيء كالطعام والشراب ، على أن الثانية تجوز مع الاخوان والجلساء ، وتحرم مع الرؤساء ، وأما الأولى فتقبح مع الجميع[1] .

«وليس لحاضر مجلس الخليفة أن يذكر شيئاً إلا مايسأل عنه ، أويورد قولا اختياراً أو مطالعة إلا ما استأذن فيه ، وسبيله أن يخفض صوته فى حديثه ومحاورته، ولا يرفعه إلا بقدر السماع الذى لا يحتاج معه إلى استفهامه واستعادته[2] وأن يتجنب ايراد حكاية تستحل أو لفظ يسترذل ، وليصغ الجالس إلى الخليفة إذا تحدث حتى يفهم قوله دون أن يستعيده ، فاستعادة الخليفة ليست من الآداب اللائقة[3] ».

ويوصى كشاجم[4] الجليس أن يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن الكلام ، وحسن الاستماع إمهال المتحدث حتى ينقضى حديثه ، والإقبال

(١) رسوم دار الخلافة ملخص من صفحة ٥٠ — ٥١ — ٥٢
(٢) المرجع السابق ص ٤٩ (٣) المرجع السابق ص ٥٣
(٤) أدب النديم ٣٢ — ٣٥

عليه بالوجه والنظر ، والوعى لما يقول ، فلا يشغل السامع طرفه عن المتحدث بنظر ، ولا أطرافه بعمل ، ولا قلبه بفكر ، ولا يسابقه إلى حديث يبدأ به ، لمعرفة السامع بذلك الحديث بل يريه من الارتياح له ، والتعجب منه ، ما يوهمه أنه لم يخطر بباله ، ولا وقر فى سمعه . ويضيف كشاجم(١) قوله : ومن أدب الحديث ألا يُقتَضب اقتضاباً . ولا يُهجَم عليه ، وأن يتوصل إلى اجترار بما يشاكله ، ويُسَبَّب له ما يحسن أن يجرى معه فى غرضه . . . وأحلى للحديث وأحسن لموقعه أن يتنكب منه الطوال ، ذوات المعانى القلقة والألفاظ الوحشية ، فإنهم لم يزالوا يمدحون الأحاديث بالقصر قال عبد الله بن المعتز :

بين أقداحهم حديث قصير ... هو سحر وما سواه كلام(٢)

وقال آخر :

إذا هن حدثن الحديث قَضَيْنَه ... ومنَّيْنَنا أن الحديث يعاد

ومن أدب الحديث ألا يكثر المحدث التبسم والقهقهة ؛ قال نجاح بن سلمة للمتوكل لما دعاه إلى منادمته : فىَّ خصال لا تصلح معها منادمة الخلفاء ، قال : وما هى ؟ قال : سلس البول ، وأبتسم إذا حدثت ،

---

(١) أدب النديم ٣٣ ـ ٣٤

(٢) هذا البيت من قصيدة عبد الله بن المعتز التى يقول فيها :

قد نهانى الإمام عن سفه الكأ ... س فردت على السقام الملام
عفتها مكرهاً ولذات عيش ... قام بينى وبينهن الإمام
ولقد حث بالمدامة كفى ... غصن بان عليه بدر تمام
عجباً ينهب العيون ويشتا ... ق إليه التقبيل والالتزام
وندامای فى شباب وحسن ... أتلفت ما بهم نفوس كرام
بين أقداحهم حديث قصير ... هو سحر وما سواه كلام

ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٣

ولا أقدر من الشرب على أكثر من رطلين . فقال له : من حق صدقك أن نسامحك فيها[1] .

وكان الخلفاء يعدون أنفسهم حماة للعلم ، ويرون أن قصورهم يجب أن تكون مركزاً تشع منه الثقافة والعرفان ، ومثابة يلتقى فيها العلماء والأدباء ومن أجل هذا نجد أن المعتضد بالله لما أراد بناء قصره (الشماسية) ببغداد استزاد فى الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد ، فسئل عن ذلك ، فذكر أنه يريده ليبنى فيه دوراً ومساكن ومقاصير ، يرتب فى كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ويجرى عليهم الأرزاق السنية ، ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه[2] .

وعلى هذا أصبح تاريخ الصالونات الأدبية مرتبطاً بتاريخ القصور ، وبخاصة قصور الخلفاء ، فبدأت الصالونات منذ تربع فى قصر شاهق معاوية الخليفة الأموى الأول، روى المسعودى[3] أن عبدالله بن هاشم حضر ذات يوم مجلس معاوية، فقال معاوية : من يخبرنى عن الجود والنجدة والمروءة ؟ فقال عبدالله: ياأمير المؤمنين ؛ أما الجود فابتذال المال والعطية قبل السؤال ، وأما النجدة فالجراءة على الإقدام والصبر عند ازورار الأقدام ، وأما المروءة فالصلاح فى الدين والإصلاح للمال والمحاماة عن الجار .

وكان معاوية يستدعى إلى مجلسه بعض العلماء والأدباء وأرباب السير ليقرءوا له ويحدثوه عن تاريخ العرب ، ومواقعهم الشهيرة ، كما كان يستدعى من لهم خبرة بتاريخ الفرس والروم فيحدثوه عن الأباطرة والأكاسرة ، ونظم حكوماتهم

---

(١) كشاجم : أدب النديم ص ٢٥ .

(٢) المقريزى ٢ : ٣٦٢ ـ ٣٦٣ (٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٩

وإداراتهم وسير الأمور فى ممالكهم[١] .

ويحكى العاملى[٢] أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصه ، وأهل مسامرته ، فقال : أيكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه مرتبة وله علىّ ما يتمناه ؟ فقام إليه سويد بن غفلة فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين . فقال : هات . فقال سويد : أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ .... فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال : يا أمير المؤمنين ، أنا أقولها فى جسد الإنسان مرتين . فقال سويد : أنا أقولها ثلاثاً . وأنشأ : أنف أسنان أذن . . . فأجازه عبد الملك : وأنعم عليه ، وبالغ فى الإحسان إليه[٣] .

ويروى أبو الفرج الأصفهانى[٤] أن أعرابيًا حضر مجلس عبد الملك بن مروان أيضاً وكان جرير حاضراً فسأل عبد الملك الأعرابى ، من أنت ؟

---

(١) نفس المصدر ج ٥ : ٧٧ — ٧٨ Ed : Barbier De Meynard

كان يغلب على مجالس الخلفاء أن تكون مسرحاً للمناظرات العلمية والأدبية وكان المقصود بها خدمة الثقافة بالإضافة الى الترويح والترفيه ، ولكن الدهاة من الخلفاء كانوا ينحرفون فى بعض الأوقات بهذه المجالس الى دراسة التاريخ ، وأعمال القواد ، وأشهر الوقائع وحوادث الشجاعة ، ليستعينوا بذلك على مقابلة مشكلات مماثلة كانت تواجههم ، وقد فعل ذلك معاوية كما ذكر أعلاه ، وفعله أيضا مروان بن محمد الذى كانت تقرأ فى مجلسه سير الملوك وأخبارهم ، ولم ينقطع عن ذلك حتى فى أشد الأوقات حرجا ، يوم كان أبو مسلم الخراسانى على وشك السيطرة على خراسان (المسعودى ٢ : ٢٠٢) وسار أبو جعفر المنصور هذه السيرة إذ كان أيضا المؤسس الحقيق لدولة العباسيين وكان فى حاجة الى ثقافة من هذا اللون .

ولعل السبب فى توجيه المجالس الأدبية هذا الاتجاه هو — كما مر — رغبة الخلفاء فى الاستفادة بخبرة السابقين ، ثم إنه كان من عادة الخلفاء الدهاة أن يوقفوا فى الظروف الحالكة كل مظاهر الترف والترفيه ، وأن يتجهوا بكل مرافق الدولة الى الجد والحزم ، ومما يدل على ذلك أنهم فى هذه الظروف كانوا يعتزلون النساء والطيب ، كما فعل عبد الملك بن مروان حينما كان الحجاج يحارب الأشعث وكما فعل مروان بن محمد أيام انتفاض خراسان وأنشد عبد الملك فى ذلك :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بأطهار

(المسعودى ٢ : ٢٠٢ — ٢٠٣)

(٢) الكشكول ١٥٥ ، (٣) القصة كاملة فى الكشكول . (٤) الأغانى ٧ : ٥٤ — ٥٥

قال : أنا رجل جانَبتى عنعنة تميم وأسد ، وكسكسة ربيعة ، وحوشى أهل اليمن وإن كنتُ منهم . فقال : من أيهم أنت ؟ قال : من أخوالك من عذرة . قال : أولئك فصحاء الناس ، فهل لك علم بالشعر ؟ قال : سلنى عما بدا لك يا أمير المؤمنين . قال : أى بيت قالته العرب أمدح ؟ قال : قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راح

فرفع جرير رأسه وتطاول ، ثم قال عبد الملك : فأى بيت قالته العرب أفخر ؟ قال : قول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

فتحرك جرير ، ثم قال عبد الملك : فأى بيت أهجى ؟ قال : قول جرير :

فغضّ الطرف أنك من نُمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

فاستشرف جرير لذلك ، ثم قال عبد الملك : فأى بيت أغزل ؟ قال : قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فاهتز جرير وطرب ، ثم قال عبد الملك : فأى بيت أحسن تشبيهاً ؟ قال : قول جرير :

سرى نحوهم ليلٌ كأن نجومه قناديلُ فيهن الذُّبال المفتَّلُ

فقال جرير : جائزتى للعذرى يا أمير المؤمنين . فقال له عبد الملك : وله مثلها من بيت المال ، ولك جائزتك يا جرير لا ننتقص منها شيئاً . وكانت جائزة جرير ٤٠٠٠ درهم وتوابعها من الحملان والكسوة . فخرج العذرى وفى يده اليمنى ثمانية آلاف درهم وفى اليسرى رزمة ثياب .

واجتمع جرير والفرزدق عند بشر بن مروان ، فقال لهما بشر : إنكما قد تقارضتما الأشعار ، وتقاولتما الفخر ، وتهاجيتما ، فأما الهجاء فليس بى إليه حاجة ، فجددا بين يدىّ فخراً ودعانى مما مضى . فقال الفرزدق :

نحن السّنام والمناسِمُ غيرُنا ... فمن ذا يساوى بالسنام المناسما(١)

فقال جرير :

وأبأتمونا أنكم هام قومكم ... ولا هامَ إلا تابع للخراطم

فقال الفرزدق :

فنحن الزّمام القائدُ المقتدَى به ... من الناس ، مازلنا ، ولسنا لهازما(٢)

فقال جرير :

فنحن بنى زيد قطعنا زمامها ... فتاهت، كسارٍ طائش الرأس عارم

فقال بشر : غلبته يا جرير بقطع الزمام وذهابك بالناقة وأحسن الجائزة لهما ، وفضل جريراً(٣) .

وكان عدىُّ بن الرّقاع شاعراً مقدّماً عند بنى أمية ، مدّاحاً لهم ، خاصاً بالوليد بن عبد الملك ، وله بنت شاعرة يقال لها سلمى ، فأتاه ناس من الشعراء مرة ليعارضوه فى الشعر ، وكان غائباً ، فعرفت سلمى ذلك فخرجت إليهم وأنشأت تقول :

تجمعتم من كل أوب وبلدة ... على واحد ، لا زلتم قِرْن واحد

فأفحمتهم ، وقد حدثت لعدى أحداث طريفة فى مجلس الوليد بن عبد الملك ،

(١) المناسم جمع منسم وهو طرف خف البعير .
(٢) اللهازم أوساط الناس لا أشرافهم كما فى تاج العروس .
(٣) الاغانى ٧ : ٥٢ ، ٥٣

فلقد اجتمع مرة عند الوليد عدىّ وجرير ، فقال الوليد لجرير : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، ياأمير المؤمنين . فقال الوليد : هذا عدى بن الرّقاع . فقال جرير : فشرُّ الثياب الرقاع ، فمن هو ؟ قال : من عاملة . قال جرير : من التى قال الله تعالى فيها : عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية[1] ! !

وجمعه مجلس الوليد مرة مع كثيِّر ، وقد كان يبلغه عن عدى أنه يطعن على شعره ، فأخذ عدى ينشد الخليفة قصيدة مدح حتى أتى على قوله :

وقصيدة قد بتُّ أجمع بينهـا حتى أقوِّم ميلهـا وسِنادها

فقال له كثير : لو كنت مطبوعاً أو فصيحاً أو عالماً لم تأت فيها بميل ولاسناد فتحتاج إلى أن تقوّمها . ثم أنشد :

نظر المثقِّف فى كعوب قَناته حتى يقيم ثِقافُه مُنـآدها

فقال له كثير : لا جرم أن الأيام إذا تطاولت عليها عادت عوجاء ، ولأن تكون مستقيمة لا تحتاج إلى ثِقاف أجود بها . ثم أنشد :

وعلمت حتى ما أسائل واحـدا عن علم واحدةٍ لكى ازدادها

فقال كثير : كذبت ورب البيت الحرام . . . ما كنت قط أحمق منك الآن حتى تظن هذا بنفسك . فضحك الوليد ومن حضر وقُطِعَ بعدى حتى ما نطق[2] .

هذه صور خاطفة لمجالس الأدب فى العهد الأموى ، وهى كما يبدو ساذجة باهتة ، فلما قامت الدولة العباسية واستقرت ، بدت الصالونات

---

(١) سورة ٨٨ : آية ٣

(٢) انظر ترجمة عدى فى الأغانى ٨ : ١٧٩ وما بعدها .

الأدبية بمعناها الصحيح تظهر في العالم الإسلامى ، واتخذت هذه الصالونات أهبتها العلمية ، لتناسب ذلك العصر الذى برزت فيه الحضارة الأجنبية ، وبخاصة مدنيّه الفرس : وأصبحت هذه الصالونات تعقد فى أوقات منتظمة وشملت مع قصور الخلفاء قصور الأمراء والعظماء ، واتُخِذ لها الأثاث الفاخر والرياش لتناسب السعة والرفاهية اللتين نعمت بهما الدولة فى ذلك الحين ، ثم تنوعت الصالونات فأصبحت للآداب أو العلوم أو الفنون (ومنها الغناء والموسيقى) لتناسب الحياة الثقافية المتنوعة الأطراف آنذاك ، ولكن مجالس العلم والأدب ظلت أرفع هذه المجالس قدراً ، وأعظمها قيمـــة ، يدل على ذلك ما ورد فى الأغانى [1] أن إسحاق الموصلى سأل المأمون أن يكون دخوله إليه مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنين ، فإذا أراده للغناء غنّاه . فأجابه إلى ذلك ، ثم سأله بعد حين أن يأذن له فى الدخول مع الفقهاء ، فأذن له .

وقد بدأ النشاط الواسع يظهر فى عهد الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) إذ كان الخليفة نفسه فى درجة عالية من الثقافة والمعرفة ، ثم كانت الدولة قد وصلت إلى حياة الاستقرار بعد أن اجتازت مرحلة الخطورة التى تواجه الدول عند قيامها ، ففى مجلس الرشيد كانت تعقـد مناظرات بين الشعراء ، ومناقشات بين الفقهاء ومساجلات بين أهل الفنون والأدباء .

وكانت هالة الرشيد فى بغداد تتكون من أسماء لامعة ، جمعها الرشيد حوله ممن لهم باع طويل فى ناحيـة من نواحى الثقافة ، ومن هؤلاء ، من الشعراء : أبو نواس ، وأبو العتاهية ، ودعبل ، ومسلم بن الوليد ، والعباس ابن الأحنف ، ومن الموسيقيين : ابراهيم الموصلى ، وابنه إسحاق ، ومن

---

(١) ج ٦ ص ٦٠

اللغويين : أبو عبيدة ، والأصمعى ، والكسائى ، ثم ابن السماك الواعظ ، والواقدى المؤرخ ، وكثير غير هؤلاء[١] .

ومن أهم المناظرات التى حدثت فى مجلس الرشيد تلك المناظرة اللغوية الشهيرة التى حدثت بين سيبويه والكسائى والتى زعم الكسائى فيها أن العرب تقول : كنت أظن الزنبور أشد لسعاً من النحلة فإذا هو إياها ، فقال سيبويه : بل الصحيح فإذا هو هى ، فتشاجرا طويلا واتفقا على مراجعة عربى خالص لايشوب كلامه شىء من كلام أهل الحضر . وكان الأمين شديد العناية بالكسائى لكونه معلمه ، فاستدعى عربيًا وسأله ، فقال كما قال سيبويه . فقال له : نريد أن تقول كما قال الكسائى . فقال : إن لسانى لا يطاوعنى على ذلك ، فإنه ما يسبق إلا إلى الصواب . فقرروا معه أن شخصا يقول : قال سيبويه كذا وقال الكسائى كذا فالصواب مع من فيهما ؟ فيقول العربى : مع الكسائى . فقال العربى « هذا يمكن » ثم عقد لهما المجلس ، واجتمع أئمة هذا الشأن ، وحضر العربى وقيل له ذلك ، فقال : الصواب مع الكسائى وهو كلام العرب ، فعلم سيبويه أنهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائى فخرج من بغداد[٢] .

ومن المناظرات الطريفة التى حدثت فى مجلس الرشيد ، تلك المناظرة التى جرت بين الفقيه أبى يوسف والكسائى النحوى ، إذ ادّعى أبو يوسف أن الكسائى إنما يحسن شيئاً من كلام العرب . وقال الكسائى : من تبحر فى علم اهتدى به إلى جميع العلوم . فقال له محمد : ما تقول فيمن سها فى سجود السهو ، هل يسجد مرة أخرى ؟ قال الكسائى : لا . فسأله محمد : لماذا ؟ فأجاب الكسائى : لأن النحاة تقول : المصغر لا يصغر[٣] .

(١) Nicholson : A Literary History of the Arabs p. 261

(٢) ابن خلكان ١ : ٥٤٥ ، ومجالس أبى مسلم مخطوط ٢ ب ، ٣ أ .

(٣) ابن خلكان ١ : ٤٦٩ ، وانظر كذلك ابن الأنبارى ٩١ — ٩٣ .

وفى نفس الوقت كان يحيى بن خالد ذا بحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل ، ويبدو أن هذا المجلس كان مجلساً خصباً للغاية ، يتناول علوماً شتى ، يدل على ذلك ما رواه المسعودى من أن يحيى قال لهم مرة : قد أكثرتم الكلام فى الكمون والظهور ، والقدم والحدوث ، والإثبات والنفى ، والحركة والسكون ، والمماسة والمباينة ، والوجود والعدم ، والأجسام والأعراض ، والتعديل والتجرير ، والكمية والكيفية ، والإمامة أنص هى أم اختيار ، وسائر ما توردونه من الكلام فى الأصول والفروع ، فقولوا الآن فى العشق . فقال على بن الهيثم : أيها الوزير ، العشق ثمر المشاكلة ، وهو دليل على تمازج الروحين . . . . وقال أبو مالك الحضرمى وهو خارجى المذهب : العشق نفث السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر[١] .

أما عهد المأمون فكان كما يصفه Hughes[٢] أزهر فترة فى تاريخ النهضة بالعالم الإسلامى ؛ إذ كان الخليفة نفسه عالماً من أساطين العلماء ، واختار أصحابه ورجال دولته من الصفوة الأفذاذ فى الشرق والغرب ، هذا إلى جانب الأساتذة والمستشارين والمترجمين والمفكرين الذين حلى بهم بلاطه وزين ملكه . ويضيف سيد أمير على[٣] : أن بلاط المأمون كان يموج بجمهرة عظيمة من رجال العلم والأدب ، والشعراء والأطباء والفلاسفة ، الذين استدعاهم المأمون من جهات متعددة من العالم المتمدين ، وشملهم جميعاً بعنايته ، مهما اختلفت مشاربهم أو جنسياتهم .

وكثيراً ما أخذ المأمون نفسه دوراً رئيسياً فى المناظرات التى كانت

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٨٣ — ٢٨٤

(٢) Dictionary of Islam 295 - 296

(٣) A Short History of the Saracens, p. 278

تدور فى مجلسه ، فقد روى أنه قال مرة لمن حضره من جلسائه : أنشدونى بيتاً لملك ، يدل البيت وإن لم يعرف قائله أنه شعر مَلِكٍ ، فأنشده بعضهم قول امرىء القيس :

أمن أجل أعرابية حل أهلها   جنوب الملا عيناك تبتدران[1] ؟

قال : وما فى هذا مما يدل على الملك ؟ قد يجوز أن هذا سوقة من أهل الحضر ، فكأنه يؤنب نفسه على التعلق بأعرابية : ثم أجاب المأمون عن السؤال بقوله : الشعر الذى يدل على أن قائله ملك قول الوليد :

لى المحض من ودّهم   وإليهم نائلى

فهذا قول من يقدر بالملك على المنح الغامر ، ولا يَطلُب من الممنوح إلا الولاء ومحض الود[2] .

وفى مجلس آخر كان الحوار مذهبياً ، فسأل المأمون علياً الرضا : بم تدّعون هذا الأمر ؟ قال بقرابة على من النبى صلى الله عليه وسلم وبقرابة فاطمة رضى الله عنها . فقال المأمون : إن لم يكن ها هنا شىء إلا القرابة فى خلف رسول الله من أهل بيته من هو أقرب إليه من على ، ومن هو فى القرابة مثله ، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس لعلى فى هذا الأمر حق ، وهما حيان ، وإذا كان الأمر على ذلك فإن علياً قد ابتزهما جميعاً وهما حيان صحيحان ، واستولى على على مالا يجب له ، فما أحار على ابن موسى نطقاً[3] .

---

(١) الملا : موضع .
(٢) الأغانى ج ٧ ص ١١٥ طبعة الساسى .
(٣) عيون الأخبار : الكتاب الثانى ١٤٠ – ١٤١

واستفادت هذه المجالس استفادة واضحة من التطور العلمى والترجمة اللذين كانا طابع ذلك العهد ، ووجدت هذه العلوم طريقها إلى مجالس المأمون فازدهرت ونمت نمواً واضحاً ، شأنها فى ذلك شأن العلوم الدينية واللسانية .

واعتنق المأمون مذهب المعتزلة وهم أرباب النظر دون جميع الناس ، والكلام لهم دون سواهم[1] . فكان انضمام المأمون لهم فاتحة عهد جديد لمذهبهم ، حتى أصبحت الدولة دولتهم ، والكلمة كلمتهم ، وكانوا لا يعتمدون على السلطان بقدر ما كانوا يعتمدون على المنطق ، وقوة الجدل ، وسلامة الحجة ، فإذا أفلس مناظرهم ولم يعتنق رأيهم بعد عجزه عن الاستمرار فى المناظرة فقد حقت عليه كلمة العذاب ، إذ كان مذهب المأمون : من لم يردعه النطق والبيان، فليردعه بطش السلطان . ولما كانت المناظرة والجدل من أهم ما كان يعتمد عليه المعتزلة فى نشر آرائهم فقد وضعوا أسسًا تعتبر بحق قواعد علم البحث والمناظرة قد رُوى « أنه اجتمع متكلمان فقال أحدهما : هل لك فى المناظرة ؟ فقال على شرائط : ألاَّ تغضب ، ولا تعجب ، ولا تشغب ، ولا تحكم ، ولا تُقبل على غيرى وأنا أكلمك ، ولا تجعل الدعوى دليلا ، ولا تجوز لنفسك تأويل آية على مذهبك ألا جوزتَ لى تأويل مثلها على مذهبى ، وعلى أن تؤثر التصادق ، وتنقاد للتعارف ، وعلى أن كلاًّ منا يبنى مناظرته على أن الحق ضالته ، والرشد غايته »[2] وكان عهد المأمون سلسلة انتصارات للمعتزلة فى مجالس البحث والمناظرة الكثيرة التى عقدوها مع الشيعة ، والملحدين من الدهرية،

---

(١) الخياط المعتزلى : الانتصار والرد على ابن الروندى ص ٧٢

(٢) محاضرات الأدباء للأصفهانى ١ : ٤٥

والثنوية ، وسواهم ، فقد ناظر أبو الهذيل العلاف صالح بن عبد القدوس لما قال فى العالم إنه من أصلين قديمين : نور وظلمة ، وكانا متباينين فامتزجا . فقال أبو الهذيل : فامتزاجهما أهو هما أم غيرهما ؟ قال : بل أقول : هو هما . فألزمه أن يكونا ممتزجين متباينين إذ لم يكن هناك معنى غيرهما ، ولم يرجع ذلك إلا إليهما . فانقطع وأنشأ يقول :

أبا الهذيل جزاك الله من رجل فأنت حقاً لعمرى مفصل جدِل

ومات لصالح هذا ابن فمضى إليه أبو الهذيل ومعه النظام وهو غلام حدث ، فرآه حزيناً فقال له : لا أعرف لجزعك وجها إلا إذا كان الإنسان عندك كالزرع (حصاده فى وقت معين) فقال : إنما أجزع لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك قال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته ، من قرأ فيه شكّ فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وشكّ فيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان . قال أبو الهذيل : فشُكَّ أنت فى موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت وإن كان قد مات ، وشكّ أنه قد قرأ ذلك الكتاب وإن كان لم يقرأه[1] .

ويحفل كتابه الانتصار والرد على ابن الروندى بمجالس ومناظرات رائعة كان النصر فيها دائماً لأئمة المعتزلة[2] .

وقد اتصل كثير من المعتزلة بالفلسفة اليونانية ، وتزودوا منها بما يساعدهم ، ويضمن انتصاراتهم ، كما فعل أبو الهذيل العلاف . وابراهيم النظام[3] ، ودرسوا كذلك المذاهب الأخرى ليتعرفوا مواطن الضعف

---

(١) أحمد بن يحيى المرتضى : المنية والأمل ص ٢٧

(٢) انظر مثلا الصفحات ٣٠ – ٣٦ ، ١٤٤ – ١٥٢

(٣) انظر المنية والأمل ص ٢٦

فيها وايعدُّوا أنفسهم للرد عليها . ومن أشهر هؤلاء واصل بن عطاء الذى يقول عنه عمَرو بن عبيد : ليس أحد أعلم بكلام غالية الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة ، والدهرية ، والمرجئة ، وسائر المخالفين والرد عليهم ، منه[1] .

وكانت مسألة خلق القرآن أهم موضوع جدلى أثير فى عهد المأمون ، وقد اعتنق المأمون رأى المعتزلة فيه ، ولم يدع للناس حرية ما يعتقدون فى هذه المسألة ، بل رأى أن من لم يقل بخلق القرآن فهو مطعون فى دينه ، وكانت وسيلته الأولى الإقناع والمناظرة ، ومن ثم حفلت المجالس بالقول والجدل فى هذا الموضوع الخطير ، وقد دونت كتب الأدب والتاريخ صوراً من هذه المناظرات[2] التى عاشت بعد المأمون طيلة عهدى المعتصم والواثق وصدراً من عهد المتوكل[3] .

ولندع الآن عهد المأمون الزاخر بالعلم والمعرفة ، ولنسر إلى العهود التالية له :

فى مجلس من مجالس الأدب والمناظرة التى عقدت فى عصر الواثق تلاحى مخارق وحسين بن الضحاك فى أبى العتاهية وأبى نواس أيهما أشعر ، وكانت الملاحاة على مال ، فاتفقا على اختيار شعر من شعريهما يتناظران فيه ، فاختار الحسين بن الضحاك شيئاً من شعر أبى نواس جيداً قوياً لمعرفته بذلك ، واختار مخارق شيئاً من شعر أبى العتاهية ضعيفاً غزلا لا لشىء عرفه فيه إلا لأنه استملحه وغنّاه . واختار الواثق أبا محلم

---

(١) انظر المنية والأمل ص ١٨ (٢) انظر طبقات الشافعية ١ : ٢٠٥ ـ ٢١٥ .

(٣) ابتدأت محنة خلق القرآن ـ كما اصطلح على تسميتها ـ سنة ٢١٨ هـ وظلت حتى سنة ٢٣٤ هـ . واقرأ تفاصيلها فى « التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » للمؤلف ج ٣ ص ١١٠ وما بعدها من الطبعة الرابعة .

ليتحاكما إليه بالشعرين ، فحكم أبو محلم لحسين بن الضحاك . فقال مخارق : لم أحسن الاختيار للشعر ، ولأبى العتاهية خير مما اخترت وقد اختار حسين أجود ما قدر عليه لأبى نواس لأنه أعلم منى بالشعر ولكنا نتناظر بالشاعرين ففيهما وقع الجدال فحكم أبو محلم لأبى نواس وقال : هو أشعر ، وأذهب فى فنون الشعر ، وأكثر إحساناً فى جميع تصرفه . فأمر الواثق بدفع المال إلى الحسين ابن الضحاك وانكسر مخارق[١] .

وبموت الواثق انتهى عهد الخلفاء الأقوياء ، ذوى الهيبة والجلال ، وبدأ عهد الانحلال السياسى ، ولكن بعد أن أُشرب القادة والأمراء حب العلم والأدب ، وأصبحوا يجدون متعة ولذة فى حماية العلم ، وتكوين مجالس له على غرار تلك التى كان يعقدها الخلفاء . وعلى هذا فالتدهور السياسى صحبته نهضة علمية ، وضعف العاصمة واضمحلالها نشأ عنه عدة عواصم كل منها مثلت دور بغداد بنجاح عظيم ، يقول Khuda Bukhsh[٢] :

« وفى الممالك المستقلة أو شبه المستقلة التى انقسم لها العالم الإسلامى ، قامت أسر حاكمة ، وكانت هذه ينافس بعضها بعضاً فى حماية العلم والمتعلمين ، فأصبحت القصور الجديدة فى العواصم المتعددة مراكز ثقافية خصبة ، وكانت تلك القصور وما فيها من مجالس فى ذلك العهد تقوم مقام الجامعات اليوم »[٣] .

ولا يتسع المقام هنا بطبيعة الحال أن نلم بهذه العواصم جميعًا ، وأن نتتبع كل قصر من هذه القصور لنرى ماأسداه للعلم والتعليم من فضل ، وعلى هذا فسنجتزئ الموضوع بإعطاء أمثلة قليلة :

---

(١) الأغانى ٦ : ١٨٦

(٢) Contribution to the History of Islamic Civilization p. 184.

(٣) انظر أيضا ظهر الإسلام: ٢٨٧

ذكر أبو حيان التوحيدى فى الإمتاع والمؤانسة[1] أن مجلس الوزير ابن الفرات (أبو الفضل جعفر) انعقد مرة سنة ٣٢٦، وفيه أبو سعيد السيرافى، والخالدى، وابن الأخشاد، والكتبى، وابن أبى بشر، وابن رباح، وابن كعب، وقدامة بن جعفر، والزهدى، وعلى بن عيسى الجراح، وابن أبى فراس، وابن رشيد، وابن عبد العزيز الهاشمى، وابن يحيى العلوى، وأبو بشر متّى، ورسول ابن طغج من مصر، والمرزبانى صاحب آل سامان. فقال الوزير: ألا ينتدب منكم إنسان لمناظرة متّى فى حديث المنطق؟ فإنه يقول: لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل، والصدق من الكذب، والخير من الشر، والحجة من الشبهة، والشك من اليقين، إلا بما حويناه من المنطق... فأحجم القوم. فقال ابن الفرات: والله إن فيكم لمن يفى بكلامه ومناظرته، فإنى لأعدكم فى العلم بحاراً.. فقال السيرافى: أعْذِرْ أيها الوزير؛ فإن العلم المصون فى الصدر، غير العلم المعروض فى هذا المجلس على الأسماع المصيخة والعقول الحادة... فقال ابن الفرات: أنت لها يا أبا سعيد، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك، والانتصار لنفسك راجع إلى الجماعة بفضلك، فقبل أبو سعيد ودارت مناقشة طريفة ممتعة ذكرها كلها أبو حيان التوحيدى. نورد هنا منها مسألة فرعية وصلت لها المناقشة:

قال أبو سعيد: ما تقول فى قول القائل: زيد أفضل الأخوة؟

قال متى: صحيح.

قال أبو سعيد: فما تقول إن قال: زيد أفضل إخوته؟

قال متى: صحيح أيضاً.

---

(١) ج ١ من ص ١٠٨ إلى ص ١٢٨

قال أبو سعيد : فما الفرق بينهما مع الصحة ؟ فغصّ متى بريقه ولم يجب .

فقال أبو سعيد : أفتيت على غير بصيرة ولا استبانة ؛ المسألة الأولى جوابك عنها صحيح وإن كنت غافلا عن وجه صحتها ، والمسألة الثانية جوابك عنها غير صحيح وإن كنت أيضاً ذاهلا عن وجه بطلانها .

قال متى : بين لى ما هذا .

قال أبو سعيد : ليس هذا مكان التدريس ، إذا حضرت الحلقة استفدت .

قال ابن الفرات : تمم لنا كلامك فى شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرة للمجلس .

قال أبو سعيد : زيد أفضل الأخوة صحيح لأن زيداً بعض الأخوة وأحدهم ، فكأنك تقول حمارك أفره الحمير ، وأما زيد أفضل إخوته فخطأ لأن زيداً ليس بعض إخوته إذ أن إخوته غيره فكأنك قلت حمارك أفره البغال .

وهناك مجلس آخر ذو شأن كبير فى تاريخ الصالونات الأدبية ، ذلك هو مجلس أبى عبد الله الحسين بن سعدان (٣٧٥ هـ) وزير صمصام الدولة ، فقد سأل ابن السعدان أبا حيان التوحيدى الأديب الكبير أن يمضى أمسياته فى مجلسه ، واستجاب أبو حيان لدعوة الوزير ، فكانا يناقشان موضوعات فلسفية بالغـــة الأهمية كحياة الإنسان ، وطبيعة الروح ، ومميزات ذوى الشأن من المعاصرين ، ومواهب العرب البارزة موازنةً بمواهب غير العرب من الجنسيات الأخرى ، وأيهما أفيد للحاكم وأدعم

للملك : كتبة الحسابات أم كتبة الرسائل ، وامتياز علوم اللغة وقواعدها على المنطق[١] .

وكان مجلس هذا الوزير حافلا بجلة العلماء والأدباء في ذلك العصر ، منهم — مع أبي حيان — أبو زرعة الفيلسوف النصراني ، وابن مسكويه صاحب تهذيب الأخلاق ، وتجارب الأمم ، وأبو الوفاء المهندس ، وغيرهم ، وكان هذا الوزير يباهي بمجلسه ويفخر به على مجالس الأمراء المعاصرين له ؟ مثل المهلبي ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، فيقول عن مجالسيه : ما لهذه الجماعة شكل ولا نظير ، وأن جميع ندماء المهلبي لا يفون بواحد من هؤلاء ، وأن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم ، وأن ابن عباد ليس عنده إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويتصايحون[٢] .

وقد طلب أبو الوفاء المهندس من أبي حيان أن يجمع له هذه المجالس في كتاب على ما فيها من هزل وجد ، وخير وشر ، وباد ومكتوم ، فاستجاب له أبو حيان[٣] فكان من ذلك كتاب الإمتاع والمؤانسة ، هذا العرض الرائع لهذه المناقشات البديعة ، وهي كما يرى من يطالعها إما أفكار جدّت في ذلك المجلس ، أو حكاية مناظرات حدثت من قبل كالمناظرة التي حدثت في مجلس الوزير ابن الفرات بين أبي سعيد السيرافي ومتى المنطقي وقد سبق إيرادها .

وهناك قصر آخر لو لم يحظ بغير المتنبي يغرّد فيه لكفي لتخليده ورَفْع شأنه ، ذلك هو قصر سيف الدولة الحمداني الذي يحدثنا عنه Prfessor

(١) Von Grunebaum : The Journal of General Education vol.Iv Ocrober 1949 .

(٢) رسالة الصداقة والصديق ص ٣٣

(٣) الامتاع والمؤانسة ص ٧

Gibb[١] فيقول : وانتقل تيار الأدب العربى لمدة بضع سنين إلى شمالى سوريا واتخذ مقراً له مدينة حلب عاصمة الدولة الحمدانية الشيعية المذهب ، وقد استطاع سيف الدولة أن يجمع حوله فى مملكته الصغيرة جماعة قلّ أن تضارع ، إذ كانت متعددة النواحى فى العبقرية ، وقد كان كرمه الفائق سبباً فى أن ينجذب نحوه ذوو الرياسة من أدباء العصر وعلمائه فأحاطوا اسمه بإطار من السمعة الخالدة .

ويقول Nicholson [٢] عن قصر الغزنويين : إن محمود الغزنوى كان شديد الرغبة والحماس فى أن ينال العظمة التى يستحقها ملك جعل من بلاطه ملتقى تدور فيه فنون المناقشات فى الآداب والعلوم التى وصل لها أساطين العلماء فى ذلك العهد . ويعد فيليب حتى[٣] بعض جلساء محمود الغزنوى بقوله : إن مجلس العباقرة ببلاط محمود الغزنوى كان يزدان بالعتبى المؤرخ العربى، والبيرونى المؤلف والعالم الشهير ، كما سطع فيه الفردوسى الشاعر الفارسى اللامع ويقول العينى[٤] : وكان السلطان محمود يحب العلم والعلماء ، ويكرمهم ويجالسهم ، ويحسن إليهم ، وكانت تعقد مناظرات طويلة بين يديه .

وحينما استولى السلاجقة على بغداد وعلى أغلب العالم الإسلامى ، ظهر اسم الوزير نظام الملك الذى كان السلطان الحقيقىّ لدولة السلاجقة الأولى ، وكان هو نفسه فقيهاً وعالماً[٥] ، فكانت تعقد المناظرات فى حضرته ، وقد خرج له الغزالى مرة وناظر الأئمة والعلماء فى مجلسه ، وقهر

(١) Arabic Literature p. 61.

(٢) A Literary History of the Araps p 269.

(٣) History of the Arabs p. 495.

(٤) عقد الجمان ١٦ : ٢٩٧ مخطوط .

(٥) انظر طبقات الشافعية ٣ : ١٣٥ — ١٤٥

الخصوم ، وظهر كلامه على الجميع ... فولاه نظام الملك التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد[1] . وطالما جرت مناظرات بين أبي إسحق الشيرازى وإمام الحرمين أبي المعالى الجوينى بحضرة نظام الملك[2] .

وعند قيام أمارات الأتابك والشاهات على أنقاض السلاجقة ، كان لنور الدين زنكى الذى أصبح ملكا لسورية شغف كبير برعاية الثقافة ، وكان لأهل العلم عنده مجلس عظيم ، وكان يجمعهم عنده للبحث والنظر ، واستقدمهم إليه من البلاد الشاسعة[3] .

ولنعرج الآن على مصر لنخصص للحديث عنها مساحة محدودة بقدر مايسمح المقام ؛ فقد بدأت الصالونات الأدبية فى القصور المصرية منذ ظهرت الدولة الطولونية ، وهى أول دولة استقلت بمصر منذ فتحها العرب،ويروى ابن زولاق:[4] « أنه فى عهد الطولونيين والإخشيديين لم تكن هناك مدارس ، فكانت الدروس تلقى فى قصور الأمراء والوزراء وفى منازل العلماء » . وفى بلاط الإخشيد كانت تلقى أبحاث تاريخية كل مساء ، وقد تربى كافور فى هذا البلاط وترقى إلى أن جعله الإخشيد « أتابك » ولديه ومعلمهما[5] فلما تسلم كافور الأمر أدنى الشعراء وأجازهم ، وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة السيرُ وأخبار الدولة الأموية والعباسية[6] ، وأصبح كافور حامياً للعلم والعلماء ، وامتاز صالونه بأن ازدهى بوجود المتنبى بين جماعته ينشد من شعره الخالد :

ولكن بالفسطاط بحراً أَزَرْتُهُ حياتى ، ونصحى ، والهوى ، والقوافيا
وجرداً مددنا بين آذانها القنا فبتن خفافاً يتبعن العواليا

---

(١) الإحياء ١ : ٣ (٢) ابن الأثير ١٠ : ٨١ .
(٣) مفرج الكروب : ١٦٥ مخطوط (٤) أخبار سيبويه المصرى : ١٩
(٥) ابن خلكان ١ : ٦١٤ (٦) ابن تغرى بردى :النجوم الزاهرة ٤ : ٦

تجاذب فُرسان الصباح أعنَّــــة كأن على الأعناق منها أفاعيـــا
بعزم يسير الجسمُ فى السرج راكباً به ، ويسير القلب فى الجسم ماشيا
قواصدَ كافور ، توارك غـــيره ومن قصــد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنـــا إنسان عـين زمانه وخلّت بياضا خلفهـــا ومآقيا
نجوز عليهـــا المحسنين إلى الذى نرى عنــــدهم إحسانه والأياديا
فتى ما سرينا فى ظهـــور جدودنا إلى عصره إلا نرجى التلاقيـــا(١)

وعلى كل حال فإن مجالس الطولونيين والإخشيديين لتذبل وتتضاءل بالقياس إلى صالونات الفاطميين الباهرة ، فلقد سار الفاطميون ، كما يقول سيد أمير على(٢) على أن يعقدوا مجالس علمية صاخبة من حين إلى آخر ، وقوامُ هـذه المجالس أساتذة دار الحكمة الذين كانوا ينقسمون إلى جماعات تبعاً لمواد دراستهم وتخصصهم ، فكان يجتمع هنا أساتذة المنطق والجدل ، وهناك الفقهاء والمحدثون، وفى مكان ثالث علماء الرياضة ، ويشغل الأطباء مكاناً رابعاً ، وهكذا ، كل واحد من هؤلاء يرتدى الخلعة الجامعية التى تشبه (الروب) الذى يرتديه حملة الدرجات العلمية العليا فى العهد الحاضر .

ورتب يعقوب بن كلس مجلساً فى داره فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، يجتمع فيه العلماء والفقهاء والقضاة ، وتجرى بينهم المناظرات وتصرف لهم المنح والأرزاق(٣) .

وفى سنة ٤٠٣ هـ أحضِر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق ، وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغنى بن سعيـد ، وجماعة من الأطباء إلى حضرة

---

(١) ديوان المتنبى شرح العكبرى ٤ : ٢٨٥ ـ ٢٨٨
(٢) A Short History of the Saracens p, 614,
(٣) المقريزى الخطط : ٢ : ٣٤١

الحاكم بأمر الله ، وكانت كل طائفة تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه ، ثم خلع على الجميع ووصلهم[١] .

وعندما انتقلت السلطة الفعلية من الخلفاء الفاطميين إلى الوزراء العظام ، لم يكن هؤلاء أقل حماسة من الخلفاء ، فقد اجتمع فى بلاط الملك الصالح طلائع بن رُزِّيك أكبر أعيان أهل الأدب ، مثل القاضى الجليس أبى المعالى عبد العزيز بن الحباب ، والموفق بن الخلال ، وابن قادوس ، والمهذب بن الزبير ، وغيرهم ، وقد وصفهم عمارة اليمنى بقوله[٢] : وما فى هذه الحلبة أحد إلا ويضرب فى الفضائل النفسانية والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب ، وما زلت أحذو على طرائقهم ، وأعرض خيرتى فى سوابقهم ، حتى أثبتونى فى جرائدهم . ويقول ابن تغرى بردى[٣] : « إن الصالح جعل له مجلساً فى أكثر الليالى بحضرة أهل الأدب ، ونظم هو شعراً ودوّنه ، وكان الناس يُهرَعون إلى نقل شعره » وفى أحد مجالسه أنشد أحد جلسائه بيتين من الأوزان التى يسميها العراقيون الزكالش ، ويسميها المصريون كان وكان ونصهما :

النار بين ضلوعى ونا غريقٌ فى دموعى
كَنّى فتيلةَ قنديل أموتُ غريقٌ وحريق

فتقدم الصالح إلى جلسائه ، أن يضعوا المعنى فى شعر عربى فصيح ، فقال الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحباب :

وله من الزفرات لفحُ صواعق وله من العَبَرات لَجّ بحار
كذُبالة القِنديل قَدِّر هُلْكها ما بين ماء فى الزجاج ونار

(١) الخطط ١ : ٤٥٩ (٢) النكت العصرية ص ٣٥
(٣) النجوم الزاهرة ٥ : ٣١٣

وصنع القاضي المهذب بن الزبير :

كأني وقد سالت سيولُ مدامعي ... فأذكت حريقاً في الحشا والترائب
ذبالةُ قنديل تعــوم بمائهـا ... وتُشعَلُ فيها النارُ من كل جانب

وصنع الصالح نفسه :

وإذا تُشَبّ النــار بين أضالعي ... قابلتها من عَــبرتي بسيول
فأنا الحريق بل الغريق أموت في ... هـذا وذا ، كذُبالة القنديل[١]

وكان بين سلاطين الأيوبيين ووزرائهم سادة نجب ، وأعلام أفذاذ ، لهم قدم راسخة في العلم والفضل ، من أمثال الملك المعظم عيسى ملك دمشق وفلسطين، ومن أمثال القاضي الفاضل الوزير المشهور ، فلا غرو أن يُعنى أمثال هؤلاء بالصالونات والمجالس الأدبية ، وكان مجلس القاضي الفاضل يلتقي فيه عليه القوم ؛ كتاج الدين الكندي ، وفرخشاه بن شاهنشاه ، وفي إحدى الجلسات أعجب فرخشاه بتاج الدين فقبض على يده وأصرّ أن يأخذه لبيته ليكون زينة صالونه[٢].

وقد ظل نشاط الصالونات الأدبية واضحاً في عهد المماليك ، وليس لي أن أتتبعه بعد ذلك لأعطي نماذج منه ، وحسبي أن أذكر أن الدكتور عبد الوهاب عزام جمع نخبة ونشرها من « مجالس السلطان الغوري »[٣].

٧ ـ البادية

تركزت ثقافة العرب في العهد الجاهلي في الأدب العربي من شعر ونثر وخطابة ، فكان الرجل يُعَد مثقفاً ما كان شاعراً جزلا ، أو ناثراً حكيما ، أو

---

(١) علي بن ظافر : بدائع البدائه ص ١٣٣
(٢) محمود دهان : المقصورة التاجية ص١١ (٣) مطبعة لجنة التأليف بالقاهرة ١٩٤١

خطيباً مفوهاً ، وكانت عواطف الجماهير تتأثر بالأدب تأثراً عميقاً، فهى تنقاد للحرب بقصيدة حماسية ، أو خطبة ملتهبة ، كما تجنح إلى السلم بأبيات للموادعة ، وعبارات للصفح والإخاء . وإعجابُ العرب فى العهد الجاهلى بلغتهم . وتقديرهم لها ، استمر بل زاد بظهور الإسلام ؛ إذ كان الرسول نفسه عربياً مفتناً فى القول ، ثم كان القرآن الكريم فى أرقى درجات البلاغة العربية .

وكانت اللغة العربية حتى عصر صدر الإسلام فصيحة سليمة ، إلا أن اتصال العرب بغيرهم عن طريق التجارة سبّب وجود لحن قليل بينهم ، وكان ارتكاب ذلك اللحن عاراً لا يغتفر وزلة لا تمحى ؛ فلقد رُوِى أن رجلا لحن فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم فقال الرسول لأصحابه : أرشدوا أخاكم فقد ضل .

ومنذ عهد عمر زاد الاختلاط بين العرب والأعاجم ؛ إذ انتشر الإسلام واقتحم بلادَ الفرس وبلاد الروم ، وكانت اللغة العربية تسير مع جيوش المسلمين، فكان انتصار الجيش يتبعه انتصار اللغة ، ثم أصبحت عواصم الامبراطورية الإسلامية (المدينة فدمشق ثم بغداد) مدناً عامة يُهرَع الناس لها من كل فج، مهما اختلفت لغاتهم وجنسياتهم ، وحفلت مدن أخرى كالكوفة والبصرة بعدد كبير من الأجانب ، وبخاصة جماهير الايرانيين الذين كانوا أسرى حرب ، ثم اعتنقوا الإسلام[1] ، وأقبل العرب على التزوج من الأجنبيات إقبالا ملحوظاً ، وفى الأمكنة المقدسة كان يجتمع فيها من اعتنقوا الإسلام من العرب وغيرهم فى موسم الحج ، حيث يقضون بضعة أسابيع .

---

(1) Wellhausen : Arab Kingdom and its Fall p. 71

وكانت اللغة العربية هى لغة التفاهم بطبيعة الحال سواء فى البيوت والقرى، أو فى المدن والعواصم، أو فى موسم الحج. ولكن غير العرب لم يستطيعوا أن يسيطروا على القوانين المعقدة للغة العربية، ولم يستطيعوا أن ينطقوا بها معربة إعراباً صحيحاً، فسد اللسان العربى وظهرت لغة يسميها الجاحظ لغة المولّدين أو البلديين[١]. ولم يقف الخطأ عند غير العرب، بل تعداهم إلى العرب أنفسهم، الذين ظهر هذا اللحن بينهم وفشا.

وكان اللحن — حتى بعد انتشاره — ينظر إليه على أنه شىء مستهجن، يدعو إلى النفور والامتهان، روى أن كاتباً لأبى موسى الأشعرى كتب إلى عمر: «من أبو موسى ..» فكتب عمر إلى أبى موسى: عزمت عليك لما ضربت كاتبك سوطاً[٢]. ودخل أعرابى السوق مرة فسمع الناس يلحنون فقال: سبحان الله! يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح[٣]. وهناك حكايات كثيرة من هذا اللون نمسك عن ذكرها تحاشيا للاستطراد[٤]. ولكن الموقف زاد خطورة عندما تعدى اللحن عامة الناس إلى خاصتهم، فوقع فيه الوليد بن عبد الملك، والحجاج بن يوسف وأبو حنيفة النعمان، وبشر المريسى، وشبيب بن شيبه، وغيرهم من الخلفاء والعظماء[٥]. ثم كان اللحن أكثر خطراً وأدعى لاشمئزاز النفس عندما وقع فى القرآن فغيّر المعنى تغييراً يؤدى بصاحبه إلى الكفر لو كان مقصوداً، كاللحن الذى وقع فى الآية الكريمة «هو الله الخالق البارىء المصوِّر»[٦] إذ قرأها قارىء المصوَّر بفتح الواو، وكالأعرابى

(١) البيان والتبيين ١ : ٦٨ (٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٤

(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٥٩، ابن عبدالبر : أدب المجالسة مخطوط ورقة ٥٥

(٤) انظر البيان ٢ : ٦٠٥ وابن قتيبة عيون الأخبار ٢ : ١٥٨ وابن عبدالبر: أدب المجالسة ٥٥ أ العقد الفريد ١ : ١٨

(٥) العقد الفريد ١ : ١٨ — ٢٠، ابن قتيبة ١ : ١٥٩ البيان ٢ : ٣ — ٥

(٦) سورة الحشر الآية ٢٤

الذى أقرأه رجل سورة براءة ولحن فى تعليمه الآية الكريمة « إن الله برىء من المشركين ورسولِه »[1] فأقرأها له « إن الله برىء من المشركين ورسولِه » بكسر اللام فقال الأعرابى : إن يكن الله برئاً من رسوله فأنا أبرأ منه أيضا[2] .

ويقول ابن خلدون[3] . متحدثا عن تاريخ اللحن فى اللغة العربية ما يلى : « اللغة ملكة فى ألسنة القوم ، يأخذها الآخر من الأول ، كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا ، فلما جاء الإسلام ، وفارق العرب الحجاز لطلب الملك الذى كان فى أيدى الأمم والدول ، وخالطوا العجم ، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التى المتعربين ، والسمعُ أبو الملكات اللسانية ، ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتبار السمع .

وبينما كان اللحن يفشو فى الحضر حيث اختلط العرب بالأعاجم ، بقيت اللغة سليمة تماماً فى الصحراء التى لم تجذب إليها الأعاجم ولا من فسدت لغتهم ، وقد سبق إيراد قصة البدوى الذى جىء به ليكون حكما فاصلا بين سيبويه والكسائى فى الخلاف اللغوى الذى نجم بين الاثنين حول صحة النطق بجملة معينة ، وقد أغرى الأمينُ البدوىَّ أن ينصر الكسائى ، وقَبِل البدوى فكرة التحيز . ولكنه قال : إن لسانى لا يطاوعنى على ذلك ، فإنه لا يسبق إلا للصواب[4] . وعلى هذا أصبح البدو هم الذين تؤخذ عنهم اللغة الصحيحة ، وانتهز البدو هذه الفرصة فوفدوا على القرى والمدن وجلسوا يعلمون الناس . ويعطينا ابن النديم فكرة واضحة عن البدو الذين جاءوا الحضر ، واتخذوا التعليم مهنة لهم ، ومن هؤلاء أبو البيدا الرياحى[5] وأبو جاموس ثور بن يزيد الذى تعلم الفصاحة منه عبد الله

---

(١) سورة التوبة الآية الثالثة (٢) طبقات الأدباء ص٨ (٣) المقدمة ص٤٠٣
(٤) ابن خلكان ١ : ٥٤٩ (٥) الفهرست ص٦٦

ابن المقفع[١] ، وأبو العيثل عبد الله خليد[٢] وعبد الله بن عمرو بن أبي صبح[٣] .

وبينما قنع بعض الناس بالجلوس إلى البدو في القرى والمدن ليتعلموا منهم ، نجد آخرين لا يكتفون بذلك وإنما يهجرون الحضر ويضربون في البادية ليتعلموا اللغة في منبعها الأصيل ، وليتحاشوا سماع لغة المولدين والبلديين ، وعلى هذا نجد البادية في القرنين الأولين للهجرة تقوم بدور المدرسة في الوقت الحاضر[٤] ويقول Hitti في ذلك[٥] : إن صحراء سورية كانت مدرسة الأمراء الأمويين ، فإليها أوفد هؤلاء ليتعلموا اللغة الفصيحة النقية ، وليتذوقوا فنون الشعر والأدب ، وقد أرسل معاوية إليها ابنه وولي عهده يزيد . ولما كان الوليد بن عبد الملك لم يرسل للبادية إيثاراً لراحته وهناءة عيشه فإنه لم يتقن اللغة وقواعدها ، وكان كثير الأخطاء فيها[٦] . ومن أجل هذا أثر عن أبيه أنه كان يقول : أضرّ بنا حبّنا للوليد فلم نرسله للبادية[٧] . ولم تقتصر هذه السنة على الأمراء الأمويين فإن المعتصم بن هرون الرشيد أرسل أيضاً إلى البادية للغرض نفسه[٨] .

ولم تكن الصحراء مدرسة الأمراء فحسب وإنما قصدها عدد كبير من العلماء الأعلام نذكر منهم :

— الخليل بن أحمد (١٦٠ هـ) الذي سأله الكسائي مرة : من أين علمك هذا ؟ فقال : من بوادي الحجاز ونجد وتهامة[٩] .

— بشار بن برد (١٦٧ هـ) وقد قيل له مرة : « ليس لأحد من شعراء

---

(١) الفهرست ص ٦٧ (٢) المصدر نفسه ص ٧٢ (٣) المصدر نفسه ص ٧٣

(٤) Encyclopaedia of Education 3; 1112.

(٥) History of the Arabs p. 253.

(٦) العقد الفريد ٢ : ١٨ (٧) العقد الفريد ٢ : ١٩

(٨) العقد الفريد ١ : ٦٥ (٩) ابن الانباري ص ٨٣

العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب وشُكَّ فيه ، وأنه ليس في شعرك ما يُشَكُّ فيه » قال : « ومن أين يأتيني الخطأ ؟ وُلِدت ههنا ، ونشأت في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت ، إلى أن أدركت ، فمن أين يأتيني الخطأ »[١] ؟

— الكسائي (١٨٢ هـ) خرج إلى البادية وأنفد خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه[٢] .

— الشافعي (٢٠٤ هـ) وهو يقول في وصف حياته الأولى : « . . . ثم إني خرجت عن مكة فلزمت هذيلا في البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة ، أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم ، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار ، وأذكر الآداب والأخبار ، وأيام العرب[٣] .

الرياشي أبو الفضل العباس بن الفرج (٢٥٧ هـ) وكان يفخر بأنه : « أخذ اللغة من حرشة الضباب ، وأكلة اليرابيع ، وأخذها كثيرون غيره من أهل السواد أكلة الكواميخ والشواريز[٤] .

وكان الذين يفدون إلى البادية يتعلمون من جمهرة الناس ، إذ أن اللغة الفصحى كانت وحدها اللغة المستعملة في هذه البقاع ، وبالإضافة إلى ذلك فإنهم انضموا إلى الحلقات العلمية التي كان يعقدها كثير من مثقفي البدو وأفذاذهم ليرووا فيها أجود الشعر ويقرءوا سيرة العرب وتاريخ وقائعهم وحياة أبطالهم السابقين ، وكان من هؤلاء أبو ملك عمر بن كركرة . وأبو ثروان العكلي ، وأبو هندام كلاب بن حمزة[٥] .

---

(١) الأغاني ٣ : ٢٦ (٢) ابن الانباري ٨٣ — ٨٤
(٣) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٣٦٩ (٤) الفهرست ص ٨٦
(٥) الفهرست ٦٦ ، ٦٩ ، ١٢٢ بالترتيب .

٨ – المسجد

تاريخ التربية الإسلامية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمسجد ، ولهذا فالحديث عنه حديث عن المكان الرئيسى لنشر الثقافة الإسلامية ، وقد قامت حلقات الدراسة فى المسجد منذ نشأ ، واستمرت كذلك على مرّ السنين والقرون ، وفى مختلف البلاد الإسلامية دون انقطاع . ولعل السبب فى جعل المسجد مركزاً ثقافياً هو أن الدراسات فى سنى الإسلام الأولى كانت دراسات دينية تشرح تعاليم الدين الجديد وتوضح أسسه وأحكامه وأهدافه ، وهذه تتصل بالمسجد أوثق اتصال ، ثم إن المسلمين فى عصورهم الأولى توسعوا فى فهم مهمة المسجد ، فاتخذوه مكاناً للعبادة ، ومعهداً للتعليم ، وداراً للقضاء ، وساحة تتجمع فيها الجيوش ، ومنزلا لاستقبال السفراء[1] .

والذى دعا المسلمين إلى التبكير بإنشاء المسجد هو إحساسهم بأن البيوت الخاصة تضيق باجتماعاتهم ، ولا تمنحهم حرية العبادة واللقاء كما يشتهون ، ومن هنا – فيما يبدو – أسسوا المسجد وأطلقوا عليه « بيت الله » ، إشارة إلى أن الداخل فيه لا يحتاج إلى استئناس ولا استئذان ، وربما جارى المسلمون جيرانهم من اليهود والنصارى ، فقد كان لأولئك وهؤلاء بيع وكنائس يذكر فيها اسم الله ويُتَعبد فيها ، بل لماذا لا نقول إن العرب المسلمين قلدوا العرب قبل الإسلام فقد كان لهؤلاء متعبّدهم المقدس (البيت الحرام) الذى رفع قواعدَه ابراهيمُ وإسماعيل قبل الإسلام بزمن طويل ، والذى كان عند قيام الإسلام كعبة يحج لها العرب من كل أصقاع الجزيرة العربية ، ويتعبدون فيها[2] إذ جعله الله « سواء للطائفين والقائمين

---

(١) انظر مادة مسجد فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر الشهرستانى : الملل والنحل ٤٤٢ – ٤٤٣

والركع السجود »[١] . وعلى هذا فقد كان عبدة الأصنام يضعون فيه أصنامهم ، وكان الموحدون يؤدون فيه عباداتهم ، فلما جاء الإسلام عظمه المسلمون أيضاً وأجلوه ، حتى قبل أن تزول منه الأصنام ، فقد اتخذ الرسول مصلاه فيه بين الركنين الركن الأسود والركن اليمانى[٢] .

فلما أرغم عليه السلام على الهجرة وقف ونظر إلى مكة وقال : والله إنك لأحب أرض الله إلىّ ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت[٣] .

أما وقد أبعد المسلمون عن مكة ، وحرموا الالتقاء والعبادة فى البيت الحرام ؛ فليفكروا سريعاً فى أن يعتاضوا به مكاناً آخر ، وقد كان ، فإن الرسول وهو فى طريقه إلى المدينة مهاجراً أقام بقباء بضعة أيام ، أسس فيها مسجد قباء ، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام ، ويقال إن فيه نزلت الآية الكريمة « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا »[٤] ويروى البلاذرى[٥] إن هذا المسجد أسسه الذين هاجروا إلى المدينة قبل رسول الله . ثم إن الرسول لما دخل المدينة بنى مسجده بالمربد ، وعمل فيه بنفسه ، ليشجع المهاجرين والأنصار على النشاط والسرعة فى العمل[٦] . ويروى البلاذرى وابن هشام روايات أخرى تفيد أن الآية السابقة نزلت فى هذا المسجد لا فى مسجد قباء .

---

(١) سورة الحج الآية ٢٥ (٢) ابن هشام ص ٢١٨

(٣) الروض الأنف للسهيلى ٢ : ٣

(٤) سورة التوبة : الآية ١٠٩ وانظر فى ذلك ابن هشام ٢ : ١١ ، الطبرى ١ : ٣ : ١٢٥٩

(٥) فتوح البلدان ص ١٧

(٦) ابن هشام ٢ : ١٢ — الطبرى : ١ : ٣ : ١٢٥٩ — البلاذرى ٢٠ وفتوح البلدان ص ١٧

وكانت تعقد حلقات العلم فى مسجد قباء[١] كما كان من عادة الرسول أن يجلس فى مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينهم[٢].

وكثرت بعد ذلك المساجد وزاد انتشارها بتوسع الإسلام، وأصبح من التبع أن يُبنى مسجد أو أكثر فى كل مكان فتحه المسلمون، أو فى كل قرية أو مدينة أسسوها، فلقد روى أن عمر لما فتح البلدان كتب إلى أبى موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجداً للجماعة، ويتخذ للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة، وكتبَ إلى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك، وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك[٣].

وبمرور الزمن زاد عدد المساجد زيادة كبيرة مطردة وبخاصة فى العاصمة، فما إن جاء القرن الثالث حتى كانت بغداد تغص بالمساجد، إذ يحكى اليعقوبى[٤] أنه عدّ فيها ٣٠٠٠٠ مسجد[٥].

ولم يختلف الحال فى مصر اختلافا بينا عنه فى بغداد، إلا أنه يبدو أن الجوامع فى مصر كانت بطيئة الانتشار، وأول جوامع القاهرة هو جامع عمرو بن العاص الذى يحمل اسمه حتى الآن، وقد بناه عقب فتح مصر. وحتى سنة ١٣٣ هـ لم يكن بالفسطاط جامع غير جامع عمرو، وفى هذه السنة قدم عبد الله بن على يقود فيلقا من جيش العباسيين فقضى به على مروان بن محمد الخليفة الأموى الأخير الذى هرب إلى مصر عقب انتصار العباسيين بخراسان والشام وقد عسكر عبد الله بن على بجيشه شمالى الفسطاط حيث أنشئت مساكن

---

(١) الاحياء ١ : ٥٢ (٢) البخارى : باب الصلاة

(٣) الخطط ٢ : ٢٤٦ — حسن المحاضرة ٢ : ١٤٩ (٤) البلدان ص ٢٥٠

(٥) لا يتهم القارىء اليعقوبى بالمبالغة، إذ كانت المساجد متقصرة جدا بخلاف الجوامع، حتى أنه يقال أن كل بيت كانت تعد به حجرة للصلاة يطلق عليها المسجد.

عديدة ، ومنشآت كثيرة ، من بينها جامع العسكر . وفى سنة ٢٦٥ هـ أسس أحمد بن طولون جامعه بالقطائع ، فانتقلت إليه صلاة الجمعة التى كانت تد فى جامع العسكر منذ إنشائه[١] .

وفى سنة ٣٦٠ هـ بنى جوهر الصقلى الجامع الأزهر ، ولكنه خصص منذ سنة ٣٧٨ هـ الدراسات والأبحاث العلمية ، وظل من ذلك التاريخ حتى العهد الحاضر جامعة من الجامعات الأولى فى العالم الإسلامى[٢] . وقد بدأ العزيز بالله يبنى جامعاً آخر ، ولكنه مات قبل أن يتمه ، فأكمله ابنه الحاكم ، ومن ثم أصبح يطلق عليه جامع الحاكم ، وقد بنى الحاكم أيضاً جامع المقس وجامع رشيدة ، وتوقف إنشاء الجوامع إلى أن جاء الأيوبيون فكان بمصر هذه الجوامع الست فقط[٣] .

هذا من حيث الجوامع التى كانت تقام فيها صلاة الجمعة ، أما المساجد وهى التى كانت تستعمل لتأدية الصلوات الخمس فقد كانت فى مصر — كالحال فى بغداد — كثيرة الانتشار ، فمثلا يتحدث ابن جبير[٤] عن مساجد الاسكندرية بقوله : « وهى أكثر بلاد الله مساجد ، حتى إن منهم من يقول إن مساجدها ١٢,٠٠٠ وبالجملة فهى كثيرة جدا ، تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع » .

وسنتحدث فيما يلى عن التعليم فى الجوامع فنختار ثلاثة منها[٥] لنعطى

(١) انظر تاريخ الجامع الطولونى لمحمد عكوش

(٢) Lane-Poole : Cairo : 123—124.

(٣) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٤٤ — ٢٤٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٤٨

(٤) الرحلة ص ٤٣

(٥) لم نرتب هذه الجوامع تبعا لتاريخ إنشائها ، وإنما سنرتب ترتيبا يناسب الفكرة التى اتبعت بقدر الإمكان فى تأليف هذا الكتاب وهى الحديث عن بغداد فدمشق فالقاهرة .

فكرة سريعة عن التعليم فيها ولنصف بإيجاز حلقات العلم التى تكونت بها :

جامع المنصور : اتخذ المنصور أهبته لبناء عاصمة جديدة للعالم الإسلامى ، وقد بدأ العمل سنة ١٤٥ هـ لتشييد عاصمة تزدان بقصر الذهب وجامع المنصور[١] ، هى مدينة بغداد وقد كلفه ذلك نقلاً عن ياقوت[٢] ثمانية عشر مليوناً من الدنانير ، وقد جُدِّد ذلك الجامع فى عهد الرشيد ، كما زيد فيه وناله كثير الإصلاح والتعمير بعد ذلك[٣] .

وقد كان ذلك المسجد قبلة أنظار الأساتذة والطلاب فى ذلك العهد ، ومما يدلنا على أنه كان يحتل مكانة سامية فى نفوس العلماء أن الخطيب البغدادى لما حج شرب من ماء زمزم وسأل الله أن يحقق له ثلاث حاجات كان من بينها أن يتاح له أن يملى الحديث بجامع المنصور[٤] . ويبدو أن الحنابلة كانت لهم السيطرة على هذا الجامع فى منتصف القرن الخامس الهجرى حتى أنهم اعتدوا سنة ٤٥١ على الخطيب البغدادى وآذوه وهو يدرس فيه[٥] . وكان الكسائى يجلس فى مجلس المنصور ليقرأ فى علوم اللغة ، وكان الفراء والأحمر وابن السعدان بعض تلاميذه[٦] ، كما كان أبو العتاهية يملى فى ذلك المسجد من شعره ، حدث شيخ من أهل الكوفة أنه دخل ذلك المسجد فإذا شيخ عليه جماعة وهو ينشد :

لهفى على وَرَقِ الشبابِ وغصونه الخُضْرِ الرِّطاب
ذهب الشباب وبان عنى غيرَ منتَظَرِ الإيابِ

---

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٣٢ (٢) المرجع نفسه ٢ : ٢٣٥
(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ١ : ١٠٨
(٤ ، ٥) ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٢٤٦ — ٢٤٧
(٦) معجم الأدباء ٤ : ٢٤٣

فلأبكينّ على الشبا ب وطيبِ أيام التصابى

ولأبكين من البلى ولأبكينّ من الخضابِ

وكان ينشدها ودموعه تسيل على خديه . فلما رأى الكوفى ذلك انضم إلى الحلقة وكتب الأبيات ، وسأل عن الشيخ فعرف أنه أبو العتاهية[١] .

وفى مسجد المنصور أملى أبو عمر الزاهد كتابه « الياقوت » ، وقد بدأ يحاضر فى موضوع ذلك الكتاب فى شهر المحرم سنة ٣٢٦ هـ ، ولما أتمه استعاد قراءته فهذ به وزاد عليه[٢] .

جامع دمشق : كان مسجد دمشق كما يحكى ابن الفقيه[٣] يعد واحداً من عجائب الدنيا الأربع فى ذلك العهد ، ولنقتطف بعض النصوص التى أوحت إلى الناس أن يضعوا هذا الجامع فى ذلك الوضع :

أنفقَ الوليد بن عبد الملك على بناء هذا المسجد خراج المملكة سبع سنين ، وحُمل للوليد حساب النفقات على ثمانية عشر بعيراً .

ظل العمل يجرى فى بناء هذا المسجد مدة ثمانية أعوام ، حتى بلغ ثمن البقل الذى أكله الصناع فى مدة أيام العمل ٦٠٠٠ دينار .

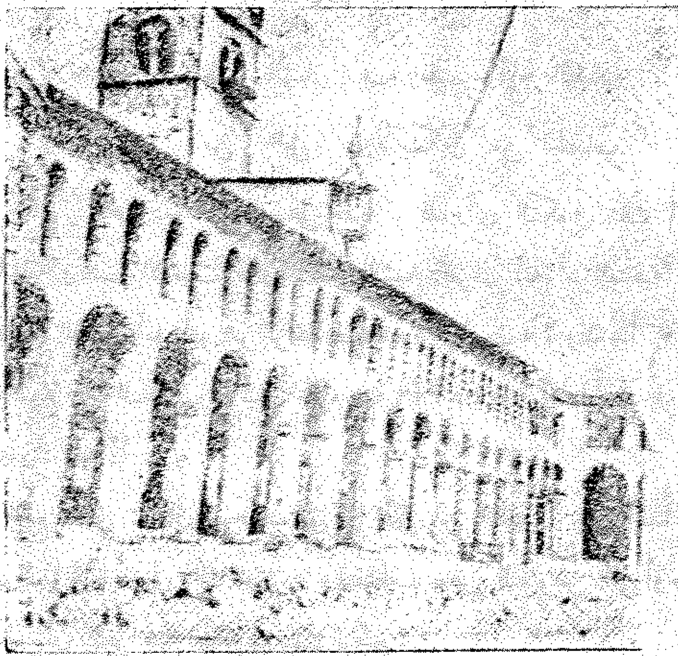
فيه ٦٠٠ سلسلة من الذهب للقناديل .

قالوا إن من عجائب مسجد دمشق أنه لو بقى الرجل فيه مائة سنة لرأى فى كل وقت أعجوبة لم يرها من قبل[٤] .

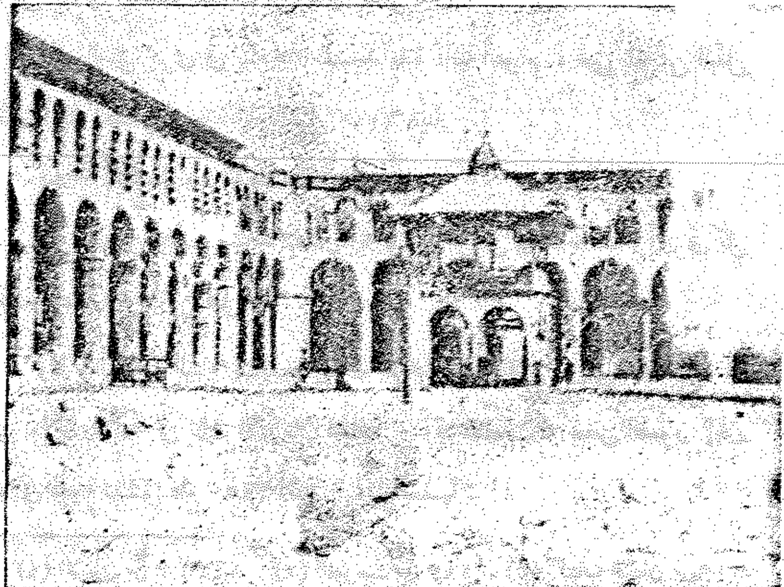
ولا يزال هذا البناء الشامخ يبعث الإعجاب فى النفس وينبىء عما كان له من جلال وعظمة فى تلك الأزمان الخالية ، وقد التقطت له بعض الصور إبان زيارتى لمدينة دمشق عام ١٩٥٠ أثبت فيما يلى بعضها :

---

(١) الأغانى ص ٣ : ١٤٣ (٢) الفهرست ص ١١٣ (٣) كتاب البلدان ص ١٠٦
(٤) المرجع السابق ١٠٧ — ١٠٨ وانظر أيضا معجم البلدان ٤ : ٧٦ — ٧٧



شكل (١) منظر للجامع الأموى بدمشق



شكل (٢) منظر آخر للجامع الأموى

وقد كان ذلك المسجد مركزاً هاماً من مراكز الثقافة فى العالم الإسلامى ، يحدثنا ابن جبير عنه فيقول[١] :

وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها إجراء واسع ، وللمالكية زاوية للتدريس فى الجانب الغربى يجتمع فيها الطلبة المغاربة ولهم إجراء معلوم ، ومرافق هذا الجامع للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة ، وأغرب مابه أن سارية من سواريه وهى بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس . . . وعن يمين الخارج من باب البريد مدرسة للشافعية فى وسطها صهريج يجرى الماء فيه .

وفى الجانب الغربى بإزاء الجدار مقصورة برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلون . . .

وفى الجامع عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس وهى من جملة مرافق الطلبة .

وكان للخطيب البغدادى بهذا المسجد حلقة كبيرة سنة ٤٥٦ وكان الناس يجتمعون إليه فى بكرة كل يوم فيقرأ لهم . . . وكان إذا قرأ الحديث فى جامع دمشق سمع صوته فى آخر الجامع[٢] .

جامع عمرو : بناه عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ ثم جُدِّد وزيد عليه بعد ذلك عدة مرات[٣] ، وفى عهد مبكر جداً جلس فيه سليمان بن عتر التجيبى ليعظ الناس عن طريق ذكر القصص ، وكان قد جمع له القضاء والقصص ثم عزل

---

(١) الرحلة من صفحة ٢٦٦ الى صفحة ٢٧٢ بتقديم وتأخير .

(٢) ياقوت . معجم الأدباء ٤ : ٢٥٥

(٣) المقريزى . الخطط ٢ : ٢٤٦ ، ٢٥٦

عن القضاء وأفرد بالقصص ، وقد بدأ عمله سنة ٣٨ هـ ومنذ ذلك التاريخ ظل هذا المسجد مركزاً ثقافياً ومحكمة للقضاء ، وقد أدرك به محمد بن عبد الرحمن الحنفى قبل وباء سنة ٢٤٩ بضعا وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه[1] . وقد سجل لنا المقريزى[2] بعض التفاصيل عن زوايا ثمان كانت تدرس فيها شتى العلوم بهذا الجامع ، وفيما يلى مقتطفات قصيرة عن ثلاث منها :

زاوية الإمام الشافعى : يقال إنه درس بها الإمام الشافعى فعرفت باسمه، وعليها أرض بناحية سنديس وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، ولم يزل يتولى تدريسها أعيان الفقهاء وجلة العلماء .

الزاوية المجديه : بصدر الجامع ، رتبها مجد الدين أبو الأشبال وزير الملك الأشرف ، وقرر فى تدريسها قريبه قاضى القضاة عبد الوهاب البهنسى وعمل على هذه الزاوية عدة أوقاف بمصر والقاهرة ويعد التدريس بها من المناصب الجليلة .

الزاوية الصاحبية : رتبها الصاحب محمد بن فخر الدين ، وجعل لها مدرسين : أحدهما مالكى والآخر شافعى وجعل عليها وقفاً بظاهر القاهرة .

ولما وفد محمد بن جرير الطبرى على مصر بان فضله فى القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر ، فلقيه أبو الحسن بن سراج فوجده فاضلا فى كل ما يذاكره به من العلم ، ويجيب فى كل مايسأله عنه ، حتى سأله عن الشعر فرآه فاضلا بارعاً فيه ، فسأله عن شعر الطرماح فإذا به يحفظه ، فسئل أن يمليه ، فاستجاب وجلس بجامع عمرو لاملائه[3] .

ويتضح من الأمثلة السابقة أن الحلقات العلمية بالمساجد لم تكن مقصورة

---

(١) المرجع نفسه ٢ : ٢٥٦ (٢) المرجع نفسه ٢ : ٢٥٥ ـ ٢٥٦

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٤٣٢

على الدراسات الدينية ، وإنما تعدتها إلى سواها من معارف ذلك العصر، ولا نزاع أن الدراسات الدينية كانت أهم ما يجذب الطلاب ويعنى به المدرسون ، ولكن مع هذا فإن النصوص التى أمامنا تدل على أن المسجد اتسع للعلوم الدينية ولسواها ، وسنشير فيما يلى إلى غير العلوم الدينية من المواد التى كانت تدرس بالمساجد :

اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن البصرى ، وكان يُعنى هو وأتباعه عناية كبيرة بعلم الكلام ، وقالوا إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر ، وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين ، فكان واصل يجلس لأتباعه فى مسجد البصرة ليدرس لهم مبادىء علم الكلام الذى كان حديث الظهور فى ذلك الحين(١) .

وكانت الدراسات اللغوية والأدبية تجد طريقها إلى المسجد ، وقد تحدثنا فيما سبق عن أبى عمر الزاهد وأبى العتاهية ، ونضيف إليهما مجلس نفطويه فى مسجد الانباريين(٢) ، ومجلساً آخر فى جامع قرطبة كان لنحوى شهير (لم يذكر المقرى اسمه) يجلس فيه ليدرس قواعد اللغة العربية إلى جمهور كبير من التلاميذ(٣) . وكان الكميت بن زيد وحماد الراوية يلتقيان فى مسجد الكوفة فيتذاكران أشعار العرب وأيامهم ، فاختلفا مرة فى شىء ، فقال الكميت لحماد : أتظن أنك أعلم منى بأيام العرب وأشعارها ؟ فقال حماد : هذا والله هو اليقين . فغضب الكميت ، وما زال يناقشه ويسأله حتى أفحمه(٤) .

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٢٥٢

(٢) الفهرست ١٢١ .

(٣) نفح الطيب ٢ : ٢٥٤

(٤) الأغانى ١٥ : ١١٣ ــ ١١٤

وفى مسجد البصرة كان يجلس مسلم بن الوليد ليملى من شعره ، وفى إحدى الجلسات كان يملى قصيدته الدالية :

لا تدع بى الشوق إلى غير معمود . . . .

إذ أقبل أبو نواس ، فاستشرف له القوم ، فدنا فسلّم ، فقطع مسلم الإملاء ، ورفعه فى المجلس ، وأقبل عليه يسأله أن ينشده من شعره ، وأبو نواس يأبى ذلك ، ثم سأله أبو نواس أن يبتدىء القصيدة من أولها فقبل . . . . . . (١) .

وكان العروض أيضاً يدرس بالمسجد ؛ روى أن أعرابياً دخل مسجد البصرة فانتهى إلى حلقة يتذاكرون فيها الأشعار والأخبار ، فجلس وهو يستطيب كلامهم ، ثم أخذوا فى العروض ، فلما سمع المفاعل والمفعول ظن أنهم يأتمرون به ، فخرج مسرعاً وهو يقول :

قد كان أخذهم فى الشعر يعجبنى حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاماً لست أعرفه كأنه زجل الغربان والبوم
وليّت منفلتا والله يعصمنى من التقحم فى تلك الجراثيم (٢)

ودُرِس فى المساجد الطب والميقات ؛ يروى السيوطى (٣) أن دروساً مختلفة رتبت فى الجامع الطولونى ، وقد شملت التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والطب والميقات . ويقول عبد اللطيف البغدادى إن درساً فى الطب كان يلقى فى الأزهر فى منتصف النهار من كل يوم (٤) .

---

(١) المرزبانى : الموشح ٢٨٩ـ٢٩٠ (٢) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٢٠
(٣) حسن المحاضرة ٢ : ١٣٨ (٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ٢ : ٢٠٧

ثانياً — المدارس

مقدمة

قبل أن نتحدث عن المدارس يجدر بنا أن نناقش بضعة أسئلة وثيقة الصلة بها :

١ — لماذا انتقل التعليم من المساجد إلى المدارس ؟

رغب الناس فى الدراسات الإسلامية منذ ظهور الإسلام ، وكلما مرت السنون ازداد الناس إقبالا على حلقات العلم ، حتى حفل كثير من المساجد بعدة حلقات دراسية لا بحلقة واحدة ، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقى الدرس وأصوات الطلاب يسألون ويناقشون ، وكانت تتلاقى الأصوات المتصاعدة من الحلقات المختلفة ، فتحدث فى المسجد شيئاً قليلا أو كثيراً من الضجيج يمنع الصلاة والعبادة من أن تُؤدَّى على وجهها ، فاتضحت صعوبة احتمال المسجد للصلاة والتدريس معاً ،ولهذا نجد أن الأزهر يترك للتدريس ولا يُقام به إلا صلاة الجمعة ، غير أن هذا لم يكن حلا طبيعياً للمشكلة ، إذ أن مهمة المساجد الأولى هى أن يصلى فيها الناس ويتعبدوا ، ولا يجوز أن تعطل الصلاة فى المساجد مهما كانت الأسباب .

وشىء آخر ، هو أن العلوم تطورت بتطور الزمن وتقدم المعارف ، وأصبحت هناك مواد تستدعى دراستُها كثيراً من الحوار والنقاش والجدل ، كعلم الكلام وعلم الجدل والمناظرة ، ومثل هذه المواد تتنافى طبيعة تدريسها مع مايجب أن يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال .

ثم — تبعاً لرأى Von Kremer — كان هناك جماعة شغلوا بالتعليم معظم وقتهم ، وحاولوا أن يرتزقوا عن طريق حرف بسيطة كانوا يقومون بها مع التدريس ، ولكنهم فشلوا فى الحصول على مستوى مناسب من العيش ، فلم يكن بد حينئذ من إنشاء المدارس لتضمن لهم جرايات تقوم بحاجاتهم[١] .

٢ — ماذا كان الفرق بين المساجد والمدارس ؟

الحق أن التمييز بين الاثنين يكتنفه عند النظرة السريعة شيء غير قليل من الغموض ، ومرجع ذلك أننا نجد مسجداً يُعيَّن به مدرس[٢] ، كما نجد بعض المدارس يُعيَّن بها مؤذنون[٣] ، أو تقام بها منابر للخطابة[٤] . ولكن النظرة الفاحصة ترينا أن هناك خواص للمدرسة لا تتخلف ، وأهم هذه الخواص هو الإيوان ، وهو الاسم الذى يرادف (قاعة المحاضرات) فى التعبير الحديث ، وما كانت المدرسة تخلو منه ، فهو أبرز مرافقها وأهمها ، ومن خواص المدرسة أيضاً المساكن التى تبنى فيها ليعيش بها الطلاب والمدرسون الذين ينتسبون إليها ، وقد حفلت أغلب مدارس المسلمين بهذه المساكن وبما يتبعها من المرافق كالمطبخ وحجرة الطعام وما شابهها ، ويقول ابن العجمى[٥] : لما ملك نور الدين مدينة حلب وحوَّل مسجد السراجين إلى مدرسة جدد فيه مساكن يأوى إليها الفقهاء وإيواناً . ثم - بالإضافة إلى هذا - كان المدرس معيناً من قِبَل صاحبها ليعلِّم بها ، بخلاف المسجد الذى طالما جلس به مدرسون دون أن يعيَّنوا للتعليم فيه ،

---

(١) Khuda Bukhsh : Islamic civilization p. 283

(٢) الروضتين ١ : ١٨٩ (٣) الخطط ٢ : ٣٧٤ ، ٤٠٠

(٤) ابن جبير ٢١٩

(٥) كنوز الذهب فى تاريخ حلب ٥٩ أ مخطوط بروما .

ومن جهة التلاميذ فقد كان عددهم محدوداً غالباً فى المدارس دون المساجد ، كما كان ينالهم دائماً نصيب من الأوقاف التى توقف على المدارس .

٣ — لماذا عُنيت مدارس المسلمين بالعلوم الدينية أكثر من سواها ؟

هذه حقيقة يدركها الباحث بسهولة ، فقد كانت هذه العلوم الدينية هى الشغل الشاغل لمدارس المسلمين ، وقد استنفدت هذه العلوم طاقة النشاط أو أكثرها فى هذه المدارس ، فلم تستفد بها العلوم الدنيوية التى كان المسلمين فيها فضل كبير فى العهود التى سبقت نشأة المدارس ، وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تدرس العلوم الدينية وبخاصة الفقه على مذهب من المذاهب الأربعة الشهيرة وهى مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل .

ولكن هذا الاتجاه كان استجابة لروح العصر الذى أنشئت فيه هذه المدارس ؛ فإن العراق وسورية ومصر كانت قبل نشأة المدارس يحكمها البويهيون والفاطميون ، وكلا الأسرتين ذات مذهب شيعى ، بل إنهما بذلا وسعهما لنشر المذهب بين رعاياها ، إما بطريق الدعاية ، أو بطريق القهر فى بعض الأحيان [١] .

وقام على أنقاض البويهيين والفاطميين أسرتان كبيرتان تتبعان مذهب أهل السنة وهما السلاجقة والأيوبيون ، وقد أنشأت هاتان الأسرتان المدارس لتقاوما بها ما غرسه الشيعة فى نفوس الناس من عقائد يراها أهل السنة زائفة باطلة ، ثم لينشروا بمساعدة هذه المدارس عقائد أهل السنة التى يرونها تطبيقاً للدين الصحيح .

---

(١) انظر الذهبى : دول الإسلام ١ : ١٧١ .

ومن هنا يظهر أن اتجاه المدارس إلى خدمة العلوم الدينية كان طبيعياً ، بل إنها ربما أنشئت لهذا الغرض على ما سيأتى .

وبعد أن هدأت حركة التشيع وتغلبت عليها السنة بدأنا نرى علم الطب تظهر العناية به من جديد ، وينال نصيبه من الرعاية فى المدارس ؛ فقد أمر المستنصر أن يعيّن طبيب حاذق بمدرسة (المستنصرية) يثبت عنده عشرة طلاب من المسلمين يشتغلون عليه فى علم الطب ويُوصّل إلى الجميع ما يوصَّل إلى الفقهاء والمحدثين من أجور [١] .

نشاط المدارس فى العالم الإسلامى

يعتبر فتح السلاجقة للعراق ودخولهم بغداد فى ٢٥ محرم سنة ٤٤٧ بدء انتصار أهل السنة على الشيعيين ، فقد توقفت منذ ذلك الحين سبل النشاط التى كان البويهيون يبذلونها لنشر التشيع بين الناس أو فرضه عليهم فرضاً ، ووجد السلاجقة أنه لا مناص من القيام بعمل مضاد ، ليحرروا عقول الناس مما علق بها مما يعدونه ضلالا ومروقاً ، ورأوا أن نشر العلم خير طريق لذلك ، فإذا أتيح للناس أن يتعلموا الدين الصحيح فهم لاشك سيعرفون الهدى من الضلال ، والخير من الشر ، ونشأت المدارس لهذا الغرض ، وكان ذلك على يد الوزير العظيم نظام الملك الذى وزر لألب أرسلان والملك شاه ، ونُسِبَت هذه المدارس إلى منشئها نظام الملك ، فعرفت باسم « المدارس النظامية » وكانت غاية فى الجلال والعظمة ، ثم كانت كثيرة العدد حفلت بواحدة منها كل مدينة بل كل قرية ، على ما سيأتى فى ترجمة ذلك الوزير .

---

(١) المدرسة المستنصرية لناجى معروف ص ٤٦

ولم يتوقف إنشاء المدارس لنفس الغرض منذ ذلك الحين ، إذ سار على ذلك السلاجقة الذين جاءوا بعد عهد نظام الملك ، كما اقتفى أثرهم الشاهات والأتابك الذين أقاموا أمارات على أنقاض السلاجقة ، ولكن أحداً من هؤلاء وأولئك لا يمكن أن يقارن بالبطل نور الدين زنكى الذى آلت إليه سورية ثم مصر بعد ذلك . فلقد كان نور الدين أول من بنى مدرسة فى دمشق (١) ثم كان عهده كله مملوءاً بالنشاط فى نواح متعددة ومنها إنشاء المدارس فى مدن مملكته وقراها .

ووضع الأيوبيون حداً للحكم الشيعى فى مصر ، وأعادوا مصر إلى المذهب السنى وإلى الاعتراف بخليفة بغداد ، ثم لم يكتفوا بذلك ، بل اتجهوا إلى عقول الناس فأنشأوا المدارس لأول مرة فى فلسطين ومصر وكانت كثيرة العدد بحيث تمكنت من إشاعة السُّنة فى نفوس الأهلين فى وقت قصير ، ويمتاز هذا العهد بأن الأمراء والأميرات والتجار وغيرهم من الأهلين حتى الخدم أسهموا فى إنشاء المدارس وفى رعاية العلم ، وفيما يلى ذكر لأهم المدارس التى أنشأها كل من نظام الملك ونور الدين والأيوبيين (٢) .

---

(١) مقال الشيخ الطباخ بمجلة الجامعة الإسلامية السنة ١٧ العدد : ٢٢٤ ص ٤٠

(٢) لم تتوقف حركة إنشاء المدارس بسقوط الأيوبيين وقيام المماليك ، فإن هؤلاء ساروا سيرة سادتهم فى هذا الشأن . بل بحماسة أشد فى بعض الحالات . فأكثروا من إنشاء المدارس فى مصر وسورية . ويكفينا أن نذكر مدارس الأيوبيين مشيرين إلى أن كثيراً من المراجع تحفل بمدارس المماليك ، وأهم هذه المراجع هى خطط المقريزى . وحسن المحاضرة للسيوطى ، ابن دقاق ، والنعيمى ، ومجيد الدين .

مدارس نظام الملك*

يقول أبو شامة[1] : ومدارس نظام الملك فى العالم مشهورة ، لم تخلُ بلد من شىء منها ، حتى جزيرة ابن عمر التى هى فى زاوية من الأرض لا يؤبَه لها ، بنيت فيها مدرسة كبيرة حسنة ، وهى التى تعرف الآن (زمن أبى شامة) بمدرسة رضى الدين . ويقول عماد الدين الأصفهانى[2] : ومتى وَجَدَ فى بلدة مَنْ تميز وتبحر فى العلم بنى له مدرسة ، ووقف عليها وقفاً ، وجعل فيها دار كتب .

وفى ابن الأثير وابن الجوزى نصوص مشابهة وكلها تدل بوضوح على العدد الضخم من المدارس التى بناها نظام الملك وأمدها بالأساتذة والأموال والكتب ، وكان السبكى المصدر الوحيد الذى لم يكتف بهذه العبارات العامة ، بل حدَّد بلاداً ذكر إن نظام الملك أنشأ فى كل منها مدرسة عظيمة وتلك البلاد هى : بغداد ـ بلخ ـ نيسابور ـ هرات ـ اصفهان ـ البصرة ـ مرو ـ آمل ـ الموصل .

---

* تحتل المدارس النظامية — وبخاصة نظامية بغداد — مكانة عظيمة فى نفوس المسلمين، وقد لمست شغف كثير من الأساتذة والطلاب أن يحصلوا على معلومات وافية عنها ، ومن أجل ذلك حشدت فى هذا الكتاب كل ما وصلت له يدى من مادة تتصل بها ، وكنت على وشك أن أجمع هذه المادة فى مكان واحد وأن أتحدث عن نظامية بغداد مفصلا القول على أنها أنموذج لمدارس المسلمين فى العصور الوسطى ، ولكن حال دون ذلك فناء المدرسة وضياع معالمها مما يجعل تخطيطها مجرد ظن وتخمين ، ومن هنا اخترت المدرسة النورية الكبرى مثالا ، أما المدارس النظامية فقد أوردت الحديث عنها فى مظانه المختلفة على حسب أبواب هذا الكتاب وفصوله ، فالحديث عن مدرسيها جاء فى باب المدرسين ، وعن أوقافها ورد عند الكلام عن الأوقاف ، وهكذا ، وهى فى مجموعها تعطى صورة واضحة عن هذه المدرسة الشهيرة .

(1) الروضتين ١ : ٢٥

(2) تاريخ آل سلجوق ص ٥٧

ويختم السبكى حديثه بعبارة مشابهة لعبارات المؤرخين الآخرين حيث يقول : ويقال إن له فى كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة[١] .

وقد كانت نظامية بغداد أولى المدارس النظامية وأهمها ، وقد بدأ العمل فيها سنة ٤٥٧ هـ ، وكانت على شاطىء دجلة ، وكان بنَّاؤها أبا سعيد الصوفى ، وفى سنة ٤٥٩ هـ استتم بِنَاؤها ، وانتظمت أحوالها ، وسكنها من حملة الشريعة رجالها ، ودرس فيها الشيخ أبو اسحق الشيرازى (رحمه الله) فأحيا من العلم ما درس ، وكشف من الحق ما التبس ، وشرح الأصول وفرّعها ، وأوْضح الأدلة ونوعها[٢] .

مدارس نور الدين زنكى

سبق أن ذكرنا أن نور الدين أول من أنشأ مدرسة فى دمشق ، ونضيف أن مدارسه كانت كثيرة ، منتشرة فى مدن سورية وقراها[٣] . وقد سجلت النصوص بعضاً من هذه المدارس نذكرها فيما يلى :

اسم المدرسة	مرجعها
فى دمشق : دار الحديث النورية	النعيمى : تاريخ المدارس : ١ : ٩٩
الصلاحية	» » ١ : ٣٣١
العمادية	» » ١ : ٤٠٧
الكلاسة	» » ١ : ٤٤٧
النورية الكبرى	» » ١ : ٦٠٦

(وسنفرد دراسة مفصلة عن هذه المدرسة عقب الانتهاء من قائمة المدارس) .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣ : ١٣٧

(٢) تاريخ آل سلجوق ص ٣٣

(٣) انظر الروضتين ١ : ١٤

	النورية الصغرى	النعيمى : تاريخ المدارس ١ : ٦٤٨	
فى حلب :	الحلوية	أعلام النبلاء ٢ : ٧١	والدر المنتخب ١١٥
	المصرونية	« ٢ : ٧٥	« ١١٠
	النورية	« ٢ : ٧٦	« ١١١
	الشعيبة	« ٢ : ٧٦	
فى أمكنة أخرى :	مدرستان بحماة	مفرج الكروب ص ١٦٥ مخطوط بكمبردج	
	مدرستان بحمص	« «	
	مدرسة ببعلبك	النعيمى ١ : ٤٠١	

مدارس العهد الأيوبى

(ا) مدارس أنشأها السلاطين :

المدرسة	منشئها	مرجعها			
١ — فى مصر :					
الناصرية بجوار الجامع العتيق	صلاح الدين	الخطط	٣٦٣:٢	ابن دقماق	٩٣:٤
القمحية	»	»	٣٦٤:٢	»	٩٥:٤
السيوفية	»	»	٣٦٥:٢		
الناصرية بالقرافة	»	»	٤٠٠:٢	حسن المحاضرة	١٥٧:٢
الملك العادل	العادل	»	٣٦٥:٢		
الكاملية	الكامل	»	٣٧٥:٢	»	١٥٩:٢
الصالحية	الصالح نجم الدين أيوب	»	٣٧٤:٢	»	١٥٩:٢
٢ — فى بيت المقدس :					
الصلاحية	صلاح الدين	الأنس الجليل	٣٩٣:٢		
الأفضلية	الأفضل بن صلاح الدين	»	٠٩٧:٢		
النحوية	المعظم عيسى	»	٣٨٦:٢		
٣ — فى دمشق :					
الصلاحية	صلاح الدين	النعيمى	١٠:٢		
العزيزية	العزيز بن صلاح الدين	»	٣٨٢:١		
الظاهرية البرانية	الظاهر بن صلاح الدين	»	٤٣٠:١		
العادلية الكبرى	العادل	»	٣٥٦:١		
المعظمية	المعظم عيسى	»	٥٧٩:١	ابن طولون	١٤٣
دار الحديث الأشرفية البرانية	موسى بن العادل	»	٤٣:١		
العزيزية	العزيز بن العادل	»	٥٤٩:١		

(ب) مدارس أنشأها الأمراء والعظماء من ذوى النفوذ (كلمة أمير فى العهد الأيوبى لم تكن مقصورة على أعضاء البيت المالك بل استعملت أيضا لقباً للقادة وذوى المناصب العليا فى الدولة، وللفرق بينهما سنطلق على أعضاء البيت المالك لقب « أمير أيوبى ») .

المدرسة	منشئها	تعريف به	المرجع		
١ — فى مصر					
القطبية	قطب الدين خسرو	أمير	الخطط	٣٦٥:٢	
منازل العز	تقى الدين عمر	أمير أيوبى	»	٣٦٤:٢	ابن دقاق ٩٣:٤
مدرستان القيوم	»	»	»		
الفاضلية	القاضى الفاضل	وزير	»	٣٦٦:٢	ابن دقاق ٤:٩٤ـ٩٥
الأزكشية	سيف الدين أياز كوج	أمير	»	٣٦٧:٢	
السيفية	سيف الدين بن أيوب	أمير أيوبى	»	٣٦٨:٢	
العاشورية	عاشوراء بنت ساروخ	زوجة أمير	»	٣٦٨:٢	
القطبية	عصمة الدين بنت العادل	أميرة أيوبية	»	٣٩١:٢	
الشريفية	الشريف فخر الدين	أمير	»	٣٧٤:٢	
الصاحبية	عبد الله بن على	وزير	»	٣٧١:٢	
الفخرية	فخر الدين البارومى	استادار الكامل	»	٣٦٧:٢	
الصيرمية	جمال الدين بن صيرم	أمير	»	٣٦٨:٢	
الفائزية	شرف الدين هبة الله	وزير	»	٣٦٥:٢	ابن دقاق ٤ : ٩٢
٢ — فى بيت المقدس :					
الميمونية	ميمون بن عبد الله	أمير	الأنس الجليل	٣٩٩:٢	
البدرية	بدر الدين بن أبى القاسم	»	»	٣٩٨:٢	
٣ — فى دمشق :					
الصاحبية	ربيعة بنت نجم الدين	أميرة أيوبية	النعيمى	٧٩:٦	
الفروخشاهية	فروخشاه بن شاهنشاه	أمير أيوبى	»	٥٦١:١	
العذروية	عذراء بنت نور الدولة	أميرة أيوبية	»	٣٧٣:٢	
التقوية	تقى الدين بن شاهنشاه	أمير أيوبى	»	٢١٦:١	
الشامية البرانية	ست الشام بنت نجم الدين	أميرة أيوبية	»	٢٧٧:١	
الشامية الجوانية	» » »	» »	»	٣٠١:١	
المروانية	خاتون عزيزة	زوجة المعظم	»	٥٩٢:١	
البهنسية	مجد الدين البهنسى	وزير	»	٢١٥:١	القلائد الجوهرية ص ١٠٢
الأتابكية	خاتون بنت عز الدين	زوجة الأشرف	»	١٢٩:١	القلائد ١٠٢
العزية البرانية	عز الدين الأعظمى	نائب الملك بصرخد	»	٥٥٠:١	

المدرسة	منشئها	تعريف به	المرجع
العزية الجوانية	عز الدين الأعظمى	نائب الملك فى صرخد	النعيمى ١ : ٥٥٠
« الحنفية	«	«	« ١ : ٥٥٧

(حـ) مدارس أنشأها أفراد من العامة :

١ ــ فى مصر :			
ابن الأرسوف	عبد الله بن الأرسوفى	تاجر	الخطط ٢ : ٣٦٤
المسرورية	مسرور الصفدى	خادم	« ٢ : ٣٧٨
القزنوية	حسام الدين قايماز	عتيق	« ٢ : ٣٩٠
ابن رشيق	حجاج تكرور		« ٢ : ٣٦٥
٢ ــ فى دمشق :			
العصرونية	شرف الدين بن عصرون	قاضى القضاة	النعيمى ١ : ٣٩٨
الفلكية	فلك الدين سليمان	أخو الملك العادل لأمه	« ١ : ٤٣٩
الإقبالية	جمال الدين إقبال	عتيق	« ١ : ١٥٨
المسرورية	شبل الدين كافور	خادم	« ١ : ٤٥٥
العمرية	أبو عمر المقدسى	قاضى القضاة	« ٢ : ١٠٠
دار الحديث العروية	شرف الدين بن عروة	فقيه	« ١ : ٨٢
الرواحية	زكى الدين بن رواحة	تاجر	« ١ : ٢٦٥
الصارمية	صارم الدين بن أزبك	عتيق	« ١ : ٣٢٦
الشبلية البرانية	شبل الدين كافور	خادم	« ١ : ٥٣٠*
الركنية	ركن الدين منكورس	عتيق	« ١ : ٢٥٣
الدولعية	جمال الدين الدولعى	فقيه	« ١ : ٢٤٢
الدماغية	زوجة شجاع الدين ابن الدماغ	«	« ١ : ٢٣٦

مــــدارس طب

الدخورية	مهذب الدين دخور	طبيب	النعيمى ٢ : ١٢٧
الدنيسرية	عماد الدين الدنيسرى	«	« ٢ : ١٣٣

(*) مات شبل سنة ٦٢٣هـ ، ولكن هذه المدرسة أنشئت بعده (سنة هـ) ، تنفيذاً لوصيته ولذلك حملت اسمه .

ملاحظات :

١ — تبدو مدارس الطب قليلة قلة ظاهرة ، ومرجع ذلك أن الطب كان لا يدرس فى مدارس خاصة إلا قليلا ، والغالب أن يدرس الطب فى المستشفيات ليمكن التطبيق العملى للنظريات العلمية الطبية التى يلقيها الأساتذة على الطلاب ، وعلى هذا كان بالمستشفى إيوان (قاعة محاضرات) ليستمع فيه الطلاب إلى الدرس ثم ينسابون بين المرضى ليروا الأمراض وليعالجوها بإشراف أساتذتهم ، ويروى ابن أبى أصيبعة[١] أن الطبيب أبا المجد بن أبى الحكم المتوفى سنة...وخمسمائة (هكذا) كان يتردد إلى البيمارستان الكبير الذى أنشأه الملك العادل نور الدين محمود فى دمشق ، فيأتى ويجلس فى الإيوان الكبير ، ويحضر كتب الاشتغال . . وكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ، ويقعدون بين يديه ، ثم تجرى مباحثات طبية ويقرىء التلاميذ ، ولا يزال فى اشتغال ومباحثة ونظر فى الكتب مقدار ثلاث ساعات ومثل ذلك حصل فى البيمارستان المنصورى بالقاهرة حيث كان يجلس رئيس الأطباء فى مكان معين ليحاضر فى الطب[٢] .

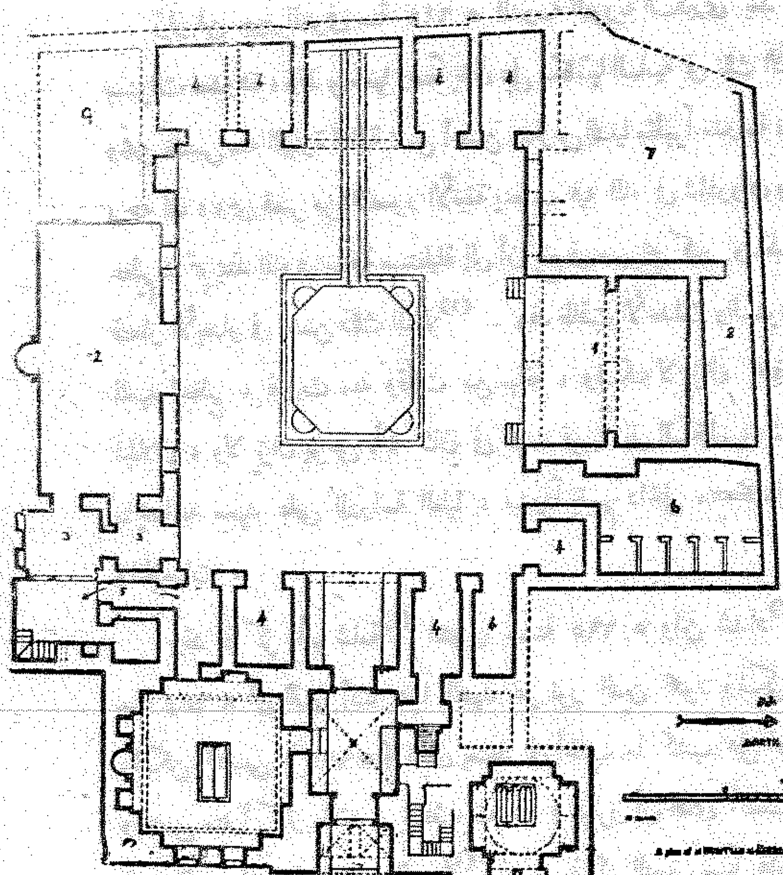
وقد انتشرت المستشفيات فى العالم الإسلامى انتشاراً كبيراً فى هذه العصور[٣] ، وقد ترتب على ذلك نهضة ذات شأن فى الدراسات الطبية .

٢ — اخترت المدرسة النورية بدمشق لتكون نموذجا لمدارس المسلمين فى تلك العصور وقد زرتها فى سبتمبر سنة ١٩٥٠ وقت بدراستى عنها فيها، وفيما يلى رسم تخطيطى للمدرسة أتبعه بالحديث عنها .

---

(١) عيون الأنباء ٢ : ١٥٥ (٢) المقريزى : الخطط ٤٠٦

(٣) انظر ابن العبرى وابن جبير وخطط المقريزى .



مخطط للمدرسة النورية الكبرى

المدرسة النورية الكبرى

زار ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ المدرسة النورية الكبرى بعد افتتاحها بسنوات معدودة ، وقد وصفها وصفاً يدل على مكانتها السامية فى تلك الأزمان ، ونحن نقتبس منه العبارة التالية : من أحسن مدارس الدنيا مظهراً مدرسة نور الدين رحمه الله ، وهى قصر من القصور الأنيقة ينصب فيه الماء فى شاذروان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء فى ساقية مستطيلة إلى أن يقع فى صهريج كبير وسط الدار ، فتحار الأبصار فى حسن ذلك المنظر[١] . وقد طافت الأحداث والسنون بهذا المعهد العظيم ، فغيرت منه وقللت من بهائه ، ولكنه لا يزال يحفظ بطابع الجلال ، ولا يزال يوحى بأنه كان فى عهده قريباً إلى الكمال ، شاملا كل ما يحتاجه معهد علمى للدراسة العليا ، مزوداً بقسم داخلى مكتمل المرافق والحاجيات .

وقد ذكر أبو شامة[٢] المتوفى سنة ٦٦٥ هـ وابن شداد[٣] المتوفى سنة ٦٨٤ هـ أن الذى أنشأ هذا المعهد هو نور الدين محمود زنكى ٥٦٣ هـ ولكن النعيمى (٩٢٧ هـ) الذى يعتمد فى أغلب ما كتب على ابن شداد ، ويقتبس منه أكثر مادته ، يختلف معه هنا ؛ فيقرر أن الذى أنشأ هذه المدرسة هو إسماعيل بن نور الدين[٤] . ولم يذكر النعيمى سبباً هاماً حدا به إلى هذا الادعاء ، وكل ما يشير إليه هو أن جثمان نور الدين لم يدفن عقب وفاته فى ضريحه بالمدرسة ، وإنما دُفن فى مكان آخر ، ثم نقل فى عهد إسماعيل إلى مكانه الحالى بالمدرسة . وهذا لا يستدعى — فيما يبدو —

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٨٤
(٢) الروضتين ١ : ٢٢٩
(٣) الأعلاق الخطيرة ص ٤٤ مخطوط
(٤) الدارس فى تاريخ المدارس ١ : ٦٠٧

أن تكون المدرسة قد أنشئت فى عهد اسماعيل ، إذ من اليسير أن تكون المدرسة قد تمت وافتتحت فى عهد نور الدين ، ولكن الضريح لم يكن قد أُعِدَّ بعد ، إذ أنه شىء يلحق بها وليس من مرافقها اللازمة لها ، ومن أجل هذا كان الضريح دائماً آخر ما يشيد بالمدرسة ، فلما مات نور الدين فى هذه الأثناء دفن فى مكان مؤقت حتى أُعِدَّ الضريح ، ثم نقل له الجثمان . ومما يؤكد أن نور الدين هو الذى بنى هذه المدرسة ، تلك الكتابة التى نقشت على الحجر الضخم الذى يكوّن العتبة العليا للمدخل ، وهذه الكتابة قديمة تاريخها ٥٦٧ هـ أى كتبت فى حياة نور الدين الذى توفى بعد ذلك بسنتين ، وقد ورد فى هذه الكتابة أن نور الدين هو منشئها ، ويبدو أن النعيمى لم يرَ هذه الكتابة ، وسنورد نصها فيما بعد .

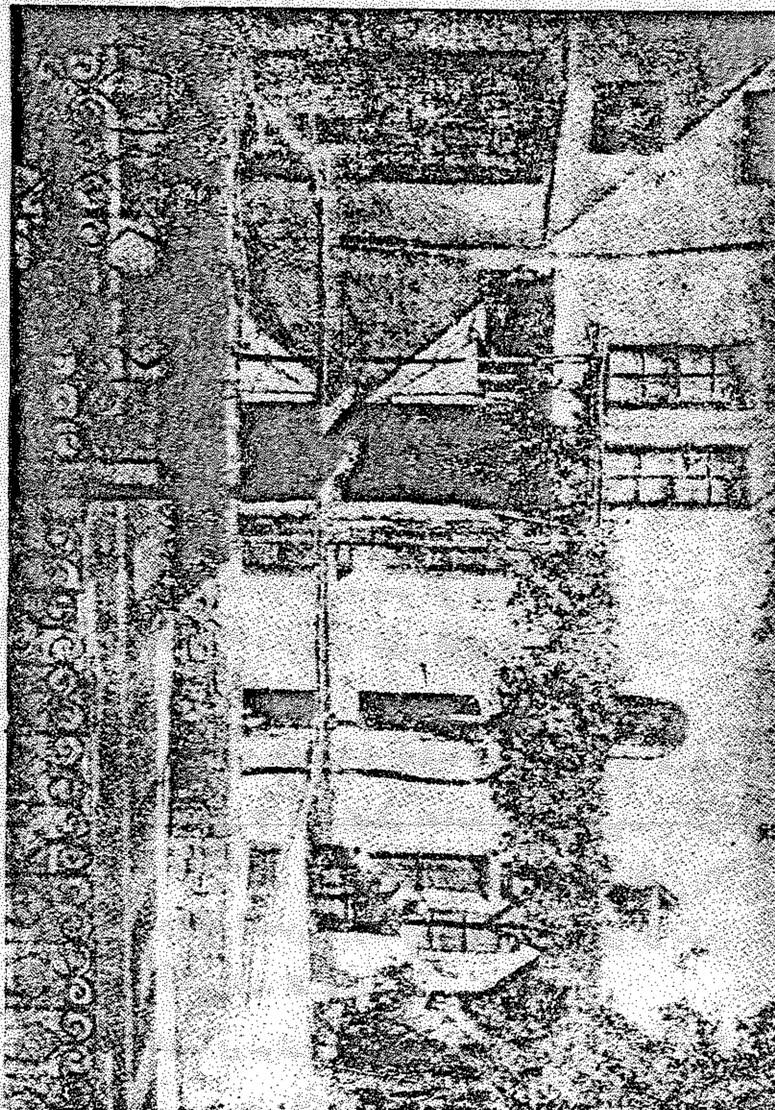
وتقع هذه المدرسة بخط الخواصين ، وهو الحى الذى يسميه أهل دمشق فى الوقت الحاضر « الخياطين » ، وهى فى الجنوب الغربى بالنسبة للجامع الأموى ، وتبعد عنه بما يقرب من نصف ميل .

وقد أسست هذه المدرسة على مساحة مقدارها ١٥٠٠ متر مربع تقريباً ، ولكن المساحة الحالية تنقص عن ذلك بحوالى ١٥٠ متراً سلبها جيرانها من الجهة الغربية ، وقد هُدِم البناء الأصلى وتجدد بناؤه ، ولم يبق من البناء القديم إلا الباب والبهو والقبة ومخطط الصحن [١] ولكن لوحظ فى البناء الحالى أن يكون إلى حد كبير على أساس البناء القديم .

وتقوم مبانى المدرسة فى جوانب الساحة ، أما الوسط فصحن مربع تقريباً مساحته ٣٤٠ متراً ، نمت به بعض الأشجار ، ويقع فى وسطه بحيرة طولها ٧٫٨ من الأمتار وعرضها ٦٫٥ من الأمتار ، يُمِدُّها بالماء مجرى صغير ينساب فيه الماء من حنفيات ونافورة فى الجانب المقابل للباب (شكل رقم ٣)

---

(١) أسعد طلس : ذيل ثمار المقاصد ص ٢٥٨



شكل رقم (٣) صحن المدرسة النورية الكبرى

وقد بنى هذا المجرى موضع قناة صغيرة كانت تجلب الماء لهذه البحيرة من نهر قنوات أحد أنهار دمشق السبعة [(١)] .

وباب المدرسة الحالى هو بابها القديم — كما سبق — وهو باب ضخم دقيق الصنع ، عتبته العليا عبارة عن حجر كبير كتب عليه بطريق الحفر وبخط الثلث اسم منشىء المدرسة . وتاريخ إنشائها ، والأوقاف عليها (شكل رقم ٤) ويفضى الباب إلى ممر مستطيل ، وفى منتصف الممر مدخل آخر لا باب له ، وهذا الممر يقود إلى صحن المدرسة .

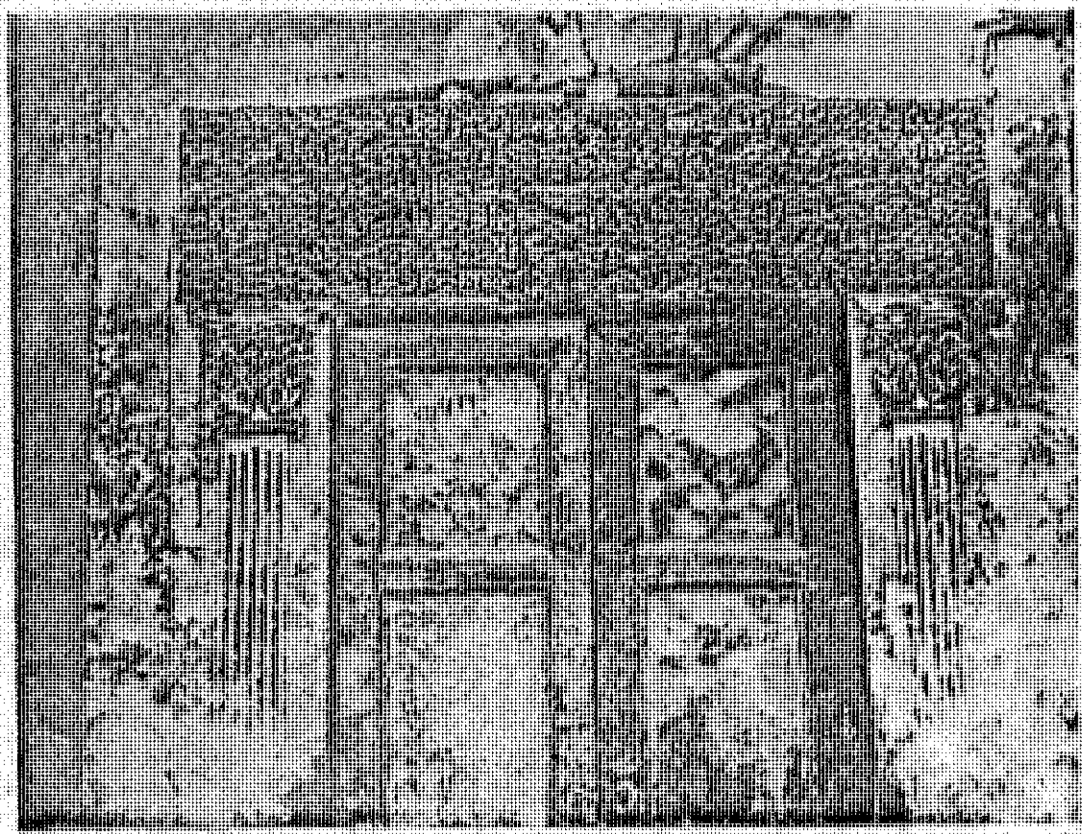
والسائر فى الممر سالف الذكر يجد إلى يمينه ضريح الشيخ محمد دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هـ ، وباب الضريح فى الشارع الذى به باب المدرسة ، وعلى يسار الداخل يقع ضريح نور الدين منشىء المدرسة ، ولهذا الضريح قبة ضخمة عجيبة الصنع ، (شكل رقم ٥) وهى من طراز القبة الموجودة بالمارستان النورى ، وليس بدمشق قباب أخرى من ذلك الطراز . وبعد أن يتجاوز السائر فى الممر محاذاة ضريح الشيخ دقيق العيد ، يجد باباً يؤدى إلى حجرة السلم ، ويقوده السلم إلى المسكن الخاص لمدرس المدرسة ، وكان يشغل هذا المسكن أبان زيارتى المدرسة الشيخُ صالح العقاد . ولهذا السلم فرع آخر يبدأ من منتصفه ويتجه اتجاها آخر ، فيدور حول قاعدة ارتفاعها ٦ أمتار ، وهى قاعدة مئذنة أو منارة ليس لدينا مادة عنها ، وينتهى هذا الفرع بالصاعد به إلى سطح المدرسة .

وسنستمر فى كلامنا عن هذه المدرسة ومرافقها متتبعين الأرقام المثبتة على المخطط السابق :

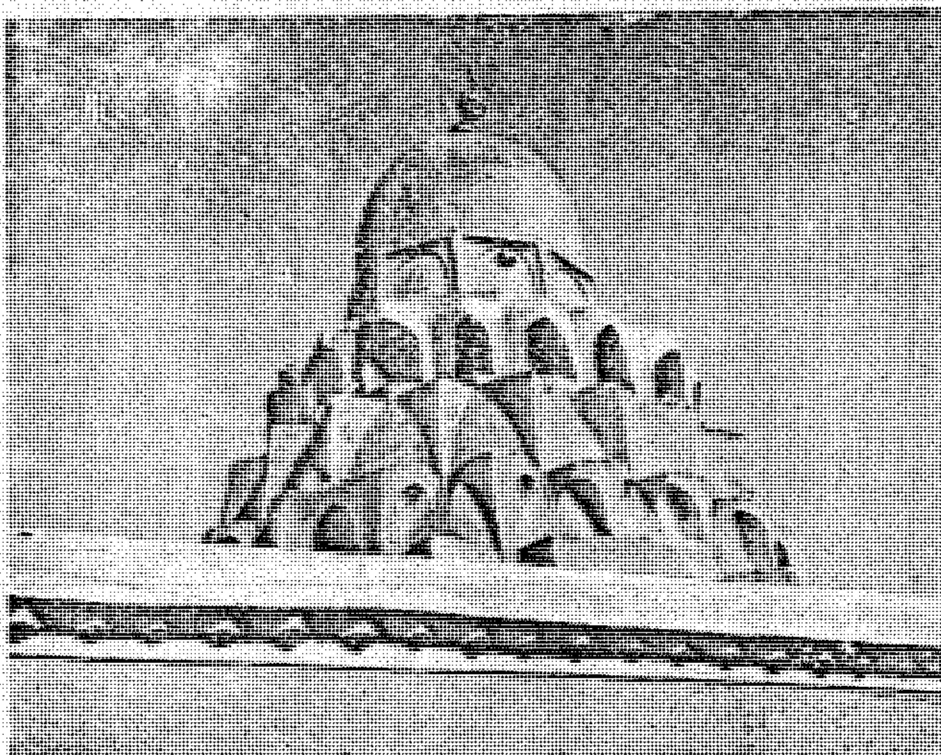
١ — الإيوان . هو أهم مكان فى المدرسة على ما سبق ، لأنه يرادف

---

(١) انظر خطط دمشق لصلاح الدين المنجد ص ٣٣



شكل رقم (٤) مدخل للتربة النورية الكبرى وقد سجلت على عتبه العليا الأوقاف على التربة



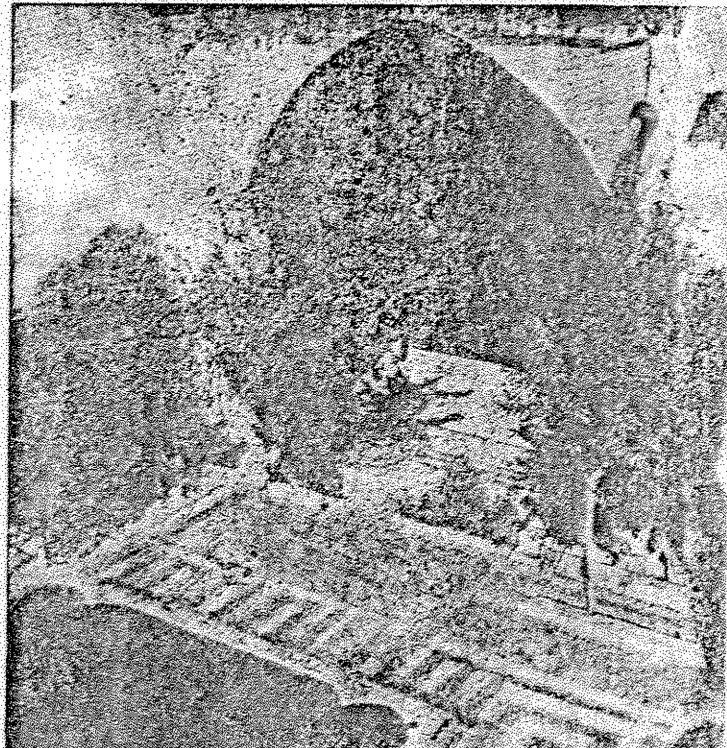
شكل رقم (٥) منظر خارجي لقبة ضريح نور الدين

التعبير الحديث (قاعة المحاضرات) ، وإيوان المدرسة النوريه الكبرى يتسع لحلقة كبيرة للدرس ، فطوله ثمانية أمتار . وليس لهذا الإيوان باب ، وإنما هو مفتوح على امتداد طوله مع سلمين فى نهايتى الامتداد يصعد عليهما الطلاب ، إذ أن الإيوان يرتفع عن الصحن بمتر تقريباً (شكل رقم ٦) .

٢ — المسجد : يقع الإيوان بين الصحن بالنسبة للداخل ، ويقابله على اليسار المسجد ، والمسجد هو المكان التالى للإيوان فى الأهمية ، ولم يكن المسجد خاصاً بالطلاب ، وإنما كان مفتوحاً لمن أراد العبادة ، ومن أجل هذا وضع فى أقصى مكان من الإيوان حتى لا يتأثر المصلون والعابدون بما قد يثار فى الحلقة من ضجيج المناقشات والجدل ، ولمسجد النورية محراب قديم ، ويتصل هذا المسجد بالصحن بواسطة فتحات ثلاثة ذات عقود ولا أبواب لها ، والأوسط من بينها أكبر الجميع .

٣ — استراحة المدرس : يتصل الجانب الشرقى للمسجد بحجرتين صغيرتين لكل منهما باب إلى المسجد ، وهناك باب داخلى يصل كلا من الحجرتين بالأخرى ، وهاتان الحجرتان أعدتا لاستراحة المدرس ، ولا تزالان حتى الوقت الحاضر تستعملان لنفس الغرض ، وذلك بخلاف مسكن المدرس الذى سبق الحديث عنه والذى أعد ليعيش فيه .

٤ — مساكن الطلاب : هذه المساكن مخصصة لطلاب القسم الداخلى ، وهى تنقسم إلى وحدات كل وحدة عبارة عن حجرتين إحداهما فوق الأخرى ويصلهما سلم داخلى ، ولا تزال هذه المساكن تستعمل لنفس الغرض الذى بنيت من أجله ، ويعيش الآن بها طلاب يلتحقون بمعاهد علميـــــة مختلفة فى دمشق .



شكل رقم (٦) ايوان المدرسة النورية « قاعة المحاضرات »

٥ — مسكن خادم المدرسة : يشمل هـذا المسكن الحجرات والمرافق الضرورية التى تلزم مسكناً مستقلا كما يظهر فى الرسم ، وقد كان هذا المسكن مشغولا إبان زيارتى لهذه المدرسة بالحاج محمود جوهر .

٦ — المراحيض : ولا تزال حتى الوقت الحاضر تستعمل لنفس الغرض الذى بنيت من أجله .

٧ — هذه المساحة ليست تابعة للمدرسة الآن إذ اغتصبها الجيران منذ حوالى خمسين سنة كما يروى ذلك الرجل المسن الحاج محمود جوهر خادم المدرسة ، ويُعتَقد أن هذه المساحة كانت مطبخاً وقاعة للطعام .

٨ — اغتصبت هـذه المساحة أيضاً حوالى نفس التاريخ السابق ، ويُعتَقَد أنها كانت مخزناً للبقول ومواد الطعام المختلفة .

٩ — كانت هذه المساحة مخصصة لتكون مخزناً عاماً للمدرسة ، يحتفظ فيها بأدوات التنظيف والمصابيح الزائدة عن الحاجة والفرش وما شابه ذلك ، وقد اغتصبت هذه المساحة منذ حوالى أربعين عاماً كما يروى ذلك الحاج محمود جوهر الذى يضيف أن هذه المساحة نالها شىء من الإهمال ، فقام جيرانها ليقتطعوها من المدرسة ، ولـكن المدرس تصدى لهم فى ذلك الحين ، وحاول منعهم ولـكنه فشل ، غير أنه لم يفقد الأمل فى استرداد هذه المساحة فى وقت من الأوقات فترك بابى هذا المخزن مكانهما على الرغم من الحائط الذى شُيِّد خلف البابين ، وقد فعل ذلك ليـكون البابان دليلا على أن المساحة الواقعة خلفهما تابعة للمدرسة .

مدرسو النورية الكبرى :

كانت النورية الكبرى مخصصة لدراسة العلوم الشرعية على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان ، وعلى هذا خُصّص للدريس فيها نخبة ممتازة من علماء الأحناف نذكر منهم :

بهاء الدين بن العقادة وقد درس بها إلى أن توفى سنة ٥٦٦ هـ .

برهان الدين مسعود وقد درس بها إلى أن توفى سنة ٥٩٩ هـ .

الشرف داود وقد عمل بها حتى سنة ٦٢٣ هـ ثم اعتزل العمل ليتولاه عالم مشهور بالدين والعلم وانتماء العلماء إليه وتلمذتهم عليه هو :

جمال الدين محمود بن أحمد الحصيرى ، وقد ظل يعمل بها إلى أن توفى سنة ٦٣٦ هـ .

صدر الدين إبراهيم بالنيابة عن قوام الدين محمد بن جمال الدين الحصيرى ، وقد ظل صدر الدين يعلّم فيها حتى شب قوام الدين وأصبحت ثقافته تساعده على تأدية ذلك العمل فتولاه ، وظل يؤديه حتى توفى سنة ٦٦٥ هـ .

نظام الدين الحصيرى وقد تولى بعد أخيه قوام الدين وظل يعمل بها حتى توفى سنة ٦٩٨ هـ

صدر الدين البصراوى وقد درّس بها حتى توفى سنة ٧٢٧ هـ .

عماد الدين بن الطرسوسى وقد درّس بها حتى توفى سنة ٧٤٨ هـ (١)

---

(١) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص ٤٤ ، ٤٥ (مخطوط) ، النعيمى : الدارس ج ١ ص ٦١٨ — ٦١٩

وقف على النورية :

سُجلت هذه الأوقاف على الحجر الذى يكوّن العتبة العليا لباب المدرسة ، وقد سبق إيراد صورة هذه الوثيقة الهامة (شكل ٤) والكتابة الموجودة عليها واضحة جداً ونصها كالآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذه المدرسة الملك العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر ضاعف الله ثوابه ، ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبى حنيفة رضى الله عنه ، ووقف عليها وعلى الفقهاء والتفقهة بها جميع الحمام المستجد بسوق القمح ، والحامين المستجدين بالوراقة خارج باب السلامة ، والدار المجاورة لها ، والوراقة بعونية الحمى . وجنينة الوزير ، والنصف والربع من بستان الجورة بالأرزة ، والأحد عشر حانوتاً خارج باب الجابية ، والساحة اللاصقة لها من الشرق ، والتسعة الحقول بداريا على ما نصّ وشُرط فى كتب الوقف رغبة فى الأجر والثواب وتقدمة بين يديه يوم الحساب ، فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه إن الله سميع عليم ، وذلك فى مدة آخرها شعبان سنة سبع وستين وخمسمائة[١] .

(١) معنى الفقرة الأخيرة هو أن هذه الأوقاف تسلم الى المدرسة فى خلال مدة آخرها الشهر المذكور .

الباب الثاني

المكتبات

المقتضب

[illegible]

المكتبات والتعليم

ربما يسأل سائل : لماذا نعنى بالمكتبات ونحن نتحدث عن تاريخ التربية ؟ وما علاقة هذه بتلك ؟

والإجابة عن هذا السؤال نوضح أن المكتبات كانت طريقة القدماء فى نشر العلم ، ولما كان يتعذر على غير الأغنياء اقتناء الكتب نظراً لأنها كانت مخطوطات غالية الثمن ، لجأ من أحب تعليم الناس إلى إنشاء مكتبة يجمع فيها الكتب ويفتح أبوابها للناس، كما فعل البطالسة فى مكتبة الاسكندرية،والعباسيون فى بيت الحكمة[١] .

ثم كانت الكتب نواة الجامعات الإسلامية المبكرة ، كبيت الحكمة فى بغداد ودار الحكمة فى القاهرة . وقد كان ذلك داعياً إلى اختلاف المؤرخين فى طبيعة هذه المؤسسات ، وما إذا كانت تعد مدارس أو مكتبات ، ثم أصبحت هذه نماذج لهذا النوع من المنشآت سواء شيدتها الدولة أو أسسها الأفراد ، وعلى هذا أصبحت المكتبات فى العالم الاسلامى فى تلك العصور تقوم بمهمة المعاهد العلمية فى العصر الحديث بالإضافة إلى ما تؤديه دور الكتب فى الوقت الحاضر من خدمات .

وسيجىء الحديث فيما بعد عن المؤسسات التى شيدتها الدولة لهذه المهمة ، وفيما يلى نماذج قليلة لمكتبات أنشأها الأفراد وكانت بدور العلم الحديثة أشبه :

حدث ياقوت[٢] قال : كان بكَرْكَر من نواحى القُفْص (قرية

---

(١) جورجى زيدان : التمدن الاسلامى ٣ : ٢١٠

(٢) معجم الأدباء ٥ : ٤٦٧

قريبة من بغداد) ضيعة نفيسة لعلى بن يحيى بن المنجم ، وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة ، يقصدها الناس من كل بلد ، فيقيمون فيها ، ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتبُ مبذولة فى ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى .

فهذه مكتبة فيها مساكن لطلاب العلم وفيها طعام لهم ونفقة ، أليست إذاً بالمدارس أشبه ؟ أنها لا ينقصها إلا المعلّمُ لتكون مدرسة بها مكتبة ، بل إن المعلم أيضاً وجد فى بعض المكتبات ، ولكنها ظلت تعد مكتبة لسبب من الأسباب كأن يكون المعلم لا ينتظم جلوسه للطلاب لأنه لا يتخذ التدريس وظيفته الأولى ، أو تكون المؤسسة غنية بالكتب فى موضوعات متعددة فتستهوى الكتبُ الناسَ أكثر مما يستويهم الاستماع للمدرس وهكذا . ومن هذا النوع دار العلم التى أنشأها بالموصل أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب لعلم ، لا يُمنع أحد من دخولها ، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب وكان معسراً أعطاه وَرَقاً وورِقاً ، وكانت تفتح فى كل يوم ، ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه ، ويجتمع إليه الناس ، ويملى عليهم من شعره وشعر غيره[(١)] . . . .

وفى كلام المقدسى عن مدينة « رام هرمز » يتحدث عن دارى كتب هاتين فيقول[(٢)] : وبها دار كتب كالتى بالبصرة ، والداران جميعاً اتخذها ابن سوار ، وفيهما إجراء على من قصدها ولزم القراءة والنسخ ، إلا أن خزانة البصرة أكبر وأعمر وأكثر كتباً ، وفى هذه أبداً شيخ يُدرّس عليه الكلام على مذهب المعتزلة .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٢ : ٤٢٠

(٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٤١٣

وكانت خزانة سابور بن أردشير المتوفى سنة ٤١٦ هـ ملتقى للباحثين والقراء، وكثيراً ما كان يجتمع فيها جلة من العلماء الذين يتباحثون ويتناظرون، ومن هؤلاء أبو العلاء المعرى الذى أحبها وآثر الاقامة بها حين كان ببغداد، وسيأتى مزيد من القول عن هذه المكتبة(١).

ويتضح من هذا جلياً أن المكتبات كانت وثيقة الصلة بالتربية الإسلامية، وأنه لا مناص أن يتحدث عنها الباحث فى تاريخ هذه التربية، وقد كان من الممكن أن تندمج فى الفصل الأول كمكان من أمكنة التعليم، غير أنه لما كانت للمكتبات أهمية خاصة، وتفصيلات مفيدة جميلة، كان من الأوفق أن يكون الحديث عنها فى فصل مستقل.

القيمة الأدبية للكتاب

يُكِنُّ العرب للكتب كل تقدير وإجلال، ويكثر أن يتحدث العربىُّ عن الكتاب فيَخدعَ القارىء حتى تظُنُّ أن العربى يتحدث عن صديق نما ودُّه وزاد إخلاصه، أو حبيب طال بعده وكثر الشوق إليه، أو رائد يقود المتكلم للطريق المستقيم ويأخذ بيده إلى الغاية الرشيدة.

أرسل بعض الخلفاء فى طلب بعض العلماء ليسامره، فلما جاء الخادم إليه وجده جالساً وحواليه كتب، وهو يطالع فيها. فقال له: أن أمير المؤمنين يستدعيك. قال: قل له: عندى قوم من الحكماء أحادثهم، فإذا فرغت منهم حضرت. فلما عاد الخادم إلى الخليفة وأخبره بذلك، قال له: ويحك، من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده؟ فقال: والله ياأمير المؤمنين ما كان عنده أحد. قال: فأحضره الساعة كيف كان. فلما حضر ذلك العالم قال له الخليفة: من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك؟ قال: يا أمير المؤمنين:

Margolioth's Introduction to Rasa'il Abi al Ala. (١)

هُم جلساء ما نَمَلّ حديثَهم   أمينون مأمونون غَيْباً ومشهداً
إذا ما خلونا كان خيرُ حديثهم   مُعيناً على نفى الهموم مؤيّداً
يفيدوننا من علمهم علمَ ما مضى   وعقلاً وتأديباً ورأياً وسؤددا
فلا ريبةٌ تُخشَى ولا سوء عشرة   ولا نَتّقِى منهم لساناً ولا يدا
فإن قلتَ : أمواتٌ فلست بكاذب   وإن قلتَ أحياءً فلست مفنّدا

فعلم الخليفة أنه يشير بذلك إلى الكتب ولم ينكر عليه تأخره(١)

ومن الحق أن نذكر أن الفضل فى تقدير الكتب يرجع إلى الجاحظ ، فإنه الذى وجّه الناس إلى الكتاب وقيمته ، والنثر وفائدته ، وكان الاتجاه العام قبله ينحاز للشعر ودواوين الشعراء ، فلما جاء الجاحظ وتسنم ذروة المجد وجه أنظار الناس إلى الكتابة والكتب مبيناً ما فيها من علم ، وما تحوى من معرفة ، ومن عباراته فى ذلك قوله : لا أعلم ما جاء فى حداثة سنّه ، ولا قرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده يجمع بين السير العجيبة والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، والتجارب الحكيمة ، والإخبار عن القرون الماضية ، والبلاد النازحة ما يجمعه كتاب ، ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غِبّاً ، وإن شئت لزمك لزوم الظل وكان منك كأن بعضك(٢) .

والكتاب صامت ما أسكتّه ، وبليغ ما استنطقته ، مسامر لا يبتديك فى حال شغلك ، ويدعوك فى أوقات نشاطك ، ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه ، وهو جليس لا يطريك ، وصديق لا يغريك ، ورفيق لا يملّك ولا يخدعك بالنفاق ، ولا يحتال لك بالكذب(٣) .

---

(١) ابن طباطبا ص ١٠ ومحاضرة الأبرار ٣ ب مخطوط
(٢) المحاسن والأضداد ص ٢   (٣) الحيوان ١ : ٥٠ — ٥١

ومما حكى عن الجاحظ أيضاً أنه قال : دخلت على محمد بن إسحاق أمير بغداد ، فى أيام ولايته ، وهو جالس فى الديوان ، والناس مثول بين يديه ، كأن على رؤوسهم الطير ، ثم دخلت إليه بعد مدة وهو معزول وهو جالس فى خزانة كتبه وحواليه الكتب والدفاتر والمحابر والمساطر ، فما رأيته أهيب منه فى تلك الحال[١]

وقد استجاب الناس لنداء الجاحظ وفكرته ، فأقبلوا على الكتب وقدروها حق قدرها ، فهذا محمد بن عبد الملك الزيات يعتكف عن الجماهير فترة من الزمن وينوى الجاحظ أن يزوره فى منزله ، ويفكر فى شىء يهديه إليه ، فلم يرقه شىء مثلما راقه كتاب سيبويه ، ويتسلم ابن الزيات الهدية قائلا للجاحظ : والله ما أهديتَ لى شيئاً أحبَّ إلىَّ منه[٢] .

ولكن الكتب التى أبرز الجاحظ قيمتها وأعلى قدرها لم تبرَّ به ، بل قست عليه ، وكان بها حتفه ، فقد روى أن موته كان بوقوع مجلدات عليه ، وكان من عادته أن يَصُفَّها قائمة كالحائط محيطة به وهو جالس وكان عليلا فسقطت عليه فقتلته[٣] .

ولكن الجاحظ مات بعد أن نجح نجاحاً تاماً فيما قصد إليه ، وبعد أن ذاعت بين الناس أفكاره ، وعمقت مبادئه . يروى محيى الدين العربى[٤] . عن أحد العلماء أنه قال : ما رأيت بستاناً يُحمَل فى رُدْن ، وروضـــة تُنقل (فى) حجر ، ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء من (لعلها : مثل) الكتاب ، فمن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ؟ ولا ينطق إلا بما تهوى ؟ أكتمُ للسرِ من صاحب السر واحفظ للوديعة من أرباب الوديعة .

(١) ابن طباطبا ص ١٠ — ١١ (٢) معجم الأدباء ٦ : ٨٥ — ٨٦
(٣) أبو الفداء ٢ : ٤٧
(٤) ابن العربى : المسامرات ٢ به مخطوط .

ولا أعلم جاراً أبرّ ، ولا خليلا أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية ولا أقل إملالا وإبراما ، ولا أترك لشغب ، ولا أزهد فى جدال ، ولا أكف عن قتال من كتاب[١] .

وكان الوزراء الذين وضعوا أيديهم على السلطة فى فترات كثيرة من التاريخ الإسلامى يدركون ما للكتب من قدرة على تثقيف العقول وتكوين الأخلاق والبطولة ، ومن أجل هذا كانوا لا يقدمونها إلى الخلفاء الضعفاء حتى لا يُحيُوا نفوسهم ويكوّنوا شخصياتهم . رُوى أن المكتفى طلب من وزيره مرة كتباً يقطع بمطالعتها زمانه ، فتقدم الوزير إلى نوّابه بتحصيل ذلك ، وعرْضِه عليه قبل حمله إلى الخليفة . فحصّلوا شيئاً من كتب التاريخ وفيها شىء مما جرى فى الأيام السالفة من وقائع الملوك وأخبار الوزراء ومعرفة التحيّل فى استخراج الأموال . . . . فلما رأى الوزير هذه الكتب قال لنوابه : والله إنكم أشد الناس عداوة لى ، فقد حصّلتم له ما يعرّفه مصارعَ الوزراء ، ويوجده الطريق إلى استخراج الأموال ، ويعرّفه خراب البلاد من عمارتها . ردوها وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه وأشعار تطربه[٢] .

ولنختم هذا القسم بقول المتنبى الشاعر العربى الشهير :

أعز مكان فى الدنى سرج سابح   وخير جليس فى الزمان كتاب[٣]

وقول عبد الله بن أحمد بن الخشاب :

وذى أوجه لكنه غير بائح   بسر ، وذو الوجهين للسرّ مظهر
تناجيك بالأسرار أسرارُ وجهه   فتفهمها ما دمت بالعين تنظر[٤]

---

(١) رويت هذه القطعة فى المحاسن والأضداد ص ٣ منسوبة للجاحظ .

(٢) ابن طباطبا ص ١١   (٣) ديوان المتنبى شرح العكبرى ١ : ١٢٣

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ٤ : ٢٨٧

القيمة الأدبية للمكتبات

انتهينا آنفاً من الحديث عن تقدير المسلمين للكتب وإعجابهم بها ، وقد ترتب على ذلك التقدير وهذا الإعجاب اهتمامهم بالمكتبات وإقبالهم على تكوينها ، وليس هذا فحسب ، وإنما بذلوا للمكتبات ما بذلوه من قبل للكتب من حب وحرص وتقدير ، والأدب العربى حافل بصورٍ تدل على هذا الاتجاه الرائع المثير :

هجم الجنود الخراسانية على دار ابن العميد بعد أن انتصروا على غلمانه وحراسه ، وفر ابن العميد إلى دار الإمارة ، تاركاً لهم بيته وما فيه ، فلما جاء الليل وانصرف الجنود الخراسانية ، عاد ابن العميد إلى داره ، فوجد أن اصطبلاته وخزائنه جميعاً قد نُهِبَتْ ، حتى أنه لم يجد فى منزله ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ماء ، فأنفذ إليه أبو حمزة العلوى فرشاً وآلة ، واشتغل قلبه بدفاتره ولم يكن شىء أعز عليه منها ، وكانت كثيرة تشمل جميع العلوم ، وكلُّ نوع من أنواع الحِكَم والآداب بها يُحمل على مائة وقر وزيادة ، فلما رأى ابنُ العميد ابنَ مسكويه خازن كتبه سأله عنها فأجاب : هى بحالها لم تمسها يد . فسُرِّى عن ابن العميد وقال لخازنه : أشهد أنك ميمون النقيبة ، فإن سائر الخزائن يوجد عنها عوض ، ولكن هذه الخزانة هى التى لا عوض لها[١] .

وفضَّل الصاحب بن عباد أن يبقى بجانب مكتبته العامرة على أن يتولى أعظم المناصب فى بلاط نوح بن منصور السامانى ، فقد أرسل له هذا يستدعيه إلى حضرته ، ويرغبه فى خدمته ، وبذل له البذول السنية ، فكانت

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ٦ : ٢٢٤ — ٢٢٥

مكتبته الفنية من جملة ما اعتذر به فلا هو استطاع الذهاب بدونها ، ولا كان من اليسير حملها معه ، فآثر أن يبقى بجانبها[١] .

واهتم بنو عمار الذين كانوا يقطنون طرابلس الشام اهتماماً كبيراً بمكتباتهم ، وحشدوا فيها مجموعات ثمينة من الكتب فى الفنون المختلفة ، وحرصوا على أن يزودوها بكل نادر وكل جديد ، ومن أجل ذلك وظفوا أخصائيين وتجاراً ليجوبوا البلاد ويحرزوا لهم الكتب المفيدة من البلدان النائية والأقطار الأجنبية[٢] .

وحكى ابن صورة الكتبي القصة الآتية : التمس ابن القاضى الفاضل منى أن أطلب له نسخة من الحماسة ليقرأها ، فأعلمت أباه القاضى الفاضل ، فاستحضر من الخادم الحماسات فأحضر له خمساً وثلاثين نسخة ، فأخذ ينفض نسخة نسخة ويقول : هذه بخط فلان ، وهذه عليها خط فلان ، حتى أتى على الجميع ، ثم قال : ليس فيها ما يصلح للصبيان . وأمرنى أن أشترى له نسخة بدينار[٣] .

وإذا سرنا إلى الأندلس وجدنا نشاطاً يثير العجب فى تكوين المكتبات وحبها وتقديرها ، فإن الحكم صاحب الأندلس كان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ، ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه ، وعند ما سمع بكتاب الأغانى أرسل لمصنفه أبى الفرج الأصفهانى ألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه فى العراق ، وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الأبهرى (سنة ٣٧٥) فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم[٤] .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٢ : ٣١٥

(٢) Islamic Culture 1929, p. 231. ، وانظر كرد على : خطط الشام ٦ : ١٩١

(٣) الخطط ٢ : ٣٦٧ (٤) ابن خلدون : العبر : ج ٤ ص ١٤٦ ، والمقرى ١ : ١٨٢

ولم يقف حب المكتبات وتقديرها والحرص عليها عند العلماء والباحثين وإنما تعداهم إلى سواهم من عامة الناس ، وأصبح وجود مكتبة بالمنزل من تمام زينته وتأثيثه ، حتى ولو لم يكن صاحب المنزل مؤهلا للاطلاع والاستفادة من ذخائرها ، فهى على كل حال تضفى على المنزل جمالا وعلى صاحبه كمالا وجلالا . روى المقرى[١] عن الحضرمى أحد علماء الأندلس أنه قال : أقمت مدة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب ، لى بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ، ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد فى ثمنه ، فيرجع إلىّ المنادى بالزيادة علىّ إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت المنادى : أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوى ! فأرانى شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوت منه فقلت له : أعز الله مولانا الفقيه ، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت فيه الزيادة بيننا فوق حده ، فقال لى : لست بفقيه ، ولا أدرى ما فيه ، ولكنى أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه[٢] .

أبنية المكتبات ونظمها

يقول O'ga Pinto فى مقال له عن المكتبات الإسلاميه[٣] : إن

---

(١) نفح الطيب ١ : ٢١٨

(٢) لهذه القصة نظير وقع فى العصر الحديث فإن ثريا أمريكياً بنى منزلا فخما فى حى من أعظم أحياء نيويورك ، واختار له أرق أثاث ، ثم أرسل خطابا لمدير محل كبير لبيع الكتب بلندن يطلب منه إرسال مجموعة من الكتب ، وقد جاء فى الخطاب تفاصيل دقيقة فيما يختص بنوع التجليد وحجم الكتب ، والمساحة التى يراد شغلها بها . أما عن موضوعات الكتب وعناوينها فقد تركت لاختيار محل بيع الكتب ، إذ كان المقصود بالكتب الزينة والمظهر دون أن يراد منها الثقافة والعلم .
(Islamic Culture 1938 Vol 12 P. 165)

(٣) Islamic Culture 1829, 111 P. 227.

المسلمين اهتموا اهتماماً عظيماً بأبنية المكتبات العامة ، التى كانت تُعدُّ لاستقبال الجماهير ، وقد شُيِّد بناء خاص على طراز معين لمكتبات شيراز وقرطبة والقاهرة وما ماثلها ، وكانت البناء مزوَّداً بحجرات متعددة يربط بينها أروقة فسيحة ، وكانت الرفوف تثبت بجوار الجدران لتوضع فيها الكتب ، وبعض الأروقة كان يخصص للاطلاع ، كما كانت تُخصص بعض الحجرات للنسخ ، وبعضها لحلقات الدراسة ، وانتظمت بعضُ المكتبات كذلك حجراتٍ للموسيقى يلجأ إليها الطالعون للترفيه وتجديد النشاط ، وكانت جميع الحجرات مؤثثة تأثيثاً فخماً ومريحاً ، وقد فرشت أرضها بالبسط والحصير لتلائم أذواق الشرقيين الذين كانوا يميلون إلى الجلوس على الأرض متقاطعة أرجلهم للقراءة والكتابة . . . .

وكان للنوافذ والأبواب ستائر جميلة ، أما مدخل المكتبة فقد كانت له ستارة سميكة تحول دون دخول الهواء البارد فى الشتاء إلى داخل الحجرات . ويقول المقريزى[1] إن دار الحكمة بالقاهرة لم تفتح أبوابها للجماهير إلا بعد أن فرشت وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور ، وأقيم قُوَّام وخدام وفراشون وغيرهم رُسِموا بخدمتها .

وكان البناء المخصص لمكتبة الفاطميين عظيماً جداً ، إذ كانت عدة الخزائن التى برسم الكتب فى سائر العلوم أربعين خزانة ، تتسع الواحدة منها لأن يوضع بها ١٨,٠٠٠ كتاب[2] .

ويعطينا المقدسى[3] وصفاً دقيقاً لمكتبة عضد الدولة فى شيراز وفيما يلى من كلامه ما يتصل بأبنية المكتبات ونظمها :

---

(١) الخطط ١ : ٤٥٨ (٢) انظر المقريزى ١ : ٤٠٨

(٣) أحسن التقاسيم ص ٤٤٩

والمكتبة (أزج) طويل فى صفة كبيرة فيها خزائن من كل وجه ، وقد ألصقت إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوت طولها قامة فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوّق عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت .

وقد اتضح من عجز هذا الاقتباس أن الكتب فى هذه المكتبة كانت موزعة فى الحجرات على حسب موضوعاتها ، وهو نظام اتبع فى جميع المكتبات الإسلامية تقريباً ، فابن سينا الذى انتفع بمكتبة السامانيين فى عهد نوح بن منصور كتب يصف هذه المكتبة بقوله : دخلت داراً ذات بيوت كثيرة ، فى كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها فوق بعض ، فى بيت منها كتب العربية والشعر ، وفى آخر الفقه ، وكذلك فى كل بيت كتب علم مفرد [(١)] .

ولم يعرف المسلمون فى القرون الوسطى الطريقة الحديثة فى وضع الكتب على الأرفف بل كانوا يضعونها مستلقية الواحد فوق الآخر [(٢)] ، وعلى هذا نصح من يقوم بترتيب الكتب ألا يضع ذوات القطع الكبير فوق ذوات القطع الصغير كيلا يكثر تساقطها [(٣)] .

---

(١) ابن أبى أصيبعة ٢ : ٤ .

(٢) لم تعرف أوروبا فى ذلك العصر الطريقة الحديثة أيضاً ، بل كانوا يفعلون مثل ما فعل المسلمون ، ولعل السبب فى ذلك هو أن تلك الطريقة انحدرت للعصور الوسطى من العصور السابقة لها . والتى كانت كتبها عبارة عن أوراق البردى أو لفافات منها أو مما ماثلها . وتقتضى طبيعة هذه الأوراق وتلك اللفافات أن توضع فى الأرفف بعضها فوق بعض .
See the Technique and Ap; roach of Muslim Scholarship by Fr. Rosenthal. A nalecta Orient-lia 24 , 1924.
وكان يعتقد أيضاً أن وضع الكتب بعضها فوق بعض يحميها من الأتربة ومن قراضة الكتب التى استطاع المسلمون على أى حال أن يجدوا لها دواء (انظر معجم الأدباء لياقوت ٦ : ٣٥٩) .

(٣) ابن جماعة . تذكرة السامع والمتكلم ص ١٧٢

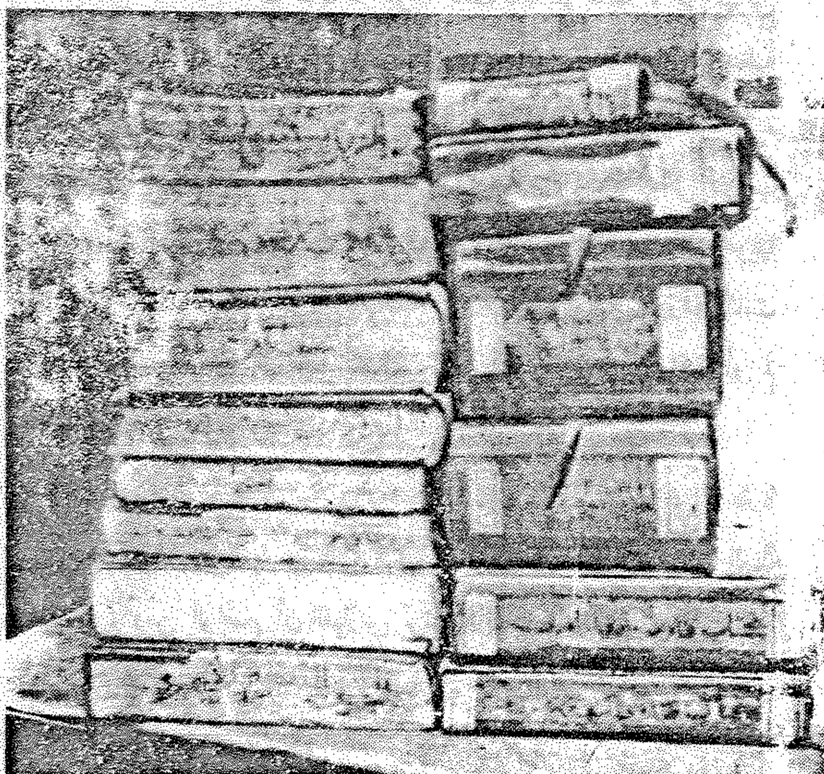
وترتب على تنظيم الكتب بهذه الطريقة شيء آخر هو أن عنوان الكتاب واسم مؤلفه لم يكتبا على ظهر الكتاب (كعب الكتاب) كما هو متبع فى العهد الحاضر ، بل كان المعروف أن يكتب عنوان الكتاب واسم مؤلفه على أطراف الصفحات مجتمعة من أسفل وتجعل رؤوس الأحرف تجاه بدء الكتاب فإذا وضعت الكتب بعضها فوق بعض جعل الجانب الذى عليه الكتابة فى الجهة الخارجية للرف ليواجه الشخص الذى يبحث عن كتاب معين فيسهل عليه فى هذه الحال أن يعثر على الكتاب الذى يريده[١] ، أما الكتب الثمينة أو الكتب غير المجلدة فقد كان كل منها يحفظ غالباً فى صندوق صغير حجمه حجم الكتاب ، وهذا الصندوق مصنوع من الورق القوى فى الغالب ، ويكتب العنوان واسم المؤلف فى هذه الحال على جانب الصندوق بدلا من أطراف الورق. وفى دار الكتب المصرية بالقاهرة مجموعة كبيرة منحدرة من تلك العصور كتب العنوان واسم المؤلف على أطراف أوراقها أو على جوانب صناديقها ، وقد تفضل موظفو دار الكتب فأتاحوا لى فرصة وضع بعض منها على الطريقة التى كانت تتبع من قبل لتصويرها (انظر شكل ٧) .

وكانت الرفوف مفتوحة ، والكتب فى متناول الجميع ، وكل شخص يستطيع أن يحصل بنفسه على الكتاب الذى يريد ما تيسر له ذلك ، فإذا ضل الطريق إليه استعان بأحد المناولين الذين سنتحدث عنهم فيما بعد ، وكانت هناك على أية حال رفوف مغلقة لأنها كانت تحوى المخطوطات الثمينة والكتب النادرة ، وللحصول على مخطوط أو كتاب منها يلزم أن يحصل الطالب على إذن بذلك من المشرفين على أمور المكتبة[٢] .

---

(١) ابن جماعة : ١٧١ — ١٧٢

(٢) Islamic Culture III, 1929 P. 229.



شكل رقم (٧) نظام ترتيب الكتب في المكتبات الاسلامية المبكرة

الفهارس

لم تخلُ مكتبة ذات شأن ، سواء كانت عامة أو خاصة ، من فهرس يُرجع إليه لسهولة استعمال مجموعة الكتب ، وكانت هذه الفهارس منظمة للغاية ، فهى تشمل الكتب التى بالمكتبة مرتبة على حسب موضوعاتها . وبجانب هذه الفهارس العامة كانت هناك ورقة خاصة ملتصقة بكل دولاب من دواليب الكتب ، وقد كتب على هذه الورقة عناوين الكتب التى يحويها ذلك الدولاب وأرقامها فيه ، وبالإضافة إلى عنوان الكتاب ورقمه كانت الفهارس تشمل ملاحظات عن الكتب التى فُقدت بعض أوراقها أو لم توجد جميع أجزائها[1] .

ولنجل الآن جولة سريعة فى مكتبات العالم الإسلامى لعرض ما عثرنا عليه من ذكر لهذه الفهارس التى عرفها المسلمون ونظموها منذ ذلك العهد المبكر ، ومن الواضح أن الفهارس ترتبط ارتباطاً تاماً بالمكتبات الكبيرة ومن أجل هذا فسيشمل حديثنا عن الفهارس إيضاحاً لنقطة هامة ، هى غنى المكتبات وما حوته من ذخائر .

وأول ما نسوق من ذلك هو قول ابن سينا إنه اطلع على فهارس مكتبة السامانيين فى بخارى ، واختار بضعة كتب طلب أن يطلع عليها ، فأُحضرت إليه فى الحال ، ويحكى ابن سينا أنه رأى من الكتب ما لم يقع اسمه قط إلى كثير من الناس ، وما كان رآه من قبل ، ولا رآه أيضاً من بعد[2] .

---

(١) Islamic Culture III 1929 P. 229.

(٢) Barthold Turkestan Down to the Mongol Invasion PP. 9-10
وانظر أيضا ابن أبى أصيبعة ٢ : ٤

ويقول المقدسى[١] وهو يواصل وصفه لمكتبة عضد الدولة فى شيراز : لكل نوع من الكتب فهارس فيها عناوين الكتب .

ويسجل أبو الحسن البيهقى أنه رأى بنفسه فهارس كتب الصاحب بن عباد وأن تلك الفهارس كانت تقع فى عشرة مجلدات[٢] .

وقد كانت الفهارس معروفة فى العراق منذ عهد خزانة الحكمة ؛ حدث الحسن بن سهل قال : قال لى المأمون يوماً : أى كتب العجم أشرف ؟ فذكرت كثيراً منها ثم قلت : جاويذان خرد (يتيمة السلطان) يا أمير المؤمنين . فدعا المأمون بفهرست كتبه وجعل يقلبه فلم يرَ لهذا الكتاب ذكراً . فقال : كيف يسقط ذكر هذا الكتاب من الفهرست ؟[٣] .

وكان لمكتبة المدرسة النظامية ببغداد فهرس شامل دقيق رآه ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وهو يقول عنه : ولقد نظرت فى ثبت الكتب الموقوفة فى المدرسة النظامية ، فإذا به يحتوى على نحو ستة آلاف مجلد[٤] .

ولما فرغ المستنصر بالله من بناء مدرسته نقل إليها من الربعات الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ما حمله مائة وستون حمالا ، وجُعلت فى خزانة الكتب وتقدم المستنصر إلى الشيخ عبد العزيز شيخ رباط الحريم بالحضور بالمدرسة وإثبات الكتب واعتبارها[٥] ،

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٤٤٩

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٢ : ٣١٥

(٣) محمد كرد على : رسائل البلغاء ٤٧٩ — ٤٨٠

(٤) صيد الخاطر ٣٦٦ — ٣٦٧

(٥) إثبات الكتب هو كتابة أسمائها فى ثبت أو سجل ، واعتبارها هو فحصها للتأكد من صحة عددها ومن سلامة أوراقها ، أو لإثبات حالها، ومثل الاعتبار لفظ (الجرد) وهو لفظ مولد يكثر استعماله فى الوقت الحاضر .

والى ولده العدل ضياء الدين أحمد ، الخازن بخزانة كتب الخليفة فى داره أيضاً ، فحضر واعتبرها ، ورتبها أحسن ترتيب ، مفصّلا لفنونها ليسهل تناوُلُها ولا يتعب مُناوِلُها[١] .

أما فى مصر فيبدو أنه لم يكن هناك فى باديء الأمر فهرس عام لمكتبة الفاطميين العظيمة التى كانت تشغل أربعين حجرة ، بل كان يُكتفى بقائمة خاصة لكل حجرة ، وتشمل القائمة عناوين الكتب الموجودة بالحجرة وأرقامها وتلصق قائمة كل حجرة على بابها[٢] . ولكن الوزير أبا القاسم الجرجانى وجد أن مكتبة كهذه لابد لها من فهرس عام ، فأصدر فى سنة ٤٢٥ ﻫ أمره بذلك ، وعين لهذه المهمة القاضى أبا عبد الله القضاعى وأبا خلف الوراق[٣] .

وفى أسبانيا كان لمكتبة الحكم فهارس غاية فى الدقة والنظام ، وهى تدل على أن المكتبة كانت تزخر بمجموعة عظيمة من الكتب فقد روى المقرى[٤] أن الفهرست الخاص بدواوين الشعراء وحدها كان يقع فى أربعة وأربعين جزءاً .

(١) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٥٤

(٢) الخطط ١ : ٤٠٩

(٣) القفطى : أخبار الحكماء ص ٤٤٠

(٤) نفح الطيب ١ : ١٨٦ وانظر كذلك :
Sayid Ameer Ali : A Short History of the Saracens P. 514.

استعارة الكتب

تُسْتَحَبُّ إعارة الكتب ممن لا ضرر عليه فى ذلك ان لا ضرر منه بها ، وإعارتها للطلبة والمشيخة آكد ، لما فيه من نشر العلم خاصة وإفادة الناس عامة ، حتى عُدَّ ذلك من صفات العلماء المحمودة ، وكان الحافظ بن الخاضبة محبوباً إلى الناس كلهم فاضلاً حسن الذكر . لا يأتيه مستعير كتاباً إلا أعطاه له أو دلّه عليه[1] .

وقد وجدت فى عهد مبكر عادة الاستهانة بالكتاب المستعار أو عدم رده[2] ، وكان ذلك سبباً فى أن كره بعض الأدباء والعلماء إعارة كتبهم خوفاً عليها . قال رجل لأبى العتاهية : أعرنى كتابك . فقال : إنى أكره ذلك . فقال الرجل : أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره ؟ فأعاره الكتاب[3] . وطلب الشافعى من محمد بن الحسن كتباً فمنعها فكتب له الشافعى :

يا ذا الذى لم ترَ عيـ ـنُ من رآه مثـــله
العـــلم يأبى أهلُه أن يمنعــوه أهلَه[4]

وقد كان تيسير الاستعارة داعياً لأن يستغنى بها بعض العلماء ، فلم يجدوا من الضرورى أن يشتروا الكتب ويبذلوا المال ثمناً لها ، ومن هؤلاء أبو حيان الغرناطى الذى يقول : إذا أردت كتاباً استعرته من كتب الأوقاف وقضيت حاجتى[5] .

---

(١) ابن جماعة ص ١٦٧ وهامش ص ١٦٨
(٢) انظر المقريزى ٢ : ٣٦٦ (٣) ابن جماعة ١٦٧ — ١٦٨
(٤) ابن جماعة ص ١٦٨ (٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ٤ : ٣٠٩

ولم تكن الاستعارة على أية حال مطلقة تماماً ، بل وضعت عليها قيود لتنظيم العمل وسيره ، ومن ذلك أنه كان من نظام مكتبة القاهرة أنها تعير كتبها للطلبة الساكنين فى القاهرة فقط(١) .

وكان يكثر أن يُطلب إلى المستعير أن يدفع ضماناً أو ما يطلق عليه الآن (تأمين) ولكن كان يعفى العلماء وأفاضل الناس من دفع ذلك الضمان ، فلقد مَدَح ياقوت الرومى المشرفين على المكتبات ببلدة مرو إذ سمحوا له أن يستعير مائتى مجلد دون أن يدفع ضماناً(٢) .

وكثيراً ما كان يُحدَّد وقت للمستعير بحيث يلزمه رد الكتاب دون تجاوز هذا الوقت ، فإن ابن خلدون سجَّل فى الوثيقة التى أهدى بها كتابه العبر إلى مكتبة جامع القيروان : أنه لا يجوز إعارة الكتاب إعارة خارجية إلا إذا كان المستعير شخصا موثوقا به وأميناً ، على أن يدفع ضماناً هاماً ، وأن يردّ الكتاب فى مدة لا تتجاوز شهرين(٣) .

ومستعير الكتاب ينبغى أن يحافظ عليه تمام المحافظة ، ولا يجوز أن يصلحه بغير إذن صاحبه ، ولا يُحَشِّى ولا يكتب شيئاً فى بياض فواتحه أو خواتمه أو هوامشه إلا إذا علم رضا صاحبه ، ولا يعيره لغيره ، ولا يدفعه ضماناً لشيء . وعلى المستعير ألا يطيل مقام الكتاب عنده من غير حاجة ، بل يرده إذا قضى حاجته أو انتهت المدة التى أذن له بها . ولا يحبسه إذا طلبه المالك ، وليتبع على العموم قول الشاعر :

أيها المستعير منى كتاباً　　أرض لى منه ما لنفسك ترضى

---

(١) دائرة معارف وجدى ٨ : ٦٤ وهذا يذكرنا بالنظام الإنكليزى المعمول به فى أغلب المكتبات البريطانية إن لم يكن كلها ، والذى لا يسمح باخراج الكتاب المستعار من الجزر البريطانية .

(٢) معجم البلدان : ج ٦ ص ٣٧

(٣) The Encyclopaedia of Islam II, P. 1047.

كل هذا ينطبق على الكتاب المستعار من شخص أو من مكتبة خاصة ، ولكن فى حالة الكتاب المستعار من مكتبة عامة لا بأس باصلاحه ممن هو أهل لذلك ، وينبغى للمستعير أن يشكر المعير عونه ويجزيه خيراً[١] .

وقبل أن نختم هذا الموضوع يجدر بنا أن نذكر أنه وجد بالعالم الإسلامى مكتبات للاطلاع الداخلى فقط دون إعارة خارجية كما هو متبع الآن فى المتحف البريطانى ، وممن فعل ذلك فى البلاد الإسلامية القاضى ابن حيان النيسابورى الذى وقف كتبه على أهل العلم على شرط ألا يعار كتاب منها إعارة خارجية مهما كانت الظروف[٢] . وقد اشتُرِط هذا الشرط نفسُه فيما يختص بمكتبة المدرسة المحمودية التى أنشأها جمال الدين محمود بن على الذى نص فى كتاب الوقفية على أنه لا يجوز إخراج أى كتاب خارج بناء المدرسة[٣] .

موظفو المكتبة

يختلف موظفو المكتبة بطبيعة الحال باختلاف المكتبة ، وما إذا كانت صغيرة أو كبيرة ، خاصة أو عامة ، وهذا الاختلاف يشمل أنواع الوظائف وعدد الموظفين . ومع هـذا فهناك وظائف قلَّ أن خلت منها مكتبة ذات شأن فى العالم الإسلامى ، ويدور الحديث فى هذا القسم عن الموظفين الذين شغلوا هذه الوظائف وهم :

١ — الخازن (أمين المكتبة) .

٢ — المترجمون .　　　٣ — النساخ .

---

(١) ابن جماعه ١٦٨ ـ ١٦٩ بتصرف .
(٢) Islamic Culture III, 1929. P. 234.
(٣) المقريزى الخطط ٢ : ٣٩٥

٤ — المجلدون .   ٥ — المناولون[1] .

وسنتكلم كلمة عن كل من هؤلاء لنصف العمل الذى كان يمارسه :

١ — الخازن (أمين المكتبة) :

كان الخازن يشرف على الناحية العلمية والناحية الإدارية بالمكتبة ؛ فهو يمد المكتبة بالكتب الجديدة ، ويلاحظ دقة الفهارس وحسن تنظيمها وشمولها ، وييسّر للقراء عملهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وعليه المحافظة على الكتب من الضياع ، وترميم شعثها ، وحبكها عند احتياجها للحبك ، والضن بها على من ليس من أهلها ، وبذلها للمحتاج إليها ، وأن يقدم فى العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء[2] .

وكان الغالب أن يكون للمكتبة خازن واحد يقوم بهذه المهمة ، ولكن بعض المكتبات كانت ضخمة أو كثيرة الرواد فثقل العبء على خازن واحد ، ومن أجل هذا كان يعين اثنان أو يعين للخازن مساعدٌ أو أكثر ليتعاونوا جميعًا فى خدمة القراء ، وتيسير الاطلاع لهم ، ومن هذه المكتبات مكتبة سابور بن أردشير فقد ذكر ابن العماد[3] أن سابور بعد أن نقل إليها الكتب الكثيرة ، رد النظر فى أمرها إلى الحسين بن

---

(١) كانت هناك أيضاً وظيفة المشرف إلا أنها كانت قليلة الانتشار ، فلم توجد إلا فى المكتبات العظيمة . ووظيفة المشرف وظيفة عامة ، لا تستلزم من شاغلها أن يمضى بالمكتبة وقتاً طويلا كما كان يفعل الخازن ، بل كان يكفى أن يتردد المشرف من يوم إلى آخر لوقت قصير ، ومن أجل هذا لم يكن مرتبه أعلى من مرتب الخازن ، وكان من الممكن أن ينتقل المشرف فيصبح خازناً كابن القوطى الذى كان مشرفاً على خزانة المدرسة المستنصرية ثم عين خازنا لها . ولما لم تكن وظيفة المشرف موجودة بكل مكتبة أو بأغلب المكتبات ، ولما كانت غير دقيقة الاختصاصات فقد اكتفيت بهذا الموجز عنها .

(٢) السبكى : مفيد النعم ١٥٩   (٣) شذرات الذهب ١ : ١٠٤

شيبة[١] ، وأبى عبد الله الضبى القاضى ، وبعد وفاة سابور آلت صراعاة الدار إلى المرتضى أبى القاسم نقيب الطالبيين ، فضم هذا إلى خازنها المعروف بأبى منصور خازنا آخر يعرف بأبى عبد الله بن حمد[٢] . وكذلك أقيم لمكتبة الفاطميين قُوّام يرعون شئونها[٣] .

ثقافة الخازن : يعتبر أمناء المكتبات فى أرقى دول العـــالم فى العصر الحديث موئلا للطلاب بل وللعلماء ، فكثيراً ما يُعدُّونهم بمراجع هامة فى موضوع يعنيهم ، ثم إن الأمناء بحكم عملهم يتلقون الكتب الحديثة ويلقون عليها النظرات الأولى ، وهم بذلك يستطيعون أن يوجهوا أنظار المهتمين بموضوع ما بما يجدُ حول هذا الموضوع من دراسات وأبحاث ، ومن أجل هــذا يختار أمناء المكتبات من بين المثقفين ثقافة ممتازة ، ومنهم من هو حاصل على درجات علمية عليا .

ويبدو أن المسلمين فى العصور الوسطى اتجهوا هذا الاتجاه ، وأدركوا أن وظيفة الخازن ليست عملا إداريًا فحسب ، وإنما هى عمل علمى قبل كل شىء ، وعلى هذا فقد اختير لهذه الوظيفة جماعةٌ من أساطين العلماء ومشاهير الأدباء ، وفيما يلى سرد سريع لأسماء بعضهم مع لمحة موجزة عن كل منهم :

كان سهل بن هارون وسعيد بن هارون وسلم خزنةً لبيت الحكمة الذى أنشأه الرشيد ، ويقول ابن النديم عنهم : كان سلم حكيمًا فصيحًا شاعراً . . . . وكان أبو عثمان الجاحظ يجلُّه ، ويصف براعته وفصاحته ، ويحكى عنه فى كتبه ، ولسهل بن هارون عدة من الكتب ، أما سعيد

---

(١) صحفت فى الشذرات إلى الستية والتصحيح من المنتظم ٧ : ١٧٢

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٣٥٩ (٣) المقريزى : الخطط ١ : ٤٥٨

فقد كان بليغا فصيحاً مترسلا ، وله من الكتب كتاب الحكمة ومنافعها ، وله رسائل مجموعة ، ولسلم نقول من الفارسى إلى العربى[١] .

وكان على بن يحيى المنجم (٢٧٥ هـ) هو الذى أعد مكتبة الفتح بن خاقان وأشرف عليها وكان من خاصة ندماء المتوكل ، وخُصَّ أيضاً بمن جاء بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد ، وكان راوية للأشعار والأخبار ، شاعراً محسناً ،وله صنعة، مقدمًا عند الخلفاء[٢] ، وقد ترجم له ياقوت ترجمة طويلة[٣] وهو يقول فيها : إن علياً كان مشتهراً بالأدب ، مائلا إلى أهله ، معتنياً بأمورهم ، وكان منزله مألفاً لهم ، وكان يوصل كثيراً منهم إلى الخلفاء والأمراء[٤] .

أما مكتبة الفاطميين فقد تولاها عالم من خيرة علماء زمانه ، ذلك هو على ابن محمد الشابشتى (٣٩٠ هـ) ويقول عنه ابن خلكان[٥] : كان أديباً فاضلا تعلق بخدمة العزيز بن المعز العبيدى صاحب مصر ، فولاه أمر خزانة كتبه ، وجعله يقرأ له الكتب ويجالسه وينادمه ، وكان حلو المحاورة لطيف المعاشرة ، وله مصنفات حسنة ، منها كتاب الديارات وكتاب مراتب الفقهاء وغيرها .

وسبق لنا أن ذكرنا أن المؤرخ الشهير والعالم الكبير ابن مسكويه كان خازناً لمكتبة ابن العميد[٦] .

وحظيت خزانة سابور بن أردشير الوزير البويهى (٤١٦ هـ) بشرف أن تولى الاشراف عليها مجموعة من جلة العلماء والأدباء من أهمهم :

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ١٧٤
(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٥
(٣) معجم الأدباء ٥ : ٤٥٩ — ٤٧٧
(٤) ٥ : ٤٦٠
(٥) الوفيات ١ : ٤٨١
(٦) تجارب الأمم ٦ : ٢٢٤

القاضى أبو عبد الله الضبي[١].

أبو أحمد عبد السلام بن الحسين البصرى (٤٠٥ هـ) وكان معاصراً لأبى العلاء المعرى وصديقا له ، وكان عالما ، أديبا ، قارئاً القرآن ، عارفا بالقراءات ، وكان من أحسن الناس تلاوة للقرآن ، وأجودهم إنشاداً للشعر[٢].

وتولى الإشراف على مكتبة للمدرسة النظامية جمهرة من علماء العصر ونوابغه منهم :

أبو يوسف الاسفرائينى وكان شاعراً أديباً وهو القائل يرثى منصور ابن مزيد :

أيا شجرات النيل من يضمن القِرَى   إذا لم يكن جار الغداة ابن مزيد
إذا غاب منصور فلا النور ساطع   ولا الصبح بسام ولا النجم مهتدى[٣]

ولما توفى الاسفرائينى سنة ٤٩٨ أخذ مكانَه محمد بن أحمد الأبيوردى ، وهو أيضاً شاعر وعالم وأديب[٤] . ومن أشهر خزنة النظامية أبو الحسن يحيى بن الخطيب التبريزى ويقول عنه ياقوت[٥] إنه كان أحد الأئمة فى النحو واللغة والأدب ، حجة صدوقا ثبتاً ، رحل إلى أبى العلاء المعرى فأخذ عنه ، وعن كثيرين غيره . وولى تدريس الأدب بالنظامية وخزانة الكتب بها ، وانتهت إليه الرياسة فى اللغة والأدب ، وسار ذكره فى الأقطار ورحل الناس إليه .

أما خزنة مكتبة المدرسة المستنصرية فهم سلسلة من الأفاضل والثقات منهم :

---

(١) شذرات الذهب ٣ : ١٠٤
(٢) تاريخ بغداد ١١ : ٥٨
(٣) معجم الأدباء ٧ : ٣٤٣
(٤) معجم الأدباء ١ : ٣٤١ ــ ٣٤٣
(٥) معجم الأدباء ٧ : ٢٨١ ــ ٢٨٧ .

الشمسى على بن الكتبى وهو أول خازن للمستنصرية وقد منحه الخليفة خلعة يوم افتتاحها[١] .

ابن الساعى المؤرخ المشهور صاحب الجامع المختصر[٢] .

ابن القوطى مؤلف الحوادث الجامعة ، وكتباً كثيرة أخرى ، وقد كان قبل تعيينه خازناً لهذه المكتبة خازناً لمكتبة نصير الدين الطوسى الخاصة[٣] .

٢ — المترجمون :

من المسلم به أنه فيما عدا الدراسات الدينية واللغوية ، كانت النهضة العلمية التى احتضنها المسلمون ورعوها تعتمد جل الاعتماد على الدراسات التى قام بها غير العرب من الشعوب ، ومن أجل هذا كان المترجمون حلقة الاتصال بين العرب وهذه العلوم ، وبمساعدة هؤلاء المترجمين وعن طريقهم نقلت علوم اليونان والسريان والقبط والفرس والهنود إلى اللغة العربية ، ويستطيع الباحث أن يقرأ عن هؤلاء المترجمين ونتاجهم فى الفهرست لابن النديم وفى الباب التاسع من طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، ولكنا هنا سنتحدث حديثاً قصيراً عن نماذج لطائفة واحدة من المترجمين تشمل هؤلاء الذين كانوا يقومون بعملهم فى المكتبات، فهم الذين يدخلون فى المحيط الذى نتكلم عنه .

ونسجل هنا أن المترجمين وجدوا مكانهم فى أول مكتبة عرفت فى العالم الإسلامى ، فقد ذكر كرد على[٤] أن خالد بن يزيد (٨٥ هـ) كان أول من عرفت له مكتبة ، ويقول عنه ابن النديم[٥] أنه عُنى بإخراج

---

(١) ابن القوطى : الحوادث الجامعة ٢٥٦ (٢) انظر مقدمة الجامع المختصر ص ١

(٣) انظر ترجمته فى أول الحوادث الجامعة

(٤) خطط الشام ٦ : ١٨٩ (٥) الفهرست ٤٩٧

كتب القدماء ، وكان أول من تُرجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء، وفى مكان آخر يقول عنه[(١)] إنه أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى ، وهو أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة ، ويعين ابن النديم[(٢)] مترجماً اسمه اصطفن القديم ويقول إنه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة .

ولكن الترجمة وصلت قمتها فى بيت الحكمة ، ومن مشاهير المترجمين فيها أبو سهل الفضل بن نوبخت . ويقول ابن النديم عنه[(٣)] إنه كان فى خزانة الحكمة لهارون الرشيد ، وله نقل من الفارسى إلى العربى ، وقد قلّد الرشيدُ يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة مما وجده بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون ووضعه أميناً على الترجمة[(٤)] .

وكان المأمون الخليفة عالماً مثقفاً ، فأولى النهضة العلمية عنايته الكاملة ، واتجه إلى أن يحصل على عدد ضخم من كتب القدماء ، فوفق بطرق شتى إلى الحصول على مجموعات نادرة ، وضعها فى خزانة الحكمة ، وعيّن خيرة المثقفين ونخبة ممتازة من المترجمين لينقلوها إلى اللسان العربى ، وليضيفوا لها ما يعنُّ لهم من شروح وتعليقات . ومن أشهر المترجمين بالخزانة فى ذلك العهد سَلْم ، والحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وحنين ابن اسحق ، وعمر بن الفرخان ، واسحق بن حنين[(٥)] .

واشتهرت بعض المكتبات الخاصة بالحرص على النقل والترجمة ، ومن هذه مكتبة بنى شاكر وهم محمد وأحمد والحسن وقد كان لهم مترجمون

(١) الفهرست ٣٣٨ (٢) ابن النديم ٣٤٠
(٣) الفهرست ٣٨٢ (٤) ابن أبى أصيبة ١ : ١٧٥
(٥) انظر الفهرست ١٧٤ ، ٣٢٩ ، ٤١٥ والقفطى ٢٤٢ وابن أبى أصيبعة ١ : ١٨٧

لا يفتئون ينقلون لهم ويلازمون العمل فى مكتبتهم ومنهم حبيش بن الحسن وثابت بن قرة[(١)].

وتوقف نشاط الترجمة تقريبا بعد الواثق ، ولم يعد من السهل أن يجد الباحث ذكراً للمترجمين فى المكتبات العامة أو الخاصة . ولعل السبب فى ذلك أن النشاط الكبير الذى حظيت به الترجمة من قبل قد نقل إلى اللغة العربية أمهات الكتب فى الفنون المختلفة ، أو أن المسلمين بعد أن اطلعوا على ما ترجم فى بيت الحكمة وما عاصرها من مكتبات استطاعوا أن ينتجوا بلغتهم ثقافة وعلماً وفلسفة كانت مجالا لنشاطهم العلمى فى العهود التالية .

٣ — النساخ :*

من مفاخر المسلمين أنهم أدركوا فى العصور الوسطى ضرورة أن يكون بالمكتبة قسم للطبع والنشر . ولم تكن وسائل الطبع الحديثة قد وُجدت بعد بطبيعة الحال ، فعينوا بالمكتبات نُساخا عرفوا بالدقة وجودة الخط ، وكانت الكتب الحديثة يُؤتى بها لهؤلاء النساخ لينقلوا صورة منها تزود بها المكتبة ، فاذا ضن مؤلف الكتاب أو مالكه باعارته بضعة أيام للنساخ خوفاً عليه ، فانه من الممكن أن ينتقل النساخ إليه ليقوموا بعملية الكتابة تحت إشرافه ، والحق أن

---

(١) القفطى ٣٠ — ٣١ ، ابن أبى أصيبعة ١ : ١٨٧ ، ابن النديم ٣٤٠

* ١ — يرى ابن خلدون (المقدمة ص ٢٩٦) أن الوراقة تشمل النسخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية . ويصرح ابن النديم (الفهرست ١٦٩) أن الوراقة تشمل بيع الكتب أيضاً ، فهو يقول ذكا كين الوراقين وآثر السمانى تحديد معنى الوراقة بجعله كتابة المصاحف وكتب الحديث وغيرها فقط (الأنساب ظهر الورقة رقم ٥٧٩) فالوراقة عنده هى النسخ وهى بهذا المعنى ستكون موضوع الحديث فى هذا الفصل .

٢ — كان نسخ المخطوطات هو الطريق العادى للحصول على نسخة من كتاب ما ، وكان الشخص ينسخ الكتاب بنفسه أو يستأجر من ينسخه له ، كما كان هناك نساخ ينسخون الكتب ثم يعرضونها للبيع ، وكان يحدث أن تقدم الكتب هدايا ولكن هذا لم يكن كثيراً بين الأفراد وإنما كثر أن يهدى العلماء كتبهم أو مجموعات منها للمساجد والمدارس .

هؤلاء النساخ أدوا واجبهم خير أداء ، وأمدوا المكتبات بكل جديد وطريف دون تأخير أو تقصير .

وكان على الناسخ أن يلحظ الدقة والاتقان فى عمله ، بحيث لا تدعوه الرغبة فى سرعة الإنجاز أن يحذف فى أثناء الكتابة شيئاً أو أن يسهو عنه ، وعليه أن يتتبع تعليمات مستأجره بملاحظة عدد الأوراق ، ونظام الكتابة ، وعدد الأسطر فى كل صفحة ، ولون الحبر وغير ذلك ، ثم ألا يكتب الكتب غير النافعة وإن أغراه الراغبون فيها بالمال الوفير [١] .

وقلما خلت مكتبة ذات شأن ، خاصة أو عامة ، من ناسخ أو نساخ يعملون بها . وفيما يلى أمثلة موجزة لبعض النساخ :

كان فى بيت الحكمة عدد من النساخ فقد ذكر ابن النديم [٢] فى ترجمة علان الشعوبى ما نصه : « علان الشعوبى أصله من الفرس ، وكان راوية ، عارفاً بالأنساب والمثالب والمناظرات ، منقطعاً إلى البرامكة ، وينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون .

وكان فى مكتبة الواقدى (٢٠٨ ﻫ) غلامان مملوكان له يكتبان طيلة الليل والنهار ، وقد اشتهر محمد بن سعد بكتابته للواقدى ، حتى أصبح من أبرز مميزات ابن سعد أن يقال عنه : كاتب الواقدى [٣] .

وكان لحنين بن اسحق الطبيب المسيحى الشهير نسّاخ ذكر منهم ياقوت محمد بن الحسن بن دينار قائلا إنه كان وراقاً يورق لحنين بن اسحق المتطبب فى منقولاته لعلوم الأوائل [٤] . وذكر ابن أبى أصيبعة [٥] أنه كان لحنين كاتب

(١) السبكى : مفيد النعم ١٨٦ — ١٨٧ بتصرف .
(٢) ص ١٥٣ — ١٥٤ . (٣) الفهرست ١٤٤ .
(٤) معجم الأدباء لياقوت ٧ : ٤٨٢ . (٥) ١ : ١٨٧

يعرف بالأزرق ، وأضاف ابن أبي أصيبعة قوله : وقد رأيت أشياء كثيرة من كتب جالينوس وغيره بخطه .

وكان للجاحظ فى مكتبته الخاصة وراق اسمه عبد الوهاب بن عيسى[1] وكان أحمد بن أحمد (ابن أخى الإمام الشافعى) وراقاً لابن عبدوس الجهشيارى ، وكان جماعة من أعيان العلماء يفتخرون بالنقل من خطه لأنه متقن بالضبط[2] .

وكان على بن هلال المعروف بابن البواب (٤١٣ هـ) خطاطاً شهيراً ، وقد سمت به همته وكفايته فردَّ إليه بهاء الدولة بن عضد الدولة أمر مكتبته ، ولكن ذلك لم يكن يعفيه من أن يعود ناسخاً فى المكتبة إذا احتاج النسخ فى مناسبة ما إلى براعته وفنه وجودة خطه ، ومن ذلك أنه عثَرَ فى هذه المكتبة على تسعة وعشرين جزءاً من القرآن الكريم كتبها الخطاط العظيم أبو على بن مقلة ، وجعل كل جزء فى مجلد مستقل ، فكلف بهاء الدولة ابن البواب أن يكتب الجزء الناقص ، وقد استطاع ابن البواب أن يختار كاغداً وقلما وحبراً تشبه من جميع الوجوه تلك التى استعملها ابن مقلة ، ثم قلّد ابنُ البواب خطَّ ابن مقلة تقليداً دقيقاً رقيقاً ، بحيث لم يستطع بهاء الدولة أن يتعرف على الجزء الذى كتبه ابن البواب من بين الأجزاء الثلاثين[3] .

وقد وجّه الخليفة الراضى مرة إلى خازن كتبه يطلب ديوان نهشل ابن جزى فلم يجده ، فساء الصُّولى أن تخلو المكتبة من مثل هذا النتاج ، وأشار على الخليفة أن يزود مكتبته بالكتب المفيدة حتى تتناسب مع جلالة

---

(١) تاريخ بغداد ١١ : ٢٨ السمعانى : الأنساب وجه الورقة رقم ٥٨٠ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٨١

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ٥ : ٤٤٦ — ٤٤٧

علمه ، وعلو نعمته ، وأضاف بأن ما كان سماعا أو لا يمكن الحصول عليه ينسخه الوراقون الذين تجرى عليهم الأرزاق ويجلده مجلدو الخزانة (١) .

وكان من النساخ فى مكتبة المدرسة المستنصرية عالمان فاضلان ، أحدهما صفى الدين عبد المؤمن بن فاخر الذى يحدثنا عن حياته فيقول : وردت بغداد صبياً ، وأتيت فقيها بالمستنصرية شافعيا فى أيام المستنصر واشتغلت بالمحاضرات ، والآداب ، والعربية ، وتجويد الخط ، فبلغت فيه الغاية ، ثم اشتغلت بضرب العود فكانت قابليتى فيه أعظم من الخط ، لكن اشتهرت بالخط ولم أعرف بغيره فى ذلك الوقت ، ثم أن الخلافة وصلت إلى المستعصم فعمر خزانة كتب : وأمر أن يختار لها كاتبان يكتبان ما يختاره ولم يكن فى ذلك الوقت أفضل من الشيخ زكى الدين ، وكنت دونه فى الشهرة ، فرتبنا فى ذلك (٢) .

فإذا سرنا إلى الشام ومصر والأندلس وجدنا نشاطاً عظيما يقوم به هؤلاء النساخ ، ينفعون به العلم ويمدون المكتبات بالنافع والجديد .

فقد كان للصاحب أمين الدولة أبى الحسن بن غزّال (من وزراء الشام وأطبائها توفى سنة ٦٤٨) همة عالية فى جمع الكتب وتحصيلها ، وكان النساخ أبداً يكتبون له ، حتى إنه أراد مرة نسخة من تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ، وهو بالخط الدقيق ثمانون مجلدا ، ففرّقه على عشرة نساخ كل واحد منهم ثمانى مجلدات فكتبوه فى نحو سنتين (٣) . وقد اجتمع عدّة من النساخ بمكتبة المؤرخ الشهير أبى الفدا صاحب حماة (٤) .

وكان نشاط النساخ فى مصر بالغاً الغاية ؛ فقد عُيّن فى دار الحكمة عدد

---

(١) أخبار الراضى بالله والمتقى بالله ص ٤٠

(٢) الكتبى : فوات الوفيات ٢ : ١٨ (٣) ابن أبى أصيبعة ٢ : ٢٣٦

(٤) Islamic Culture IX 1935 p. 135.

منهم ليزودوا خزانة الكتب بما عسى ألا يكون موجوداً فيها ، ويشير المقريزى فى أكثر من موضع إلى النساخ بهذه المكتبة [١] وكان فى دار يعقوب بن كلس قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطب [٢] . أما أفرائيم بن الزفان فقد كانت له همة عالية فى تحصيل الكتب وفى استنساخها . . . وكان أبداً عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم ، ومن جملتهم محمد بن سعيد بن هشام المعروف بابن ملساقة [٣] ويروى ابن جماعة [٤] عن عبد اللطيف البغدادى أن القاضى الفاضل كان له عدد من النساخ لا يفترون يكتبون له ، وكان فى خدمة موفق الدين ابن المطران ثلاثة نساخ يكتبون له أبداً ، ولهم منه الجامكية والجراية ، وكان من جملتهم جمال الدين المعروف بابن الجمالة وكان خطه منسوباً [٥] .

ولنعبر الآن البحر الأبيض المتوسط إلى الأندلس لنشاهد النساخ فى هذه البقاع ؛ فقد ذكر ابن خلدون [٦] أن الحكم جمع بداره الحذاق فى صناعة النسخ ، والمهرة فى الضبط ، والإجادة فى التجليد ، فأوعى من ذلك كله . وكان القاضى أبو المطرف قاضى الجماعة بقرطبة (٤٠٢ هـ) جمّاعة للكتب ، وله ستة من الوارقين ينسخون له دائماً ، وكان قد رتب لهم على ذلك راتبا معلوماً ، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ فى ثمنه ، فإن قدر على ابتياعه وإلا أنسخه منه وردّه عليه [٧] .

---

(١) الخطط ١ : ٤٠٩ ، ٤٥٩ .
(٢) ابن خلكان ٢ : ٤٩٧
(٣) ابن أبى أصيبعة ٢ : ١٠٥
(٤) تذكرة السامع ١٦٦ بالهامش .
(٥) ابن أبى أصيبعة ٢ : ١٧٨
(٦) العبر ٤ : ١٤٦
(٧) الصلة لابن بشكوال ١ : ٣٠٤ — ٣٠٥

ونختم القول عن النساخ بعبارة تدعو إلى الدهشة والإعجاب ، فلقد روى أنه كان بمكتبة بنى عمار بطرابلس الشام مائة وثمانون ناسخاً ، وكان هؤلاء النساخ يتبادلون العمل ليلا ونهاراً بحيث لا ينقطع النسخ ، ولا يقل الذين يؤدون عملهم فعلا عن ثلاثين ناسخاً فى أية ساعة من ساعات النهار والليل (١) .

٤ — المجلدون :*

ليس هناك حاجة — فيما أعتقد — لأن نتحدث عن المجلدين حديثاً طويلا ونتتبعهم من بلاد ما وراء النهر ونسير مخترقين خراسان والعراق والشام ومصر وشمالى إفريقية إلى الأندلس ، والذى دعا إلى هذا الاتجاه أن الحديث عن القسم السابق الخاص بالنساخ يمكن أن يعتبر فى الوقت نفسه حديثاً عن المجلدين ؛ إذ أن كلمتى الناسخ والمجلد كانتا متلازمتين تقريباً فى كل ما بين أيدينا من مصادر فكلما وردت كلمة الناسخ وردت معها كلمة المجلد (٢) .

وللأستاذين Adolf Grohmann , Thomas Arnold دراسة رائعة عن ذلك الموضوع ظهرت فى كتاب The Islamic Book (الكتاب عند المسلمين) ومنه نقتبس العبارة الآتية :

---

(١) Islamic Culture IX 1935 p. 135, See also. III : 1929, p. 231
والاقتباس من تاريخ ابن الفرات مخطوطة بفينا الورقة رقم ٣٦

* هناك فرق بطبيعة الحال بين تغليف الكتب وتجليدها ، فالتغليف هو وضع غلاف للكتاب سواء استعمل الجلد فى الغلاف أو لم يستعمل ، أما التجليد فهو التغليف بالجلد ، ولكن المسلمين دأبوا على أن يستعملوا كلمة « مجلد » لترادف كلمة Binder الانجليزية ولعل السبب فى ذلك أنهم لم يعرفوا فى عصورهم الأولى تغليف الكتب إلا بالجلد .

(٢) انظر الفهرست ص ١٤ — المقدسى ٤٣ و ٤٤ و ١٠٠ والصولى : أخبار الراضى ص ٤٠ ، ابن خلدون : العبر ٤ : ١٤٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٩ و ٤٥٩ ، المقرى ١ : ١٨٢ ، ابن جماعة ١٦٦ بالهامش

ونال تجليد الكتب عناية خاصة من أهل العراق والأندلس ، وكانت مالقة بالأندلس أكثر المدن براعة وإتقاناً فى صناعة الجلود عامة وتجليد الكتب تجليداً نفيساً على وجه الخصوص ، وقد بذل الهواة من جامعى الكتب كما بذل الأمراء المسلمون جهداً رائعاً كانت نتيجته تكوين المكتبات العامرة ، والتشجيع المتواصل لتنسيقها ، وإبداع تجليد كتبها ، مما أسهم بنصيب ملحوظ فى هذا التطور الذى لا نظير له فى فن تجليد الكتب فى العصور الوسطى (١) .

ومن هذا الكتاب ومن الكتاب الذى أخرجه F. Sarre وعنوانه Islamic Bookbinding (تجليد الكتب عند المسلمين) نقدم الرسوم الخمسة الآتية (٢) فهى ناطقة بروعة فن التجليد إذا قيس بهذه العصور المبكرة ، وهى لا تزال محتفظة بجمالها على الرغم مما أصابها من ضرر خلال السنين العديدة فى تاريخها الطويل .

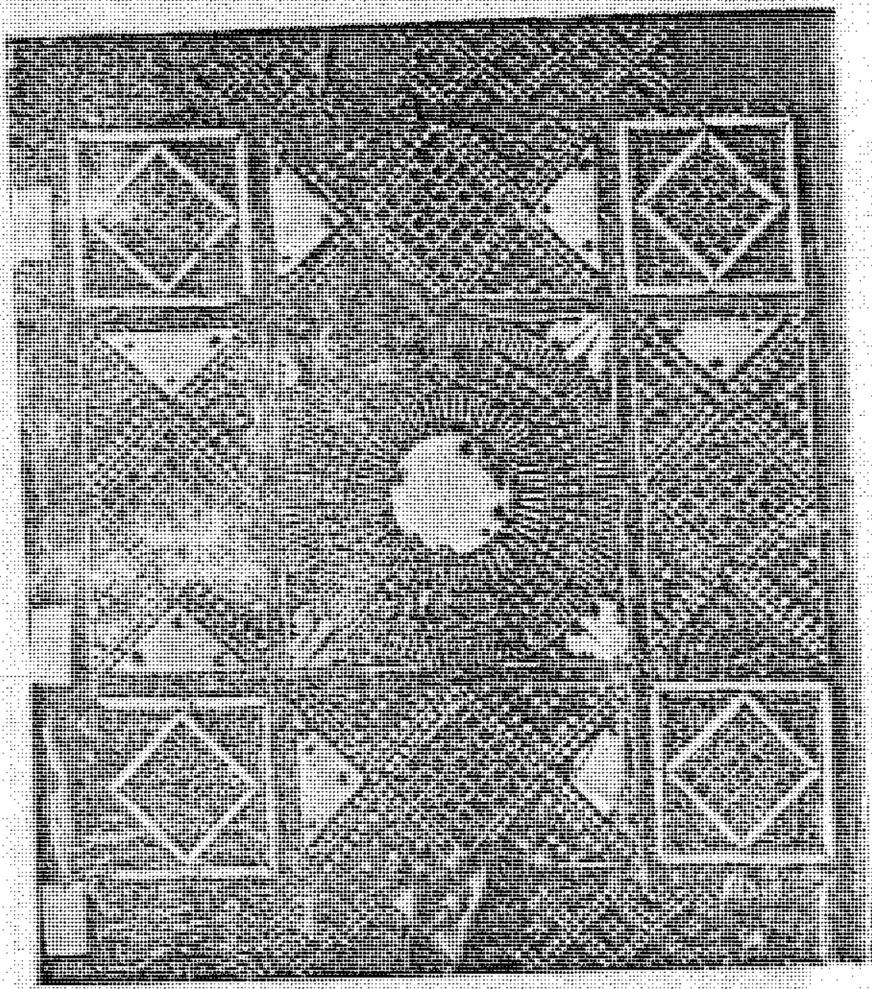
وقد بدأ التجليد عند المسلمين بسيطاً ، ولكنه تطور بسرعة عجيبة حتى أصبح فناً فيه دقة وفيه جمال ، ويحدثنا ابن النديم (٣) أن الكتب كانت تجلد بجلد مدبوغ فى (النورة) وهو شديد الجفاف ، إلى أن ظهر دبغ الكوفة وفيه لين ، فاستعمل فى التجليد وكان بدء تطوره ، وبعد ابن النديم استمر تطور فن التجليد وتقدمه ، ثم ظهر التذهيب والزخرفة والتزويق ، فوصل التجليد عند المسلمين إلى القمة ، وأصبح آية فى الإبداع والجمال (٤) ، وقد رأيت فى المكتبة الحيدرية بالنجف مصاحف جُلِّدت أجود تجليد وذهبت وزخرفت بيد فنانة صناع .

---

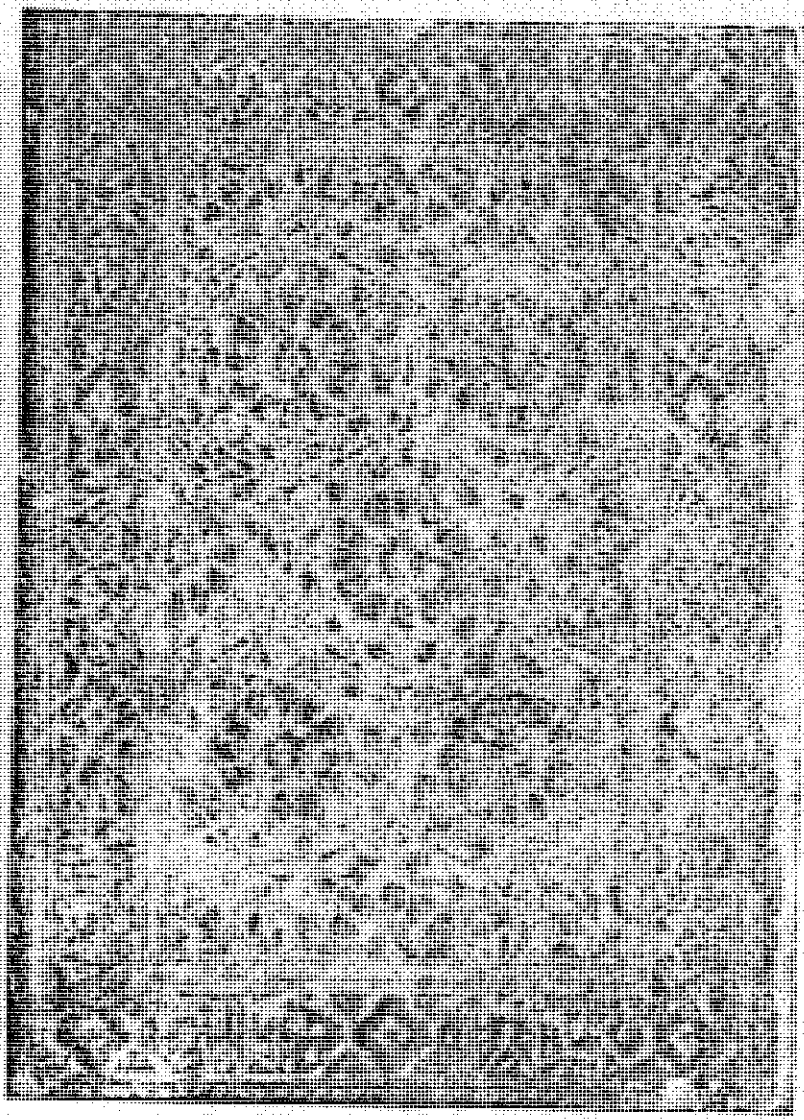
(١) صفحة ٣١ — ٣٢ (٢) انظر شكل ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ و ٩٢

(٣) الفهرست ص ٣٢

(٤) Islamic Culture IX 1935, p 138



شكل رقم (٨) التجليد العربي في عصر مبكر



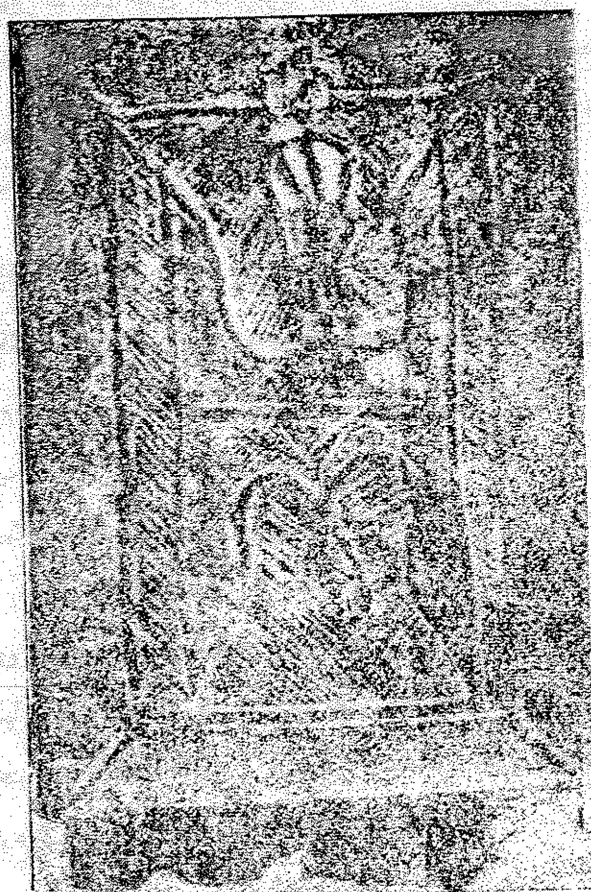
شكل رقم (٩) تجليد رائع للقرآن الكريم على بعض الآيات القرآنية



شكل (١٠) نموذج آخر من التجليد الرائع للقرآن الكريم



شكل رقم (١١) تجليد رائع للقرآن الكريم



شكل رقم (١٢) نموذج رابع من التجليد الرائع للقرآن الكريم

ويقول العلامة الهندى آية الله : وقد سيطر الذوق الجميل على الذين كانوا يقومون بهذه الصناعة فى العالم الإسلامى ، وأقدم ما عرف عن تجليد الكتب عند المسلمين هو ذلك الذى كان يقوم به الصناع المصريون المهرة فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، ثم تطور فن التجليد عند المسلمين حتى أصبح التذهيب والتزويق شائعين ، وأصبح مجلد الكتب فى العالم الإسلامى معروفاً بإتقانه سيطرته على هذا الفن الجميل[١] .

٥ — المناولون :

يكثر الحديث عن المناولين فى النصوص العربية كلما تعرض الكتّاب للكلام عن موظفى المكتبات ، ووظيفةُ المناول هى إرشاد القراء إلى موضع الكتب فى الرفوف إذا لم يعرفوا طريقها ، أو إحضار الكتب لهم من أمكنتها إلى حيث يقرءون ، ومن هنا سُمِّى من يؤدى ذلك العمل مناولا . وبهذا التحديد لوظيفة المناول يتضح أن عمله لا يسمو إلى عمل الخازن ولكنه لا يهبط إلى مستوى الفراشين وعمال النظافة ، فوظيفته ترتفع لاتصالها بالكتب ومعرفة أمكنتها ، ولكنها تقف عند هذا الحد دون أن تتجاوز ذلك إلى معرفة فكرة عن محتويات الكتاب العلمية ، فهذا من اختصاص الخازن ليستطيع به تعرف موضوع الكتاب ، ووضعه فى المكان المناسب له .

والعمل الذى يؤديه المناول يجعله قريباً من الخدم ؛ لأنه يسعى بين يدى القراء ، ملبياً لرغباتهم ، مستجيباً لطالبهم . ومن هنا عبِّر عنه أحياناً بالخادم ، واقترن هذا التعبير بكلمة الفراش أو الفراشين[٢] فقيل : الخادم الفراش .

---

(١) Islamic Culture XII 1938, P,168

(٢) الخطط ١ : ٤٥٨

للتمييز بينه ـ كامل يعمل حلقة اتصال بين الكتب والقراء ـ وبين الفراش الذى يقوم بتنظيف الفراش وأثاث المكتبة .

هذا وكلمة المناول أدق فى هذا المقام وقد ورد ذكرها كثيراً فى المراجع العربية فقد ذكر ابن القوطى[1] أنه عند نقل الكتب إلى خزانة المدرسة المستنصرية كان من « حصرها واعتبرها ورتبها أحسن ترتيب منفصلا لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها » كما تحدث ابن حجر[2] عن بعض المناولين فى المدرسة المستنصرية على ما سيأتى إيراده .

وعلى كل حال فالوظيفة كانت موجودة ومحددة العمل بالشكل الذى هى عليه الآن فى المكتبات الراقية فى العالم ، وإن اختلف التعبير الذى يطلق على من يشغل هذه الوظيفة .

وقد وُجدَ المناولون فى المكتبات العامة والخاصة ، فقد ذكر أبو العلاء المعرى أن جارية كانت تقوم بهذا العمل ، وهو يقول على لسانها : أتدرى من أنا يا على بن منصور ؟ أنا توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد ، على زمان أبى منصور محمد بن على الخازن ، وكنت أخرج الكتب إلى النساخ[3] .

ووجد بالمدرسة المستنصرية عدد من المناولين نذكر منهم :

الجمال بن ابراهيم بن حذيفة ، وهو أول مناول فيها وقد خلع عليه يوم افتتاح المدرسة[4] .

عبد الرحيم بن محمد بن سعيد الحدادى . . . . . وكان مناولا بخزانة الكتب المستنصرية كأبيه ، وله بها معرفة تامة[5] .

(١) الحوادث الجامعة ٥٤ — (٢) الدرر الكامنة ٢ : ٣٦٠
(٣) رسالة الغفران ٧٣ — (٤) الحوادث الجامعة ٥٦
(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ٢ : ٣٦٠

ويذكر المقريزى[١] أنه عين بدار الحكمة فى القاهرة قوام (خزنة) وخدام (مناولون) وفراشون .

وعن المناولين بالمكتبات الخاصة يذكر ابن خلكان[٢] القصة الآتية :

رأى أبو سعيد العقيلى للصولى بيتاً مملوءاً كتباً جلودها مختلفة الألوان وكان يقول هذا كله سماعى ، وإذا احتاج لمعاودة شيء منها قال : ياغلام هات الكتاب الفلانى . وكان الصولى عالما فاضلا ، ولكن العقيلى أخذ عليه عدم اعتماده على نفسه ، ودوام اعتماده على الكتب ، التى أصبحت كأنها هى — لا صاحبها — العالمة الفاضلة ، وقد عبر العقيلى عن فكرته هذه بمقطوعة قصيرة هجا فيها الصولى هجواً خفيفاً وهى التى تهمنا لأنها تشير إلى المناولين وهى :

إنما الصولى شيخ   أعلم الناس خزانه
كلما جئنا إليه   نبتغى منه إبانه
قال : يا غلمان هاتوا   رزمة العلم فلانه

حالة المكتبة المالية

كثيراً ما كانت الأوقاف هى المصدر الذى ينفق منه على المكتبات وما يلزمها[٣] ، ويشمل ذلك ترميم البناء ، ومدّ المكتبة بالكتب الجديدة ودفع مرتبات الموظفين ، وغير ذلك ، وكان المشرف على المكتبة يحصل ريع الوقف وينفقه على مصارفه السابقة ، فلم تكن هناك إذاً مرتبات ثابتة بل كان المرتب يتبع فى ارتفاعه وانخفاضه ما يستطيع المشرف أن يحصل عليه من إيراد الوقف .

(١) الخطط ١ : ٤٥٨   (٢) وفيات الأعيان ١ : ٧٢٧

(٣) انظر الخطط ١ : ٤٥٩ وشذرات الذهب ٣ : ١٠٤

ولكن النصوص على أية حال أوردت إلينا صوراً ثابتة للمرتبات أو متناسبة مع ما يبذله الموظفون من جهد وفيما يلي أمثلة لذلك :

كان المأمون يعطى حنين بن اسحق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى اللغة العربية مثلا بمثل[١] .

وكان بنو شاكر وهم محمد وأحمد والحسن يَرْزُقون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة ٥٠٠ دينار للنقل والملازمة[٢] .

ووجه الواثق عناية كبيرة للمترجمين الذين نقلوا الذخائر الأجنبية للسان العربي ، وكان ابن ماسويه يده اليمنى فى ذلك ، فأغدق عليه الواثق نعماً متوالية ، وخيراً وفيراً ، وفى إحدى المرات أعطاه دراهم تساوى ٣٠٠,٠٠٠ روبية[٣] .

وكان عطاء محمد بن عبد الملك الزيات للنقلة والنساخ فى كل شهر ٢,٠٠٠ دينار[٤] .

ويورد لنا المقريزى[٥] قائمة بالنفقات السنوية لمكتبة دار الحكمة مفصلة تفصيلا واضحاً ولكنها أقل سعة وسخاء وفيما يلى نصها :

ورق الناسخ (ربما كان ذلك يشمل مرتبه أيضاً)	٩٠	ديناراً	من العين	المغربى
مرتب الخازن	٤٨	»	»	»
مرتب الفراش	١٥	»	»	»
لتجليد الكتب (ربما شمل أجرة المجلد)	١٢	»	»	»
ورق وحبر وأقلام للمطالعين	١٢	»	»	»

(١) ابن أبى أصيبعة ١ : ١٨٧ (٢) المصدر نفسه ١٨٧
(٣) Khuda Bukhsh : Islamic Civilization P. 269.
(٤) ابن أبى أصيبعة ١ : ٢٠٦ (٥) الخطط ١ : ٤٥٩

ثمن الحصر العبدانى	١٠ دنانير من العين المغربى
ثمن الماء	١٠ » » »
ثمن لبود للفرش فى الشتاء	٥ » »
ثمن طنافس فى الشتاء	٤ » »
مرمّة الستارة	١ دينار » »

وكانت المرتبات لموظفى المدرسة المستنصرية محددة على الوضع التالى : لخازن الكتب فى كل يوم عشرة أرطال خبزاً ، وأربعة لحماً ، وفى كل شهر عشرة دنانير ، وللمشرف فى كل يوم خمسة أرطال خبزاً ، ورطلان لحماً ، وفى كل شهر ثلاثة دنانير ، وللمناول فى كل يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طبيخا وفى كل شهر ديناران[1] .

أنواع المكتبات*

هناك أنواع ثلاثة من المكتبات يلزم أن يستقل كل منها بحديث خاص ، وتُرتَّب هذه الأنواع الثلاثة فى الحديث عنها تبعا لما تسهم به فى خدمة التعليم ، وعلى هذا فلا تهمنا المكتبة التى يملكها

(١) كوركيس عواد : خزائن الكتب القديمة فى العراق ص ١٦٥

* ١ — شملت الدراسة السابقة إشارات كثيرة لعدد من المكتبات العامة التى ظهرت فى العالم الإسلامى ، ونحن الآن بصدد إعطاء نماذج لمكتبات المسلمين ، وسنحاول ألا نعيد القول عن المكتبات التى سبق الحديث عنها لندخر الجهد والفراغ لغيرها ، غير أن هذا لايمنع من إعادة الكلام عن بعض المكتبات ذات الأهمية البارزة ليمكن أن يعطى عنها تفاصيل أوسع ومعلومات أوفى .

٢ — نحاول فى هذه الدراسة أن نطوف طوفة سريعة فى العالم الإسلامى مبتدئين من بلاد ماوراء النهر فخراسان والعراق والشام ومصر والأندلس ، ومن الحق علينا أن نطرى الكتاب الذى ألفه الأستاذ كوركيس عواد بعنوان خزائن الكتب القديمة فى العراق (مطبعة المعارف — بغداد ١٩٤٨) والذى كان عوناً كبيراً فيما يختص بمكتبات العراق ؛ ولذ كان من الطبيعى أننا رجعنا لمك المراجع الأصلية فى كل ما دون بهذا الباب .

أمير أو وزير ، بقدر ما تهمنا مكتبة أخرى تفتح أبوابها للناس ليتملوا فيها وليجدوا بين جدرانها الثقافة والمعرفة ، إذ أن أهم ما يعنينا هنا هو مقدار ما قدمته هذه المنشآت للباحثين والطلاب من تثقيف وتعليم . وإذن فسيجرى الحديث عن المكتبات وفقاً للترتيب الآتى :

ا — مكتبات عامة .

ب — مكتبات بين العامة والخاصة .

جـ — مكتبات خاصة .

ا ـ المكتبات العامة

أنشئت هذه المكتبات بالمساجد لتكون فى متناول الدارسين فيها ، والوافدين إليها ، كما أنشئت أحيانا لتكون نواة لمعهد يستقبل الطلاب فيجدون فيه العلم والمعرفة ، ثم أنشئت متصلة بالمدارس عندما بدأت هذه فى الظهور والانتشار .

وقد كانت المكتبات من هذا النوع كثيرة جداً ، بحيث كان من الصعب أن تجد مسجداً أو مدرسة دون أن تزود بمجموعة من الكتب يرجع إليها الطلاب والباحثون .

وفيما يلى بعض التفاصيل لبعض هذه المكتبات :

١ — بيت الحكمة : يرجع تأسيس بيت الحكمة إلى الخليفة هارون الرشيد فقد ذكر ابن النديم[١] فى كلامه عن ابى سهل الفضل بن نوبخت أنه كان فى خزانة الحكمة لهارون الرشيد ، وذكر فى ترجمة علان الشعوبى أنه كان منقطعا إلى البرامكة وينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة[٢] .

(١) الفهرست ص ٣٨٢ (٢) المصدر نفسه ١٥٤

غير أن نشاط بيت الحكمة وصل إلى ذروته فى عهد المأمون الذى كان واسع الثقافة ، حر الفكر ، وله شغف بالعلوم والآداب ، ومن أجل هذا أولى بيت الحكمة عناية خاصة كان من نتائجها تطور الثقافة عند المسلمين ، ودخول العلوم الأجنبية إليهم واحتضانهم لهذه العلوم ، مما أدى إلى حفظ ذلك التراث ونقله إلى الأجيال التالية ، وكان على وشك أن يضيع .

وقد ضم بيتُ الحكمة كتباً وضِعت فى الأصل بلغاتٍ مختلفة ، ومن أهمها الكتب اليونانية فالفارسية والهندية والقبطية والآرامية ومن أجل هذا كان المترجمون كثيرين ، ينقل بعضهم من اللغة اليونانية ، وينقل آخرون من الفارسية ، وينقل فريق ثالث من الهندية ، وهكذا .

وقد وجهت العناية فى بدء العهد ببيت الحكمة إلى الكتب الفارسية والهندية ، ويرجع السبب فى ذلك أن يحي بن خالد كان فى هذه الأثناء يشرف على شئون الدولة بوجه عام ، وعلى النهضة الثقافية بوجه خاص ، ويحي بن خالد فارسى الأصل والثقافة ، فاهتم بأن ينقل إلى اللغة العربية ألواناً من ثقافة الفرس ، فجلب إلى بيت الحكمة مجموعة من الكتب الفارسية ، وعين لترجمتها أشخاصاً لهم سيطرة على اللغة الفارسية ومعرفة باللغة العربية من أمثال أبى سهل الفضل بن نوبخت وعلان الشعوبى ، ويقول ابن النديم (١) عن ابن نوبخت : « له نقول من الفارسى إلى العربى ، ومعوَّله فى علمه على كتب الفرس » وكان للفرس صلة بالهنود ومعرفة بالثقافة الهندية ومدى رقيها ، ومن أجل هذا نجد يحي بن خالد يرسل فى طلب بعض علماء الهنود المتفوقين ، ويعين من يترجم عنهم كتبهم وأفكارهم إلى اللغة العربية ، وبوساطة هؤلاء العلماء الهنود الذين استدعاهم يحي نقلت فنون من الثروة العلمية من الهندية إلى العربية (٢) .

---

(١) الفهرست ص ٣٨٢ .

(٢) Khuda Bukhsh: Islamic Libraries, 1942, The Ninteenth Century L 11, p. 128

ثم جاءت الثروة الضخمة فى أخريات عهد الرشيد وخلال عهد المأمون عن طريق التراث اليونانى الذى اقْتَبَسَ الكثير من الحضارة المصرية القديمة ، وقد حفلت المراجع العربية بالحديث عن ذلك التراث :

ذكر ابن أبى أصيبعة [1] أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة مما وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون .

وهناك مجموعة ثانية من الكتب اليونانية جلبت من قبرص يحدثنا عنها ابن نباتة المصرى [2] فيقول : إن المأمون جعل سهل بن هارون كاتباً على خزانة الحكمة وهى كتب الفلاسفة التى نقلت للمأمون من جزيرة قبرص وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليها أحد ، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته وذوى الرأى عنده واستشارهم فى حمل الخزانة إلى المأمون فكلهم أشاروا بعدم الموافقة إلا مطرانا واحداً فإنه قال : الرأى أن تعجل بإنفاذها إليه ، فما دخلتْ هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها ، فأرسلها إليه واغتبط بها المأمون .

وهناك مجموعة ثالثة جاءت من القسطنطينية إلى خزانة الحكمة ويحدثنا عنها ابن النديم فيقول : إن المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدّخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، وغيرُهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل. وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه كان ممن أُرسلوا إلى بلد الروم . وأحضر المأمون

---

(١) عيون الأنباء ١ : ١٧٥ .　　(٢) سرح العيون ١٦٦ .

أيضاً حنين بن اسحق وكان فتىّ السن ، وأمره بنقل مايقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى اللغة العربية وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمرَه .

تلك بعض مجموعات الكتب اليونانية التى وردت إلى بيت الحكمة ، وقد صُنّفت هذه الكتب بحسب موضوعاتها واختير لها المترجمون ممن لهم خبرة علمية بالموضوع الذى يترجمون منه ، بالإضافة إلى سيطرتهم على اللغتين اليونانية والعربية. ومن أشهر الذين اشتغلوا بترجمة هذه الكتب يوحنا بن ماسويه ، وحنين ابن اسحق ، وابنه اسحق ، ومحمد بن موسى الخوارزمى وسعيد بن هارون ، وثابت بن قرة ، وعمر بن الفرّخان .

وبيت الحكمة كان أول مكتبة عامة ذات شأن فى العالم الإسلامى ، بل إنه كان أول جامعة إسلامية اجتمع فيها العلماء والباحثون ، ولجأ إليها الطلاب فكان بذلك أول مركز علمى يحقق للطلاب زاداً علمياً وفيراً ، ويخرج لهم من جهد القائمين عليه ثقافة مختلفة الاتجاه تشمل علوم الطب والفلسفة والحكمة وغيرها .

وكان عهد المأمون هو أزهى عصور بيت الحكمة ، ولم يجد هذا المعهد بعد المأمون من يمنحه عناية المأمون ورعايته ، وكان أول ماقلل من شأنه أن يتولى المعتصم الخلافة بعد المأمون والمعتصم قليل المعرفة بالثقافة ، لا يجد فيها لذة ولا يتذوق لها حلاوة ، فلم يرع بيت الحكمة كما كان يجب ، وإنما اتجه إلى جلب المماليك وتدريبهم والسرور ببطولتهم ، ثم هجر بسببهم بغداد إلى سامرّا فأصيب بيت الحكمة بصدمة أخرى نتيجة انتقال الخلفاء من بغداد وعدم رعايتهم لما فى العاصمة الأولى من منشآت ، ثم تزاحمت الأحداث على بغداد وما فيها من مؤسسات ، وكثرت الحروب والفتن ، وكلها تنتقص من هذا المعهد وتقلل من شأنه وتخفت من صوته .

وليس معنى هذا أن بيت الحكمة قد اختفى أو اندثر ، فقد ظل يغالب الأحداث ، ويجاهد فى سبيل البقاء ، ولكنه بقاء المكلوم المزبل ، وفيما يلى نصوص ثلاثة عن حياته بعد المأمون :

ذكر ابن أبى أصيبعة[١] أن يوحنا بن ماسويه تقلد ترجمة الكتب اليونانية فى بيت الحكمة ، وخدم هارون والأمين والمأمون وبقى على ذلك إلى أيام المتوكل .

وذكر ابن النديم[٢] أنه (فى النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى) نقل نموذجاً لكل من الخط الحميرى والحبشى من هذه الخزانة .

وذكر القلقشندى[٣] أن هذه الخزانة ظلت حتى دهم التتر بغداد ، وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفاء العباسيين فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب ، وذهبت معالمها ، وأعفت آثارها .

٢ — المكتبة الحيدرية بالنجف : لا تزال هذه المكتبة موجودة حتى الوقت الحاضر ، وسميت الحيدرية نسبة إلى حيدر وهو اسم الإمام على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، أو قل إنه الاسم الذى يهتف به اللايين من الشيعة فى المناسبات الدينية الشيعية المختلفة ، وقد زرتُ العراق سنة ١٩٥٠ وأمضيت بضعة أيام فى كربلاء والنجف وغيرها من مراكز الشيعة ، وكان ذلك فى أثناء الاحتفالات السنوية التى يقيمها الشيعة فى شهر المحرم ، وقد رأيت اللايين من البشر يتدفقون إلى هذه المراكز من الهند والباكستان وإيران والعراق وغيرها ، وكانت كلمة حيدر تتصاعد بقوة وإخلاص من ملايين الهاتفين والأتباع .

---

(١) عيون الأنباء ١ : ١٧٥ (٢) الفهرست ص ٨ ، ٢٩
(٣) صبح الأعشى ١ : ٤٦٦

والمكتبة الحيدرية هى خزانة المشهد الشريف الذى به قبر أمير المؤمنين الإمام على بن أبى طالب ، ويرجع تاريخها إلى عهد بعيد ، وإن كان التاريخ الدقيق لإنشائها ليس معروفاً . وتبعية هذه المكتبة لهذا المشهد كانت السبب فى أن كثيراً من الوزراء والأمراء وأعيان الشيعة اهتموا بها اهتماماً كبيراً ، وأهدوا إليها كل غال وعزيز ، ومن أشهر هؤلاء عضد الدولة البويهى المتوفى سنة ٣٧٢ ﻫ ، ثم كانت هذه التبعية سبباً فى بقاء هذه المكتبة حتى العهد الحاضر إجلالا لصاحب الضريح وتقديراً لاسمه الكريم .

وقد زرت هذه المكتبة فى اليوم الثانى من دبسمبر سنة ١٩٥٠ ، وفيما يلى أنقل بعض الملحوظات التى دونتها فى أثناء هذه الزيارة :

تشغل المكتبة حجرة كبيرة من الحجرات التى تحيط بالضريح الشريف وليست المكتبة مفتوحة للجمهور فى الوقت الحاضر ، كما لم تعد ذات أهمية للراغبين فى الدرس والقراءة ، ويسمح للدخول فيها بإذن خاص من المشرف على الضريح ، ويدخلها عادة المؤرخون وهواة الاطلاع على الذخائر الفنية القديمة .

وليس للمكتبة فهارس فى الوقت الحاضر ، والكتب موضوعة على أرففها من غير ترتيب ، وهى تحوى مجموعة من الكتب الفارسية والعربية لا نظير لها ، ولا تقدر بمال ، وأكثرها بخط المؤلفين ، أو على الأقل يحوى خطوطهم ، أما المصاحف التى بها فهى تحف بديعة ، وهى بين مجموعة الكتب أكثر نفاسة ، وأعظم روعة ، فلقد كتبت بخط جميل ، وجُلِّدت أفخم تجليد ، وزينت وزخرفت أعظم زينة وأجمل زخرفة ، وكثير منها كتبه مشاهير الخطاطين كياقوت المستعصمى ، وأحمد التبريزى . أما المصحف الذى تنسب كتابته إلى الإمام على فلا يوجد الآن فى المكتبة وإنما يوجد فى الضريح نفسه .

وبجانب المصاحف توجد كتب كثيرة ذات قيمة أدبية عظيمة منها نسخة من الرسائل الشيرازية لأبى على الفارسى ، وقد صححها المؤلف نفسه ، ومنها الجزء الأول من معجم الأدباء لياقوت ، والتقريب لأبى حيان الأندلسى . وكل منهما بخط مؤلفه ، والمعتبر من الحكمة لهبة الدين بن على كتب سنة ٥٣٨ ﻫ إلى جانب نهج البردة المنسوب للإمام على ، وإلى جانب عدد ضخم من كتب الشيعة وبخاصة التى تبحث عن الإمامة والوصاية .

٣ — مكتبة ابن سوار بالبصرة : أسس هذه المكتبة أبو على بن سوار الكاتب ، وهو من رجال عضد الدولة ، وهذه المكتبة تهمنا هنا جداً فقد كان التدريس فيها عنصراً هاماً بجوار الكتب : حدث المقدسى[1] فى كلامه عن رام هرمز : . . . . وبها دار كتب كالتى بالبصرة ، والداران كلاهما اتخذهما ابن سوار ، وفيهما إجراء على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ ، إلا أن خزانة البصرة أكبر ، وأعمر ، وأكثر كتباً ، وفى هذه أبداً شيخ يُدرّس عليه الكلام على مذهب المعتزلة . وفى المقامة الثانية من مقامات الحريرى وهى المسماة المقامة الحلوانية ذكرٌ لهذه المكتبة ، قال الحريرى على لسان الحارث بن همام البصرى : فلما أبتَ من غربتى إلى منبت شعبتى حضرت دار كتبها التى هى منتدى المتأدبين ، وملتقى القاطنين منهم والمتغربين ، فدخل ذو لحية كثة ، وهيئة رثة ، فسلم على الجلاس ، وجلس فى أخريات الناس ، ثم أخذ يبدى ما فى وطابه ويعجب الحاضرين بفصل خطابه[2] .

٤ — خزانة سابور (دار العلم) : أنشأ هذه الخزانة أبو نصر سابور ابن أردشير المتوفى سنة ٤١٦ ﻫ وكان تأسيسها سنة ٣٨٣ ﻫ ، ويحكى ابن العماد[3] أنه

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٤١٣

(٢) شرح مقامات الحريرى ص ١٥ (٣) شذرات الذهب ٣ : ١٠٤

فى هذه السنة ابتاع سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة داراً بالكرخ بين السورين ، وعمرها ، وسماها دار العلم ، ووقفها ، ونقل إليها كتباً كثيرة . ويذكر ياقوت[١] أن عدد الكتب كان عشرة آلاف وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم منها مائة مصحف بخطوط بنى مقلة ، ويضيف Margolioth أن معظم الكتب المودعة بهذه المكتبة كانت بخطوط مؤلفيها أو عليها خطوطهم أو خطوط الأفذاذ البارزين من الرجال ، وقد أمدّ سابور هذه المكتبة بوقف يُنفقُ منه عليها[٢] .

وكانت خزانة سابور مركزاً ثقافياً ممتازاً يلتقى فيه العلماء والباحثون للقراءة والدرس ، وطالما عقدت فيها المناظرات والمناقشات ، وكان أبو العلاء المعرى الفيلسوف العظيم يتردد عليها دون انقطاع عندما كان فى بغداد ، إذ كانت مكانه المختار[٣] .

وكان كثير من العلماء يوقفون نسخاً مما يملكون أو مما يؤلفون على دار العلم ، وقد فعل ذلك أحمد بن على بن خيران الكاتب المصرى فقد أرسل جزأين من شعره ورسائله ليستشير فى تخليدها بدار العلم ، وأبدى استعداده أن ينفذ بقية الديوان والرسائل إن علم أن ما أنفذه منها ارتُضى واستُجيد[٤] . وكذلك فعل جبريل بن بختيشوع ، فإنه لما أتم مؤلفه الذى سماه الكافى وقف منه نسخة على دار العلم ببغداد[٥] .

٥ — خزانة كتب الوقف بمسجد الزيدى : الزيدى هذا هو أبو الحسن على بن أحمد المتوفى ببغداد سنة ٥٧٥ هـ . وكان شريف النسب ، معروفاً بالزهد ، أما قصة بناء الجامع وإنشاء المكتبة فقد اقتطفها الأستاذ كوركيس

(١) معجم البلدان ٢ : ٣٤٢ . (٢) حياة أبى العلاء المعرى فى مطلع رسائله .
(٣) انظر رسائل أبى العلاء المعرى ص ٣٤ .
(٤) ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٢٤٢ . (٥) ابن أبى أصيبعة ١ : ١٤٦

عواد من مرآة الزمان لسبط بن الجوزى[١] ، ومن مجلة الحضارة[٢] ، ولم يتح لى الاطلاع على هذين المرجعين ، فلأنقل عن الأستاذ عواد ما أتيته ، قال : كان عضد الدين محمد وزيراً للخليفة المستضىء بأمر الله ، ثم عزل عن الوزارة مرة ، ثم أعيد إليها ، فكتب إلى الخليفة المذكور رقعة يقول فيها : إنى نذرت إن عدت إلى الوزارة بعثت إلى الشريف الزيدى بألف دينار . فأرسل الخليفة إليه يقول : وأنا أيضاً أحمل إليه ألف دينار . فحملت الدنانير الألفان إليه ، فلم يتصرف فيها بل اشترى داراً بدرب دينار الصغير ، وبناها مسجداً ، واشترى بالباقى كتباً ووقفها فى المسجد لينتفع الناس بها ... ثم وقف الزيدى كتبه قبل موته على الناس كافة وجعلها فى هذا المسجد وشركه رفيقه صبيح بن عبد الله فى وقف كتبه أيضاً وكانت كثيرة انتفع الناس بها[٣] .

وتلقت هذه الخزانة منحتين أخريين من الكتب :

إحداها كانت من عمر بن محمد بن عبد الله الدمشقى وشهرته أبو الخطاب العليمى ، وكان تاجراً دمشقياً زار بغداد مرة واتصل بالزيدى فعاهده أن يوقف كتبه على خزانته ببغداد ، فلما توفى عمر أرسل أخوه الكتب إلى بغداد ، فوصلت بعد وفاة الزيدى ، فتسلمها صبيح صديق الزيدى الذى كان مشرفاً على الخزانة ووضعها فيها[٤] .

ثانيتهما من ياقوت الحموى : يقول ابن خلكان[٥] وكان ياقوت قد وقف كتبه على مسجد الزيدى بدرب دينار ببغداد وسلمها إلى الشيخ

---

(١) ٨ : ٢٢٧ (٢) العدد ٣٣ ص ٨

(٣) خزائن الكتب القديمة فى العراق ١٥٤ — ١٥٥

(٤) عواد ١٥٥ — ١٥٦ بتصرف (٥) الوفيات ٢ : ٣١٨

عز الدين أبى الحسن على بن الأثير صاحب التاريخ الكبير لحملها إلى هناك[١] .

٦ — دار الحكمة بالقاهرة : افتتحت دار الحكمة التى أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمى بالقاهرة يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ ، وقد كانت الاستعدادات تُتخذ قبل ذلك بحزم ونشاط ، تمهيداً لافتتاح هذا المعهد العظيم ، الذى أريد به أن يمحو من الأذهان ما علق بها عن مجد بيت الحكمة ، الذى أنشأه هارون الرشيد ببغداد ، وسما به إلى الذروة ابنه المأمون .

وقد شملت الاستعدادات إعداد البناء ، وتنظيمه ، ثم فرشت هذه الدار ، وزخرفت ، وعلِّقت على جميع أبوابها وممراتها الستور ، ثم حملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ، وحصل فيها من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ، مالم يُرَ مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك ، وجُعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الأقلام والورق والمحابر ، وأقيم لها قوام وخدام وفراشون وغيرهم رُسِموا بخدمتها ، وجلس فيها القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة وأصحاب اللغة والأطباء ، وأجرى على من فيها من الخدام والفقهاء الأرزاقُ السنية ، وأبيح دخولها لسائر الناس فوفدوا إليها على اختلاف طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعلُّم[٢] .

وإلى جانب هـذا فقد أباح « الحاكم » المناظرة بين المترددين إلى دار

---

(١) انظر كذلك ابن العماد : شذرات الذهب ٥ : ١٢٢

(٢) الخطط للمقريزى ١ : ٤٥٨ — ٤٥٩ ، ٢ : ٣٤٢ بتقديم وتأخير .

الحكمة ، فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفضى الجدال إلى الخصام[١] .

وقد ظلت دار الحكمة مفتوحة الأبواب حتى أوائل القرن السادس الهجرى ، ثم اكتشف الملك الأفضل أن جماعة يستفسدون عقول الناس يأوون إليها ويتخذون منها مكاناً للدعاية لمذهبهم ، فأمر بإغلاق دار الحكمة فى الحال ، والقبض على زعيم هذه الجماعة واسمه بركات ، ولكن هذا اختفى فلم يستطع الملك الأفضل أن يقبض عليه ، ولما توفى الملك الأفضل أمر الخليفة الآمر بأحكام الله وزيره المأمون بن البطائحى برعاية دار الحكمة وفتحها على الأوضاع الشرعية[٢] ، وقد ظلت دار الحكمة تؤدى عملها حتى استبدّ صلاح الدين بالأمور ، وضعف أمر العاضد ، فهدم صلاح الدين دار الحكمة وبنى مكانها مدرسة الشافعية[٣] .

٧ — مكتبات المدارس : قلما خلت مدرسة من المدارس التى انتشرت فى العراق وخراسان وسوريا ومصر من مكتبة تتبعها ، مزودة بمجموعة من الكتب ضخمة أو صغيرة تبعاً لمكانة المدرسة وللأوقاف عليها .

وقبل المدارس كانت هناك مجموعات من الكتب فى المساجد ، فلما أنشأ نظام الملك مدارسه زوّد كلا منها بمكتبة قيمة ، وكانت نظامية بغداد أولى مدارس نظام الملك وأشهرها ، فنالت مكتبتها عناية خاصة ، حتى أصبحت أعظم مكتبات المدارس المعاصرة لها .

وقد حوت مكتبة المدرسة النظامية ببغداد كل نفيس ومفيد من الكتب والمخطوطات ، فقد ورد أن عبد السلام القزوينى أهدى إلى نظام

---

(١) التمدن الإسلامى ٣ : ٢١٠ (٢) الخطط ١ : ٤٥٩

(٣) ابن خلدون ، العبر ٤ : ٧٩

الملك أربعة أشياء لم يكن لأحد مثلها ، منها غريب الحديث لإبراهيم الحزمى بخط أبى عمر بن حيوية فى عشر مجلدات ، فوقفه نظام الملك على طلاب المدرسة النظامية ببغداد[١] .

وقد ظلت هذه المدرسة موضع عناية الخلفاء والكبراء ، يحكى ابن الأثير أن الخليفة الناصر لدين الله أمر فى سنة ٥٨٩ بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ، ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها[٢] .

وفى النصف الأول من القرن السابع الهجرى وقف محب الدين بن النجار صاحب ذيل تاريخ بغداد خزانتين من الكتب للنظامية وكانت هذه الكتب تساوى ألف دينار[٣] .

وكانت للمدرسة المستنصرية مكتبة غنية منظمة نقل إليها فى يوم افتتاحها من الربعات[٤] الشريفة ، والكتب النفيسة ، المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ، ما حمله مائة وستون حمالا[٥] وقد ذكر ابن عنبة[٦] أن عدد هذه الكتب كان ثمانين ألف مجلد . وكان بين محتويات خزانة المدرسة المستنصرية نسخة من كتاب (الياسة) وهو يحوى القواعد والعقوبات التى قررها جنكيزخان وجعلها شريعة لقومه[٧] كما كانت تحوى نسخة من كتاب تاريخ بغداد تقع فى أربعة عشر جزءاً وكانت

(١) انظر السبكى : طبقات الشافعية ٣ : ٢٣٠

(٢) ابن الأثير ١٢ : ٦٧ حوادث سنة ٥٨٩

(٣) فوات الوفيات ٢ : ٢٦٤

(٤) الربعات جمع ربعة : صندوق فيه أجزاء المصحف ـ مولد

(٥) الحوادث الجامعة (٦) عمدة الطالب ص ١٩٥

(٧) الخطط ٢ : ٢٢

مكتوبة بخط المؤلف[١].

ولما أنشأ نور الدين زنكى المدارس بدمشق وقف بها كتباً كثيرة على طلاب العلم[٢]. كما وقف مجموعة من الكتب الطبية على البيمارستان الكبير، إذ كانت البيمارستانات ولا تزال مدارس لتعليم الطب[٣].

وكان قطب الدين النيشاورى فقيه عصره ونسيج وحده، فسُر نور الدين به وشرع فى إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية، ليدرس بها قطب الدين، ولكن الأجل أدرك الشيخ قبل تمامها، وقد وقف قطب الدين كتبه على طلبة العلم، ونقلت بعد تمام هذه المدرسة إليها، ويقول النعيمى: فما فاتها ثمرته إذ فاتها مباشرته[٤].

ولما أسس القاضى الفاضل مدرسته بالقاهرة سنة ٥٨٠ هـ وقف عليها جملة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم، يقال أنها مائة ألف مجلد[٥].

ولما أنشأ الصاحب صفى الدين عبدالله بن على مدرسته التى سميت المدرسة الصاحبية، وقف بها خزانة كتب عامرة[٦].

(ب) مكتبات بين العامة والخاصة

لم تكن هذه المكتبات عامة لأن دخولها لم يكن مسموحاً به لجميع طبقات الناس، ولم تكن خاصة لأن أصحابها لم ينشئوها لتكون لهم هم، إذ كان ينقصهم الميل للإطلاع أو الوقت الذى يمضونه فى القراءة والدرس؛ إنها مكتبات أنشأها الخلفاء والملوك تقرباً للعلم، وتظاهراً على أنهم من أهله، وجعلوا دخولها

(١) كشف الظنون ١ : ١٧١ (٢) النعيمى ١ : ٦٠٨
(٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ٢ : ١٥٥ (٤) الدارس ١ : ٣٠٠
(٥) الخطط ٢ : ٣٦٦ (٦) الخطط ٢ : ٣٧١

مباحاً لطبقة خاصة من الناس يحددها المقدسى بقوله : لايدخلها إلا وجيه[١]
وكان دخول هذه المكتبات يحتاج إلى إذن خاص ؛ يحكى Nicholson [٢] أن ابن سينا الفيلسوف المشهور سُمِح له أن يدخل مكتبة السامانيين ولكن بعد أن حصل على إذن بذلك .

وليس غريباً أن تكون هذه المكتبات غنية عظيمة ؛ لأنها كانت مملوكة للخلفاء والسلاطين ، وهؤلاء فى أيديهم المال ، ولهم السلطان والنفوذ والعظمة ، مما استلزم أن تكون لهم مكتبات لاتضارع ، ومجموعات من الكتب قليلة الوجود ، وفيما يلى نماذج قليلة لهذه المكتبات :

١ — مكتبة الناصر لدين الله : شخصية الناصر القوية وحكمه الطويل المديد (حكم من سنة ٥٧٥ إلى سنة ٦٢٢) أتاحا للناصر أن يعيد مجد الخلافة ، ويسترد لها كثيراً من رونقها وبهائها وتقاليدها . وكان مما التفت له الناصر وأولاه عنايته أن رعى الناحية العلمية ، واستدعى هذا أن يكون له مكتبة ضخمة .

ومن الممكن أن يتخيل الإنسان ضخامة هذه المكتبة إذا لاحظنا أن جزءاً منها قد قُسِّم ثلاثة أقسام فكوَّن ثلاث مكتبات كبيرة ذكر القفطى[٣] فى ترجمة أبى الرشيد مبشر بن أحمد الحاسب أنه (أى مبشر بن أحمد) تميز فى أيام الناصر لدين الله أبى العباس أحمد ، وقرب منه ، واعتُمد فى اختيار الكتب التى وقفها الناصر بالرباط الخاتونى السلجوقى ، وبالمدرسة النظامية ، وبدار السناة ، فإنه أدخله إلى خزائن الكتب بالدار الخليفية وأفرده لاختيارها .

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٤٤٩ .
(٢) Literary History of the Arabs : pp 265-266.
(٣) أخبار الحكماء ص ٢٦٩ .

وقد سبق لنا أن ذكرنا أن ابن الأثير تحدث عن نصيب المدرسة النظامية من هذه المجموعة بقوله : إن الناصر نقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها[١] .

٢ — مكتبة المستعصم بالله : للمستعصم بالله هو آخر الخلفاء العباسيين (تولى الخلافة سنة ٦٤٠ هـ) وقتله المغول عقب سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وقد كانت له مكتبة عظيمة ، تحدثت عنها المراجع المختلفة حديثاً ينبىء عما كان لها من عظمة وجلال .

يقول ابن الفوطي[٢] إن الخليفة أمر فى سنة ٦٤١ بعمل خزانة للكتب فى داره ، وكتِب على جهاتها أشعارٌ منها مانظمه صفى الدين عبدالله بن جميل متقدم شعراء الديوان :

أنشا الخليفة للعلوم خزانة ... سارت بسيرة فضله أخبارُها
أهدى مناقبَه لها مستعصمٌ ... بالله ، من لألائه أنوارُها

وقد سبق ذكر الخطاطين الشهيرين الشيخ زكى الدين وصفى الدين عبد المؤمن بن فاخر اللذين اختيرا للنسخ بمكتبة المستعصم[٣] .

ويذكر ابن طباطبا[٤] أن الخليفة المستعصم استجد فى آخر أيامه خزانة كتب ، ونقل إليها نفائس الكتب ، وسلمّ مفاتيحها إلى عبد المؤمن بن فاخر ، فصار عبد المؤمن يجلس بباب الخانة ينسخ له مايريد ، وإذا خطر للخليفة الجلوس فى خزانة الكتب جاء إليها ، وعدل عن الخزانة الأولى التى كانت مسلمة إلى الشيخ صدر الدين على بن النيّار .

ويؤخذ من كلام ابن طباطبا أن الخليفة كان كثير التردد والجلوس فى

(١) الكامل فى التاريخ ١٢ : ٦٧
(٢) الحوادث الجامعة ص ١٨٤
(٣) فوات الوفيات ٢ : ١٨
(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٩٥

خزانة الكتب هذه أو تلك . وقد أورد حكايات كثيرة تحمل هذا المعنى[١] ولكنه أضاف إلى ذلك قوله « إن جلوسه بخزانة الكتب كان جلوسا ليس فيه كبير فائدة »[٢] ولكن ابن طباطبا كان حيا فى هذه الفترة وكان مواليا المختار ، وضلعه معهم ، يدعو لهم باليسر وعلو الشأن ، ثم ينحى باللائمة على الخليفة وصحبه ، ويصفهم بالضعف، وقلة الخبرة ، فيما عدا الوزير ابن العلقمى الذى رضى عنه هولاكو بعد الفتح وسلم له مقاليد الأمور[٣] . والذى يدرك هذا الموقف لابن طباطبا يتردد كثيراً فى قبول حكمه على الخليفة ، وأن جلوسه بخزانة الكتب كان جلوسا ليس فيه كبير فائدة .

٣ — مكتبة الخلفاء الفاطميين : يذكر ابن الأثير[٤] أن المهدى حمل معه وهو ذاهب من سلمية إلى سجلماسة ، جميع الكتب والوثائق التى كانت لآبائه ، ولكنها سرقت منه وهو فى طريقه فى مكان يقال له الطاحونة بالقرب من طرابلس ؛ ولكن أبا القاسم بن المهدى استطاع أن يستعيد هذه الوثائق حال مسيره لغزو مصر للمرة الأولى سنة ٣٠٠ هـ .

ومن المحتمل بل من المتوقع أن هذه الكتب وتلك الوثائق كانت ضمن المتاع الذى أحضره المعز لدين الله معه من شمالى افريقية إلى القاهرة عندما تم له فتح مصر ، فإذا كان هذا صحيحا فإن هذه الكتب وتلك الوثائق كانت النواة لمكتبة الفاطميين الكبرى التى أنشئوها بالقاهرة .

ولم يكن الفاطميون عسكريين قنعوا بفتح مصر وتسلطهم على أمورها ، بل كانوا ينافسون خلفاء بغداد ، ويريدون أن تكون لهم السيادة على العالم الإسلامى كله ، ومن أجل هذا أنشئوا من المؤسسات مايضمن لهم علو الصيت وحسن السمعة ، وكانت المكتبة دعامة من هذه الدعائم .

(١) انظر الفخرى ٢٩٤ — ٢٩٦ (٢) انظر الفخرى ص ٢٩٥
(٣) انظر الصفحات الأخيرة من الفخرى (٤) الكامل فى التاريخ ٨ : ٢٩

وقد اتجه الفاطميون اتجاهاً غريباً فى تكوين مكتبتهم ؛ فقد كانوا يحرصون على أن يجمعوا بها جميع النسخ الموجودة من بعض الكتب حتى تكون مكتبتهم المكان الوحيد الذى يوجد به هذا الكتاب أو ذاك ، فإذا جمعوا مئات النسخ من كتاب ما ثم ظهر لهم أنه لاتزال هناك نسخة منه بعيدة عن مكتبتهم ، أظهروا استعدادهم لأن يدفعوا فيها ثمناً باهظاً مهما بولغ فيه ليصلوا بذلك إلى هدفهم . وفيما يتعلق بالقرآن الكريم فإنهم كانوا حريصين على أن يجمعوا بمكتبتهم جميع النسخ الفخمة أو التى كتبها مشاهير الخطاطين ، وهذا يفسر لنا لماذا كان بهذه المكتبة عشرات أو مئات النسخ من المصاحف أو من كتاب معين ، وعلى هذا فإننا نقرأ أن هذه المكتبة كان بها :

٢٤٠٠ مصحف فى ربعات (سبق تفسير كلمة ربعات) بخطوط منسوبة زائدة الحسن محلاة بذهب وفضة وغيرها .

١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخط المؤلف .

١٠٠ نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد .

نيف وثلاثون نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط مؤلفه الخليل ابن أحمد[١] . أما المجموع العام لكتب المكتبة فيبدو أنه وصل إلى رقم خيالى ، ويروى أبو شامة[٢] أنه سمع أن هذه المكتبة كان بها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ كتاب ، وقد ذكر المقريزى عدة روايات ولكنه يميل إلى أن العدد كان ١٫٦٠٠٫٠٠٠ كتاب[٣] .

ويذكر المقريزى أيضاً[٤] أن هذه الكتب كانت فى موضوعات متعددة

---

(١) الخطط ١ : ٤٠٨ ، الروضتين ١ : ٢٠٠ ، وقد ذكر أبو شامة فى الروضتين أن الخزانة حوت من تاريخ الطبرى ١٢٢٠ نسخة .

(٢) الروضتين ١ : ٢٠٠

(٣) الخطط ١ : ٤٠٩

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها

فمنها الفقه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة ، وكتب الحديث ، والتواريخ وسير الملوك ، والتنجيم والروحانيات ، والكيمياء . ويتفق أبو شامة والمقريزى[١] على أن هذه المكتبة كانت من عجائب الدنيا ، وأنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر .

وقد ظلت هذه المكتبة محتفظة برونقها وجلالها حتى اشتعلت الحرب الداخلية فى عهد المستنصر ، وفى هذه الأثناء قام الأتراك الغوغاء بالسلب والنهب فى العاصمة ، واعتدوا على دار الخليفة فهدموا ما بها من نماذج الفن الرائع ، ثم عرجوا على المكتبة فاعتدوا على هذا التراث الجليل من العلم والمعرفة ، ومن المؤلم حقاً أن تستعمل المخطوطات الثمينة والكتب النادرة لتشعل سجائر هؤلاء البرابرة ، وأن يقوم عبيدهم وإماؤهم بأن يتخذوا من جلودها نعالا يلبسونها فى أرجلهم ، وقد أُلقِىَ عدد كبير من الكتب فى النيل ، وحرق عدد وافر منها ، وحمل بعضها إلى سائر الأقطار ، وبقى منها ما سفت عليه الرياحُ التراب فصار تلالا تعرف بتلال الدراسة بجوار الأزهر . وقد حرص البرابرة الأتراك أن يقضوا على هذه الكتب لاعتقادهم أن فيها كلام المشارقة الذى يخالف مذهبهم[٢] .

ويعلم الله أنه ما كان لهم علم بكلام المشارقة ، ولا بكلام المغاربة ، ولا بأى لون من ألوان العلوم ، وإنما هو الجهل والهمجية دفعا هؤلاء الغوغاء أن يرتكبوا هذه الجريمة العظمى ، وأن يطعنوا المدنية الإسلامية فى أشرف مقوماتها .

---

(١) الروضتين ١ : ٢٠٠ والخطط ١ : ٤٠٩ .

(٢) الخطط ١ : ٤٠٩ وانظر كذلك :

Stanley Lane - Poole : History of Egypt P 149

وعندما تسلم بدر الجمالى مقاليد مصر جدّ فى أن يجمع من كتب هذه المكتبة ماسلم من الحرق والغرق ، فاستعاد مااستطاع أن يستعيده من الأقطار ، واسترد ما كان منها فى حوزة بعض الناس ، وبهذا استطاع أن يعيد المكتبة شيئا من مكانتها ، وقد ظلت هذه المجموعة بالقصر الفاطمى إلى أن سقطت الدولة الفاطمية وخلفتها الدولة الأيوبية وحينئذ تقدم صلاح الدين البطل الإسلامى العظيم فقضى على هذه المكتبة ، وأفنى منها ماتعارض مع مذهب أهل السنة ، وأهدى جملة كبيرة منها إلى القاضى الفاضل وعمادالدين الأصفهانى ، وكان ابن صورة دلال الكتب أن يبيع الباقى ، فاستغرق ذلك منه عدة أعوام[١] وطالما ذكرنا وذكر المؤرخون صلاح الدين بالخير والتقدير والإجلال ، ولكن المنصف لايستطيع هنا إلا أن يلومه متسائلا : لماذا وقف صلاح الدين من الكتب هذا الموقف وبخاصة بالنسبة لما لم يتعارض منها مع مذهب أهل السنة ؟

وقبل أن ينتهى الكلام عن المكتبات التى بين الخاصة والعامة يحسن الإشارة إلى حقيقة هامة وهى أن هذا النوع من المكتبات كثيراً ماحول إلى مكتبات عامة كما حصل فى مكتبة الناصر وفى مكتبة الفاطميين التى نقل جزء كبير منها إلى مكتبة دار العلم على ماسبق تفصيله .

جـ ـ مكتبات خاصة

هذه المكتبات أنشأها العلماء والأدباء لاستعمالهم الخاص ، وهذا النوع من المكتبات كان كثيراً جداً وواسع الانتشار ، إذ كان من الصعب أن نجد عالماً أو أديباً دون أن يكوّن له مكتبة يرجع إليها فى دراسته واطلاعه ،

---

(١) الروضتين ١ : ٢٦٧ الخطط ١ : ٤٠٩

وسنختار هنا عدداً قليلا من مكتبات هذا النوع ، وسيكون اختيارنا للمكتبات التي كان لها دور تعليمي أو آلت إلى أن تكون عامة مفتوحة الأبواب للدارسين والباحثين:

١ — مكتبة الفتح بن خاقان : الفتح بن خاقان هو وزير المتوكل العباسي وقد قتل معه في سامرا سنة ٢٤٧ هـ ، وقد كان الفتح عالماً واسع الاطلاع مولعاً بالقراءة ، حتى قيل إنه كان يحضر لمجالسة المتوكل فاذا أراد أن يقوم إلى المتوضأ أخرج كتاباً فلا يزال يطالعه في ممره وعوده ، فاذا وصل إلى الحضرة الخليفية أعاده حيث كان[1] .

ومن الطبيعي أن توجد مكتبة ضخمة لرجل كهذا توفر له المال والرغبة في الاطلاع ، وقد عهد بجمعها إلى رجل من خيرة رجال العصر علماً وأدباً ، ذلك هو علي بن يحيي بن أبي منصور المنجم ، يقول ابن النديم[2] إن المنجم اتصل بالفتح بن خاقان ، وعمل له خزانة حكمة ، نقل إليها من مكتبته ومما استكتبه الفتح ، أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط .

أما الكتب التي استكتبها الفتح فقد كانت كثيرة ، كتبها له نوابغ الرجال في ذلك الوقت ، وفي مقدمتهم الجاحظ الذي استجاب لرغبة الفتح ، فألف له كتابي « التاج في أخلاق الملوك » و « مناقب الأتراك وعامة جند الخلافة » كما ألف له محمد بن الحارث التغلبي ومحمد بن حبيب كتباً أخرى ضاعت أصولها فلم تصل إلى أيدينا ، وقد حق لابن النديم أن يصف هذه الخزانة بأنها لم ير أعظم منها كثرة وحسنا[3] .

٢ — مكتبة حنين بن اسحق (٢٦٤ هـ): كان حنين بن اسحق أبرز الأطباء والمترجمين في عهد المأمون ، وكان أعلم زمانه باللغة اليونانية والسريانية

---

(١) ابن طباطبا . الفخري ص ٣ (٢) الفهرست ص ٢٠٥

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٩

والفارسية إلى حد لم يصل إليه أحد من النقلة الذين كانوا فى زمانه ، مع براعته أيضاً فى اللغة العربية ، ومداومة الاشتغال بها حتى صار من جملة المتميزين فيها[١] . ويضيف القفطى[٢] قوله : وكان حنين فصيحاً لسناً بارعاً شاعراً وكان شيخه فى العربية الخليل بن أحمد . وقد نقل حنين كتباً كثيرة إلى اللغة العربية وكان جل اهتمامه بكتب الحكمة والطب . ولهذا تتميز مكتبته الضخمة بثروة وافرة فى كتب الطب ، وبعدد غزير من الكتب المكتوبة باللغات الأربع التى كان يجيدها ، وكان حنين من هواة الكتب ، وقد حكى عن نفسه أنه سافر إلى بلاد كثيرة ، ووصل إلى أقصى بلاد الروم لطلب الكتب[٣] وقد عدد ابن النديم[٤] جملة كبيرة جداً من الكتب ذكر أنها من مؤلفات حنين ، وهذه الكتب وحدها تكوّن مكتبة عظيمة ، فما بالك إذا أضيفت لها المراجع التى اعتمد عليها حنين فى إخراج هذه الكتب .

٣ — مكتبة ابن الخشاب (٥٦٧ هـ) : عبد الله بن أحمد الخشاب البغدادى كان من أعلم الناس بكلام العرب ، وأعرفهم بعلوم شتى من النحو واللغة والتفسير والحديث والنسب ، وله المؤلفات العزيزة ، والكتب المفيدة ، والفكر الجيدة ، وإذا كتب كتاباً بخطه يشترى بالمئين ، ويتنافس عليه المتنافسون[٥] .

وكان الخشاب ثقة فى الحديث صدوقاً نبيلا حجة ، إلا أنه لم يكن فى دينه كذلك ، جمع كتباً كثيرة جداً ولكنه لم يكن يتحرى الطريق المستقيم فى جمعها ، فقد امتلك حبُّ الكتب عليه نفسه ، وشُغف بها وبجمعها ،

(١) ابن أبى أصيبعة ١ : ١٨٦ (٢) أخبار الحكماء ص ١٧٤

(٣) ابن أبى أصيبعة ١٨٧ (٤) ص ٤١٠ ابن النديم

(٥) هامش معجم الأدباء لياقوت طبعة فريد رفاعى ١٢ : ٤٩

ثم كان فى الوقت نفسه بخيلا ، لا يحب أن يدفع الكثير من المال ثمناً لها ، وعلى هذا تنكب سواء السبيل ، وكان يحتال لجمعها فإذا استعار من أحد كتابا وطالبه به قال : دخل بيت الكتب فلا أقدر عليه ، وإذا حضر سوق الكتب ، وأراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقة وقال : إنه مقطوع لينصرف الناس عنه ، فيأخذه بثمن بخس . وفى خاتمة حياته وقف كتبه على أهل العلم[1] .

٤ — مكتبة الموفق بن المطران (٥٨٧ ﻫ) : كان موفق الدين بن المطران الدمشقى حاد الذهن ، فصيح اللسان ، كثير الاشتغال ، وله تصانيف تدل على فضله ونبله فى صناعة الطب ، خدم بطبه الملك الناصر صلاح الدين ، وحظى فى أيامه ، وكان رفيع المنزلة عنده ، عظيم الجاه[2] ، وكانت له همة عالية فى تحصيل الكتب حتى إنه مات وفى خزانته من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجًا عما استنسخه ، وكانت له عناية بالغة فى استنساخ الكتب وتحريرها وكان فى خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له أبداً ولهم منه الجامكية والجراية ... وكتب بن المطران أيضاً بخطه كتبًا كثيرة ، وقد رأى ابن أبى أصيبعة عدة منها ويقول إنها كانت فى نهاية حسن الخط والصحة والإعراب ، وكان ابن المطران كثير المطالعة للكتب لا يفتر من ذلك فى أكثر أوقاته ، وأكثر الكتب التى كانت عنده توجد وقد صححها وأتقن تحريرها وعليها خطه بذلك . . وكان كريم النفس طالما وهب لتلامذته الكتب تشجيعًا لهم ، وكان عنده ألوف من المجلدات الصغيرة فكان أبداً لا يفارق فى كمه مجلداً يطالعه على باب دار السلطان أو أين توجه[3] .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٤ : ٢٨٦ — ٢٨٧
(٢) ابن أبى أصيبعة ٢ : ١٧٥
(٣) ابن أبى أصيبعة ٢ : ١٧٨ — ١٧٩

٥ — مكتبة جمال الدين القفطى : وهو الوزير القاضى جمال الدين أبو الحسن ولد بمصر وأقام بحلب ، وكان يجيد علوم اللغة والنحو ، والفقه والحديث ، وعلوم القرآن والأصول ، والمنطق والنجوم ، والهندسة والتاريخ ، توفى سنة ٦٤٦ ﻫ جمع من الكتب مالا يوصف وقُصد بها من الآفاق طمعاً فى سخائه وكرمه ، وكان لا يحب من الدنيا سواها ، فأوقف عليها نفسه ورفض أن يتزوج حتى لا يشغله الأهل والأولاد عنها ، وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب ، وكانت تساوى خمسين ألف دينار وله حكايات غريبة فى غرامه بالكتب[١] .

٦ — مكتبة المبشر بن فاتك (توفى فى نهاية القرن الخامس) : هو الأمير أبو الوفا المبشر بن فاتك ، من أعيان أمراء مصر ، وأفاضل علمائها ، أجاد علوم الهيئة ، والعلوم الرياضية والحكمية ، واشتغل أيضاً بصناعة الطب ، ولازم لذلك على بن رضوان ، وكان المبشر كثير الكتابة ، ويقول ابن أبى أصيبعة إنه وجد بخطه كتباً كثيرة من تصانيف المتقدمين ، وكان المبشر بن فاتك قد اقتنى كتباً كثيرة جداً ، وبعضها يوجد وقد تغيرت ألوان أوراقه بسبب غرق أصابه[٢] . ويحدث الشيخ سديد الدين المنطقى عن سبب هذا الغرق فيقول : كان الأمير بن فاتك محباً لتحصيل العلوم ، وكانت له خزانة كتب ، فكان فى أكثر أوقاته يجلس فيها ولا يفارقها ، وليس له دأب إلا المطالعة والكتابة ، وكانت له زوجة فاضلة ولكن داخلتها الغيرة من الكتب ، فلما توفى نهضت هى وجواريها إلى خزائن كتبه وفى قلبها من الكتب لوعة ، لأنه كان يشتغل بها عنها فجعلت تندبه ، وفى أثناء ذلك ترمى الكتب فى بركة ماء كبيرة فى وسط الدار هى وجواريها ،

(١) الكتبى : فوات الوفيات ٢ : ٩٧ خطط الشام ٦ : ١٩٣ .
Islamic Culture, III 1929, p. 217.
(٢) ابن أبى أصيبعة ٢ : ٩٨ — ٩٩ .

ثم أخرجت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق أكثرها فهذا هو سبب تغير ألوان ورقها[1] .

٧ — مكتبة أفرائيم الزفان (حوالى سنة ٥٠٠ هـ) من أطباء مصر المشهورين، خدم الخلفاء ونال منهم أحسن العطايا ، قرأ صناعة الطب على أبى الحسن على بن رضوان فكان من أجلّ تلامذته ، وكانت له همة عالية فى تحصيل الكتب وفى استنساخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها . ونقل ابن أبى أصيبعة[2] عن أبيه أن رجلا من العراق كان قد أتى إلى الديار المصرية ليشترى كتباً ويتوجه بها ، وأنه اجتمع مع أفرائيم واتفق الحال فيما بينهما أن باعه أفرائيم من الكتب التى عنده عشرة آلاف مجلد ، وكان ذلك فى أيام ولاية الأفضل ابن أمير الجيوش ، فلما سمع ذلك أراد أن تبقى تلك الكتب فى الديار المصرية ولا تنتقل إلى موضع آخر ، فبعث إلى افرائيم من عنده بجملة المال الذى كان قد اُتفِق عليه بين افرائيم والعراقى ، ونقلت الكتب إلى خزانة الأفضل وكتبت عليها ألقابه وقد رأى ابن أبى أصيبعة كتباً كثيرة من هذه المجموعة وقد كتب عليها اسم افرائيم وألقاب الأفضل . وخلّف افرائيم من الكتب ما يزيد على عشرين ألف مجلد[3] .

٨ — مكتبة عماد الدين الأصفهانى : يروى أبو شامة عن عماد الدين الأصفهانى أنه قال : كان لبيع الكتب فى القصر إثر سقوط الفاطميين كل أسبوع يومان ،وهى تباع بأرخص الأثمان ، وقد كانت فى القصر مرتبة البيوت ، مقسّمة الرفوف ، مفهرسة ، فأراد دلالو الكتب أن يشتروها بثمن بخس ، فخدعوا

---

(١) ابن أبى أصيبعة ٢ : ٩٩
(٢) المصدر نفسه ٢ : ١٠٥
(٣) ابن أبى أصيبعة ٢ : ١٠٥

بهاء الدين قراقوش متولى القصر المشرف على البيع،وأشاروا عليه بإخراج الكتب من الرفوف للتهوية والنفض فاستجاب ، وتسبب عن ذلك أن اختلطت واضطربت فأصبحت تجد كتب الطب مع كتب التفسير ، كما توزعت أجزاء المؤلف الواحد فلا تكاد تعثر عليها جميعا ؛ وقد تسبب عن هذا أن أصبحت تسام بالدون وتباع بالهون ؛ والدلالون يجمعونها ويرتبونها فى الخارج ؛ ويواصل عماد الدين كلامه قائلا : فلما رأيت الأمر حضرت إلى القصر ؛ واشتريت كما اشتروا ؛ فلما عرف السلطان ما ابتعته وكان بمئين أنعم على بها وأبرأ ذمتى من ثمنها ؛ ثم وهب لى أيضا من خزانة القصر ما اخترت من كتبها ؛ ودخلت عليه يوما وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر وهو ينظر فى بعضها ويبسط يدى لقبضها وكنت طلبت كتبا عينتها فقال : وهل فى هذه شىء منها ؟ فقلت : كلها . فوهبها لى. فأخرجتها من عنده بحمّال[1] .

وهكذا تكونت مكتبة عظيمة لعماد الدين الأصفهانى من هذه الهبات السخية بالإضافة إلى ما كان عنده من كتب ووثائق .

---

(١) الروضتين ١ : ٢٦٨ .

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]

الباب الثالث

المدرسون

[illegible]

[illegible]

مفرحات :

١ — من الملاحظ أنه لم يكن هناك فى العصور الوسطى حد فاصل بين العلماء المدرسين والعلماء الذين لم يتخذوا التدريس مهنة لهم ؛ إذ كان الجميع يعملون بأجر أو تطوعاً لتثقيف الناس وتعليمهم ، إمّا عن طريق حلقات تعليمية ، أو بتأليف الكتب ونشرها ، وعلى هذا فستشمل دراستنا فى هذا الفصل الصنفين جميعاً دون أن نقصر حديثنا على أولئك الذين اتخذوا التدريس مهنة وصناعة، والذى حدا بنا إلى هذا هو اعتقادنا أن الجاحظ مثلا كان معلم جيله والأجيال التالية مع أنه لم يتخذ التدريس مهنة له ، فقد روى عنه أنه قال : ذُكِرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآنى استبشع منظرى فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى[1] وما الجاحظ إلا مثال لكثيرين غيره ممن كانوا معلمين وإن لم يتحلق حولهم الطلاب.

٢ — عُنى المسلمون بتلقى العلم عن المدرسين عناية ملحوظة ، وكرهوا كراهة شديدة أن يتلقى الطالب العلم عن الكتب وحدها ، وكان بعضهم يقول: من أعظم البلية تشيخ الصحيفة أى أن يتعلم الناس من الصحف[2] وورد فى كتاب الشكوى[3] « من لا شيخ له فلا دين له ، ومن لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان » وروى عن مصعب بن الزبير أنه قال : إن الناس يتحدثون بأحسن مايحفظون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويكتبون أحسن مايسمعون ، فإذا أخذت الأدب فخذه من أفواه الرجال فإنك لاتسمع إلا مختاراً ولؤلؤاً منثوراً[4] . وروى عن الإمام الشافعى قوله : من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام[5]. وفى رسائل

---

(١) ابن خلكان ١ : ٥٠٣ (٢) ابن جماعة ص ٨٧ .

(٣) كتاب لم يعرف مؤلفه نشر فى: Journal Asiatique 1940, p.p. 284-285

(٤) محيى الدين بن العربى : محاضرات الأبرار ص ٣ .

(٥) تذكرة السامع ص ٨٧ .

إخوان الصفا[1] أنه ليس فى وسع كل إنسان معرفة العلوم فى أول مرتباته ، ومن أجل هذا يحتاج كل إنسان إلى معلم أو مؤدب أو أستاذ فى تعلمه وتخلقه وأقاويله واعتقاده وأعماله وصنائعه .

ولا يكتفى ابن جماعة بأن ينصح الطالب بتلقى العلم عن مدرس ، بل يزيد على ذلك بأن ينصح الطالب أن يختار مدرساً يكون له مع من يوثق به من مشايخ عصره كثرة بحث وطول اجتماع ، لا ممن أخذ من بطون الأوراق . ولم يُعْرف بصحبة المشايخ الحُذَّاق[2] .

٣ — من مفاخر المسلمين أنهم أدركوا أن العلم وحده لا يكفى ليكون سلاح المعلّم ، وعرفوا أن لا بدّ من أن يضاف إلى العلم فن التربية ، ليتمكن المدرس من دراسة نفسية الطفل ، والنزول إلى مستواه ، والاتصال العاطفى به ، ليكون ذلك جسراً يوصل خلاله العلم إلى عقل التلميذ . قال ابن عبدون[3] : والتعليم صناعة تحتاج إلى معرفة ودربة ولطف ، فإنه كالرياضة للمهر الصعب الذى يحتاج إلى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم . وقد عقد ابن خلدون[4] فصلا شرح فيه هذه النظرية وجعل عنوانه « فصل فى أن التعليم للعلم من جملة الصنائع » وهو يقول فيه : « مما يدلُّ على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه ، فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح فى التعليم يختص به شأن الصنائع كلها ، فدلّ على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم وإلا لكان واحداً عند جميعهم . . ومُلازمة المجالس العلمية ، وكثرة الحفظ ، والعناية بتحصيل العلم ليست جميعها بمانحة ملكة التصرف فى العلم وتعليمه . . . . ومن أهم ما يلزم

(١) جـ ٤ ص ١٨ . (٢) تذكرة السامع ص ٨٧ .
(٣) رسالة ابن عبدون ص ٢١٥ نشرت فى المجلة الآسيوية سنة ١٩٣٤ .
(٤) المقدمة ٣٠٢ — ٣٠٩ بتصرف .

فى العلم فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة ، والعمل على تحصيل الملكة التى هى صناعة التعليم » .

٤ — تحدث المسلمون أيضاً عن علاقة البيت بالمدرسة ، وأهمية الدور الذى يلعبه البيت ليترتب على ذلك نجاح الطالب ، وقد ورد فى كتاب الإرشاد والتعليم حديث طويل عن ذلك الموضوع ومنه نقتبس الفقرة التالية : والطفل صورة عائلته ، فكل مافيها من خير أو شر ، وكل ماسمعه ورآه ينطبع فيه ، ولهذا كان جهد الأمهات من أهم الأمور فى تربية الأبناء . ومن ربَّى ماله ولم يربِّ ولده فقد ضيع الولد والثروة[١] ، وتربية الفضائل لا يمكن أن تكتسب فى المدارس بل يجب ممارستها مع الطفل من يوم يعى الخطاب ويفهم الكلام ، وأول من يُطلَب منهم القيام بهذه الوظيفة هم طبعاً الذين يعاشرون الطفل من نشأته معاشرة مستمرة . والذين يؤثرون عليه بأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم ، ثم إذا أضفنا ماتحتاجه هذه التربية من العناء والصبر ، والعقل والحنو والمحبة الخالصة حكمنا بأنها لاتتم إلا بواسطة من أنتجتهم الفطرة الإلهية لهذه الأمورية العالية وهم الوالدان[٢] .

وقد عبر الزرنوجى[٣] أدق تعبير وأوجزه عن العلاقة التى يجب أن تقوم بين البيت والمدرسة بقوله : يُحتاج فى التعلم إلى جِدِّ الثلاثة : المتعلم والأستاذ والأب.

٥ — التربية الإسلامية التى عُنِيَ بها المسلمون ليست هى فقط العلم والتعلُّم وإنما هى التربية بمعناها الحديث ، أى أنها تشمل كذلك رياضة الجسم ورياضة النفس ، وكل ذلك قد احتوته هذه الدراسة .

---

(١) كتاب الإرشاد والتعليم ٥٤١ — ٥٤٢ .

(٢) كتاب الإرشاد والتعليم ٥٤٢ — ٥٤٣ . (٣) تعليم المتعلم

العلاقة بين الحكومات والمدرسين

جاء الرسول بالدين الحنيف فبدأ يدعو قومه إليه، ويعلم من استجاب منهم مبادىء الدين الجديد، وقد كان الرسول زعيما سياسياً ورائداً دينياً فى نفس الوقت، ولهذا باشر الأمرين جميعاً بكفاءة ونجاح، ولما صعدت روحه للرفيق الأعلى قام الخلفاء الراشدون مقامه الواحد بعد الآخر، وكانت لهم القدرة على تحمل هذه التبعات الجسام، فكان الواحد منهم يدبر أمور الدولة، ويرسل الجيوش، ثم فى الوقت نفسه يفتى الناس ويعلمهم أمور الدين.

وفى هذه الأثناء اتسعت رقعة الدولة وسار الدين الجديد من بلد إلى بلد، ومن مملكة إلى أخرى، وبدأ أناس فى هذه البقاع النائية يعتنقون الإسلام ويستجيبون لداعى الله، ومن ثم أصبح غير متيسر على الرسول أو على خليفته بالعاصمة أن يعلم الناس أمور الدين وأن يهديهم بهدى القرآن لبعد الشقة وطول المسافة، فتحولت مسئولية هذا العمل إلى العلماء، وقد بدأ الرسول نفسه هذه السُّنَّة، فإنه حين عودته من مكة بعد فتحها ترك فيها معاذاً ليعلم المسلمين الجدد قواعد الدين الجديد.

ولما انتشرت الفتوحات فى عهد عمر أرسل أفراداً من علماء الصحابة إلى المدن المختلفة للقيام بنفس المهمة، وكان من هؤلاء عبد الله بن مسعود الذى ذهب إلى الكوفة، وأبو موسى الأشعرى الذى قصد البصرة.

ثم أصبح الفقهاء من المسلمين يصحبون الجيش الإسلامى أنّى يسير، فكان جيش المسلمين كما يصفه Professor Gibb (١) «ليس مجرد معسكر حربى، وإنما كان مع ذلك مركزاً تنبعث منه الدعوة للدين الجديد».

(١) Muhammadanism pp. 4-5.

ومنذ قامت الدولة الأموية أصبح كثير من الخلفاء حكاماً سياسيين فقط ، ولم تكن لهم ثقافة دينية واسعة تجعلهم أكفاء للإفتاء وتعليم الناس ، ومن هنا انتقلت إلى العلماء هذه المسئولية حتى فى العاصمة وحملوا هم عبء التعليم والإرشاد .

إلا أن هؤلاء المعلمين لم يكونوا معينين من قبل الدولة للقيام بهذا العمل ، وإنما كانوا يؤدونه طلباً للثواب من الله كما كان الرسول يفعل من قبل ، وكان كثير منهم يسعون من تلقاء أنفسهم هنا وهناك حيث يجلسون لتثقيف الناس وتعليمهم ، واتخذ هؤلاء من المسجد مكانهم المختار فكانوا يجلسون فيه ويلتف حولهم الناس فيأخذون من علمهم ويستفيدون من ثقافتهم .

وكانت المساجد بدورها مفتوحة ، يقصدها من يأنس فى نفسه الكفاءة لتعليم الناس ، ولم يكن على المدرس بطبيعة الحال أن يعلّم موضوعاً بذاته ، بل كان يعظ الناس بما يعرف ويفتيهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وقد ظل العلماء يقصدون المساجد ليؤدوا هذا العمل دون انتظار من يحثهم على الذهاب ، وظل الناس يلتفون حولهم ويأخذون عنهم ، من غير أن تتدخل الحكومات فى ذلك ، فقد كان هذا العمل غير داخل فى دائرة سلطانها ؛ فما دام المعلم غير معين منها ، وما دام لا يتقاضى من الدولة على عمله أجراً ، فقد ترك له أن يدرس ما شاء وقتما شاء .

وقد بدأ تدخل الحكومات فى التعليم عندما اقترح القائمون بالأمر موضوعاً معيناً ليُدَرَّس ، أو عندما شَيَّدت الحكومات معاهد تعليمية فعينت لها المدرسين ونظمت لهم الأجور ، وبهذا أو ذاك بدأ تدخل الحكومات فى التعليم .

وكانت القصص أول موضوع اقترحته حكومة إسلامية واحتضنته [1] ،

---

(١) الخطط ٢ : ٢٥٣ .

ويحكى المقريزى فى ذلك أن علياً صلى بالناس مرة فقنت ودعا على قوم من أهل حربه ، فلما بلغ ذلك معاوية أمر قصاصاً ليجلس للناس بعد صلاة الفجر وبين صلاتى المغرب والعشاء ليدعو له ولأهل الشام بواسطة القصص ،وكان معاوية يقصد بذلك أن يستثير شعور السوريين ، ويحرك عواطفهم ، ويزكى حماستهم ضد أولئك الذين تهاونوا فى الدفاع عن عثمان ، والذين هجموا عليه وقتلوه . ثم أولئك الذين لم يجدُّوا فى القبض على قتلته ، والمطالبة بثأره .

وبدأ القصص بمصر منذ سنة ٣٨ ﻫ وكان توبة الحضرمى وأبو اسماعيل ابن نعيم وأبو رجب بن عاصم بين من عينوا قصاصاً بجامع عمرو ، وكان مرتب الأخير عشرة دنانير فى الشهر [1] .

ذلك كان مطلع تدخل الحكومات فى شئون التعليم ، ثم سار التدخل قُدُماً ، وأصبح أبرز وأوضح عندما ظهرت المؤسسات التعليمية التى شيدتها الدولة :

فعندما شيد العباسيون بيت الحكمة فى بغداد وعينوا له جلة العلماء للترجمة والنسخ والإشراف ورتبوا لهم المرتبات والأجور السخية ، عند ذلك أصبح للخلفاء كامل الحق فى السيطرة على بيت الحكمة وتوجيه أموره على حسب ما يريدون .

واتضح تدخل الدولة اتضاحاً سافراً فى المؤسسات التعليميـة التى أنشأها الفاطميون فى القاهرة . إذ عينوا اتجاها دينياً خاصاً ليكون موضوع الدراسة ، ورتبوا خيرة رجالهم للإشراف على هذا التوجيه ، وابثّ الدعوة لمذهب الدولة

---

(١) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٥٣ — ٢٥٤ .

الحاكمة ، وسنورد فيما بعد الوثيقة التى عُيِّن بها داعى الدعاة فى عهد الحاكم والتى يتضح منها كيف أن الدولة رسمت له عمله ، وأوضحت له المنهاج الذى يسير عليه .

وأنشأ نظام الملك عدة مدارس فى العالم الإسلامى سميت باسمه ، ورتب فيها المدرسين والعلماء بأجور سخية منتظمة ، ورسم لهم أن يكافحوا المذهب الشيعى الذى كان منتشراً فى عهد البويهيين ، وأن يدرسوا مذهب أهل السنة ، ثم كان من تدخل الحكومة أن تُبعِد عن هذه المدارس كل مدرس يعطف على الشيعة أو يعتنق مذهبهم (١) .

وهكذا فعل نور الدين فى الشام ، وصلاح الدين فى مصر فكل منهما أنشأ المدارس وحدّد لكل منها المذهب الفقهى الذى تسير الدراسة عليه ، وعيّن لها أحد شيوخ هذا المذهب ليدرس بها . واقتدى بهذين السلطانين كثير من أقاربهما وأتباعهما وعلماء عصرهما على ما مر ذكره .

ولما أنشأ الخليفة المستنصر العباسى (توفى سنة ٦٤٠ هـ) المدرسة المستنصرية جعل فيها أربعة أمكنة (إيوانات) منفصلة انعُقد فيها حلقات على المذاهب الأربعة ، وعين لكل إيوان شيخاً من شيوخ المذهب ليدرس فيه فقه ذلك المذهب ، وعين لكل شيخ من هؤلاء الشيوخ خمسة وسبعين طالباً ، ورتب الرواتب للمدرسين والطلاب (٢) .

وعندنا لحسن الحظ وثائق هامة فى هذا المجال ، وهى سجلات تعيين

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت : ٥ : ٤١٥ .

(٢) ابن العبرى ص ٢٤٥ ، Khuda Bukhsh : Islamic Civilization p. 287

بعض المدرسين فى وظائفهم ، وهذه الوثائق تحدد عمل المدرسين ، وتقر سلطان الحكومات . وفيما يلى موجز لاثنتين منها :

الأولى: سجل فاطمى بتولية داعى الدعاة الذى كان يشرف على الحركة العلمية ، ويصدر التعليمات إلى الفقهاء والمعلّمين . وهذا موجز له :

الحمد لله الذى اختار الإسلام فأظهره وعظمه ، واستخلص الإيمان فأعزه وأكرمه ، يحمده أمير المؤمنين أن اصطفاه لخلافته ، وخصه بلطائف حكمته ، وأقامه دليلا على مناهج هدايته ، وداعياً إلى سبيل رحمته ، ويسأله الصلاة على سيدنا محمد نبيه الذى ابتعثه رحمة للعالمين ، فأوضح معالم الدين ، وشرع ظواهره للمسلمين ، وأودع بواطنه لوصيه سيد الوصيين ، على بن أبى طالب أمير المؤمنين.. صلى الله عليهما وعلى الأئمة من ذريتهما مصابيح الأديان ، وأعلام الإيمان وخلفاء الرحمن .

وإن أمير المؤمنين بما منحه الله من شرف الحكمة وأورثه من منصب الإمامة والأئمة ، وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين ، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين ، يعلن بإقامة الدعوة الهادية بين أوليائه ، وشيوع ظلها على أشياعه وخلصائه ، وما يزال نظره مصروفاً إلى نوطها بناشىء فى حجرها مغتذٍ بدَرِّها ، سارٍ فى نورها فتقلّدْ ما قلدك أمير المؤمنين . . وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشدَّ العقد على كل منقاد ظاهر ، ولا تلق الوديعة إلا لحُفّاظ الودائع ، ولا تُلقِ الحَبَّ إلا فى مزرعة لا تكدى على الزارع ، وتوخّ لفرسك أجل المغارس ، واتل مجالس الحِكَمَ التى تخرج إليك على المؤمنين والمؤمنات فى قصور الخلافة الزاهرة ، والمسجد الجامع بالمعزّية القاهرة ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله أو لا تستقل أفهامُهم بتقبُّله ، واقبض ما يحمله المؤمنون لك

من الزكاة والجزى والأخماس والقُربات ، وما يجرى هذا المجرى واحمله إلى أمير المؤمنين لينفع مخرجوه بوصوله إليه وتبرأ ذممهم عند الله منه ، واستنب عنك فى أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة من تثق بديانته [١] .

الثانية : فرمان أصدره السلطان سنجر السلجوقى إلى محمد بن يحيى النيشابورى يفوض إليه التدريس بنظامية نيشابور ، ولهذا الفرمان مقدمة طويلة يتحدث فيها السلطان سنجر عن الوزير العظيم نظام الملك ، ومنشآته العلميـة ، وأفضاله على العلم والمتعلمين ، ثم يشيد بالمدرسة النظامية وما بذله مدرسوها السابقون من جهد فى خدمتها ، ثم يستمر قائلاً : ولمـا كان عصرنا متجملاً بفضل محمد بن يحيى وعلمه وعفته ، متع الله بطول بقائه ، وكان قائداً للعلماء من المذهبين الشافعى والحنفى ، وموضع ثناء الجميع ، فقد أسندنا إليه منصب التدريس الذى هو أشرف المناصب فى المدرسة النظامية بنيشابور التى هى أشرف مدارس العالم ، وأعز بقاع طلبة العلم ، وجعلنا المدرسة والأوقاف وكل ما ينضاف إليهما وينتسب فى عُهدة علمه وعفته وديانته [٢] .

* * *

وينبغى أن يكون واضحاً أن تدخُّل الحكومات كان خاصاً بالمدرسين الذين عينتهم وحددت عملهم ودفعت لهم أجورهم ، ولم يمس هذا التدخل آلاف المدرسين الذين ظلوا يجلسون فى المساجد ، ويفد إليهم الناس ، فيتعلمون منهم ويغترفون من علمهم وثقافتهم .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ١٠ : ٤٣٤ — ٤٣٩ .

(٢) يادجار : مجلة فارسية عدد يناير وفبراير سنة ١٩٤٥ ص ٤١ — ٤٣ .

المستوى الاجتماعى للمدرسين

يعتبر الجاحظ من المصادر الهامة عند الحديث عن المستوى الاجتماعى للمدرسين ، ويسارع إلى الذهن بوجه خاص مارواه من أن من أمثال العامة قولهم : « أحمق من معلم كتاب » ومارواه عن بعض الحكماء أنه قال : « لاتستشيروا معلماً ولاراعى غنم ولا كثير القعود مع النساء » وَيَرْوِى كذلك أنه سمع قول بعضهم « الحمق فى الحاكة والمعلمين والغزالين »[١] .

والمثل الأول خاص بمعلمى الكتاتيب أما المثلان الأخيران فطلقان ، ومنهما فهم بعض الكتاب أن الجاحظ يضع المعلمين جميعاً فى هذا المستوى الاجتماعى المهين . وهذا خطأ ، لأن الجاحظ نفسه سجل رأيه عن المعلمين بتفصيل واضح فى كتابيه رسالة المعلمين[٢] ، وفى البيان والتبيين ، وهاك موجزاً لهذا الرأى ، قال فى رسالة المعلمين :

لو استقصيت عدد النحويين والعروضيين والفرضيين والحُسَّاب والخطاطين ، لوجدت أكثرهم مؤدب كبار ومعلم صغار ، فكم تظن أنا وجدنا منهم من الرواة والقضاة ، والحكماء والولاة ، ومن الدهاة والحماة ، ومن القادة والذادة ، ومن الرؤساء والسادة ، ومن كبار الكتاب والشعراء ، والوزراء والأدباء ، ومن أصحاب الرسائل والخطابة ، ومن الفرسان وأصحاب الطعان[٣] . . . فلا تُلْزِم الأكابر ذنب الأصاغر ، ولاتحكم على المجتهدين بتفريط المقصرين[٤] .

ويقول الجاحظ فى البيان والتبيين[٥] : والمعلمون عندى على ضربين منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، فإلى تعليم أولاد

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٠ .

(٢) مخطوط بعضه بالمتحف البريطانى وبعضه بالموصل (انظر مصادر الكتاب) .

(٣) رسالة المعلمين ورقة رقم ١٠ ا و ب .

(٤) المرجع السابق ٤ ب . (٥) ج ١ : ١٤٠ — ١٤١ .

الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف تستطيع أن تزعم أن الكسائى وقطرب وأتباعهما يقال لهما حمقى ، ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التى دونهم .

فإن ذهبوا إلى معلمى كتاتيب القرى فإن لكل قوم حاشية وسفلة فما هم فى ذلك إلا كغيرهم ، وكيف تظن الظنون بمعلمى الكتاتيب جميعاً وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء مثل الكميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب وقيس بن سعد وحسين المعلم وأبى سعيد المعلم . . وما كان عندنا بالبصرة رجلان أدرى بصنوف العلم ولا أحسن بياناً من أبى الوزير وأبى عدنان المعلمَين[(١)] .

ذلك هو رأى الجاحظ فى المعلمين وهو ينفى ما يشاع من أن الجاحظ كان يحط من أقدارهم ويقلل من مكانتهم ، ثم إن رأى الجاحظ يحتم أن ينظر الباحث فى هذا الموضوع إلى أن المعلمين طوائف لا طائفة واحدة ، وهو ما ندين به مع شىء يسير من الخلاف مع الجاحظ ، فهو يجعل المعلمين ضربين ولكنى أميل إلى أن أقسمهم ثلاث طوائف ، سواء أكان الحديث عن مستواهم الاجتماعى أم عن مركزهم المالى وهذه الطوائف الثلاث هى :

١ — معلمو الكتاتيب .

٢ — المؤدبون .

٣ — المعلمون بالمساجد والمدارس .

ولكل طائفة من هذه ظروفها الخاصة التى تتميز بها عن الطائفتين الأخريين وهذا ما سيتضح مما يلى :

---

(١) البيان والتبيين ج ١ : ١٤٠ — ١٤١ .

١ — معلمو الكتاتيب : ينبغي أن نعترف أنه كان بين هذه الطائفة جماعة احترفوا هذه المهنة بثقافة ضحلة أو بدون ثقافة ، وبأخلاق دعت أحيانا لا إلى احترامهم بل إلى امتهانهم والتقليل من شأنهم ، وهؤلاء جلبوا السمعة الرديئة إلى الطائفة كلها ، وأحياناً إلى المعلمين جميعاً ، أما كيف استحق هؤلاء ذلك الوضع فهذا ماتعبّر عنه الأقاصيص الآتية حقيقيةً كانت أو موضوعة :

كان صبي يقرأ القرآن على معلم ، فلما وصل الصبي إلى قوله تعالى « وإن عليك اللعنة »[١] أخذ يكرر هذه الجملة موجها الخطاب إلى معلمه ، فاغتاظ المعلم وقال له : إن عليك اللعنة وعلى والديك ، فقال الصبي : لم يكن في لوحي وعلى والديك وإنما عليك فقط فهل تريدني أن أقول عليك وعلى والديك[٢] ؟ .

وكان معلم كتاب يقرأ « غلبت الروم في أدنى الأرض[٣] » ولكنه قرأها غلبت الترك . . . فرده بعض السامعين إلى الصواب . فقال المعلم : لا يهم ، الترك والروم أعداؤنا[٤] .

وسُمع معلم يلقن صبياً : وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه[٥] « يابني لاتقصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيداً[٦] وأكيد كيداً ، فمهل الكافرين أمهلهم رويداً[٧] . فقيل له : ماهذا ؟ فقال : إن أباه يدخل مشاهرة شهر في شهر ، وأنا أدخله من سورة إلى سورة لئلا يحصل على شيء ، كما لا أحصل أنا على شيء[٨] .

---

(١) سورة الحجر الآية ٣٥ . (٢) الأصفهاني : محاضرات الأدباء ١ : ٣٠ .
(٣) سورة الروم الآية ٢ . (٤) الأبشيهي : المستطرف ٢ : ٢١٥ .
(٥) سورة لقمان الآية رقم ١٦ . (٦) سورة يوسف الآية رقم ٥ .
(٧) سورة الطارق الآيتان ١٦ — ١٧ .
(٨) الأصفهاني : محاضرات الأدباء ١ : ٣٠ .

وروى أن تلاميذ مكتب ما رغبوا فى أن يحصلوا على إجازة فى يوم معين ، فاتفقوا على أن يوهموا معلمهم أنه مريض ، فلما حضر أخذ كل منهم يبدى أسفه لمرضه ، وينصحه أن ينال قسطاً من الراحة فإن التعب بادٍ عليه ، ووقع المعلم فى الفخ الذى نصبوه له ، وأعلن أنه يحس بالتعب ، ومنح التلاميذ إجازة[1].

ويحدثنا ابن حوقل[2] حديثاً طويلا عن المعلمين فى صقلية وفى مدينة بُلرُم على وجه الخصوص ، وهو يعيب عليهم كثرتهم الباهظة ، ويرجع سبب الكثرة إلى أن هؤلاء كانوا يفرون إلى هذه المهنة من الجهاد والغزو ، إذ كان قد سبق الرسم بإعفاء المعلمين ، ففزع إلى التعليم بلههم وحسّنه لديهم جهلهم فراراً من الجهاد وشرفه والغزو وعزه . فكان منهم فى بلرم وحدها ٣٠٠ مدرس وكان الغالب عليهم الصراع والخُباط والجهل ، ثم كان من أعظم البلية أن جميع أهل صقلية يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم ، وفقهاؤهم ، وعدلهم ، وأرباب فتاواهم ، وهؤلاء المعلمون بين غبىّ عمٍ ، وناقص زرى المنظر والخبر ، ومع جهل هؤلاء وحمقهم فإنه لا أخلاق لهم . ومن أرثّ ما رآه ابن حوقل وأغثه خمسة معلمون فى مكتب واحد يعلمون فيه الصبيان شركاء متشاكسين ، يرأسهم شيخ يعرف بالملطاط ، من أقدم الناس على شهادة زور .

وعلى ذكر الملطاط الذى كان مقداماً فى شهادة الزور نوضح أن قبول شهادة معلمى الكتاتيب كان موضع تردد من القضاة ، وهناك تعليلان لذلك :

الأول : أن هذا المعلم يأخذ على تعليم القرآن أجراً وهذا يسقط المروءة

---

(١) ابن الجوزى . أخبار الحمق والمغفلين ص ١٠٩ .

(٢) كتاب صورة الأرض موجز ١٢٦ـ ١٣٠ .

والعدالة ، يروى الدينورى[١] أن رجلا جاء ليشهد عندسوّار فقال له: ماصناعتك؟ قال : أنا مؤدب . قال : فإنا لانجيز شهادتك . قال : ولم ؟ قال : لأنك تأخذ على تعليم القرآن أجراً . قال : وأنت تأخذ على القضاء بين المسلمين أجراً . قال : إنى أكرهت على القضاء . قال : ياهذا ، القضاء أكرهتَ عليه ، فهل أكرهتَ على أخذ الرزق ؟ قال القاضى : هلم شهادتك . فأجازها .

الثانى : إن بعض المعلمين أرادوا أن ينتهزوا فرصة كونهم حملة القرآن ، وأن شهادة الحق تُتوقَّع منهم ، فاحترفوا الشهادة ، وأخذوا على تأديتها أجراً ، ولهذا يحذر ابن عبدون من قبول شهادة هؤلاء على الإطلاق ، وبخاصة إذا كثر ترددهم فى الشهادات . ويوصى ابن عبدون أن يتحرى القاضى فى هؤلاء الخير ويسمع عنهم حسن الثناء حتى يقبل شهادتهم[٢] .

والذى لاشك فيه أن بعض معلمى الكتاتيب قد انحطوا إلى منزلة مهينة ، ولكن الذى لاشك فيه أيضاً أن هذه القصص التى أوردناها مبالغ فيها ، بل إن بعضها مصنوع ، وتبدو الصناعة ظاهرة فيه ، إلا أن المعتقد أن هناك أساساً اعتمد عليه القصاصون فيما وضعوا من قصص ، إذ كان هناك عدد من معلمى الكتاتيب احترفوا هذه المهنة وكل ثقافتهم أنهم حفظوا القرآن ، وليس لهم معرفة بعلوم القرآن ولايسواها ، ويلوم ابن عبدون هؤلاء مؤكداً أن حفظ القرآن وحده لايؤهل أحداً لأن يكون مدرساً[٣] .

وقد أساء هؤلاء إلى سمعة معلمى الكتاتيب جميعاً ، حتى أصبحت

---

(١) عيون الأخبار ١ : ٦٩ .

(٢) رسالة ابن عبدون نشرت فى The Journal Asiatique سنة ١٩٣٤ عدد رقم ٢٢٤ ص ٢١٥ — ٢١٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٢١٥ .

عبارة « معلم صبيان » مثلا يُضرَب للضعة والامتهان . روى ياقوت[1] أن الصاحب بن عباد بلغه أن أبا حيان التوحيدى عاب رسائله ورغِبَ عن نسخها ، فتوعده الصاحب وهدّده ، فقال أبو حيان « يتوعدنى . . . كأنى طعنتُ فى القرآن ، أو رميت الكعبة بخرق الحيض ، أو عقرت ناقة صالح ، أو سلحت فى بئر زمزم ، أو قلت : مات النظام مأبونا ، أو مات أبو هاشم فى بيت خمار ، أو كان الصاحب معلم صبيان » فانظر إلى أى حد كان يُنظر إلى معلم الصبيان حتى يقرن بمن طعن فى القرآن أو عقر ناقة صالح . . .

ولكن الباحث اليقظ العادل لايدع عقله فى مهب الريح ، ولا يتأثر بكل ما يلقى له ، بل ينظر بعمق فى كل ما حوله ويصدر حكمه ، وأعتقد أنه أقرب إلى الصواب أن نقرر أن المستوى الاجتماعى لبعض مـــدرسى الكتاتيب كان وضيعاً لسبب أو لآخر ، وأن بين مدرسى الكتاتيب عدداً وفيراً كانوا فى مستوى يدعو إلى التقدير والاحترام ، وأنه إلى هذه الطائفة انتسب كثير من العلماء والفقهاء والخطاطين والأدباء ، وأن من هذه الطائفة أفراداً شقوا طريقهم حتى وصلوا إلى مكانة مرموقة ومركز رفيع فأصبح منهم القضاة ، ورجال السياسة ، والقواد ، وقد مرّ ذكر بعضهم فى رواية الجاحظ .

وقبل أن نختم هذا البحث نورد آراء بعض المستشرقين فى هذا الموضوع : يتفق Lammens و Goldziher تقريباً فى ذلك الموضوع فيذكران أن السبب فى أن معلمى الكتاتيب نُظِرَ إليهم شذراً أن معظمهم كانوا من

(١) معجم الادباء ٥ : ٣٩٧ .

الموالى ، كما كان أغلب معلمى القراءة والكتابة فى العهد الأول من الذميين ، وكان العرب المسلمون يعتدون بدمهم العربى ، وبدينهم الإسلامى ، ويحتقرون من عدا ذلك . فليس بعيداً أن تكون فكرة احتقار معلمى الكتاتيب نشأت من ذلك العهد(١) .

ويقول Adam Mez (٢) : ولعل كثيراً مما لحق المعلمين من ضروب الاستهزاء يقع إثمه على الروايات اليونانية الهزلية ، لأن المعلم فيها كان من الشخصيات المضحكة .

أما الخليفة المأمون ـ وبه نختم هذا البحث ـ فيعلل لما أثر عن بعض المعلمين من بلادة وتخلف بالعبارة الآتية : المعلم يحلو عقولنا بأدبه ، ويصدأ عقله بجهلنا ، ويوقرنا برزانته ، ونستخفه بطيشنا ، ويشحن أذهاننا بفوائده ، ويكل ذهنه بغينا ، فنأخذ منه محمود خصاله ويسترق مذموم خصالنا ، فإذا برعنا فى الاستفادة برع فى البلادة ، فنحن الدهر نتزع من آدابه المكتسبة ، ونثبت فيه أخلاقنا الغريزية ، فهو طول عمره يكسبنا عقلا ونكسب منا جهلا(٣) .

٢ — المؤدبون : يذكر الأصفهانى(٤) أن إسماعيل بن على رغب إلى عبد الله بن المقفع أن يجلس مع ابنه فى كل أسبوع يوماً ، فقال : أتريد أن أثبت فى ديوان النوكى ؟ وقال سعيد بن مسلم : قصدت الكوفة فرأيت ابن المقفع فرحب بى وقال : ماتصنع هنا ؟ فقلت ركبنى دين . فقال : هل رأيت أحداً ؟ فقلت : ابن شبرمة وعرفته حالى ، فقال : أنا أكلم

---

(١) انظر Encyclopaedia of Religions&Ethies Vol. V p.202, Mu'awiya361

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ١ : ٣٠٧ من الترجمة العربية للأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريده .

(٣) ابن الجوزى : أخبار الحمق والمغفلين ١٠٧ — ١٠٨ .

(٤) محاضرات الأدباء ١ : ٢٩ .

الأمين ليضمك إلى أولاده فيكون لك نفع ، فقال ابن المقفع : أفي لذلك أجملك مؤدباً فى آخر عمرك ؟ أين منزلك ؟ فعرّفته ، فأتانى فى اليوم التـــالى وأعطانى . . . . . فرجعت إلى البصرة .

وهذا الذى يرويه الأصفهانى يفهم منه أن تعليم الصبيان لم يكن مرغوباً فيه حتى ولو كان هؤلاء من أولاد الملوك ، وهذه الدعوى لا ترتقى بطبيعة الحال إلى تأديب أولاد الملوك إذا كبروا ، فإن تأديب ولاة العهود إذا تجاوزوا سن الصبا كان عملا كبيراً مرموقاً يتولاه خيرة رجال العصر علماً وأدباً وخلقاً .

ثم إذا ناقشنا الأصفهانى فى هاتين القصتين وضح لنا أنهما إلى الصنعة أقرب منهما إلى الواقع فإن ابن المقفع تبعاً لما ذكره بركلمان(١) كان فعلا مؤدباً لأولاد إسماعيل بن على ، والذى حدا بنا إلى قبول رواية بروكلمان وترجيحها على رواية الأصفهانى أن الأخير لم يتحر الدقة فيما يظهر فى كتابته فى ذلك الموضوع ، وقد اتضح ذلك فى القصة الثانية التى تذكر أن ابن المقفع كان يعيش حينما كان للأمين أولاد مع أن ابن المقفع قُتِل سنة ١٤٥ﻫ فى عهد المنصور وولد الأمين سنة ١٧١ﻫ ولا يمكن أن يقال أن المراد بالأمين المـذكور هنا شخص آخر وإلا لوجب أن يكنى ويذكر نسبه ، أما إطلاقه هكذا فلا يمكن أن يقصـد به غير الأمين الخليفة .

وفيما عدا ما ذكره الأصفهانى فإن كل الدلائل والنصوص تفيد أن تأديب أولاد الخاصة صبياناً أو كباراً كان عملا عظيما ، يُكسِب من يقوم به الجلال ويحوطه بإعجاب من العظمة ، إذ كان من يتولى ذلك يُعدُّ للمُلْك قائدَه وللخلافة راعيها ، ولقد مرّ رأى الجاحظ فى المؤدب وتقديره لعمله . صحيح أن بعض العلماء كالخليل بن أحمد رفضوا أن يكونوا مؤدبين ، ولـكن ما كان ذلك

---

(١) Brockelman J. I. I5. S. I 233.

استقلالا للعمل ، أو تهاوناً به ، وإنما كان بدافع الزهد والورع ، ورهبة في البعد من المغانم والصيت . وكان يرتفع قدر المؤدب ارتفاعاً كبيراً حتى ينظر إليه على أنه أحد أفراد الأسرة التي يؤدب فرداً أو أكثر من بنيها ، بل كان ينتسب أحيانا إلى هذه الأسرة ويأخذ اسمها ، فأبو محمد يحيى بن المغيرة قيل له اليزيدي لأنه صحب يزيد بن منصور خال المهدي يؤدب ولده فنسب إليه ، وقد عبر الكسائي مؤدب الأمين عن هذا المعنى في بيت من الشعر كان مطلع مقطوعة أرسلها إلى الرشيد وهذا البيت هو :

قل للخليفة ما تقول لمن   أمسى إليك بحرمة يدلي[1]

وقد اهتم الخلفاء والعظماء بمؤدبي أولادهم اهتماما عظيما ، وارتفعوا بمستواهم الاجتماعي إلى درجة تناسب مكانهم من الأمراء وولاة العهود ، فقد كان علي بن الحسن الأحمر (١٩٤ ﻫ) حينما اختير لتأديب الأمين يعيش في حجرة واحدة في حي متواضع من أحياء بغداد فسرعان ما نقله الرشيد إلى مستوى اجتماعي رفيع يصفه محمد بن الجهم بقوله : كنا إذا أتينا الأحمر تلقانا الخدم فندخل قصراً من قصور الملوك ويخرج علينا الأحمر وعليه ثياب الملوك[2] .

وفيما يلي قائمة بأسماء بعض المؤدبين الذين أشرفوا على تربية أبنــــاء الخلفاء والعظماء . ولا تحتاج هذه الأسماء إلى تعليق فهي أسماء لامعة في التاريخ الإسلامي والأدب العربي . وستذكِّر هـذه الأسماء القارىء بالمركز الأدبي السامي الذي تم به هؤلاء المؤدبون وبالأدوار السياسية التي لعبها كثير منهم :

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٤٦٩

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٥ : ١١٠

المؤدب	التلميذ	المرجع
الضحاك بن مزاحم	أولاد عبد الملك بن مروان	Brockelman SI.235
عامر الشعبي	» » »	
محمد بن مسلم الزهري	ابن هشام بن عبد الملك	تذكرة السامع والمتكلم ص١٧
عبد الصمد بن عبد الأعلى	الوليد بن يزيد	الأغاني ٦ : ١٣٤
يزيد بن إسحاق السلمي	» » »	Brockel GI190,s1332
الجعد بن أدهم	مروان بن محمد	ضحى الإسلام ٢ : ٥٤
المفضل الضبي	المهدي	طبقات الأدباء ص ٦٧
شرقي بن القطامي	»	عصر المأمون ١ : ١٧٤
عبد الله بن المقفع	أولاد إسماعيل بن علي	Brockel GI, 151 SI, 233
يحيى بن خالد البرمكي	الرشيد	ابن خلكان ٢ : ٣٦١
الكسائي	»	طبقات الأدباء ٨٧ ، ٩١
أبو عباس	المأمون وأولاد إبراهيم بن المهدي	الأغاني ٥ : ١٢٧
الكسائي	الأمين	ابن خلكان ١ : ٤٦٩
الأحمر	»	معجم الأدباء ٥ : ١١
اليزيدي	ابن يزيد بن منصور	طبقات الأدباء ص ١٠٤
»	المأمون	» » » »
محمد بن الحسن	»	» » » »
الفراء	العباس بن المأمون	طبقات الأدباء ص ١٣٠
قطرب	ابن أبي دلف (القاسم بن علي)	Broekel GI, 102 SI 131
الحسين بن قطرب	» » » » » »	الفهرست ص ٧٨
ابن السكيت	أبناء الخليفة المتوكل	الفهرست ١٠٨
» »	أبناء طاهر بن الحسين	ابن خلكان ٢ : ٤٥٩
أبو العميثل (عبد الله بن خليد)	ابن عبد الله بن طاهر	الفهرست ص ٧٢
ثعلب	ابن المعتز	ابن الأنباري ص ٣٠١
»	طاهر بن محمد بن طاهر	» » » »
المبرد	عبد الله بن المعتز	فتوح البلدان ص ١٢
الكندي	المعتضد	Brockel GI, 209 SI 216
الزجاج	أولاد المعتضد وابن عبد الله ابن المعتز	Brockel, GI. 190 SI, 170, 507

المؤدب	التلميذ	المرجع
الزجاج	ابن سليمان بن وهب	ابن خلكان ١ : ١٦
الصولى	الراضى بالله	الفهرست ص ٢١٥
كافور	أولاد الاخشيد	ابن خلكان ١ : ٦١٤
على بن منصور الحلبى	أولاد الحسين بن جوهر	ياقوت (طبعة فريد رفاعى) ١٥ : ٨٣ — ٨٤
على بن جعفر	حفيد بدر الجمالى	نفس المرجع ١٢ : ٢٧٩
أبو سعيد التنوخى	أولاد صلاح الدين	خطط الشام ٦ : ١٩٢

٣ — المعلمون بالمساجد والمدارس : حظيت هذه الطائفة من المعلمين بكثير من الإجلال والتقدير ، ولا يكاد الإنسان يجد ما يقال من شأنهم أو يضع من أقدارهم إلا هذه الحملة التى شنّها ابن شهيد والتى هاجم فيهـا المعلمين والعلماء ، ولـكن ابن شهيد يعلل لهجومه هذا بأن هؤلاء كانوا لا يعاملون الأدباء معاملة طيبة إذا ضمّتهم مجالس الأمراء والعظماء[1] . فما كتبه ابن شهيد إذن لم يكن عن عقيدة وإنما كان ايثاراً لنفسه وللأدباء والشعراء من هؤلاء المعلمين والعلماء الذين لا يعيرون الشعر وقائليه أى اهتمام فى مجالس العظماء وأولى الأمر ، وبهذا تسقط قيمة ما كتبه ابن شهيد لأن الدافع له كان شخصياً وكان للرغبة فى الانتقام ، ومثل هذا يُضيع قيمةَ ما كتب ولا يجعله يرقى دليلا على أى شىء .

وما قيمة ما ذكره ابن شهيد إذا قيس بالنصوص الكثيرة التى حفلت بها كتب الأدب والتاريخ والتى تنبىء — بما لا يدع مجالا للتردد — أن هذه الطائفة من المعلمين كانت موضع التقدير والاحترام والتعظيم والاجلال ، وفيما يلى أمثلة مقتبسة من هذه المصادر — تمثل بتدرجها الفترة التى نُعنَى بدراستها .

(١) الذخيرة ١ : ١١٨ وانظر أيضاً النثر الفنى لزكى مبارك ٢ : ٢٩ — ٥٠

نُصِح أحد الخلفاء برسالة هامة جاء فيها : واعلم أن مواقع العلماء من ملكك مواقع السرج المتألقة والمصابيح المتعلقة ، وعلى قدر تعاهدك لها تبذل من الضياء وتجلو بنورها صور الأشياء[١] .

وقيل لأحد أكابر الخلفاء : قد حقق الله لك كل مرغوب ومأرب ، فهل بقيت لك لذة أو بُغية لم تنلها ؟ فقال : نعم ، بقيت لذة واحدة هي أعلى من جميع ما نلته ، وأفخم من كل ما باشرته ، بل لم تقرب منها ـ فضلا عن أن تساويها ـ لذة من لذات الدنيا ولا مرتبة من مراتب الخلافة العليا ، وهي أن أجلس مجلساً كمجلس مشايخ الحديث فأملي وأشرح وأفيد[٢] .

وكان أبو الأسود الدؤلي يقول : ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك[٣] .

وكثيراً ما كان العلم نجاة لأصحابه من الردى ، فقد ذكروا أن الحجاج كان يضرب أعناق أسرى فلما قدَّموا إليه رجلا ليضرب عنقه قال الرجل للحجاج : والله إن كنا قد أسأنا فى الذنب فما أحسنت فى العفو . فقال الحجاج : أفٍ لهذه الجِيَف ، أما كان فيها أحد يحسن مثل هذا ؟ وأمسك عن القتل[٤] .

وقدموا رجلا من الخوارج لعبد الملك بن مروان لتُضْرَب عنقه ، وقبيل التنفيذ دخل على عبد الملك ابن صغير له يبكي لأن المعلم قد ضربه ، فأخذ عبد الملك يهدىء الولد ويكفكف دمعه ، فقال الخارجي : دع الولد يبكي ، فإنه أرحب لشدقه ، وأصح لبصره ، وأذهب لصوته ، وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا

(١) مخطوط مجموعة رسائل بجامعة اسطنبول ورقة ٣٧ ب .
(٢) معجم ابن حجر مخطوط ٨ ب وانظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣١ .
(٣) تذكرة السامع ص ١٠
(٤) العقد الفريد ١ : ١٤٠ — البيان والتبين ١ : ١٤٤ .

حفزته طاعة الله فاستدعى عبرتها . فقال له عبد الملك : أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ قال الخارجى : ما ينبغى للمسلم أن يشغله عن قول الحق شىء . فأمر بتخلية سبيله(١) .

وكان عبد الملك بن مروان قد تقدم ليخطب للوليد ابنه وولىّ عهده ، ابنة سعيد بن المسيب (توفى قبيل نهاية القرن الهجرى الأول) ولكن هذا رفض أن يزوج ابنته من الوليد وزوّجها من شخص آخر فقير جداً ، ويحدثنا ابن خلكان(٢) كيف زوج سعيد ابنته هذه فيقول : كان أبو وداعة يجالس سعيداً فتخلف أياماً ، فلما عاد قال له سعيد : أين كنت ؟ فأجاب بأن زوجته قد توفيت . فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ؟ ثم سأله : هل أحدثت أخرى ؟ فقال : وأين لى ذلك وأنا فقير معسر ؟ فقال سعيد : إن فعلتُ تقبل ؟ قال : نعم . فزوجه سعيد ابنته من يومه وكانت غاية فى الجمال والخلق . وهكذا كان علم أبى وداعة أرجح من مكانة الأمير .

ولما مات الحسن البصرى (١١٠ هـ) تبع أهلُ البصرة كلهم جنازته ، فلم يبق بالمسجد من يصلى العصر ، ولم تُترَك صلاة منذ كان الإسلام إلا يومها(٣) .

، حضر بعض أولاد الخليفة المهدى عند شريك القاضى (١٧٧ هـ) وهو يلقى الدرس على طلابه ، فاستند ابن المهدى إلى الحائط وسأل عن حديث فلم يلتفت إليه شريك . ثم عاد وسأل فعاد شريك إلى إهماله . فقال ابن الخليفة : تستخف بأولاد الخلفاء ؟ قال : لا ، ولكن العلم أزين عند أهله من أن يضيعوه(٤) .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٤٤ — الكامل للمبرد ٧٣ هـ
(٢) وفيات الاعيان ١ : ٢٩١ — ٢٩٢
(٣) ابن خلكان ١ : ١٨١ (٤) تذكرة السامع ٨٨ — ٨٩

ويقول الإمام الشافعي : حتني لي أحد أبناء عمي من الزبيريين أن ألتحق بالإمام مالك بالمدينة لأتعلم الفقه ، وكنت في مكة في هذا الوقت ، فأخذت كتاب والي مكة إلى والي المدينة ليصحبني إلى مالك بن أنس ، فلما قدمت المدينة أبلغت الكتاب إلى الوالي ، فلما قرأه قال : يا فتى ، إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلا أهون عليّ من المشي إلى باب مالك بن أنس ، فلست أرى الذل حتى أقف على بابه . فقلت أصلح الله الأمير ، إن رأى أن يوجه إليه ليحضر . قال : هيهات ، ليت أني إذا ركبت إليه وأصابنا أنا ومن معي من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا . . . . وذهب الوالي مع الشافعي إلى دار الإمام مالك واستأذن في الدخول ، فسئل عن حاجته فشرحها ، فقال مالك : ياسبحان الله ! ! صار العلم يؤخذ بالوسائل . وسمح للشافعي أن يلتحق به وارتد الوالي[1].

ومر الرشيد مرة بحلقة محمد بن الحسن فقام الناس كلهم إلا محمد بن الحسن ، فخرج الآذن ونادى محمد بن الحسن ، فذهب هذا لمقابلة الرشيد فلما عاد سأله أصحابه عما كان فقال : سألني الرشيد : مالك لم تقم مع الناس ؟ فقلت : كرهت أن أخرج عن طبقة العلماء إلى طبقة العامة ، فسُرّ بإجابتي[2] .

ويحكي Palmer[3] أن أبا معاوية العالم الأعمى كان يتغدى مرة مع الرشيد فلما انتهى الغداء وأراد العالم أن يغسل يديه على عادة المسلمين ، قدم له شخص ما الطست والابريق وصب عليه ، ولما انتهى العالم الأعمى من غسل يديه شكر ذلك الذي أولاه هذه العناية وصب عليه الماء ، ولكنه اكتشف أن الذي فعل ذلك هو الرشيد نفسه على كثرة خدمه . فقال العالم : يا أمير المؤمنين ، إني

---

(١) معجم الأدباء ٦ : ٣٦٩ - ٣٧٠

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٢ : ١٧٣ - ١٧٤

(٣) Harum el Rashid p. 32.

أعتقد أنك فعلت هذا تكريماً للعلم . فأجاب الرشيد : هو كذلك .

وكان أحمد بن أبي داود سيد دولة المعتصم ، وكان أول من افتتح الكلام مع الخلفاء وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدءوه ، وكان يعرف مابين الأفشين التركى وأبى دلف القاسم بن عيسى العربى من منافسة وكراهية ، فبلغه مرة أن الأفشين احتال حتى شُهِدَ على أبى دلف بجريمة قتل . فأحضره ليقتله ، فسارع أحمد بن أبى داود إلى الأفشين وقال له : إنى رسول أمير المؤمنين إليك . وقد أمرك ألا تحدث فى القاسم بن عيسى حدثا ، ثم التفت إلى من معه وقال : اشهدوا أنى بلغت الرسالة والقاسم حى معافى ، ثم خرج إلى المعتصم وقال : قد أديت عنك رسالة لم تقلها وقص القصة فصوّب المعتصم رأيه[1] .

وكان المعتضد يطوف يوماً فى البستان وهو آخذ بيد ثابت بن قرة إذ جذبها دفعة واحدة وخلاّها . فقال ثابت : ما بدا يا أمير المؤمنين ؟ فقال المعتضد : كانت يدى فوق يدك والعلم يعلو ولا يعلى عليه[2] .

وقد وقع بين القاضى أبى حامد أحمد بن محمد الاسفرائينى وبين الخليفة جفوة فكتب إليه الشيخ أبو حامد : اعلم أنك لست بقادر على عزلى عن ولايتى التى ولانيها الله تعالى ، وأنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك[3] .

وذكر قطب الدين الشافعى بسوء عند نور الدين ، فقال : لو صحّت هذه السيئة فإن فيه حسنة تكفرها وهى العلم[4] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٣١

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٣١٠ (٣) السبكى : طبقات الشافعية ٣ : ٢١

(٤) مفرج الكروب لابن واصل ص ١٢٥ مخطوط .

ولما مات على بن الحسن بن عساكر الحافظ الدمشقى سنة ٥٧١ هـ حضر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب جنازته بالميدان والصلاة عليه[١].

وكان الملك الأفضل ينزل من قصره فى قلعة دمشق يتأبط كتابه ويأتى دار أستاذه الكندى فى درب العجمى، وربما تأخر الدرس الذى يتقدم درسه فينتظر إلى أن تأتى نوبته[٢].

هذه الأمثلة القليلة نماذج لتراث ضخم يتحدث عن قدر العلماء ومكانتهم السامية وهى وسواها تدل بوضوح على المنزلة الرفيعة التى كان ينزلها من نفوس الناس هؤلاء العلماء والمدرسون.

حالة المدرسين المالية

هناك نقطتان هامتان يجدر أن تنالا ما تستحقان من إيضاح قبل تفصيل القول فى حالة المدرسين المالية:

(١) كان القرآن الكريم هو مادة الدراسة فى جميع الحلقات التعليمية التى كانت تعقد فى صدر الإسلام، فكان الرسول (ص) يجلس إلى أتباعه ليقرئهم القرآن، ويشرح لهم ما قد يغمض عليهم منه ويستنبط أحكام الدين من آياته، وكان الرسول بطبيعة الحال يؤدى هذا العمل ابتغاء وجه الله، واتجه الصحابة بعده هذا الاتجاه فأقرأوا القرآن وفسروه للناس دون أن يأخذوا أو يقبلوا لذلك أجراً غير الثواب من الله، قال عبد الله بن شقيق كان أصحاب رسول الله (ص) يكرهون بيع المصحف ويرونه عظيماً، وكانوا يكرهون أن يأخذ المعلم على تعليم القرآن شيئاً[٣]

(١) معجم الأدباء ٥ : ١٣٩ — ١٤٠ (٢) دهان : المنصورة الناجية ص ١١
(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٣١

وانتقل هذا الميل إلى العصور التالية ، واعتنقه كثير من التابعين ومن جاء بعدهم ، وضُمّ إلى القرآن حديث الرسول ، فذهبت طائفة كبيرة من الفقهاء كالحنفية جميعهم وأحمد بن حنبل وسفيان الثورى وغيرهم إلى أنه لا يجوز أن يأخذ المعلم أجراً على تعليم القر الحديث[١] وكان أبو العباس الأصم وهو من كبار علماء خراسان ومحدثيهم لا ذ شيئاً على التحديث وإنما كان يورّق ويأكل من كسب يده[٢] .

ثم تطورت المسألة مرة أخرى فأصبحت الدراسات الدينية كلها لها حكم القرآن والحديث ، وكما كان على الشخص أن يقرىء الناس ما حفظه من القرآن ويروى لهم ما سمعه من أحاديث الرسول ، كذلك أصبح عليه أن يعلّم الناس ما وعاه من ثقافة ومعرفة دون أجر فى الجميع اكتفاء بالثواب من الله ، وقد رفض الحارث بن محمد أن يأخذ الرزق الذى رتبه له عمر بن عبد ا زيز حينما أرسله ليعلم الناس بالبادية وأثِر عن الحارث أنه قال : ما كنت لآ ذ على علم علمنيه الله أجراً[٣] .

وفى ضوء هذا الاتجاه سار أغلب المدرسين المسلمين ، وتقص لنا المراجع العربية جملة كبيرة من الأقاصيص التى تنبىء عن أنهم حتى الفقراء منهم كانوا يجلسون لتعليم الناس بدون مقابل ، كما فعل ذلك كمال الدين أبو البركات الأنبارى الفقيه النحوى الذى كان بابه مفتوحاً لطالبى العلم يعلمهم لوجه الله تعالى[٤] .

ووجد من معلمى الأطفال من عمل هذا أيضاً فقد روى ابن قتيبة[٥] أن

---

(١) السمرقندى : مقدمة بستان العارفين .
(٢) متز ١ : ٣٠٦ نقلا عن المنتظم لابن الجوزى مخطوط .
(٣) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٦٧
(٤) الروضتين ٢ : ٢٧ (٥) المعارف ص١٨٥

الضحاك بن مزاحم وعبد الله بن الحارث (وهما من معلمى الأطفال) كانا يعلمان ولا يأخذان أجراً .

وكان كثير من العلماء يقومون برحلات طويلة لجمع الأحاديث وتعلم العلم ، وكانوا يبذلون فى هذه الرحلات مبالغ كبيرة ثم يعودون ليرووا هذه الأحاديث للناس وليعلموهم ماحصلوا عليه من علم دون جزاء ، فلقد روى أن أبا بكر الجوزقى محدث نيشابور قال : أنفقت فى الحديث مائة ألف درهم وما كسبت به درهماً[1] .

وكان جلوس العلماء للتدريس دون أجر مادى دليلا على إخلاصهم لعلمهم وتفانيهم فيه ، إذ لم يكن هناك دافع لهم سوى خدمة العلم والرغبة فى الثواب ، ومن أجل هذا اجتمع علماء ماوراء النهر وأقاموا مأتم العلم لما بلغهم خبر بناء المدرسة النظامية ببغداد ، وقالوا : كان يشتغل بالعلم أرباب الهمم العليّة والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، وإذا صار عليه أجر ، تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل فيكون ذلك سبباً لمهانته وضعفه[2] .

ولكن نظام الملك لم يكن أول من رتب المرتبات للمدرسين ، فإنها وجدت قبله ولكن على نطاق محدود ، فلما جاء نظام الملك رتبها على نطاق واسع شامل . ولنا الآن أن نتساءل : كيف بدأ دفع المرتبات إلى علماء المسلمين مع ماسبق أن أوردناه من اتجاه العلماء لتعليم القرآن والحديث وعلوم الدين خدمة للعلم من جهة وللحصول على الثواب من الله من جهة أخرى ؟

يبدو لى أن الإجابة تنحصر فى الحقيقتين الآتيتين :

---

(١) طبقات الشافعية ٢ : ١٦٩

(٢) كشف الظنون ١ : ١٥

١ — أريدَ ببعض المسلمين منذ عهد مبكر أن يجلسوا بالمساجد ليدرسو إستمعيهم شيئاً لم يكن المقصود به خدمة العلم ولا وجه الله ، ومن ثم لم يكن هناك دافع لأن يقوم المدرس بهذا العمل إلا إذا عين له أجر مادى يحثه على القيام بهذه المهمة ، ومن هذا تدريس القصص السياسى فى عهد معاوية كما سبق أن أشرنا من قبل ، إذ من الواضح أن ذلك كان للدعاية لفريق معين وللتأثير على الناس بوجهة نظر خاصة .

٢ — استعان المسلمون بأفراد كثيرين من غير المسلمين ليخدموا النهضة العلمية وليقوموا على وجه الخصوص بأعمال الترجمة ، ومن هؤلاء يوحنا بن ماسويه وجبريل بن بختيشوع وحنين بن إسحق وغيرهم وكانوا يُمنحون أجوراً سخية على القيام بهذا العمل .

وهكذا بدأت فكرة إعطاء مرتبات لمن يخدمون العلم ويسهمون فى رفع المستوى الثقافى ، ثم تطور الزمن فأوشك النسيان أن يسدل ستاره على هاتين الحقيقتين ليصبح دفع المرتبات للمدرسين شيئاً عاديا أيا كان الموضوع الذى يدرسونه ، أو أيّا كان الدين الذى يعتنقونه ، وهكذا بدأت ثم انتشرت المرتبات فى العالم الإسلامى ، غير أن كثيراً من العلماء والزهاد ظلوا على الاقتداء بالرسول وصحبه فى تعليم العلم خدمة للعلم وابتغاء مرضاة الله .

(ب) يعتقد ابن خلدون أن الخضوع والتملق من أسباب الحصول على الجاه المحصِّل للسعادة والكسب ، وأن أكثر أهل الثروة والسعادة مدينون لهذا التملق ، ولهذا نجد الكثيرين ممن يتخلقون بالترفع والشمم لا يحصل لهم غرض الجاه فيقتصرون فى التكسب على أعمالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة[١] . ويرى كذلك أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا

---

(١) المقدمة ص ٢٧٥

والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لاتعظم ثروتهم فى الغالب لأن ما يقومون به ليس من الأعمال الضرورية التى تشتد الحاجة إليها ولذلك لا يأجرهم الحاكم كما يأجر سواهم من أهل الشوكة وأهل الصنائع [١] ثم يصل ابن خلدون إلى النتيجة التى يريد أن يقررها فيقول : إنه لما كان القضاة والمدرسون والأئمة والمؤذنون لايميلون إلى الخضوع والتملق ، ثم إنهم لايقدمون للمجتمع شيئاً ضرورياً يحتاج إليه عامة الخلق ، ويضطر له الناس ، فلذلك لاتعظم ثروتهم فى الغالب . ويضيف ابن خلدون أنه وقع بيده أوراق من حسابات المأمون وفيها ما يثبت ماذهب إليه من أن أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين كانت قليلة [٢] .

ونحب أن نتساءل : ما العمل الضرورى الذى يعنيه ابن خلدون ؟ وما المقياس الذى يزن به الأعمال ؟ هل يقيسها مادياً ؟ وإذا كان كذلك فلماذا كان العمال الزراعيون يعيشون فى مستوى مهين جداً مع أنهم كانوا يقومون بأهم الأعمال وأكثرها ضرورة إذ ينتجون للدولة الحاصلات ويربون لحاجاتها الماشية والأنعام ؟ وإذا وافقنا ابن خلدون على أن الإمام والمؤذن لايؤديان عملا ضرورياً على اعتبار أن الصلاة يمكن أن تؤدى بدونهما ، فإنا لانستطيع أن نوافقه على أن عمل القاضى والمدرس يمكن أن يستغنى عنه فطالما شُغِلَ الخلفاء أنفسهم بالنظر فى المظالم عقب رفعها إليهم دون تأخر مما يدل على أهميتها ، والنظر فى المظالم عمل من أعمال القضاء فالذى يخيل لى أن ابن خلدون أخطأه التوفيق حينما جمع أعمال المؤذنين والخطباء جنباً إلى جنب مع عمل القضاة والمدرسين . وهناك حقيقة واضحة هى أن معظم الخلفاء والحكام فى العالم الإسلامى كانوا يعضدون نفوذهم بسلطتين هما سلطة العلماء والجند ، ومن أجل هذا كانوا يغدقون على هؤلاء وأولئك بسخاء ليطول لهم السلطان .

(١) المقدمة ص ٢٧٦ (٢) المصدر السابق ٢٧٦ — ٢٧٧

ثم أن ابن خلدون يريد أن يقرر حكما عاماً لأن مرتبات القضاة والمدرسين كانت ضعيفة فى عهد المأمون تبعاً لما رآه ابن خلدون . ولا أوافق ابن خلدون : أولا: على تقرير حكم عام لوجود مثال عليه بل لابد لتقرير حكم عام أن توجد أمثلة كثيرة لعهود مختلفة ، ثانياً : ماهى هذه الأوراق التى وقعت فى يد ابن خلدون : عن حسابات المأمون ؟ الواقع أن ابن خلدون لم يعطنا عنها تفاصيل ذات بال فى حين أن عندنا حقائق ثابتة عن مرتبات القضاة فى عهد المأمون وعن أجور الذين أسهموا فى النهضة العلمية أبان خلافته وهـذه وتلك تتعارض مع ماذكره ابن خلدون : يروى الكندى أن أجر الفضل بن غانم الذى ولى قضاء مصر سنة ١٩٨هـ (فى عهد المأمون) كان مائة وثمانية وستين ديناراً فى الشهر(١) وأن مرتب عيسى بن المنكدر الذى ولى نفس المنصب سنة ٢١٢ كان سبعة دنانير كل يوم ، وقد سبق أن أوردنا أن المأمون كان يعطى حنين بن اسحق من الذهب زنة ماينقله من الكتب إلى اللسان العربى ومثلاً بمثل . كل هذا يحدونا إلى أن نخالف ابن خلدون فيما ذهب إليه فى هذا الأمر .

والآن نستطيع أن نتحدث عن الحالة المالية للمدرسين طائفة طائفة على النهج الذى اتُّبِـع فى الحديث عن مستواهم الاجتماعى .

١ — معلمو الكتاتيب : أكثر النصوص التى بين أيدينا عن الحالة المالية لهذه الطائفة من المدرسين تميل إلى أنها كانت شحيحة فى الكثير الغالب ، ولعل المستوى الاجتماعى المتدهور الذى أشيع عن هذا الفريق بالحق أو بالباطل كان ذا أثر فعال فيما يتصل بحالتهم المالية ، ثم إن هؤلاء يعلمون القرآن ومبادىء الدين ومن أجل هذا فقد كان متوقعاً منهم أن يتبعوا سنة الأولين فى عدم الحصول على أجر ، أوعلى الأقل أن يكونوا زهاداً يرضون بالقليل وليست لهم أطماع مالية.

---

(١) الولاة والقضاة ص ٤٠١

وكانت نتيجة هذه الأفكار أن انحدر المستوى المالى لهذه الطائفة وظل أغلبهم يعانون كثيراً من الحرمان حتى العهد الحاضر ، وعندنا أمثلة متعددة لتأكيد هذه الحقيقة .

لقد سبق أن تحدثنا عن الحجاج وهل كان معلم كتاب أو لم يكن ؟ وهل حقيقةً اسمه كليب أو أن هذا من أكاذيب الشعراء ، وروينا البيتين اللذين يزعم البعض أنهما قيلا فيه وهما :

أينسى كليب زمان الهزال ... وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلك دائر ... وآخر كالقمر الأزهر[1]

ونحن الآن لايهمنا أن يكون كليب هو الحجاج أو سواه فالبيتان على أية حال قيلا فى معلم كتاب وتحدثا عن حالته المالية . ومنهما يتضح أن معلم الكتاب هزيل فى هذه الناحية ، وأنه يتلقى الرغفان المختلفة الأشكال والأحجام أجراً له على العمل الذى يؤديه[2] .

ومما يدل على تدهور الحالة المالية لهذه الطائفة أن ابن السكيت كان يعلم مع أبيه صبيان العامة بمدينة السلام ففشل فى أن يحصل من ذلك على رزق مناسب فأقلع عن تعليم الصبيان ، وجعل يتعلم النحو رجاء أن يكون مؤدباً أو عالماً ، فيضمن له هذا أجراً سخياً[3] .

وينعى ابن حوقل على معلمى الكتاتيب فى صقلية رضاهم بشظف العيش وقلة الدخل ، إذ ما كان يتجاوز إيراد الواحد منهم عشرة دنانير فى العام بل ربما لايصل إيراده إلى هذا الحد[4].

(١) سرح العيون ص ١٠٢ — ١٠٣
(٢) انظر كذلك المنتخب من كتابات الأدباء للجرجانى ص ١١٨ .
(٣) ابن خلكان ٢ : ٤٦١ (٤) كتاب صورة الأرض ١٢٧٤١

وحاضر الكتّاب فيما يعتقده الكثيرون صورة من الماضي في مناهجه ومظاهره المختلفة ، والسبب في أنه لم يلحقه تطور ولا رقي، أن معلمي الكتاتيب يتوارثون ذلك العمل الواحد عن الآخر . فيقلد اللاحق السابق في كل ماعرفه عنه وأخذه منه ، ولم تتدخل النهضات الإصلاحية في رفع مستوى الكتاتيب ، بل تركت هذه على حالها البدائية ، وأنشأت المدارس والمعاهد ، ومن ثم بقيت الكتاتيب على ما كانت عليه ، دون تغيير أو بتغيير طفيف .

ونستطيع إذن مما وصل إلينا من نصوص ثم بما انحدر من الماضي إلى الحاضر أن نعطي فكرة عامة عن الحالة المالية لمعلمي الكتاتيب :

لم تكن الأجور التي يدفعها الصبيان إلى معلمي الكتاتيب محددة ، بل كانت متروكة لحالة الطفل نفسه وطاقة أهله المالية ، ونستطيع على العموم أن نقسم الأجور قسمين : قسم يتعلق بالزمن وقسم يتعلق بتحصيل الطفل نفسه . أما القسم الأول فكان يقوم به جميع الأطفال تقريباً وهو عبارة عن مبلغ قليل من المال يدفع أسبوعياً أو شهرياً ورغيف من الخبز يدفع كل أسبوع .

أنشد الجاحظ للرّقاشيّ في معلم :

مختلفُ الخبز خفيف الرغيفِ   منتثر الزاد لئيمُ الوصيفِ

وأنشد لأبي الشمقمق :

خبز المعلم والبقال متفق   اللون مختلف والطعم والصور

ثم مبلغ قليل آخر من المال يدفع في مناسبات الأعياد والمواسم[1] وفي بعض الأحوال كان يدفع مقدار من القمح والذرة بدل دفع النقود

---

(١) القابسي : الفصل ٧٣ ب مخطوط .

الأسبوعية أو الشهرية . أما القسم الثانى فكان يدفعه الطفل الذى يصل فى حفظه إلى تمام سورة من سور معينة فى القرآن الكريم : فإذا سار الطفل فى حفظه إلى تمام سورة (تبارك) كان عليه عندئذ أن يقدم للمعلم شيئاً يُعدُّ لوناً من تكريمه وشكره ، فإذا سار الطفل شوطاً آخر فى حفظ القرآن حتى أتم سورة (الفتح) فعل مثل مافعل عند الانتهاء من حفظ سورة تبارك ، وهكذا مع بعض سور معروفة عند المعلمين . ويدخل فى القسم الثانى ما يدفعه الطفل عند ما يختم حفظ القرآن الكريم ، وفى هذه المرة يَظْهَرُ الجود والسخاء ويكرَّم معلم الكُتَّاب أجمل تكريم ، وقد يشمل العطاء شيئاً من الأكسية والمال وغيرهما على حسب حالة أهل الطفل .

وقد سبق أن قررنا أن المستوى الاجتماعى لمعلمى الكتاتيب ربما كان ذا أثر فى إضعاف مستواهم المالى ، ونحب أن نقرر هنا أن العكس ربما كان صحيحا أيضا .

٢ — المؤدبون : نَعِم المؤدبون بالغنى والرخاء اللذين استمتعت بهما طائفة العظماء الذين اتصل بهم المؤدبون ، وتعيينُ شخص ما مؤدبا كان يعتبر فاتحة خير عليه وعلى ذويه ، إذ كانت هذه الوظيفة تضمن لشاغلها غنى سريعًا شاملا ، وتضمن له كذلك تسوية لأية مشكلات مالية يعانيها أو ديون يرزح تحتها ؛ فلقد روى أن هشام بن عبد الملك — مع أنه كان شحيحًا — أدّى عن الزهرى سبعة آلاف دينار عند ما اختير لتأديب ولده[1] .

وقد سبق لنا أن أشرنا إشارة سريعة إلى قصة هامة رواها ياقوت ، وهى تبين بوضوح إلى أى مدى كان الخلفاء والعظماء يُعْنَوْن برفع المستوى المالى لمؤدبى أولادهم ، وهاهى تلك القصة كاملة :

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم صفحة ١٧ بالهامش .

دخل على بن الحسن الأحمر (١٩٤ هـ) إلى دار الرشيد ليعلم الأمين ، وفُرِشَ له المجلس بفراش حسن ، وكان الخلفاء إذا أدخلوا مؤدبًا إلى أولادهم لجلس فى أول يوم ، أمروا بعد قيامه بحمل كل مافى المجلس إلى منزله مع ما يوصّل به (من الدواب) ، فلما أراد الأحمر الانصراف إلى منزله دُعِيَ من يحمل له ذلك ، فقال الأحمر : والله ما يسع بيتى هذا ، فما لى إلا غرفة لا يدخلها غيرى . فأمر الرشيد بشراء دار له وجارية ، وحُمِل على دابة ، ووهب له غلام ، وأقيم له جارٍ (مرتب) ولمن عنده . . قال محمد بن الجهم : كنا إذا أتينا الأحمر تلقانا الخدم فندخل قصراً من قصور الملوك ، ويخرج علينا الأحمر وعليه ثياب الملوك[١] .

ولم يكن الأحمر فقط هو الذى استمتع بهذا العيش الرغد بسبب اشتغاله بتأديب أولاد العظماء ، بل كان جميع المؤدبين ينعمون تقريبا بنفس النتيجة ، يحكى ابن خلكان[٢] أن الكسائى رُتِّب له مرتب سنى منتظم ، وبجانب ذلك فقد أعطى له ـ فى أول عهده بمهمته ـ عشرة آلاف درهم وجارية حسناء بجميع ما تحتاجه ، وخادم وبرذون بجميع آلاته .

وفى إحدى المناسبات منح الخليفة المتوكل ابن السكيت مؤدب ولده مبلغ خمسين ألف دينار بالإضافة إلى مرتبه المنتظم ، وكثيراً ماحصل المؤدبون بالإضافة إلى المال على مساكن ، وأطعمة منتظمة ، وغيرها من الهدايا والمنح[٣] .

ونستطيع من النصوص المتعددة أن نقرر أن متوسط مرتب المؤدب كان ألف درهم فى الشهر فقد كان هذا هو المرتب الشهرى لابن السكيت لتأديبه ابنا لمحمد بن عبد الله بن طاهر[٤] كما كان محمد بن عبد الله يدفع

(١) معجم البلدان ٥ : ١١٠ (٢) وفيات الأعيان ١ : ٤٧٠ .
(٣) انظر ياقوت : معجم الأدباء ص١٤٤ (٤) ابن خلكان ٢ : ١٦١

مبلغاً مماثلا لثعلب كفاء تعليم ولده[1] وإذا كانت العملة المستعملة هى الذهب فإن المرتب كان حوالى سبعين ديناراً ، وهى على وجه التقريب تعادل الألف درهم فقد كان عند قائد لعبد الله بن طاهر مؤدب رزقه فى الشهر سبعون ديناراً .

٣ — الدرسون بالمدارس : عند الحديث عن الحالة المالية لا نستطيع أن نذكر كلة المساجد التى ذكرناها فى كلامنا عن هذا القسم فى الحالة الأدبية ، لأن معلمى المساجد كانوا فى الكثير الغالب لا يرجون غير الثواب من الله ، كما أن هذا القسم سيشمل غير المعلمين ممن خدموا الثقافة العالية ونشروها ، وقد سبق التعليل لذلك .

ومن الممكن أن نقرر دون تردد أن هذا الصنف من العلماء والباحثين قد عاشوا فى بحبوحة من العيش ، ونعموا بمستوى مالى مرموق ، إذ أضفى عليهم الخلفاء والسلاطين والعظماء كثيراً من عنايتهم ، وأمدوهم بهبات متجددة ، وأفضال لا تنقطع ، فقد حكى عن المأمون أن منحة لحنين بن اسحق كانت متصلة وهباته إليه لا تتوقف[2] .

ولما نزل الشافعى أرض مصر استقبله ابن عبد الحكم استقبالا كريماً ، فأحسن إليه وأكرم مثواه ، وبلغ الغاية فى بره ، وأعطاه من ماله ألف دينار ، وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألف دينار ، ومن رجلين آخرين من أصحابه ألف دينار[3] .

وكان الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان[4] فى مطلع حياته فكانت

---

(١) معجم الأدباء ٢ : ١٤٤ .

(٢) Khuda Bukhsh. Islamic civilization p. 277

(٣) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ١٧ بالهامش .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٥٦ .

حالته المالية رقيقة هزيلة ، ولكن هذه الحالة سرعان ما تغيرت عندما عُرِفَ عن الجاحظ علمه وفضله ،فأصبح نتاج الجاحظ الفكرى يدر عليه من الثروة ما تدره الضياع الفسيحة أو التجارة العريضة الناجحة،يروى أن الجاحظ دخل البصرة مرة ثم خرج منها بثروة كبيرة بعد فترة قصيرة ، فسأله ميمون بن هارون : ألك بالبصرة ضيعة ؟ فتبسم وقال : أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتب البيان والتبيين إلى ابن أبى داود فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار ، فانصرفت عن البصرة وكأن لى فيها ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد[١] .

ولما كمل جامع ابن طولون صلى فيه القاضى بكار إماماً ، وأملى فيه الحديثَ الربيعُ بن سليمان تلميذ الإمام الشافعى ، فدفع إليه أحمد بن طولون فى ذلك اليوم كيساً فيه ألف دينار[٢] .

وارتفعت ثقافة بعض العلماء وتنوعت ، فسُجِّلَت أسماؤهم مع الفقهاء ومع العلماء ومع الندماء ، وكان البعض يأخذ رزقاً فى هذه الطوائف كلها كالزجّاج (٣١٠ هـ) فقد كان له رزق فى الندماء ، وفى الفقهاء ، وفى العلماء ، ومبلغ ذلك ٣٠٠ دينار فى الشهر[٣] .

وقد أجرى الخليفة المقتدر على ابن دريد المتوفى عام ٣٢١ هـ خمسين ديناراً فى كل شهر حينما قدم بغداد فقيراً[٤] .

---

(١) معجم الأدباء ٩ : ٧٥ ــ ٧٦ . (٢) حسن المحاضرة ٢ : ١٣٧ .

(٣) الفهرست ص ٩٠ .

(٤) متز: الحضارة الاسلامية ١: ٣٠٩ نقلا عن: Westenfield AGGW, 37, Nr. 92.

وعندما أنشئت المدارس وعين المدرسون بها كان هؤلاء يتناولون مرتبات شهرية منتظمة من الخزانة العامة أو من إيراد الأوقاف التى كانت عادة تُعَيَّن ليُنْفَق من ريعها على هذه المنشآت ، وقد كانت هذه المرتبات تختلف باختلاف مكانة المدرس وريع الوقف ، ولكنها كانت على العموم أميل إلى الجود والسخاء .

أما عن المدرسين فى ظل الفاطميين فقد سجل لنا المقريزى (١) والقلقشندى (٢) معلومات عظيمة الفائدة لا عن مرتب المدرسين فحسب ، ولكن عن المرتبات المهمة فى الدولة بما فى ذلك داعى الدعاة وهو الشخص الأول فى طائفة المدرسين فى العهد الفاطمى ، وسنقتبس فيما يلى بعضاً من هذا السجل ليحدّد لنا مركز المعلم المالى بين مراكز الآخرين من كبار موظفى الدولة :

الوزراء	٥٠٠٠ ديناراً شهرياً
ابن الوزير	من ٢٠٠ دينار إلى ٣٠٠ شهرياً
كاتب الدّست الشريف	١٥٠ ديناراً شهرياً
صاحب الباب	١٢٠ « «
قاضى القضاة	١٠٠ دينار شهرياً
داعى الدعاة	
الأستاذون المحنكون	
صاحب بيت المال	
حامل الرسالة	
صاحب الدفتر	

(١) الخطط ١ : ٤٠١ — ٤٠٢ .
(٢) صبح الأعشى ٣ : ٥٢٥ — ٥٢٦

صاحب السيف صاحب الرمح رئيس ديوان النظر	٧٠ ديناراً شهرياً
الطبيب الخاص رئيس ديوان التحقيق	٥٠ ديناراً شهرياً
رئيس ديوان المجلس	٤٠ ديناراً شهرياً
الواعظ بالمسجد شاعر الخليفة	من ١٠ دنانير إلى ٢٠ ديناراً شهرياً
لكل من الأطباء الآخرين الذين كانوا يقيمون فى القصر	١٠ دنانير

ومنذ العهد الأيوبى لم يعد هناك مستوى منتظم لمرتبات المدرسين ، بل أصبحت هذه المرتبات تتأثر تأثراً واضحاً بظروف متعددة كمقدار الوقف على المدرسة ، وكمكانة المدرس وسمعته ، ثم تأثرت المرتبات بشكل خاص بالأخلاق التى اضطرب مستواها فى هذه الفترة ، فإذا كان ولى الأمر كريماً أو عفيفاً أغدق على المدرسين ، وإذا كان شحيحاً أو شرهاً قل المرتب الذى يمنحه المدرسين مهما كان ريع الوقف أو شرط الواقف ، وأياً ما كان مركز المدرس العلمى ، وقد سجل لنا السيوطى أمثلة واضحة لهذا الاتجاه وفيما يلى أحدها :

بنى صلاح الدين المدرسة الصلاحية بجوار الإمام الشافعى وعين للتدريس والنظر بها الشيخ نجم الدين الخبوشانى ، وشرط له أو لمن يشغل هذا المنصب من بعده الأجر التالى :

أربعين ديناراً فى كل شهر عن التدريس .

عشرة دنانير لأجل النظر فى أوقاف المدرسة .
ستين رطلا مصرياً من الخبز فى كل يوم .
راويتين من ماء النيل فى كل يوم .

قال السيوطى : وقد استمرت المدرسة بيد الخبوشانى إلى أن مات سنة ٥٨٧ هـ فوليها شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن محمد الجوينى فى حياة الواقف ، فلما مات الواقف عزل عنها واستمرت عليها أيدى بنى السلطان واحداً بعد واحد ... ... وكذلك تداولتها أيدى من جاء بعد الأيوبيين من سلاطين ، واضطربت المعاليم تبعاً لذلك ، فمرة تخلو من المدرسين ويكتفى فيها بالمعيدين ، ومرة يعين فيها مدرس بنصف المعلوم ، وأخرى يعين بها مدرس بربع المعلوم ، فلما تولاها برهان الدين الخضر السنجارى قُرِّر له المعلوم الشاهد به كتاب الوقف دون خصم [١] .

وقد بنى صلاح الدين مدرسة أخرى أسماها المدرسة السيوفية ، وقرر فى تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتى ، ورتب له فى كل شهر أحد عشر ديناراً [٢] .

وهناك نوع آخر من المدرسين ينبغى ألا ينسى فى مجال الحديث عن الحالة المالية لهذه الطائفة من المعلمين ، ذلك النوع هو المدرسون الذين كانوا يعلِّمون الثقافة العالية ويتقاضون أجرهم من الطلاب ، فكأن مؤسساتهم كانت بمثابة مدارس خاصة أنشأها هؤلاء المعلمون ، وقد نعم هؤلاء المدرسون بمستوى مالى لائق ، إذ كان الطلاب يبذلون أقصى ما يطيقون ليحصلوا العلم ، حدَّث الزجّاج

---

(١) انظر حسن المحاضرة ٢ : ١٥٧ .
(٢) المقريزى : الخطط ٢ : ٣٦٥ .

قال : كنت أخرط الزجاج فاشتهيت النحو ، فلزمت المبرد لتعلمه ، وكان لا يعلم مجاناً ، فقال لى : أى شىء صناعتك ؟ قلت : أخرط الزجاج وكسبى فى كل يوم درهم ودانقان أو درهم ونصف ، وأريد أن تبالغ فى تعليمى وأنا أعطيك كل يوم درهما ، وأشرط لك أن أعطيك أياه أبداً إلى أن يفرق الموت بيننا ، استغنيت عن التعلم أو احتجت إليه . قال فلزمته وكنت أخدمه فى أموره مع ذلك وأعطيه الدرهم فينصحنى فى العلم حتى استقللت ، فجاءه كتاب بعض بنى مازمة من الصراة يلتمسون معلماً نحوياً لأولادهم . فقلت له : أسمنى لهم . فأسمانى ، فخرجت فكنت أعلمهم وأُنفذُ إليه فى كل شهر ثلاثين درهما وأزيده بعد ذلك بما أقدر عليه . ومضت مدة على ذلك ، فطلب منه عبيد الله بن سليمان مؤدباً لابنه القاسم . فقال له : لا أعرف لك إلا رجلا زجاجاً بالصراة مع بنى مازمة ، فكتب إليهم عبيد الله فاستنزلهم عنى فنزلوا له ، فأحضرنى وأسلم القاسم إلىَّ ، فكان ذلك سبب غنائى وكنت أعطى المبرد ذلك الدرهم فى كل يوم إلى أن مات ولا أخليه من التفقد بحسب طاقتى[١] .

وكان محمد بن على بن اسماعيل المعروف بمبرمان قيماً بالنحو ، وكان لا يقرىء كتاب سيبويه إلا بمائة دينار[٢] ، كما كان الشيخ شمس الدين السيوطى عالماً بالعربية ، ماهراً فيها ، حسن التعليم لها ، وكان يقرىء كل بيت من ألفية ابن مالك بدرهم[٣] .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٤٧ — ٤٨

(٢) بغية الوعاة ص ٧٤ .

(٣) المصدر نفسه ٣٧ .

مدرسو المدارس النظامية

كانت للمدارس النظامية معاهد عالية لنشر الثقافة الرفيعة ، ولهذا كان مدرسوها دائما من خيرة علماء العصر وأساتذة الجيل ، وقد استطعت أن أجمع عدة أسماء ممن حملوا عبء التدريس بهذه المدارس ، وأصحاب هذه الأسماء لهم شهرة عظيمة وصيت ممتاز بين علماء المسلمين ، وهم خير دليل على المستوى العلمى للمدارس النظامية ، بالإضافة إلى أن هذه الأسماء ستفيدنا فائدة عظيمة ، لأنها ستساعدنا على تحديد تاريخ تقريبى لاختفاء المدارس النظامية ، وبخاصة نظامية بغداد أولى هذه المعاهد وجوداً وأعظمها شهرة . وفيما يلى هؤلاء المدرسون مرتبين بحسب تاريخ الوفاة :

اسم المدرس	التاريخ الهجرى للوفاة	المدرسة النظامية التى كان يعمل بها	المرجع
أبو اسحق الشيرازى	٤٧٥	بغداد	ابن خلكان ١ : ٦
ابو نصر الصباغ	٤٧٧	»	تاريخ آل سلجوق ص ٧٥
إمام الحرمين أبو المعالى يوسف الجوينى	٤٧٨	نيشابور	ابن خلكان ١ : ٧ ،
أبو القاسم العلوى الدبوسى	٤٨٢	بغداد	ابن الأثير ١٠ : ٦٧
أبو بكر محمد بن ثابت الخوجندى	٤٨٣	اصفهان	ابن الاثير ١٠ : ٢٥١
محمد بن ثابت الشافعى	٤٨٣	»	سعيد نفيسى ص ٢
أبو بكر الشاسى	٤٨٥	هرات	تاريخ الوفاة ذكرتها السبكى فى طبقات الشافعية ٣ : ٧٩ — ٨٠ ولابن العماد فى شذرات الذهب ٣ : ٣٧٥ ولكن Brocke mann 1 : 390 يبيح ابن الأثير فى جعل عام وفاته هو ٥٠٧
محمد بن على بن حامد	٤٩٥	هرات	ابن قاضى شهبه ١٦٥ أ (خط)
أبو عبد الله الطبرى	٤٩٥	بغداد	ابن الأثير ١٠ : ١٢٣
عبد الرحمن بن مأمون	٤٩٨	»	ابن الأثير ١٠ : ٩٦
أبو محمد عبد الوهاب الشيرازى	٥٠٠	»	ابن الأثير ١٠ : ١٢٣
أبو زكريا يحيى الخطيب التبريزى	٥٠٢	»	معجم الأدباء ٧ : ٢٨٧

اسم المدرس	التاريخ الهجري للوفاة	المدرسة النظامية التي كان يعمل بها	المرجع
الكيا الهراسي	٥٠٤	بغداد	كشف الظنون ١ : ٤٥
أبو حامد الغزالي	٥٠٥	بغداد ونيشابور	مقدمة كتاب الاحياء
علي بن محمد بن علي الفصيحي	٥١٦	بغداد	معجم الادباء ٥ : ٤١٥
أبو الفتح بن برهان	٥١٨	»	طبقات الشافعية ٤ : ٤٢
أبو سعيد البزار	٥٢٠	»	طبقات الشافعية ٤ : ٢٢٣
احمد الغزالي	٥٢٠	»	ابن خلكان ١ ، ٣٩
أحمد البيهقي	٥٢٧	مرو	طبقات الشافعية ٤ : ٢٠٣
معين الدين سعيد بن الرزاز	٥٣٨	بغداد	الروضتين ١ : ١٨٥ وشذرات الذهب ٤ : ١٢٢
موهوب بن أحمد الجواليقي البغدادي	٥٣٩	»	معجم الادباء ٧ : ١٩٨
محمد بن يحيى	٥٤٨	نيشابور	ياد جار (صحيفة فارسية)
أبو سعيد أحمد بن أبي بكر	٥٥١	اصفهان	ابن الاثير ١١ : ٣٥
شرف الدين يوسف الدمشقي	٥٥٧	بغداد	» ١١ : ١٧٤
الشيخ أبو النجيب	٥٦٣	»	» ١١ : ١٠٠
يوسف الدمشقي	٥٦٣	خورستان	» ١١ : ٣١٩
رضي الدين القزويني	٥٧٥	بغداد	ابن جبير ٢١٩
أبو البركات الانباري	٥٧٧	»	ابن خلكان ١ : ٣٩٤ ـ ٣٩٥
أبو الخير إسماعيل القزويني	٥٨١	»	ابن الاثير ١١ : ٣٤٤
أبو طالب المبارك بن المبارك	٥٨٥	»	معجم الأدباء ٦ : ٢٣٠
محيي الدين أبو حامد	٥٨٦	الموصل	الدكتور داود جلبي : مخطوطات الموصل ص ١٠
مجد الدين أبو علي يحيى بن الربيع	٦٠٦	بغداد	ابن الأثير ١١ : ٣٤٤
يحيى بن القاسم	٦١٦	»	معجم الادباء ٧ : ٢٨٩
بهاء الدين بن شداد	٦٣٢	»	Hitti p. 411
نجم الدين البادرائي	٦٥٥	»	التميمي ١ : ٢٠٥
أبو المناقب الزنجاني	٦٥٦	»	طبقات الشافعية ٥ : ١٥٤
شمس الدين الكيشي	٦٦٠	»	العزاوي ١ : ٢٦٣
ناصر الدين الفاروقي	٦٧٢	»	» ١ : ٢٧٥
مجد الدين بن جعفر	٦٨٢	»	» ١ : ٣١٨
شرف الدين الشهرستاني	٦٩١	معيد ببغداد	تاريخ علماء بغداد ص ٣٧
محمد بن المقبلي	أوائل ٨٠٠	بغداد	العزاوي ٢ : ٢٢٦
عبد الله بن بكتاش	أواخر ٨٠٠	»	» ٢ : ٣٢٩
الفيروز ابادي	٨١٧	معيد مع ابن بكتاش ببغداد	نفس المرجع

ملحوظات :

١ — من الطبيعى أن نظام الملك كان يعين مدرسا لأية مدرسة من مدارسه يتم بناؤها ، وكثيراً ما كانت المدرسة تبنى من أجل مدرس ، وفى هذه الحالة كان تعيين المدرس يسبق بناء المدرسة ، غير أن شيئاً غير عادى حدث عند افتتاح المدرسة النظامية ببغداد فلزمت الإشارة إليه :

حدث ابن الأثير[1] قال : وفى ذى القعدة من سنة تسع وأربعين وأربعمائة فرغت عمارة المدرسة النظامية ببغداد ، وتقرر التدريس بهـا للشيخ أبى اسحق الشيرازى ، فلما اجتمع الناس لحضور الدرس ، وانتظروا مجيئه ، تأخر ، فطُلب فلم يوجد ، وكان سبب تأخره أنه لقيه شخص فقال له : كيف تدرس فى مكان مغصوب ؟ فتغيرت نيته عن التدريس بها ، فلما ارتفع النهار ويئس الناس من حضوره أشار الشيخ أبو منصور بن يوسف بأبى نصر بن الصباغ صاحب كتاب الشامل ، وقال : لا يجوز أن ينفصل هذا الجمع إلا عن مدرس ، فجلس أبو نصر ، ولما علم نظام الملك الخبر لم يزل يرفق بالشيخ أبى اسحق ويزيل شكوكه حتى درس بالمدرسة وكانت مدة تدريس ابن الصباغ عشرين يوماً .

٢ — فى حدود الجهد الذى بذلته والمراجع التى أتيح لى الاطلاع عليها نستنبط من القائمة السابقة أن المدرسة النظامية ببغـداد كانت أطول عمراً من سواها فقد ظل ذكرها يرد فى المراجع فى حين اختفى ذكر نظامية خراسان والموصل ونيسابور واصفهان ومرو وغيرها من المدارس النظامية التى ورد ذكرها فى القرنين الخامس والسادس ، وهذا يوحى بأنه فيما عدا نظامية بغداد ــ اختفت هذه المعاهد العليا تدريجيا فى خلال القرن السادس ، وكان سبب اختفائها كثرة

الحروب والفتن التى اجتاحت هذه البلاد عقب انحلال أسرة السلاجقة ، ولكن نظامية بغداد كانت فى العاصمة ، وكانت أغنى وأعظم ، فكسبت بعض القوة ، وقاومت الأحداث حتى مطلع القرن التاسع ، ويبدو أنها أيضاً اختفت حوالى ذلك التاريخ، إذلم يوجد أى ذكر لهابعد الفيروز ابادى الذى توفى فى أوائل ذلك القرن، وعندنا عوامل أخرى تدعم هذه الفكرة ، ففى هذا التاريخ انشغل التركمان الذين دخلوا بغداد سنة ٨١٣ بحروب طاحنة مع المصريين فى سوريا ، ومع الفرس ، ومع الأتراك فى الأناضول ، وكانت هذه الحروب معارك تهديم وتخريب ، اكتسحت كثيرا من آثار بغداد ومنشآتها ، ومن المعتقد أن المدرسة النظامية كانت إحدى هذه المنشآت التى أتت عليها هذه الحروب كما أحدثت هذه الحروب أزمة مالية كان من جرائها أن اغتصب الحكام والولاة أوقافها ، ثم تهدمت فأصبحت خربة واستولى عليها أحد الولاة وضمها إلى أملاكه الخاصة[1] وهكذا كانت النهاية التعسة لهذا المعهد العظيم .

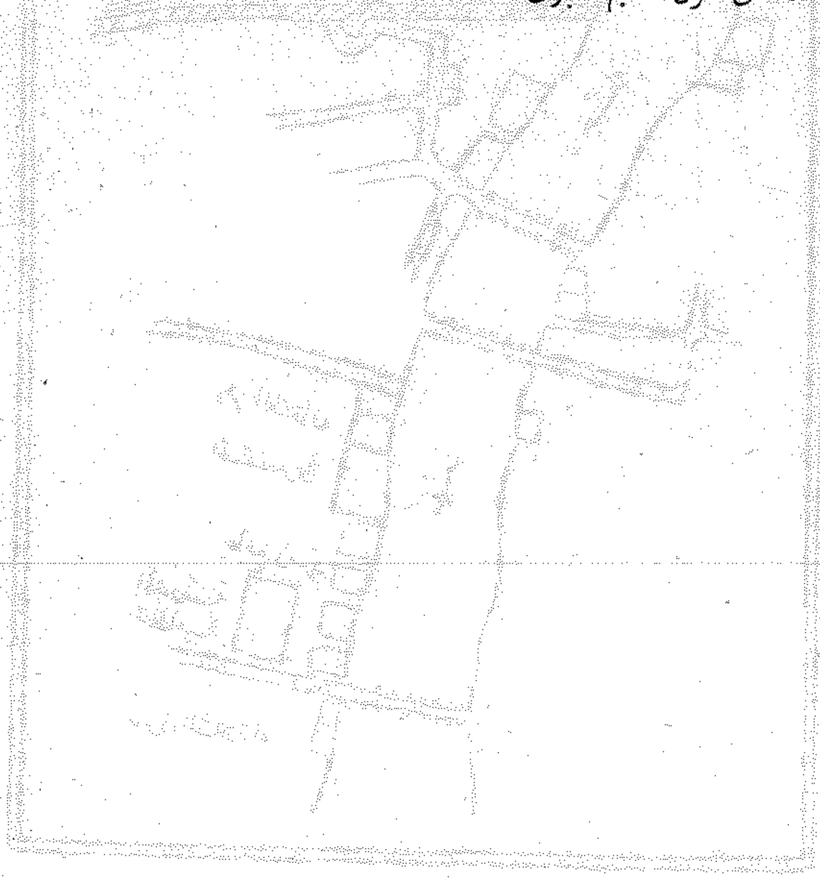
٣ — وامتدت التعاسة إلى موقع هذا المعهد ؛ فإن الباحثين لا يتفقون على موضع معين يرون أن النظامية كانت تشغله ، إذ أن مكان المدرسة كما سبق استولى عليه السالبون والناهبون وضموه إلى ممتلكاتهم الخاصة ، وليس فيما رأيت من مراجع ما يعطى فكرة نهائية عن ذلك المكان ، ومن أجل هذا حاولت إبان زيارتى لبغداد سنة ١٩٥٠ أن أحدد ولو بوجه التقريب موقع هذه المدرسة واستعنت فى ذلك بالدكتور مصطفى جواد كما استعنت بغيره من علماء العراق الأفاضل واستهدينا كذلك بالمادة اللطيفة التى كتبت عن موقع هذا المعهد[2] وقد زرت ومعى الدكتور

---

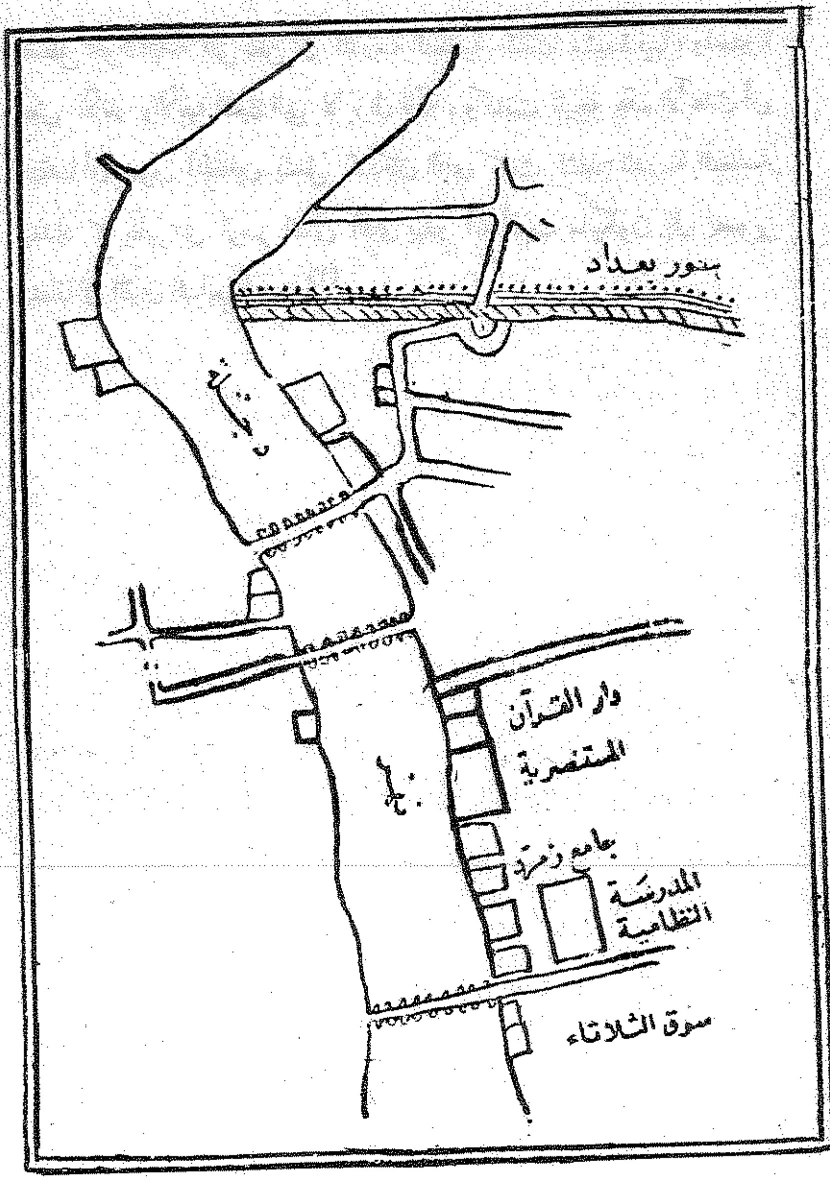
(١) انظر مقالا للأستاذ مصطفى جواد بمجلة المعلم الجديد سنة ١٩٤٢ ص ١١٥ .

(٢) انظر ابن الأثير ١٠ ص ٧١ ، ٧٣ وانظر كذلك طبقات الشافعية ٣ : ٩٠ .

مصطفى جواد البقعة التي يظن أن المدرسة النظامية كانت مشيدة فيها، واختبرنا بعض الآثار والأبنية القليلة التي لا تزال قائمة، وكانت نتيجة هذه الأبحاث أن اعتقدنا أن سوق الخفافين يشغل المكان الذي كانت تشغله المدرسة النظامية ببغداد كما يظهر في الرسم التالي الذي يبدو أنه أقرب ما يكون إلى تصوير المنطقة في القرن السابع الهجري[1] :



(١) انظر مقال الدكتور مصطفى جواد السابق .



خريطة تقريبية لبغداد فى القرن السابع الهجرى ويظهر بها موقع المدرسة النظامية

المعيدون

حددت المراجع العربية مكانة المعيد وعمله ، فهو دون الشيخ وأعظم درجة من الطلبة ، وهو الذي يعيد الدرس بعد إلقاء الشيخ الخطبة على الطلبة ، (الخطبة هى المحاضرة فى الاصطلاح الحديث) كأنه معين الشيخ على نشر العلم[١] . وذكر السبكى[٢] أن المعيد يجلس مع الطلاب لسماع المحاضرة ، ولكن عليه قدراً زائداً على السماع من تفهيم بعض الطلبة ، وتفهم ، وعمل مايقتضيه لفظ «الإعادة» بعد انتهاء الشيخ من الدرس ، فعمل المعيد إذاً يبدأ عندما ينتهى عمل المدرس ، ويشمل عمل المعيد شرح النقاط الصعبة من الدرس ، أو مساعدة محدودى الذكاء من الطلاب لفهم ماصعب عليهم فهمه فى الجولة الأولى .

ومن المعتقد أن هذه الوظيفة قد ظهرت فى القرن الخامس الهجرى ، والذى دعا إلى مثل هذا الاعتقاد أنه لم يرد لها ذكر فيما أعلم قبل ذلك التاريخ ، ثم — وهو الأكثر دعماً لهذه الفكرة — أن وظيفة المعيد ارتبطت غالباً بالمدارس وهذه المدارس بدأ ظهورها فى النصف الثانى من القرن الخامس ، أما لماذا ارتبطت وظيفة المعيد بالمدارس فإن السبب فى ذلك أن المدرسة جمعت طلاباً تتفاوت مقدرتهم العلمية فاحتيج إلى المعيد ليساعد المتخلفين حتى يتمكنوا من مسايرة الآخرين ، أما فى المساجد فكان الطالب إذا أحس تخلفه العلى عن طلاب حلقة ما رغب عنها إلى سواها من الحلقات التى يناسبه مستواها .

وبجانب هذا كان هناك طلاب نابغون برزوا فى الحلقات ، وزاد ارتباطهم بمدرسيهم ، ففضلوا أن يعملوا مساعدين لهم أو معيدين لدروسهم عن أن

---

(١) تذكرة السامع ١٥٠ بالهامش . (٢) معيد النعم ومبيد النقم ١٥٤ — ١٥٥ .

يستقلوا عنهم ويكوّنوا لأنفسهم حلقات خاصة . حدّث ابن خلكان[1] قال : صحب أبو اسحق الشيرازى أبا الطيب الطبرى كثيراً ، وانتفع به ، وناب عنه فى مجلسه ، ورتبه معيداً فى حلقته ثم صار إمام وقته ببغداد .

وقد كثر ورود ذكر المعيدين متصلين بالمدارس النظامية ؛ حكى أبو شامة[2] أن أبا الفتح بن أبى الحسن الأشترى الفقيه كان يشتغل معيداً بالنظامية ، كما حكى ابن الأثير[3] أن أبا الحسن على بن على بن سعادة المتوفى سنة ٦٠٢ كان أيضاً يشتغل معيدا بالنظامية .

ومنذ العهد الأيوبى أصبح منصب المعيد منصباً مرموقاً ، وقلّ أن خلت منه مدرسة من المدارس التى أنشئت فى ذلك العهد ، فقد عين صلاح الدين معيدين بالمدرسة الناصرية إلى جانب الخبوشانى مدرسها وناظر وقفها[4] ، وفى المدرسة الصلاحية التى أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب كان يشتغل أربعة من المدرسين وقد عين لكل منهم معيدان يساعدانه[5] .

ومن المعروف أن المستوى العلمى للمدارس كان مختلفا ، ومن أجل هذا كان من الممكن أن يختار معيد فى مدرسة ليكون مدرسا فى مدرسة أخرى لأن المدرسة الأولى أرقى من الثانية فى مستواها الثقافى فلا تقل وظيفة المعيد فيها عن وظيفة المدرس فى المدرسة الأخرى ، بل ربما شغل شخص واحد الوظيفتين معاً فى وقت واحد . ويقبل المدرس فى مدرسة ما أن يظل معيدا فى مدرسة أخرى إذا كانت الإعادة مع أستاذ ذى علم واسع ، وخبرة كبيرة ،

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٥ (٢) الروضتين ١ : ١٣ . (٣) الكامل ١٢ : ٩٦١
(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٥٧ الخطط ٢ : ٤٠٠ .
(٥) الخطط ٢ : ٣٧٤ .

يرجى من العمل تحت إشرافه مزيد من المعرفة والاستفادة . وقد روى السيوطى[١] أن النصير ابن الطباخ كان إماماً متبحراً فى الفروع . . . درس بالقطبية وأعاد بالصالحية عند ابن عبد السلام . وكان من الممكن أيضا أن يقوم المعيدون بالتدريس فى مدرسة ما دون أن يكون معهم مدرس ، وهم فى هذه الحالة يقومون بعمل المدرس واختصاصه دون أن يكون لهم أجره ؛ يحكى السيوطى[٢] أن المدرسة الصلاحية خلت من مدرس ثلاثين سنة وا كتُفِىَ فيها بالمعيدين، ثم عين فيها مدرس بعد ذلك[٣] .

أخلاق المدرسين وواجباتهم *

عقد القلقشندى فى صبح الأعشى[٤] فصلا طويلا للكلام عن صنعة الكلام ، ومعرفة كيفية إنشائه ونظمه وتأليفه ، ولم يستعمل القلقشندى لفظ المدرس فى ذلك الفصل مما قد يوحى بأنه غير مقصود ، ولكن النظرة الفاحصة تنبىء بأن المدرس مقصود فى هذا الفصل دون تردد ، والسبب فى ذلك أن القلقشندى استعمل لفظ الخطيب والخطابة ، كما استعمل عبارة صانع الكلام ، وقد مر بنا فى حديثنا عن المعيدين أن كلمة الخطبة كانت تطلق على ما نسميه الآن المحاضرة ، فالخطيب إذاً يشمل المحاضر ، ثم أن عبارة صانع الكلام تشمل المدرس دون عناء .

فإذا كنا سنمد ذلك الحديث المفيد شاملا المدرس فإن الأوصاف التى

(١) حسن المحاضرة ١ : ١٩٤ . (٢) المرجع السابق ٢ : ١٥٧

(٣) انظر أيضاً خطط المقريزى ٢ : ٤٠٠

* من أهم المراجع التى اهتمت بآداب العالم والمتعلم هو منية المريد فى آداب المفيد والمستفيد لعلى بن أحمد العاملى فقد تحدث حديثاً مفصلا عن آداب العالم والمتعلم فى نفسهما ثم فى درسهما .

(٤) جـ ٢ من صفحة ١٨٣ إلى صفحة ٣٢٨ .

أوردها القلقشندى له قريبة جداً من الشروط التى تتطلبها معاهد التربية فى الاختبارات المهنية التى يُجْرُونها لراغبى الالتحاق بها ليُعِدُّوا أنفسهم لوظيفة التدريس :

يشترط القلقشندى فيه من الصفات الجسمية حسن القد ، ووضوح الجبين ، وسعة الجبهة ، وانحسار الشعر فيها .

ويشترط له من الصفات العقلية فطنة العقل ، وثقافة الذهن ، وحدة الفهم .

ويشترط من الصفات الخلقية العدل ، والعفة ، وسعة البال .

ويضع القلقشندى له دستورا قويا لإعداد الفكرة وإلقائها كما يلى :

إذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك ، ونقِّ له كرائم اللفظ فاجعلها على ذُكر منك ليقرب تناولها ، ولا تتقدم الكلام تقدما واستعمل جزل الألفاظ ، وسهلها ، وفصيحها ، وسلسلها ، وتجنب كل مايكسب الكلام تعمية .

وفى كتاب منهاج التعلم[1] ذكرٌ لكثير من هذه الصفات والإرشادات مع نسبتها نسبة صريحة للمدرسين .

وبالإضافة إلى هذه المراجع السابقة نجد كثيراً من المؤلفين المسلمين مثل الزرنوجى وابن جماعة والغزالى والعبدرى وغيرهم يهتمون اهتماما كبيراً بأخلاق المدرسين وواجباتهم ومن مؤلفات هؤلاء جميعاً يمكن كتابة نبذة موجزة عن أهم مايجب أن يتصف به المدرسون :

ينصح ابن المقفع[2] من نصب نفسه للناس إماماً فى الدين أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها فى السيرة ، والرأى ، واللفظ ، فيكون تعليمه للناس بسيرته

(١) ٩ ب مخطوط مجهول المؤلف بحلب .

(٢) الأدب الصغير ص ١٤ من رسائل البلغاء الذى جمعه كرد على .

أبلغ من تعليمه بلسانه .. ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم . قال الله تعالى « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم »[١] ، وقال الحسن : لا تكن ممن يجمع علم العلماء ، وطرائف الحكماء ، ويجرى فى القول مجرى السفهاء ، وليذكر المعلم أن العلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر[٢] .

ثم على المعلم أن يُشفِق على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه ، وألا يدع من نصح المتعلم شيئاً ، وأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، ثم ينبهه أن الغرض من طلب العلم ، الثقافةُ والقرب من الله دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، وأن يهتم بأخلاق التلاميذ اهتمامه بعقولهم ، وأن يزجرهم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ، ولا يصرح بالزجر إلا عند الضرورة[٣] .

وعليه أن يختار للمبتدىء المسائل البسيطة كثيرة الوقوع ، لأن ذلك أقرب إلى الفهم والضبط[٤] ، وقد قال الرسول : من حدّث الناس بحديث لا يفهمونه كان فتنة على بعضهم[٥] ، وعلى المتكفل ببعض العلوم ألا يقبّح علوم الآخرين فى نفس المتعلم[٦] ، وعلى المعلم ألا يتردد فى أن يقول : لا أدرى ، إذا كان لا يدرى[٧] .

وعلى المدرس أن يربى فى التلميذ ملكةَ الاجتهاد والنظر ، لا مجرد التقليد والتسليم حتى ينشأ مستقلا ، لا نسخةً من معلمه[٨] .

(١) سورة البقرة الآية ٤١ (٢) الغزالى ، الإحياء ١ : ٤٨ — ٤٩
(٣) الغزالى : الإحياء ١ : ٤٦ — ٤٧
(٤) الزرنوجى : تعليم المتعلم ص ٢٢ .
(٥) الغزالى : إلجام العوام عن علم الكلام ص ٣٣ .
(٦) الغزالى : الاحياء ١ : ٤٧ .
(٧) الغزالى رسالة الأدب فى الدين ص ٤٣ من الجواهر الغوالى .
(٨) كتاب الإرشاد والتعليم لبعض رجال الصوفية ص ٩٠ .

وينصح ابن جماعة (١) المدرس ألا يدرس وقت جوعه أو عطشه أو همه أو غضبه أو اضطرابه أو قلقه ، وينصحه كذلك ألا يطيل الدرس تطويلا يُملّ ولا يقصره تقصيراً يخل ، ويراعى فى ذلك مصلحة الحاضرين ، ثم عليه ألا يجاوز صوتُه مجلسَه . وألا يُقصِّر عن إسماع الحاضرين .

وعليه ألا يكون فى مجلسه مكان مميز لآحاد الناس بل كل من سبق لموضع فهو أولى به ، هذا مع استثناء ما تدعو إليه الضرورة العلمية من جلوس العلماء والمعيدين فى أمكنة خاصة (٢) .

وقد ذكر الغزالى فى رسالة « الأدب فى الدين » آداباً خاصة لمعلم الصبيان، إذ أن الصبيان لم يكوّنوا فى هذه السن استقلالهم ، فهم ينظرون إلى مدرسيهم على أنه نموذج صالح يقلدونه ؛ فعليه أن يدرك ذلك ، فأعين التلاميذ إليه ناظرة وآذانهم إليه مصغية ، فما استحسن فهو عندهم الحسن وما استقبح فهو عندهم القبيح (٣) .

وأخيراً يجب على المدرس أن ينظر إلى تلاميذه نظرة مساواة وإنصاف وعدل، وألا يميز بحال من الأحوال بين أولاد الأغنياء وأولاد الفقراء (٤) .

الإجازات العلمية

لم تعرَف الشهادات الدراسية فى العهد الأول للإسلام ، وكان الطالب يسعى لطلب العلم ما أتيح له الفراغ والمال والموهبة ، ويكتفى بالقليل من العلم أو يجمع منه الكثير على حسب ظروفه الخاصة ، فإذا كان يقصد أنه

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم صفحات ٣٣ ، ٣٨ ، ٣٩ .
(٢) العبدرى : المدخل ١ : ١٩٩ .
(٣) الأدب فى الدين ص ٤٣ من الجواهر الغوالى .
(٤) العبدرى : المدخل ٢ : ١٥٨ .

يكون مدرساً فإنه أيضاً يُترك له أن يقرر — وقلما يرى ذلك ممكناً — أنه أصبح ذا كفاءة تؤهله لأن يجلس فى مجلس الشيوخ. غير أن مجلس الشيوخ هذا لم يكن يسيراً ، ولهذا كان الطالب يتردد طويلا قبل أن ينقل نفسه من مجلس التعلُّم إلى مجلس التعليم ، وكان مجلس التعليم يُرْهَب بسبب الأسئلة الكثيرة التى يطرحها الطلاب على المدرسين ، وبخاصة على أولئك الذين هم حديثو العهد بهذه المنزلة ، فإذا استطاع المدرس الجديد أن يَثْبُت أمام النقاش والأسئلة التى كانت تصل أحياناً درجة التحدى ، وإذا وُفّق فى الإجابة عنها وإقناع الذين تحلقوا حوله ، فإنه حينئذ يستطيع أن يستمر فى عمله ويواصل التدريس ، ولاحرج عليه بعد ذلك أن يَزِلَّ أو يهفو ما دام قد اجتاز العاصفة الشديدة التى كانت تهب ضد المدرسين فى أول عهدهم بهذا العمل ، أما إذا عجز فى جلساته الأولى عن إقناع التلاميذ والإجابة عن أسئلتهم فإن عليه حينئذ أن يعود إلى حيث كان ، طالبا يتلقى العلم فى مجالس الشيوخ : روى أن أبا حنيفة كان يلتحق بحلقة حماد بن أبى سليمان ، ثم أحس أن فى مقدوره أن يستقل عنه ، ويكوّن لنفسه حلقه يعلّم فيها ففعل ، ولكن طالبا سأله سؤالا لم يستطع أن يجيب عنه ففض حلقته وعاد إلى حلقة أستاذه [١] .

ورُوِى أن أبا يوسف مرض مرضاً شديداً فعاده أستاذه الإمام أبو حنيفة النعمان وقال له : لقد كنتُ أؤملك بعدى للمسلمين ... فلما برىء أبو يوسف أعجب بنفسه بسبب شهادة شيخه له ، فعقد مجلساً للأمالى ، فلما عرف أبو حنيفة ذلك أدرك أن أبا يوسف تعجل ، فأرسل أبو حنيفة له رجلا يسأله عن خمس مسائل :

---

(١) السيوطى : تبييض الصحيفة فى مناقب أبى حنيفة ص ١٥ .

الأولى : قصّار جحد الثوب ثم جاء به مقصوراً، هل يستحق الأجر أم لا ؟ فأجاب أبو يوسف : يستحق الأجر . فقال له الرجل : أخطأت . فقال : لا يستحق . فقال : أخطأت . ثم قال له الرجل : إن كانت القصارة قبل الجحود استحق وإلا فلا .

الثانية : هل الدخول فى الصلاة بالفرض أم بالسنة ؟

الثالثة : طير سقط فى قِدْر على النار به لحم ومرق، هل يؤكل أم لا ؟

الرابعة : مسلم له زوجة ذمية ماتت وهى حامل منه فى أى المقابر تدفن ؟

الخامسة : أم ولد تزوجت بغير إذن مولاها فمات المولى ، هل تجب العدة من المولى ؟

وكان أبو يوسف يجيب الرجل فى كل منها بالإيجاب مرة وبالنفى أخرى ، وكانت الإجابة خطأ على كلا الوجهين على نحو ما ذكر فى المسألة الأولى . فأدرك أبو يوسف تقصيره، وعاد إلى أبى حنيفة، فقال له هذا : تزببت قبل أن تحصرم، من ظن أنه يستغنى على التعلم فليبك على نفسه[1].

أما واصل بن عطاء فكان فى أول أمره يجلس إلى الحسن البصرى ، فلما ظهر الاختلاف ، وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبيرة ، وقالت الجماعة بإيمانهم ، خرج واصل عن الفريقين ، وقال بمنزلة بين المنزلتين واعتزل مجلس الحسن البصرى ، وتحلّق حوله الناس ، فاستطاع أن يبرهن لهم على كفاءته وجدارته بمجلسه الجديد ، فظل يجلس مجلس الشيوخ منذ ذلك الحين[2] .

وسار الحال على ذلك ، غير أنه كان للحديث وروايته عناية خاصة

---

(١) محمد زاهد الكوثرى : أبو يوسف القاضى ص ٥٧ — ٥٨ .
(٢) ابن خلكان : الوفيات ٢ : ٢٥٢ ، ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٢٢٤ .

عند المسلمين ، فلم يُستكشَف فيه بما اكتُفِيَ به مع سواه من العلوم ، وكان نظام العنعنة ضرورياً ومتبعاً فى رواية الحديث ، ولم يكن المدرس يجرؤ على روايته جراءته على تدريس أية مادة أخرى . وللدقة فى ذلك كان المحدثون منذ عهد مبكر يعطون طلابهم والذين يأخذون عنهم ، شهادةً بما رووا لهم من أحاديث ويجيزون لهم روايتها عنهم .

ثم انتقل هذا من الحديث إلى سواه من العلوم ، فإذا ثابر الطالب على الاستماع لأمالى الشيخ فى الأدب أو التاريخ أو غيرهما ، أو لشرح يقوم به المدرس لكتاب ما ، وتأكد المدرس من استفادة الطالب ، كتب له شهادة على الورقة الأولى أو الأخيرة من الكتاب يقول فيها مثلاً « أتم فلان قراءة هذا الكتاب .... وأجزت له تدريسه .... » والكتاب نفسه يعيِّن اتجاه ثقافة الطالب إن فقهاً أو أدباً أو تاريخاً أو غيرها ، ثم يبيِّن إلى حد كبير درجة هذه الثقافة ، إذ تتفاوت الكتب من حيث العمق والتفاصيل تفاوتاً يجعل من اليسير أن تُعرف درجة الثقافة من معرفة عنوان الكتاب أو عناوين الكتب التى قرأها الطالب ونال عليها شهادات أساتذته . وعلى هذا كان يمكن أن يحصل الطالب على إجازة فى موضوع فى حين يظل طالباً بالنسبة لموضوع آخر .

وقد بذل الشيخ العلامة أغا بزرك أحد علماء النجف جهداً كبيراً فى جمع وتسجيل وترتيب نصوص أكثر الشهادات التى صدرت من أو إلى مشاهير العلماء ، فهو إذاً مرجع هام فى هذا الموضوع . وقد أتيح لى أن أجلس معه إبّان زياراتى للنجف حيث دارت فى مجلسه أفانين من العلم والمعرفة ، وقد سألته عن أقدم شهادة معروفة ، فتفضل وأطلعنى على مخطوط كتبه بيده وهو الجزء الرابع من « الذريعة إلى تصانيف الشيعة » وفيه أن أقدم شهادة معروفة هى الصادرة سنة ٣٠٤ هـ وقد

منحها محمد بن عبد الله بن جعفر الحميرى إلى أبى عامر سعيد بن عمرو، أما الكتاب الذى مُنِحتْ الشهادة عليه فهو « قرب الإسناد » ونص الشهادة هو :

بسم الله الرحمن الرحيم

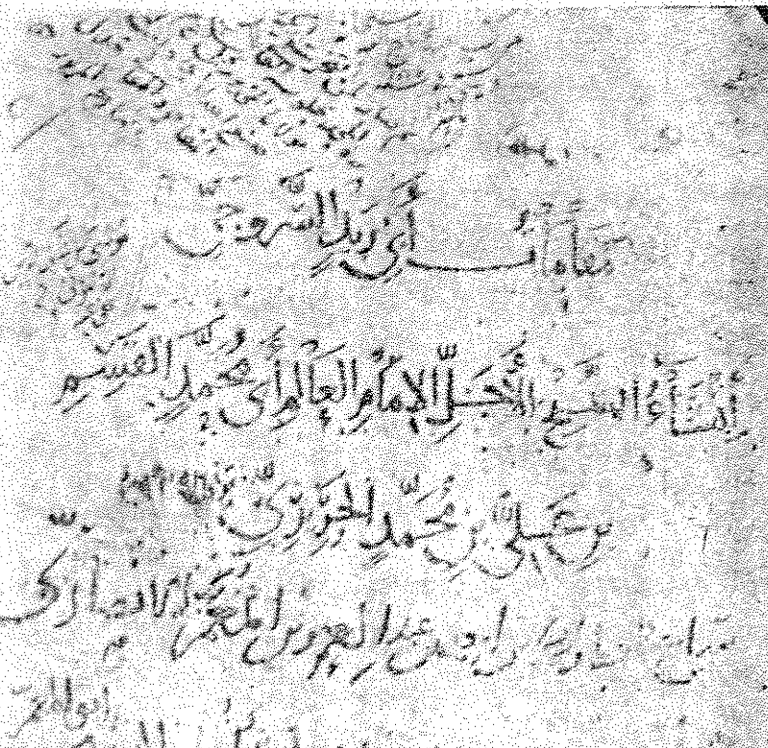
أطلقت لك يا أبا عامر سعيد بن عمرو أن تروى هذا الكتاب عنى، عن أبى، عن بكر الأزدى وسعدان بن مسلم ... وكتب محمد بن عبد الله بن جعفر الحميرى بخطه فى صفر سنة ٣٠٤ هـ .

وفى دار الكتب المصرية توجد نسخة خطية لمقامات الحريرى وقد سُجِّل على هذه النسخة إحدى وعشرون إجازة كتب أولاها مؤلف المقامات نفسه ونصها كالآتى :

سمع على المقامات الخمسين التى أنشأتها الشيخ أبو المعمر المبارك أحمد ابن عبد العزيز الأنصارى أحسن الله توفيقه ، وكتب القاسم بن على بن محمد بمدينة السلام فى شعبان سنة أربع وخمسمائة ، وقد أجزت له رواية جميع مالى من مسموع . (انظر الشكل رقم ١٣) .

وهناك إجازتان أخريان نقلت صورتهما هنا (الشكل رقم ١٤) لإيضاح حقيقة هامة ، هى أن أكثر الإجازات الصادرة عن غير المؤلف كان يذكر فيها الشيوخ الذين يتسلسلون من المؤلف حتى المجيز ، فيقول المجيز : أجزتك بحق سماعى من ... بحق سماعه من .... وهكذا حتى المؤلف .

ومن الحق أن نوضح أن لفظ (سماع) هو اللفظ الاصطلاحى الذى يطلق على الشهادات التى وردت لها بعض النماذج والتى تُمنَح بعد أن يتم الاتصال بين المدرس والطالب فيسمع هذا من ذاك ويُمنَح (سَماعاً) يبيح المدرس فيه للطالب أن يروى عنه ما رواه له .


مقامات أبي زيد السروجي

إنشاء الشيخ الأجل الإمام العالم أبي محمد القاسم

بن علي بن محمد الحريري

شكل رقم (١٣) اجازة علمية بخط الحريري صاحب المقامات



اجازتان علميتان اولاهما بخط عبد اللطيف بن محمد يجيز بها علي النصيري والثانية بخط علي النصيري يجيز بها ستة من تلاميذه. وهاتان الاجازتان تظهران في مخطوط يحوي مقامات الحريري. شكل رقم (١٤)

أما لفظ (الإجازة) فى الاصطلاح فيدل على إذن يُمنح بدون تعليم ، يمنحه شيخ إلى آخر يجيز فيه الأول للثانى رواية أحاديث معينة رواها الأول أو تدريس كتاب ألفه .

وإذا كان السماع جائزاً عند الجميع فإن الإجازة دون تعليم موضع خلاف بين العلماء ، فقد روى بعضهم أن الشافعى لا يجيز الرواية عن طريق الإجازة بدون سماع العلم مباشرة من المدرس ، ولكن أبا العباس الوليد بن بكر تصدّى فى كتابه (الوجازة فى صحة القول بأحكام الإجازة [١]) للرد على ذلك ونسب السهو لمن نقل هذه الدعوى عن الشافعى [٢] .

والإجازة من هذا النوع تدل على المستوى العلمى لمن منحت له كما يدل عليه السماع ، إذ أن الشيوخ ما كانوا يمنحون الإجازة من هذا النوع إلا لمن كان ذا معرفة تهيىء له أن يجيد تدريس الكتاب المجاز به ، أو رواية الأحاديث المأذون له فى روايتها . ويشترط لصحة الإجازة أن يكون الفرع معارَضاً بالأصل حتى كأنه هو، وأن يكون المجيز عالما بما يجيز به، ثقة فى دينه وروايته، معروفاً بالعلم ، وأن يكون المستجيز من أهل العلم، متسماً بسمة حتى لا يوضع العلم إلا عند أهله [٣] .

والإجازة ضروب :

١ — أن يقول الراوى للطالب : خذ هذا الجزء فإنه من حديثى ، وأنا عالم بما فيه من العلم فحدِّث به عنى ، أو استنسخه وقابله وحدث به عنى ، ويسمى هذا الضرب مناولة وهو أعلى مراتب الإجازة [٤] .

---

(١) مخطوط ملك الأستاذ عباس العزاوى ببغداد .

(٢) انظر ظهر الورقة رقم ٤١ ووجه الورقة رقم ٤٢ .

(٣) المرجع السابق رقم ٣٠ ب ، ٣١ أ (٤) المرجع السابق ٣٢،٣٣ ملخص

٢ – أن يكتب الراوى : إلى فلان بن فلان : إنى قد أجزت لك ما سمعه منى فلان أو ما تضمنه الجزء الفلانى وهو شبيه بالمناولة عند ثبوت الخط [١].

٣ – أن يقول الراوى : إنى قد أجزت لك بجميع ما صح عندك ويصح من حديثى . . . . وهذا أخفض مرتبة من الذى كتبت أجازته بشىء مسمى [٢].

وأقدم إجازة معروفة – تبعاً لرأى الشيخ أغا بزرك – هى التى أعطاها سنة ٣١٢ هـ محمد بن محمد بن الأشعث إلى هرون بن موسى العكبرى ليروى الثانى عن الأول أشياء عددها الأول فى كتابه [٣].

وكثيراً ما كان الشيخ يعطى شهادة هى فى الواقع سماع وإجازة ، فإذا جلس طالب أمام شيخ ، وأخذ عنه أحد مؤلفاته فيغلب حينئذ أن يكتب الشيخ يجيز للطالب أن يروى عنه ما سمعه منه وما لم يسمعه من مؤلفات أخرى . فقد كتب السخاوى يجيز أحد تلاميذه أن يروى عنه كتابه (الضوء اللامع) وغيره من الكتب فكان فيما قال :

الحمد لله ، كتاب الضوء اللامع قرأه علىّ كاتبه عبد العزيز بن عمر بن محمد ابن فهد الهاشمى المستغنى بشريف أوصافه عن تكرير التعريف به وبأسلافه ، زاده الله تعالى فضلا وإفضالا ، وأعاذه من المكروه حالا ومآلا ، ورحم أصوله ، وضم شمله بفروعه ، وبلّغه فيهم مأموله ، وأجزت له روايته عنى مع سائر مروياتى ومؤلفاتى قاله وكتبه مؤلفه [٤].

---

(١) المرجع السابق ٢٤ أ

(٢) المرجع السابق ٢٤ ب ، ٢٥ أ

(٣) أغا بزرك : رسالة مشيخة العكبرى مخطوط . والإجازة غير الشهادة التى سبق الكلام عنها

ولبعض العلوم كالطب خطورة عظيمة إذ قد تزهق أرواح الناس بسبب جهل من يعانيه ، ولذلك نجد أنه منذ عهد مبكر اشتُرِط على من يرغب فى الاشتغال بهذه المهنة أن يجتاز امتحاناً وينال شهادة مكتوبة تحدد له الأمراض التى يمكن أن يتصدى لعلاجها . حكى ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة قال : فى سنة ٣١٩ اتصل بالمقتدر أن غلطاً جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل ، فأمر المقتدر ابراهيم بن محمد بمنع سائر المتطببين من التصرف إلا من امتحنه والدى سنان بن ثابت وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له من الصناعة ، فصاروا إلى والدى فامتحنهم وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه [1] .

العقوبات

عقد ابن خلدون فصلا عن الشدة على المتعلمين وأنها مضرة بهم ، أكد فيه أن إرهاف الحد فى التعليم يضر بالمتعلم سيما فى أصاغر الوُلد ، لأن من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين ذهب نشاط نفسه ، ودعاه ذلك إلى الكسل ، وحمله على الكذب ، والتظاهر بغير ما فى ضميره خوفاً من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وربما صارت له هذه عادة وخلقاً فتفسد معانى الإنسانية عنده وتكسل نفسه عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، لأنه تعود أن يكتسب الفضائل خوف القهر والشدة ، فإذا رفع القهر عنه يوما بعُد عن الفضائل وربما سلك طريق الرذيلة [2] .

وقد كان رأى ابن خلدون فى ترك الشدة والقهر فى معاهد العلم رأياً معترفاً به ، غير أن المسلمين فرقوا بين الشدة وبين الضرب الخفيف يلجأ

(١) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ١ : ٢٢٢ .
(٢) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٣٣٩ .

له المعلم عند الضرورة فحرّموا الأول وأباحوا الثانى ، وقد نقل ابن خلدون عن ابن سحنون أنه قال فى كتابه الذى ألـّفه ، فى حكم المعلمين والمتعلمين مانصه : لاينبغى لمعلم الصبيان أن يزيد فى ضربهم إذا دعت الحاجة إليه على ثلاثة أسواط شيئاً [1] .

ولعل مما شجع على جعل العقوبة البدنية سلاحاً فى يد المعلم أن أهل الأطفال وذويهم كانوا كثيراً ما يلجئون للمعلمين يطلبون منهم تأديب أولادهم على أخطاء ارتكبوها فى الخارج ، فكانت مهمة المعلم بذلك ليست محصورة فى تعليم الأطفال وإنما تشمل تقويم سلوكهم ومعاقبتهم إذا وقع منهم مايشين هذا السلوك . كتب شريح القاضى يشكو ولده إلى معلمه :

ترك الصلاة لأكلب يلهو بها ... طلب الهراش مع الغواة الرجّس
فإذا خلوت فقضّه بملامة ... أوعِظْهُ موعظة الأديب الأكيس
وإذا هممت بضربه فبدرّة ... وإذا ضربت بها ثلاثاً فاحبس [2]

وعلى هذا وجدت العقوبات فى الكتاتيب وأصبحت (عصا المعلم) شيئاً لايخلو منها كتّاب قط ، وشاعت عنها عبارة (عصا المعلم من الجنة) ، ومن أجل هذا كان مدرس الطفل يستطيع أن يضربه أكثر مما يستطيع أقرب الناس إليه ، وكانت الأم تقبل أن يضرب المعلمُ ابنها ولكنها ربما تدخلت إن ضربه أبوه ، وذلك لأن عصا المعلم من الجنة ، ولكن عصوات الآخرين ليست كذلك .

---

(١) المقدمة ص ٣٩٩ .

(٢) كال الدين عمر : الدرارى فى الذرارى ص ٣٨ ، الحيوان للجاحظ ٢ : ٨٤–٨٥ ، العقد الفريد لابن عبد ربه ١ : ٣٦٣ ؛ ابن قتيبة ، عيون الأخبار ٢ : ١٦٧ .

وانتشرت بذلك العقوبات البدنية فى كتاتيب الأطفال، حدث إسحاق الموصلى قال : أسلمَ أبى إلى الكتاب فكان لايتعلم شيئاً ، ولا يزال يضرب ويحبس لاينجح ذلك فيه ، فهرب إلى الموصل ، وهناك تعلم الغناء[١].

وقد شاهد الشاعر الخليع أبو نواس عقوبة تنزل بأحد الصبيان بمكتب حفص، وقد صور أبو نواس لنا هذه الحادثة فى القطوعة التالية :

إننى أبصرت شخصاً قد بدا منه صدود
جالساً فوق مصلى وحواليه عبيد
فرمى بالطرف نحوى وهو بالطرف يصيد
ذاك فى مكتب حفص إن حفصا لسعيد
قال حفص : اجلدوه إنه عندى بليد
لم يزل مذ كان فى الدر س عن الدرس يحيد
كُشِفتْ عنه خزوز وعن الخز برود
ثم هالوه بسير لين ما فيه عود[٢]

وكان المعلمون يلجئون إلى عقوبة الضرب والحبس حتى مع الأمراء ، وقد ورد فى وصية الرشيد إلى الأحمر مؤدب الأمين قوله : . . . وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة[٣] .

قال الأحمر : فكنت كثيراً ما أشدد عليه فى التأديب ، وأمنعه الساعات التى يتفرغ فيها للهو واللعب[٤].

---

(١) الأغانى ٥ : ٢٥٧ طبعة دار الكتب . (٢) ديوان أبى نواس ص ٤١٨ .
(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩٩ (٤) البيهقى المحاسن والمساوىء ص ٦١٧ .

وضرب أبو مريم مؤدب الأمين والمأمون الأمينَ بعود فخدش ذراعه ؛ ثم جلس الأمين مع الرشيد إلى الطعام فتعمد أن حسر عن ذراعه ، فرآه الرشيد فسأله ، فقال : ضربنى أبو مريم . فبعث الرشيد إلى أبى مريم وسأله : ما بال محمد يشكوك؟ فقال : غلبنى خبثاً وعرامة . قال الرشيد : اقتله فلأن يموت خير من أن يموق[1] . (الموق : الحمق فى غباوة) .

وكان أبو محمد اليزيدى يؤدب المأمون فأتى يوماً المكان الذى يقابله فيه ، ثم وجه إليه بعض غلمانه ليبلغه بقدومه ليحضر فتأخر فى الحضور ، فوجه إليه ثانياً فتأخر أيضاً ، فلما جاء أمر بحمله وضربه تسع ضربات[2] .

وقد وضع ابن مسكويه نظاماً لتأديب الصبيان وإنزال العقوبة بهم إذا أخطئوا فهو يقول : فالذنب الأول الذى يرتكبه الصبى يعفى عنه ، والثانى يُعاتب عليه عتاباً غير مباشر ، كأن يقال له : إنّ فعل كذا وكذا قبيح ، والثالث يعاتب عتاباً مباشراً ، فإن عاد إلى ذلك ضُرِب ضرباً خفيفاً ، فإذا استعمل المدرس هذه الطرق ولم ينته الصبى فعليه أن يتركه مدة ، ثم يعود إليه بنفس الطرق ، ويروى ابن مسكويه قول الماوردى « إذا استعصى على المدرس قيادة الطفل ودام منه نفور قلبه مع سياسته ومعاناة رياضته تركه ترك راحة ، ثم عاوده بعد الاستراحة »[3] .

وقبل ختام هذا الموضوع ينبغى أن تتضح ثلاث حقائق هامة :

١ — أبيحت العقوبات البدنية للصبيان الذين تجاوزوا العاشرة من أعمارهم ولم يبلغوا مبلغ الشباب : فلا يجوز ضرب الأطفال قبل العاشرة ولا ضرب الطلاب الذين تقدمت أعمارهم[4] .

---

(١) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٣٠

(٢) البيهقى . المحاسن والمساوى، ص ٦١٧ (٣) تهذيب الأخلاق ص ٣٠

(٤) الاهوانى : انظر القضلة لأحوال المتعلمين للقابسى ص ١٣٣ وانظر كذلك رسالة ابن عبدون نشرت فى : Journal Asiatique 1934 p. 214

٢ — يستطيع المعلم أن يلجأ للعقوبة البدنية عند الضرورة القصوى ، ويجب ألا يكثر استعمالها ، وإذا استعملها فيجب ألا يكون متشفياً قاسياً ، بل مؤدباً رحيما [١].

٣ — يكون الضرب بالدِّرَّة ، على أن تكون رطبة مأمونة ، ولا يضرب على الرأس ، ولا على الوجه ، بل يضرب على الأفخاذ وأسافل الرجلين لأن هذه المواضع لايخشى منها مرض ولا غائلة [٢].

الجوائز والمكافآت

هناك رابطة تعوَّد المسلمون أن يلحظوها بين موضوع هذا القسم وموضوع القسم السابق ، فكلاهما يتصل بسلوك التلميذ وتحصيله ، فإذا أساء التلميذ سلوكه أو أهمل واجباته عوقب ، وإذا سما سلوكه أو ظهر تفوقه أجيز وكوفىء ، ومن أجل هذه الرابطة جاء الحديث عن الجوائز والمكافآت عقب الحديث عن العقوبات.

وقد مرّ عن العقوبات أنها كانت متنوعة ، منها الأدبى كالعتاب والتوبيخ ، ومنها المادى كالضرب والسجن ، وكذلك كانت صنوف التقدير منها المدح والتشجيع ، ومنها المكافآت المالية ، وكان من هذه ما يستحقه الطالب نظير تفوق فى مسابقة وتسمى جائزة ، ومنها مايستحقه نظير تفوق بدون مسابقة ويسمى مكافأة ، وإن كان أغلب الكتاب يتحررون من ملاحظة وجه الخلاف بين اللفظين فيضعون كلا منهما فى موضع الآخر فى كثير من الأحايين .

قال ابن مسكويه [٣] : ويمدح الصبى بكل ما يظهر منه من خلق جميل وفعل

---

(١) انظر رسالة الأدب فى الدين للغزالى ص ٤٣ من الجواهر الغوالى .

(٢) العبدرى : المدخل ٢ : ٣١٧ نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٠٤ . ومعالم القربة فى طلب الحسبة ص ١٧١ .

(٣) تهذيب الأخلاق ص ٢٠.

حسن ويكرّم عليه . وقال الغزالى[1] : ويمدح الصبى المتأدب ، ومهما ظهر منه من خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن يكرّم عليه، ويجازى بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس .

وقد استجاب الناس لهذا الاتجاه فكرموا أدبياً وكافئوا ماديا كل من برّز من التلاميذ وأظهر تفوقاً ونبوغا ، وكان من مظاهر التكريم الأدبى أن يحمل الصبى على حصان أو بعير ، وقد ارتدى أزهى ملابسه ، ويحيط به إخوانه وأقرانه ويسير ذلك الموكب فى الشوارع العامة بالمدينة ، ويطل الناس من النوافذ والشرفات لتحية الموكب وتكريم الصبى النابه ، وكثيراً مايلقون على الصبى وموكبه البندق والجوز وأمثالها من الأشياء ، ويروى أبو الفرج الأصفهانى[2] أن على بن جبلة لما نشأ أسلم فى الكتاب فحذق بعض ما يحذقه الصبيان فحمل على دابة ونثر عليه اللوز[3] .

وأما عن المكافآت والجوائز المالية فقد كانت منتشرة جداً ، وكثيراً ما كان مؤسسو المدارس يجعلون لها حصيلة خاصة فى أوقافهم على المدارس ، فقد جاء فى كتاب وقف الملك الأشرف على مدرسته بدمشق مايلى : « ويجعل لكل من المشتغلين ثمانية دراهم ، ومن زاد اشتغاله زاده ، ومن نقص نقصه . ويجعل لكل من السامعين أربعة أو ثلاثة ، ومن ترجح منهم زاده ، ومن كان فيه نباهة جاز إلحاقه بالثمانية ، ومن حفظ منهم كتاباً من كتب الحديث فللشيخ أن يخصه بجائزة[4] .

(١) إحياء علوم الدين ٣ : ٥٨

(٢) الأغانى جـ ١٨ ص ١٠١

(٣) أخبرنى الدكتور سارجنت المدرس بجامعة لندن أن هـذا التقليد لايزال معمولا به فى حضرموت .

(٤) كتاب وقف الملك الأشرف مخطوط ملك الأستاذ صلاح الدين المنجد بدمشق .

ويذكر المقريزى[1] أن الخليفة الظاهر أمر الدعاة أن يحفّظوا الناس كتاب دعائم الإسلام ومختصر الوزير ، وجعل لمن حفظ ذلك مالا .

وكان الملك المعظم يحفظ المفصل للزمخشرى ، وقد جعل لمن يحفظه مائة دينار ، ولمن يحفظ الجامع الكبير مائتى دينار ، ولمن يحفظ الإيضاح ثلاثين ديناراً سوى الخلع[2] .

ملابس المدرسين

كانت ملابس الرسول صلى الله عليه وسلم هى الملابس التى يحتذيها الخلفاء والفقهاء والولاة حتى قيام الدولة الأموية ، وكانت ملابسه عليه السلام سهلة يسيرة تتكون فى الغالب من إزار وسراويل وقميص وعباءة وعمامة وخفين ، وكان اللون الأبيض أحب الألوان للرسول[3] .

فلما قامت الدولة الأموية بدأ خلفاؤها والعظماء فيها يقلدون لباس الدول التى خضعت للإسلام وبخاصة دولة الروم ، إذ كانت عاصمتهم «دمشق» قد قامت فى قلب دولة الروم ، يضاف إلى هذا عدم حرص الأمويين على أن يظلوا تابعين فى مظاهر حياتهم لدولة الخلفاء الراشدين ، كل ذلك حدا بالأمويين أن يغيروا حياتهم ويتطوروا فى مساكنهم وطعامهم ولباسهم ، وقد حذا حذو الخلفاء علماء الدولة وفقهاؤها ، غير أن تطور الأمويين لم يكن عميقاً كل العمق ، إذ اهتموا بالمحافظة على عروبتهم على أية حال .

فلما قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس قفزت إلى بلاط الخلفاء كل النظم الفارسية أو أغلبها ، وظهر الزى الفارسى فى قصور الخلفاء وقصور

---

(١) الخطط : ١ : ٣٥٥ (٢) النعيمى . الدارس ١ : ٥٨٤

(٣) انظر صحيح البخارى ٨ : ٤٩٦ — ٥٠٤

العظماء ، وكان المنصور أول من خرج على العمامة التقليدية واختار للرأس زياً فارسياً قلده فى ذلك أتباعه [١] .

وظهرت السراويل الفارسية الواسعة، والقميص ، وكانت مع القفطان والجبة أو العباءة مغطاة بالطيلسان تكوّن زى الطبقة الممتازة فى الدولة . وقد جمع الشاعر أبو قابوس الحِيرى هذه الأنواع فى مقطوعته التالية التى بعث بها إلى جعفر بن يحيى يستجديه مجموعة كاملة من الملابس يلبسها فى العيد .

فلا بد لى من جبة من جبابكم ومن طيلسان من جياد الطيالس
ومن ثوب قوهى وثوب غلالة ولا بأس لو أتبعت ذاك بخامس
إذا تمت الأثواب فى العيد خمسة كفتك فلم تحتج إلى لبس سادس [٢]

وكان العلماء ، وبخاصة أولئك الذين كانوا يشغلون بعض مناصب الدولة ، يلبسون هذا الزى الذى ارتضاه الخليفة وارتداه ، وظل العلماء كذلك حتى عهد الرشيد، ثم اتخذوا لهم زياً خاصاً بهم ، قال ابن خلكان [٣] : كان أبو يوسف أول من غير لبس العلماء إلى هذه الهيئة التى هم عليها فى هذا الزمان ، وكان ملبس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لا يتميز أحد عن أحد بلبسه . وكان ما اقترحه أبو يوسف لتمييز هذه الطائفة هو عمامة سوداء وطيلسان أو طيلس [٤] .

ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الزى ضرورياً للمدرسين والفقهاء ، حتى أن الصاحب بن عباد لما أراد أن يحدّث وهو وزير دخل فخلع لباس الوزراء ولبس لباس العلماء قبل أن يجلس إلى سامعيه [٥] .

---

(١) Hitti : History of the Arabs p. 294

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢١٠ . (٣) وفيات الأعيان ٢ : ٤٥٠

(٤) انظر المخصص لابن سيده ٤ : ٧٨ ؛ وابن خلكان ٢ : ٤٥٠ والأغانى ٥ : ١٠٩ ، ٦ : ٥٩ والمقدسى : أحسن التقاسيم ص ٣٢٨ .

(٥) ياقوت : معجم الأدباء ٢ : ٣١٢ .

وكان العلماء يرخون طرف العمامة بين الكتفين قدر شبر أو أطول قليلا ، كما كانوا يستعملون الطيلسان المربع ويضعونه فوق العمامة ويسدل على الأكتاف[1].

وأوجد الفاطميون خزانة الكسوة التى كان يخرج منها أكسية لجميع الأمراء وكبار الدولة وقد تنوعت هنا الأكسيات بتنوع طبقات الناس ، وكانت كسوة رجال التعليم مذهّبةً ، تتكون من ست قطع أهمها القلنسوة والطيلسان[2] ، وأصبحت الخضرة شعار الفاطميين بدل السواد الذى كان رمز العباسيين، ومن هنا لبس رجال العلم فى هذا العهد عمامة خضراء[3].

ويذكر القلقشندى تفاصيل مفيدة عن زى القضاة والعلماء منذ عهد الأيوبيين فيقول إنهم يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق سرجه إذا ركب ، ومنهم من يجعل عوض الذؤابة الطيلسان الفائق ، ويلبس فوق ثيابه دلقاً (جبة) متسع الأكمام طويلها مفتوحاً من الأمام سابلا على قدميه ، أو يلبس بدل الدلق فرجية مفرجة من أعلاها إلى أسفلها مزرّرة بالأزرار ، وليس فيهم من يلبس الحرير ولا ماغلب فيه الحرير ، ولباسهم أبيض اللون ولا يلبسون الملون إلا فى بيوتهم[4].

أما ملابس العلماء والمدرسين فى الأندلس فقد اختلفت عن تلك التى كانت متبعة فى الشرق فى شىء هام هو العمامة ، والسبب فى هذا الاختلاف

---

(١) فى اللبس ، مخطوطة مجهولة المؤلف ٤٩ب ، ٥٣أ، ب .
(٢) الخطط ١ : ٤٠٩ — ٤١٣ و ٢ : ٢٧٠ .
(٣) العينى : عقد الجمان ١٢ : ١٩٢ مخطوط .
(٤) صبح الأعشى ٤ : ٤١ — ٤٢ .

هو كما يقول فى المقرى[1] أن مسلمى الأندلس قلدوا جيرانهم من الفرنجة فى الملابس وأدوات الحرب . ويوضح سيد أميرعلى [2] نقلا عن أحد الكتاب المعاصرين أن العلماء والمدرسين فى بلنسية وغيرها من المقاطعات والمدن الشرقية تركوا لبس العامة واستعملوا بدلها نوعاً آخر من غطاء الرأس هو بالقبعة أشبه (Caps) كما أن بعضهم تركوا لبس العامة ولم يتخذوا لها بديلا بل كانوا يظهرون أمام الناس ويحضرون مجلس السلطان ورءوسهم عارية ، ويؤكد ابن سعيد الكاتب الأندلسى المعاصر لابن هود أن ابن هود لم يلبس قط عمامة ولم يلبسها كذلك ابن الأحمر ، أما فى المقاطعات والمدن الغربية كقرطبة وأشبيلية فإن القضاة والفقهاء كانوا يلبسون عمائم ولكنها أصغر كثيراً من تلك التى كانت مستعملة فى الشرق .

وكما تأثر المسلمون فى الأندلس بمجاوريهم من الفرنجة فتركوا العمامة أو جعلوها صغيرة فإن العكس صحيح إلى حد كبير ؛ إذ أن زىّ العلماء والمدرسين المسلمين قد وجد طريقه إلى أعظم جامعات أوروبا ، وهو حتى العهد الحاضر الزى الرسمى للطلاب والمدرسين بعد أن دخل عليه شىء من التحوير ليلائم أمزجة القوم وظروفهم هناك .وليس الـ« Gown »والـ« Hood »والـ« Cap » إلا أمثلة محرفة قليلا للجبة والطيلسان والعمامة فالـ « Gown » قريب الشبه بالجبة ، فضفاض مفتوح من الأمام يلبس فوق الملابس والـ « Hood » قريب الشبه بالطيلسان يحيط طرفاه بالرقبة وينحدر إلى الخلف وبه بعض الألوان الزاهية أما الـ « Cap » فهى طربوش تحال من الشال غير أنه أسود اللون ويرف فيه الزر كالحال مع الطربوش سواء بسواء .

---

(1) نفح الطيب ١ : ١٠٥

(2) A Short History of the Saracens P. 571.

ولو أن بعض طلاب الأزهر أو شيوخه وحدوا زيهم فلبسوا جميعاً الجبب واختاروا لها اللون الأسود لحلتهم فوجاً من طلاب جامعة كيمبردج وهم يغادرون قاعة محاضرات أو يدخلونها .

وكان جمال الزى وأناقته وتهذيب الشعر من المستحسنات ، فقد كان الرسول يلبس جبة رومية ضيقة الكمين ، وكان يحرص على النظافة ، فقد روى عنه أنه رأى رجلا عليه ثياب وسخة ، فقال : أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه ؟ ورأى رجلا شعثاً قد تفرق شعره فقال : أما كان يجد هذا ما يسكن به شعره ؟ وإذا كان هذا فى الرجل العادى فهو للمدرس أولى ، لأنه قدوة ، ولأن أنظار التلاميذ تتجه له وترنو إليه ، فيجب أن تقع على شىء مستحسن محمود . وقد اشتهر بعض العلماء بالأناقة فقد كان الإمام مالك يلبس الرقيق ، ويجلس على الوطىء ، ويأكل الرقاق ، فلما كتب له يحيى بن يزيد بذلك فى صيغة العتاب أجابه مالك قائلا : وصل كتابك فوقع منى موقع النصيحة ، وأما ما ذكرت فنحن نفعل ، علم الله ذلك ، ونتلو قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق[1] » .

نقابة المعلمين

تدل النصوص الصريحة التى سجلتها المصادر العربية على أن المسلمين فى العصور الوسطى عرفوا النقابات ، وأن هـذه النقابات شملت عندهم كثيراً من المنظمات ، فياقوت الحموى[2] يتحدث عن المرتضى أبى القاسم نقيب الطالبيين الذى أسندت إليه مراعاة دار العلم التى أنشأها سابور بن أردشير ، ويتحدث

(١) كتاب التعليم والإرشاد لبعض رجال الصوفيه ص ٤٢٩ — الآية رقم ٣٢ من سورة الأعراف .

(٢) معجم الأدباء ٦ . ٣٥٩

المقريزى[1] عن الزى الذى كان يصنع بخزانة الكسوات فى العهد الفاطمى ليرتديه نقيب الأشراف .

ويذكر عبد الرحمن بن الجوزى[2] أن السيد أبا نصر جمع وجوه الناس سنة ٤٦٢ ليقرأ بحضورهم وقفية نظام الملك على مدارسه ، وكان من الوجوه الذين حضروا النقيبان والأشراف وقاضى القضاة .

وهكذا وجدت النقابات وانتشرت حتى أصبح للكناسين نقابة ترعى شئونهم وتدافع عن حقوقهم . ونريد الآن أن نصل إلى المعلمين فهم الذين يهموننا هنا وأن نتساءل . هل كان لهم نقابة؟ الإجابة عندى بالإيجاب فما كانت طائفة المعلمين بأقل من هذه الطوائف وبخاصة أن المعلمين كانوا يكونون طبقة العلماء والفضلاء وكان لهؤلاء من النفوذ فى الدولة مكان كبير فلا بد أن منظمة قامت تضم جماعتهم وتنظم مهمتهم ، على أن هذا الاستنباط ليس هو كل ماعندنا من مادة عن ذلك الموضوع ، بل إن عندنا نصوصاً قوية لاتتحدث فقط عن نقابة المعلمين ونقباء المعلمين وإنما تتحدث عن نفوذ هؤلاء النقباء ، ذلك النفوذ الذى كان أحيانا يرجح نفوذ الخلفاء وفيما يلى طائفة من هذه النصوص :

حكى ياقوت[3] قال : وقع للخطيب البغدادى جزء من سماع الخليفة القائم بأمر الله ، فحمل الخطيب الجزء ومضى إلى باب حجرة الخليفة ، وسأل أن يؤذن له فى قراءة الجزء . فقال الخليفة : هذا رجل كبير فى الحديث ، فليس له إلى السماع منى حاجة ، ولعل له حاجة أراد أن يتوصل إليها بذلك فسلوه ماحاجته . فسئل فقال : حاجتى أن يؤذن لى أن أملى بجامع المنصور ، فتقدم الخليفة إلى نقيب النقباء بأن يؤذن له .

(١) الخطط ١ : ٤١١ (٢) المنتظم ٨ : ٢٥٦
(٣) معجم الأدباء ١ : ٢٤٦ — ٢٤٧

ومن هـذا يتضح أنه كان هناك نقباء ونقيب نقباء وأنه ما كان الخليفة أن يتخطى أو يتطاول على هذه الجماعة فيأذن لأحد بالتدريس دون استشارة ذوى الشأن فيها ، فإذا تخطى ذلك فإن أمر النقيب يرجح ويكون أجدر بالتنفيذ ؛ روى المقريزى[١] أن أبا طالب على بن عبد السميع العباسى استقر فى خطابة جامع راشدة بإذن قاضى القضاة (هو هنا نقيب النقباء[٢]) ، فتوصل ابن عصفورة إلى أن خرج له أمر أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله أن يخطب بنفس المسجد ، ثم استقر الرأى على أن تترك الخطابة لأبى طالب على أن يخلفه ابن عصفورة .

ويتحدث المقريزى[٣] أيضاً عن داعى الدعاة فى العهد الفاطمى فيقول : إنه يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه فى اللباس وغيره ، وهو عالم بجميع مذاهب أهل البيت ، يأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم ، وبين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيباً .

ويروى أبو شامة مايفيد أن جماعة المدرسين هم الذين كانوا يختارون النقيب وأن السلطان ما كان يتدخل إلا إذا وقع خلاف بين الأعضاء ، على أن تدخله كان للتوفيق والإصلاح لا للأمر واستعمال النفوذ ، قال أبو شامة[٤] : قال مقلد الدولعى : لما مات الحافظ المرادى ، وكنا جماعة الفقهاء قسمين : العرب والأكراد ، فمنا من مال إلى المذهب وأردنا أن نستدعى الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون ، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف وأراد أن يستدعى القطب النيسابورى ، فوقعت فتنة بين الفقهاء بسبب ذلك فسمع نور الدين بها ، فاستدعى جماعة الفقهاء ، وخرج لهم مجد

(١) الخطط ٢ : ٢٨٢ .

(٢) كثيراً ماتولى قاضى القضاة منصب داعى الدعاة ، وداعى الدعاة هو نقيب النقباء ، أما النقباء فهم الخيرة من المعلمين كما سيرد فى النص التالى .

(٣) الخطط ١ : ٣٩١ .　　(٤) الروضتين ١ : ١٣ .

الدين ابن الداية نائباً عنه وقال لهم : ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع ، وهـذا الذى جرى بينكم لا يحسن ولا يليق ، وقد قال المولى نُرْضِى الطائفتين ونستدعى الشيخين، فاستدعيا وولى شرف الدين المدرسة التى سميت باسمه وولى قطب الدين مدرسة النغرى .

تلك هى أهم النصوص التى تتحدث عن نقابة المعلمين ، وهى تعطى فكرة عن أن هذه المنظمة وُجدت عند المسلمين فى ذلك العهد الباكر ، وإن كنا نعترف بأنها بطبيعة الحال لم تكن من النضج والنظام فى الدرجة الفائقة ، ولكن يكفى أن يتضح أنه بين ظلام القرون الوسطى كان للمعلمين نقابة لها هذا السلطان وذلك النفوذ ، وقد أطراها وأعجب بها Earst Dies فى مقاله القيم بدائرة المعارف الإسلامية تحت عنوان مسجد .

الباب الرابع

التلاميذ



الإسلام والتعليم

برهن الطالب المسلم – كما سيبدو من هذا الفصل – على حماسة منقطعة النظير فى طلب العلم ، وكان فى هذا حديد العزم ، قوى الإرادة ، فذلل العقبات التى قامت فى سبيله ، وتغلب على الصعوبات التى اعترضته ، ولم يكن الطريق إلى طلب العلم ممهدا ، ولا كانت الحياة ميسرة سهلة ، ولكن الطالب المسلم لم يكترث بالشوك ، ولم يبال بالمخاطر ، وألقى بنفسه ليصل إلى هدفه دون تردد أو فتور .

ما الدافع القوى الذى كان يدفعه ؟ وما هذه القوة الجبارة التى كانت تعمل عملها من وراء ستار فتحيل الصعب سهلا والعسير يسيرا ؟

إنها فيما يبدو لى آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول عليه السلام ، ثم الأمثال والأقوال التى تنسب إلى حكماء المسلمين وقادتهم .

لقد سمع الطالب المسلم هذه وتلك تطرى العلم وتحث على طلبه ، فوطد العزم على أن ينفر ليتفقه فى الدين لينذر قومه إذا رجع إليهم ، وليرفع الله درجته مع الذين أوتوا العلم ، وكانت الآيات والأحاديث تتردد على لسان الطالب وتغمر قلبه ، فتتغلب على ماقد يعتوره من تردد ، أو يطوف به من خور ، وتجدد عزمه ، وتزكى همته .

من أجل هذا كان لا بد أن يفتتح هذا الفصل بطائفة من هذه الآيات والأحاديث والأمثال ، تلك التى أعتقد أنها لعبت دوراً هاماً فى حياة التعليم فى العالم الإسلامى :

من آيات القرآن الكريم :

— يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات[١] .

— هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون[٢] .

— فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم[٣] .

— وقل : رب زدنى علما[٤] .

— فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون[٥] .

من أحاديث الرسول :

— غدوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة[٦] .

— من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين[٧] .

— العلماء ورثة الأنبياء .

— أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد .

— يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء .

— أفضل الناس المؤمن العالم .

— لموت قبيلة أيسر من موت عالم .

— اطلبوا العلم ولو بالصين[٨] .

— لا خير فيمن كان من أمتى ليس بعالم ولا متعلم .

— الناس عالم ومتعلم والباقى همج[٩] .

---

(١) سورة المجادلة الآية ١١ . (٢) سورة الزمر الآية ٩ .
(٣) سورة التوبة الآية ١٢٢ . (٤) سورة طه الآية ١١٤ .
(٥) سورة النحل الآية ٤٢ . (٦) أساس الاقتباس ظهر الورقة رقم ١١ مخطوط
(٧) البخارى ١ : ٢٨ . (٨) الغزالى : الإحياء ١ : ٥ .
(٩) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٢٦ .

من آثار الحكماء :

قال علي بن أبي طالب لكميل : يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق[١] .

وقال أيضاً : كل يوم لا أزداد فيه علماً فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم ، وليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك[٢] .

وقال الأحنف : كل عز لم يؤيد بعلم فإلى ذل يصير[٣] .

وقال الزبير بن أبي بكر : كتب لي أبي بالعراق : عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالا ، وإن استغنيت كان لك جمالا .

وقال ابن عبد الحكم : كنت عند مالك أقرأ عليه العلم ، فدخل الظهر ، فجمعت الكتب لأصلي فقال : ياهذا ما الذي قمت إليه بأفضل مما أنت فيه .

وقال بعض العلماء : ليت شعري ، أي شيء أدرك من فاته العلم ، وأي شيء أضاع من أدرك العلم .

وقيل لبعض الحكماء : أي شيء تقتني ؟ قال : الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت معك ، يعني العلم[٤] .

وقال ابن المقفع : العلم زين لصاحبه في الرخاء ومنجاة له في الشدة[٥] .

وسئل عبدالله بن المبارك : لو أن الله أوصى إليك : تموت العشية ، فماذا تصنع اليوم ؟ فقال : أقوم وأطلب العلم[٦] .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٢٦٥ ، ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٢٠ .
(٢) ابن الحاج : الألف باللأبا ٩ أ مخطوط .
(٣) الأصفهاني : محاضرات الادباء ١ : ١٦ .
(٤) الغزالي الأحياء ١ : ٦ — ٧ .
(٥) الأدب الصغير ص٢٢ من رسائل البلغاء . (٦) منهاج المتعلم ٥ أ مخطوط

رياضة الأطفال
فى نظر بعض الفلاسفة المسلمين

إن تربية الأطفال فى الإسلام لا تقف عند تعليمهم ، وإنما تمتد إلى تربية خلقهم ، وبث الصفاء فى نفوسهم ، وتنظيم العادات الطيبة فيهم ، وترسم الطريق لتكوين الإنسان الناجح الصالح، الذى ينفع دينه ووطنه ونفسه ، وفيما يلى مختارات من أقوال مشاهير المربين عن سياسة تربية الأطفال ورياضتهم :

الغزالى :

الطريق فى رياضة الأطفال من أهم الأمور وأوكدها ، والصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش عليه ، ومائل إلى كل ما يمال به إليه ، فإن عُوِّد الخير وعُلِّمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة ، وشاركه فى ثوابه أبواه وكلُّ معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأُهمل شقى وهلك ، وكان الوزر فى رَقَبة القيم عليه والوالى له ، وعلى الوالى أن يصون الصبى عن الآثام بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء ولا يعوِّده التنعم ، ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية، فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر .

وينبغى أن يتذكر الوالى أن تربية الصبيان ليست مقصورة على تعليمهم ، وإنما تشمل ألوانا أخرى لا تقل أهمية عن التعليم ؛ فيجب أن يراقبه الوالى من أول أمره ، فلا يستعمل فى حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة ، تأكل الحلال ... وينبغى أن يحسن مراقبته ، وأن يقوى فيه خلق الحياء عند ظهوره فيه ؛ وأن يعلمه الطريق المستقيم فى تناول الطعام والمشاركة فيه ؛ فعليه أن يأكل مما يليه ، وألا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، وألا يحدق

النظر إليه ، ولا إلى من يأكل ، وألا يسرع فى الأكل ، وأن يجيد المضغ ، وألا يوالى بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، ويقبّح عنده كثرة الأكل ، ويحبب إليه الإيثار بالطعام ، وقلة المبالاة به ، والقناعة بالطعام الخشن أحيانا .

ويحفظ الصبى عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة ، وكذلك الصبيان الذين ساءت أخلاقهم .

ويُرْسل إلى المكتب مبكرًا ، فيتعلم القرآن ، وأحاديث الأخيار ، وحكايات الأبرار ، وأحوالهم ، لينغرس فى نفسه حب الصالحين ، ويُحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذر الفساد . ثم مهما ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن يكرَّم عليه ويجازى بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك فى بعض الأحوال مرة واحدة فينبغى أن يُتغافل عنه ، ولا يُهتك ستره ، ولا سيما إذا ستره الصبى واجتهد فى إخفائه ، ولا يُكثر أهله عليه قول العتاب فى كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة .

ولا يوبخه الأب إلا أحياناً ، والأم تخوّفه بالأب وتزجره عن القبائح .

ويمنع عن النوم نهاراً فإنه يورث الكسل ، ولا يمنع منه ليلا ، ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يعود التنعم ، وحتى يصبر على الخشونة فى المفرش والمطعم والملبس .

ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل .

ويمنع أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والده أو بشىء مما يملكه

هو كالملابس وأدوات الكتابة ، بل يعوّد التواضع والإكرام لكل من عاشره، والتلطف فى الكلام معهم ، ويُمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً ، وإن كان غنياً يعلّم أن الرفعة فى الاعطاء لا فى الأخذ ، وإن الأخذ لوم وخسة، وإن كان فقيراً يعلم القناعة وأن الطمع والأخذ مهانة وذلة .

ويعود ألا يبصق فى مجلسه ولا يمتخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده ، فإن ذلك دليل الكسل بل يعلّم كيفية الجلوس ، ويُمنع كثرة الكلام ، ويُمنع اليمينَ صادقاً كان أو كاذباً لغير ضرورة ، ويعلم حسن الاستماع وبخاصة إذا تكلم من هو أكبر منه سناً ، وأن يقوم لمن فوقه، ويوسع له المكان ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ، ومن مخالطة من يجرى على لسانه ذلك ، وإذا ضربه المعلم فعليه ألا يكثر الصراخ والشغب ، ولا يستشفع بأحد بل يصبر دأبَ الرجال الشجعان .

وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلا يستريح إليه من تعب المكتب ، بحيث لا يتعب فى اللعب ، فإن منع الصبي عن اللعب وإرهاقه بالعلم يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش[1] .

ابن سينا :

يجب أن تكون العناية مصروفة إلى مراعاة أخلاق الصبي ، وذلك بأن يحفظ كيلا يعرض له غضب شديد أو خوف شديد أو غم أو سهر ، وذلك بأن يُتأمل كل وقت ما الذى يشتهيه ويحنّ إليه فيقرّب إليه ، وما الذى يكرهه فينحى عن وجهه ، لا استجابة لأمره ولكن تيسيراً للحياة عليه ، وفى ذلك منفعتان :

---

(١) إحياء علوم الدين ٣ : ٥٧ — ٥٩ .

إحداها لنفسه والثانية لبدنه ؛ إذ ينشأ من طفولته حسن الأخلاق تبعاً لحسن مزاجه ، فالأخلاق الحسنة تابعة لصفاء المزاج ، والأخلاق الردية تابعة لسوء المزاج، وحسن الأخلاق يحفظ الصحة للنفس والبدن جميعاً .

وإذا انتبه الصبي من نومه فالأحرى أن يستحم ثم يخلى بينه وبين اللعب ساعة ، ثم يُطْعَم شيئاً يسيراً ثم يطلق له اللعب وقتاً أطول ثم يستحم ثم يُغذّى... وإذا بلغ ست سنوات فيجب أن يقدّم إلى المؤدب والمعلم ، ويدرّج أيضاً في ذلك، فلا يحمل على ملازمة الكتاب كرّة واحدة ، وبتقدُّم السن يُنقص من إجمامهم ويُزاد في تعبهم[1] .

من كتاب منهاج المتعلم[2] :

وعلى الأب أن يؤدب ابنه ويسلمه إلى معلم ، فإن لم يؤدبه ، أو لم يجلسه بين يدى المعلم ظهر الانحراف فى جميع أعضائه وبخاصة فى لسانه .

تكافؤ الفرص فى التعليم

يستطيع الإنسان أن يقرر دون تردد ولا هوى أن فرص التعليم فى العالم الإسلامى كانت مكفولة للغنى والفقير على حد سواء ، وأن الفقر لم يقف عائقاً أمام الراغب فى العلم أو الساعى لارتشاف المعرفة .

لقد بدأ التعليم الإسلامى فى المسجد ، ولا نزاع أن المسجد كان مفتوحا للناس جميعاً ، وكانت حلقاته معدة لاستقبال الطلاب لتعليمهم بالمجان دون قيد أو شرط، وكان من نظام حلقة الدراسة أن يترك بها مكان ليجلس فيه أولئك الذين يحبون أن ينضموا حديثاً للحلقة للاستماع والاستفادة .

---

(١) القانون ج ١ ص ٧٩ (٢) مخطوط مجهول المؤلف ظهر الورقة رقم ٩

وكان على المدرس — على ما سبق ذكره — ألا يكون فى مجلسه مكان مميز لآحاد الناس ، بل أن يكون الجميع عنده سواء ، ومن سبق من الطلاب إلى موضع من المكان المخصص لهم جلس فيه[١] ، وليست المسألة مسألة الجلوس فحسب ، وإنما كان على المدرس أن يعامل الفقير معاملة الغنى ، فقد ورد فى الحديث الشريف مايحتم أن يكون المتعلمون أمام المعلم على حد واحد لا فرق بين غنى وفقير[٢]

وروى ياقوت[٣] أن محمد بن أحمد بن كيسان (٢٩٩ هـ) كانت له حلقة كبيرة بالمسجد ، وكان يجتمع على باب ذلك المسجد نحو مائة رأس من الدواب للرؤساء والكتاب والأشراف والأعيان الذين قصدوه ، وكان إقباله على صاحب الرقعة الممزقة ، والعباءة الخلق ، والطِّمْر البالى ، كإقباله على صاحب القصب ، والوشى ، والديباج ، والمركب والحاشية الغاشية .

وإذا كان هذا موقف المدرسين فإنه كان على الطلاب أن يقفوا موقفاً مماثلا ، وأن يدركوا أنهم أمام المعلم وفى حلقات العلم سواسية لا فرق بين غنى وفقير ، وشريف وسوقة ، بل الفضل للمهذب الجدّ أياً كان عنصره أو نصيبه من الثراء ، وقد سبق أن أوردنا[٤] حكاية بعض أولاد الخليفة المهدى الذى كان يحضر مجلس شريك ، ثم استند إلى الحائط وسأل عن حديث فلم يلتفت إليه شريك ، ثم عاد يسأل ولكن شريكاظل يهمله، فقال الأمير : تستخف بأولاد الخلفاء ؟ قال شريك: لا ، ولكن العلم أجل عند أهله من أن يضيعوه. وذكرنا كذلك[٥] عن عالم بنى أيوب وقاضيهم المعظم عيسى ملك دمشق وفلسطين أنه كان ينزل من قصره فى قلعة دمشق ، يتأبط كتابه كالطلبة ، فيأتى دار أستاذه الكندى فى درب العجمى فى

---

(١) انظر العبدرى : المدخل ١ : ١٩٩ . (٢) محاضرات الأدباء ١ : ٣٠

(٣) معجم الادباء ٦ : ٢٨٢ (٤، ٥) عند الكلام عن المستوى الاجتماعى للمدرسين

جيرون ، وربما تأخر الدرسُ الذي يتقدم درسه فينتظر إلى أن تأتى نوبته .

وكانت توجه عناية خاصة للطلاب الموهوبين الذين تبدو عليهم مخايل الذكاء والفطنة ، وكان يُعدُّ من الظلم أن يحرم طالب نابغ من تلقى العلم لأى سبب من الأسباب ، ذكر الغزالى[1] أنه ليس الظلم فى إعطاء العلم لغير المستحق بأقل من الظلم فى منع المستحق . وكانت عناية المدرسين بتلاميذهم الفقراء تصل بهم إلى حد الإنفاق عليهم من مالهم الخاص ، حكى الإمام أبو يوسف قال : كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقلّ رثُّ الحال ، فجاءنى أبى يوماً وأنا عند أبى حنيفة ، فانصرفت معه ، فقال : يابنى لا تمدَّ رجلك مع أبى حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مشوى وأنت تحتاج إلى المعاش ، فقصَّرت عن كثير من الطلب ، وآثرت طاعة أبى ، فتفقدنى أبو حنيفة رضى الله عنه ، وسأل عنى فعدت إلى مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى عنه قال لى : ما شغلك عنا ؟ قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدى . فجلست فلما انصرف الناس دفع إلىَّ صُرَّة وقال : استمتع بها ، فنظرت فاذا فيها مائة درهم ، وقال لى : الزم الحلقة وإذا فرغت هذه فأعلمنى ، فلزمت الحلقة ، فلما مضت مدة يسيرة دفع إلىَّ مائة أخرى ، ثم كان يتعهدنى حتى استغنيت وتمولت[2] .

ولم يكن المدرسون فقط هم الذين اتجهوا برعايتهم للطلاب الفقراء بل حظى هؤلاء بنصيب موفور من أوقاف الأغنياء على الطلاب ، وكان لهذا كله أثر بيِّن فى حالة التعليم فى العالم الإسلامى إذ ظهرت من بين المسلمين

---

(١) الإحياء ١ : ٤٧ .

(٢) ابن خلكان ٢ : ٤٠١ وحكى أن والد أبى يوسف مات وأبو يوسف طفل صغير ، وأن أمه هى التى أنكرت عليه حضور مجلس أبى حنيفة .

جمهرة ضخمة من العلماء الأفذاذ الذين ينتمون إلى طبقة الـكادحين الفقراء من الشعب . ومن هؤلاء :

— أبو تمام الطائى الشاعر الذائع الصيت الذى كان سقاء متواضعاً فى جامع عمرو بن العاص[(١)] .

— الجاحظ الذى كان يبيع الخبز والسمك بسيحان ، ثم مهدت له الحياة الإسلامية أن يتلقى ثقافته العالية حتى أصبح فى القمة بين العلماء ، وأصبح معلم الجيل والأجيال التالية[(٢)] .

— الإمام الشافعى وقد كان ينشأ فى حجر أمه وكانت أمه فقيرة لاتستطيع أن تمده حتى بالورق والأقلام ، ولـكنه التحق بالمسجد وسمع من العلماء، ثم انضم إلى الإمام مالك الذى أضفى عليه من رعايته ودبر أمره ، وبهذا استطاع أن يشق طريقه حتى أصبح أحد الأئمة الأربعة الأعلام فى الفقه الإسلامى وصاحب المذهب المشهور[(٣)] .

ولما أنشئت المدارس فى العالم الإسلامى كانت فرصة الفقير لتلقى العلم أوضح وأدق وأشمل ، فلقد أدرك منشئو المدارس الإسلامية أن كثيراً من النابهين فى العلم والمعرفة ينبعون من أسر فقيرة، مضيق عليها فى الرزق ، وأن مظاهر الغنى والترف تشغل الطلاب الأغنياء فى الغالب عن العلم والفراغ له والتعمق فيه ، ولا يشغل الطالب الفقير شىء إذا كفل له رزق يسير وحياة لا يشوبها العوز ، بل إن مثل هذا الطالب ربما حثه الفقر على أن يكمل بالعلم ما بدا فيه من نقص ، ويعوض ما فقده من الجاه والحسب . ومن أجل هذا عنى منشئو المدارس عناية كبيرة بتيسير الحياة للفقراء

(١) ابن خلكان ١ : ٢٢ (٢) معجم الأدباء ٦ : ٣٦٩

(٣) المرجع السابق ٦ : ٥٦ —

من الطلاب حتى يتيحوا لهم الفرصة كاملة لتلقى العلم فى هدوء بال ، واطمئنان نفس ، وكان نظام الملك فاتحة هؤلاء فأعلن أن التعليم بمدارسه حق للجميع ، وأنه يُعطَى للناس جميعاً دون مقابل ، ثم زاد على المجانية الشاملة أن عيّن مرتباً منتظماً للطلاب الموزين[١] ؛ ففى نظامية بغداد مثلا كان الذين يُغَذَّون بالمعارف ٦٠٠٠ تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة وابن أفقر الصناع فيها ، وكلهم يتعلمون بالمجان وللطالب الفقير فوق ذلك معلوم يتقاضاه من الريع المخصص لذلك[٢].

ومن الطلاب الذين انتفعوا بهذا الامتياز الرائع الإمام أبو حامد الغزالى وأخوه أحمد ، فلقد ورد فى ترجمة الإمام الغزالى أن أباه مات وتركه وترك أخاه فى رعاية صديق له متصوف وأوصاه أن يتولى الإشراف على تعليمهما ، ففعل الصوفى حتى نفد المال الذى خلفه لهما أبوهما وتعذر على الصوفى القيام بنفقتهما فقال لهما : اعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من أهل الفقر ليس لى مال فأواسيكما به ، وأصْلَحُ ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة لطلب العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما مع تحصيل العلم ، ففعلا ذلك ، وكان ذلك هو السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما[٣] .

وسار نور الدين سيرة نظام الملك فبنى كثيراً من المدارس فى دمشق وأوقف عليها الوقوف السخية التى تضمن للطلاب والمدرسين حياة هنيئة وعيشاً كريماً . ويمدح ابن جبير هذا الاتجاه فى البلاد الشرقية كلها وبخاصة دمشق ، ويهتف بالطلاب المغاربة أن يرحلوا للمشرق لتلقى العلم ؛ استمع

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٣ : ١٣٧

(٢) محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص ٩٨ .

(٣) ترجمة حياة الغزالى فى أول الجزء الأول من الإحياء .

إليه يقول : وتكثر الأوقاف على طلاب العلم فى البلاد الشرقية كلها وبخاصة دمشق ، فمن شاء الفلاح من نشء مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد فيجد الأمور المُعينات كثيرة وأولها فراغ البال من أمر المعيشة(١) .

فإذا وصلنا إلى مصر وجدنا فيضاً من العناية وموفوراً من الاهتمام بالطلاب وتيسير حياتهم واسمع إلى Stanley Lane Poole (٢) يتحدث عن الأزهر فيقول : « وفى الأزهر يجتمع جمهرة من الطلاب ، قدموا من البلاد المختلفة فى العالم الإسلامى ، ابتداء من الساحل الذهبى حتى جزر الملايو ، وقد حُدِّد رواق خاص لكل قطر من الأقطار ، ويتلقى الطلاب دروسهم من شيوخ أجلاء ورعين . . . وليس التعليم بالمجان فحسب ، بل إن الطلاب يتلقون جرايات وأطعمة من أوقاف معينة تسد حاجاتهم . فالأزهر مثال نموذجى لمجانية التعليم ، تلك المجانية الممنوحة لجميع الطلاب على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم من غير أى تمييز لعنصر أو طبقة من الطلاب »(٣) .

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٨٥ .

(٢) The story of Cairo p. 124

(٣) لقد كان الأزهر كذلك منذ ألف عام ولا يزال كذلك حتى اليوم ، ولا تزال جموع الطلاب تؤمه من كل حدب وقطر ، فتنال العلم والعون المالى ، وكثيراً ما استقبل الأزهر طلابا شعثا معوزين ، لم يكن لهم لفقرهم ملجأ على سواه ، فكان لهم كالأب البار والأم الرؤوم يرباهم وعلمهم ، وفيه بدأت عبقرياتهم تبرز وأخلاقهم القويمة تلمع ، ثم ألقى بهم الأزهر إلى المجتمعات حيث أخذوا أمتهم وأصبحوا فيها قادة ومصلحين

ومع هذا الثناء على الأزهر والإجلال له فمن حقه علينا ومن حق البلاد الإسلامية التى تعد الأزهر جامعتها الاولى ، أن نقرر أن تعديلا سريعاً وشاملا ينبغى أن يدخل على مناهج الازهر معاهده وكلياته ، وأن روحاً جديدة يجب أن تدب فيه ، وأن تيارات متعددة يتحتم أن تنحى عنه ، ليؤدى الازهر رسالته الكبرى ، على أن صيحة الإصلاح هذه يجب أن يهتف بها شباب الأزهر ، وما أجدر هؤلاء الشباب بصيحات الإصلاح !

وفى العهد الأيوبى كان كل تلميذ بمصر يلقى مسكناً يأوى إليه ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعلمه وإجراء يقوم به فى جميع أحواله[١].

وعلى هذا استطاع الفقراء أن يشقوا طريقهم إلى المجد العلمى وأن يتزودوا بالمعرفة فى مختلف الفنون دون صعوبة أو مشقة، فنشأ فى مصر مئات من العلماء ذوى الشهرة البعيدة والصيت الذائع، الذين ينتمون إلى أصل لا مجد له، والذين نبتوا فى بيئة فقيرة ضيقة ذات اليد، ومن هؤلاء على بن رضوان الطبيب المصرى الشهير الذى مات سنة ٤٦٠ هـ بعد أن نبغ فى الطب والفلسفة والمنطق وصار رئيس الأطباء فى مصر فى عهده، ومن هؤلاء أيضاً الفقيه المشهور نجم الدين الخبوشانى المتوفى سنة ٥٨٧ هـ.

وقبل أن نختم هذا الموضوع يجدر بنا أن نشير إلى أن إتاحة الفرصة لم تكن مكفولة فقط فى المدارس والمساجد، وإنما كانت مكفولة أيضاً فى الكتاتيب حتى يستطيع الصبى اليتيم أو الفقير أن يسير منذ مطلع حياته فى طريق معبّد لا يقف الفقر عقبة أمامه، ولا يحول العوز دون النبوغ والعبقرية، وانتشرت هذه الكتاتيب المجانية فى نواح مختلفة من العالم الإسلامى، وفيما يلى ذكر عنها:

بكّرت الكتاتيب المجانية فى الظهور فى العالم الإسلامى، فقد ذكر الجهشيارى[٢] أن يحيى بن خالد أنشأ الكتاتيب للأيتام، ولما انتشرت المدارس انتشرت معها الكتاتيب لتعد الطلاب للالتحاق بهذه المدارس: فقد ذكر عماد الدين الأصفهانى[٣] أنه لما تولى عزيز الدين أبو نصر أحمد بن حامد منصب الاستيفاء فى عهد وزارة شمس الملك بن نظام الملك بنى بمحلة العتابين ببغداد مكتباً للأيتام، ووقف عليه وقوفاً مستمرة الجدوى على الدوام،

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٤٢. (٢) الوزراء والكتاب ص ٢١٢.
(٣) تاريخ آل سلجوق ١٣٦ — ١٣٧.

والأيتام مكفولون منها إلى أن يبلغوا الحلم ، بالنفقة والكسوة والطعام ، وتعلم الآداب وحفظ القرآن ومعرفة الحلال والحرام .

وبنى نور الدين فى كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى تعليمهم الجرايات الوافرة[١] . وفى عهد صلاح الدين كان للأيتام من الصبيان فى دمشق محضرة كبيرة بالبلد ولها وقف كبير يأخذ منه المعلم ما يقوم به ، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم[٢] .

أما فى مصر فيذكر ابن جبير[٣] أن من مآثر صلاح الدين الكريمة أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل ، يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة ، وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم ، كما أوقف القاضى الفاضل أوقافاً لتعليم الأيتام بالكتاب[٤] .

وهكذا كان تكافؤ الفرص فى العالم الإسلامى مرعيا فى جميع مراحل التعليم ، ولم يكن الفقر قط سبب حرمان من العلم ، فلقد تغلب عليه القوم بما بذلوا للموهوبين والأذكياء .

توجيه التلاميذ على حسب مواهبهم

عرف المسلمون فى العصور الوسطى فكرة توجيه التلاميذ على حسب مواهبهم ، وكانت عملية التوجيه هذه تبدأ بعد أن يجتاز التلميذ المرحلة الأولى للتعليم ، وقد ذكر حاجى خليفة[٥] وأبو يحيى الأنصارى[٦] أن على كل صبى أن يعرف طرفا من العلوم الضرورية فى الحياة كالقراءة والكتابة

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ١٦٥ — ١٦٦ مخطوط .

(٢) ابن جبير ص ٢٧٢ . (٣) المصدر السابق ص ٥٢ .

(٤) المقريزى : الخطط ٢ : ٣٦٩ ، النعيمى ١ . ٩٢ ، الروضتين ٢ : ٢٤١ .

(٥) كشف الظنون ١ : ٢٩ . — (٦) اللؤلؤ النظيم فى روم التعليم ص ٥ .

والحساب .... ثم عليه بعد ذلك أن يتجه إلى العلم أو الحرفة على حسب استعداده وتكوينه ، إذ ليس كل أحد يصلح لتعلّم العلوم ، فإذا اتجه إلى العلم فليقصد العلم الذى يقبله طبعه ، فما كل من يصلح لتعلم العلوم يصلح لجميعها .

وينبغى للطالب كما يقول الزرنوجى[١] ألا يختار نوع العلم بنفسه ، بل يفوض أمره إلى الأستاذ ، فإن الأستاذ قد حصل له من التجارب فى ذلك ما يفيد ، فهو أعرف بما ينبغى لكل واحد وما يليق بطبيعته . أما المدرس فكان عليه أن يتصفح طلابه كما يتصفح خُطّابَ حُرَمِه كما ذكر ذلك الأصفهانى[٢] وألا يدع إلى حلقته إلا من كان قادراً على استيعاب ما يجرى فيها ، فليست كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مواتية ، لكن ما شاكل طبعه وناسبه[٣] .

وفى منهاج المتعلم[٤] حديث طريف عن اختبارات الذكاء يقرر أنه يجب على المعلم أن يشخص طبيعة المبتدىء من الذكاوة والغباوة ، ويعلّمه على مقدار وسعه ولا يكلف الزيادة عن مقداره ، فإنه إذا كلف يئس عن تحصيل العلم ويتبع الهوى ويُشكِلِ تعليمُه .

وقد وضح تفاوت الذكاء لدى المربين المسلمين ، وعبّر عنه الإمام الغزالى[٥] بقوله : « وإذا غلبت القوة البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم وطول المدة ، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحس يستغنى الطالب بقليل التفكر عن كثرة التعلم » وعلى هذا فإن من واجب المدرس

---

(١) تعليم المتعلم طريق التعلم ص ١٣ (٢) محاضرات الأدباء ١ : ٢٥ .
(٣) ابن سينا : القانون ١ : ٢٧
(٤) من مخطوط غير معروف المؤلف وجدته بحلب وتوجد صورته بمكتبتى الخاصة ، ظهر الورقة رقم ٩ . (٥) الرسالة اللدنية ص ٢٣ .

«ألا يشرك الذكى مع الغبى فى التلقى فهو تقصير فى الذكى وإرهاق للغبى»[1].

أما طرق اختبارات الذكاء التى كانوا يستعملونها فلم يذكر لنا المؤرخون والكتاب تفصيلا دقيقاً عنها فيما أعرف ، وكل ما ورد إلينا عنها أن المربين كانوا يعتمدون على التجربة ، فهم يعلّمون الطفل ثم يحكمون عليه بمقدار النتيجة التى يستطيع أن يحصل عليها ، كما كانوا يختبرون ذاكرة التلميذ ليروا ما إذا كان يميل إلى الحفظ ، أو التعمق والتفكير ، فان كانت الأولى فليدرس علم الحديث مثلا ، وإن كان الثانية فليدرس الفلسفة والمناظرة وعلوم الجدل والكلام .

فإذا وُجّه التلميذ أو التحق بحلقة دون توجيه ، ورأى المدرّس فى هذه الحالة أو تلك أن التلميذ ينبغى له أن يفارق هذه الحلقة إلى سواها ، فإن المدرس ما كان يتردد فى إبلاغ التلميذ هذه النتيجة ، وينصحه بأن يغيّر الموضوع الذى شغل نفسه به ، ويدرس موضوعاً آخر . قال ابن جماعة[2] : وإذا علم أن تلميذاً لا يفلح فى فنّ أشار عليه بتركه والانتقال إلى غيره مما يرجى فيه فلاحه ، روى أن يونس بن حبيب كان يختلف إلى الخليل بن أحمد يتعلم منه العروض ، فصعب عليه تعلُّمه ، فقال له الخليل يوما : من أى بحر قول الشاعر :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

ففطن يونس لما عناه الخليل ، فترك العروض وأخذ يتعلم النحو ، وقواعد اللغة حتى أصبح فى ذلك إماماً وعالماً شهيراً[3] .

وقد بدأ محمد بن اسماعيل البخارى يتعلم الفقه على محمد بن الحسن

---

(١) منهاج المتعلم ٩ ب . (٢) تذكرة السامع ص ٥٧ .
(٣) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ص ٢٥ .

فقال له محمد بن الحسن : اذهب فتعلم علم الحديث ، لما رأى أن ذلك العلم أليق بطبعه ، فطلب البخاريّ علم الحديث فصار فيه مقدماً(١)

سن التعلم

روى عن الرسول (ص) أنه قال « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد »(٢) وعلى هذا فلم تكن هناك سن محدودة لطلب العلم ، بل كان كل مسلم يدرك أن من واجبه أن يطلب العلم ما أتيح له ذلك في أي فترة من فترات عمره ، حتى ولو كان شيخاً تقدمت به السن ، قيل لأبي عمرو بن العلاء : حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ قال : ما دامت الحياة يحسن أن يتعلم(٣) . وقيل لحكيم : ما حدُّ التعلُّم ؟ فقال : حد الحياة(٤) ويروى الزرنوجي(٥) أنه ليس لصحيح البدن والعقل عذر في ترك طلب العلم مهما كان عمره . ويروى ابن قتيبه(٦) أنه « لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل » .

وفي ضوء هذه الأفكار نجد أن أصحاب رسول الله قد تعلموا في كبر سنهم كما يروى البخاري ذلك(٧) ، ونجد كذلك حرص بعض العلماء على أن يحققوا ما تشككوا فيه من مسائل العلم وهم على فراش الموت(٨) .

فالنتيجة لكل هذا أن العمر كله يجب أن يكون مسرحاً لتلقى العلم ، غير أن المربين المسلمين يدركون بوضوح أن التبكير في تلقى العلم له كبير الفائدة وعظيم الجدوى لنشاط الجسم ، وصفاء النفس ، وفراغ البال . قال حاجي خليفة(٩) : إن من شرائط تحصيل العلم أن يكون الطالب شاباً ،

---

(١) الزرنوجي : تعليم المتعلم ص ١٣
(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون ١ : ١٣ (٣) ابن خلكان : الوفيات ١ : ٥٥١
(٤) الأصفهاني : محاضرات الادباء ١ : ٢٦ (٥) تعليم المتعلم ص ٢٥
(٦) عيون الأخبار ٢ : ١١٨ (٧) صحيح البخاري ١ : ٣٠
(٨) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٣٠٩ (٩) كشف الظنون ١ : ٢٨

فارغ القلب ، غير ملتفت إلى الدنيا ، قليل العوائق حتى من الأهل والأولاد والوطن ، ويقول ابن جماعة : وعلى الشخص أن يغتنم وقت فراغه ونشاطه ، وزمن عافيته ، وشرخ شبابه ، ونباهة خاطره ، وقلة شواغله ، قبل عوارض البطالة ، أو موانع الرياسة[١] ، ويستحب للطالب أن يكون عزَباً ما أمكنه لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجية وطلب المعيشة عن إكمال الطلب[٢] ، وعليه أن يبادر شبابه وأوقات عمره إلى التحصيل ، ولا يغترّ بخدع التسويف والتأميل ، فإن كل ساعة تمضى من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها ، ويقطع الطالب ما قدر عليه من العلائق الشاغلة ، والعوائق المانعة عن تمام الطلب وبذل الاجتهاد وقوة الجد فى التحصيل ، فإنها كقواطع الطريق ، ولذلك استحبّ السلفُ التغرب عن الأهل والبعد عن الوطن لأن الفكرة إذا توزعت قصرت عن درك الحقائق وغموض الدقائق ، ويقال : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك[٣] ويروى الأصفهانى[٤] قول بعضهم : بادروا بتعليم الأطفال قبل تراكم الأشغال ، وإنه وإن كان الكبير أوفد عقلا إلا أنه أشغل قلبا .

وقد ترددتْ هذه النصائح فى العالم الإسلامى ، فاستمع لها الناس واستجابوا إليها ، وحرص الآباء على أن يلحقوا أبناءهم بحلقات العلم وهم فى سن مبكرة ، كما حرص الصبيان أنفسهم ، بل تنافسوا فيما بينهم فى الجلوس المبكر أمام المدرسين للاستماع إليهم ، والانتفاع بهم ، حتى أن بعض المحدثين كان لا يقبل فى مجلسه من لم يكن ملتحيا ، ورُوَى أن صبياً كان شديد الرغبة فى سماع الحديث، ومُنِعَ ذلك ، فاتخذ لنفسه لحية مصطنعة[٥] .

---

(١) تذكرة السامع ص ١٢٤ (٢) المرجع السابق ص ٧٢
(٣) تذكرة السامع ٧٠ — ٧١ (٤) محاضرات الأدباء ١ : ٢٦
(٥) آدم متز : الحضارة الإسلامية ١ : ٣٠٣ من الترجمة العربية .

وكان من نتيجة إقبال الطلاب على حلقات التعليم وهم فى سن مبكرة أن حذقوا قسطاً كبيراً من العلوم ، ووصلوا إلى مراكز علمية مرموقة وهم فى مطلع الشباب ، ومقتبل العمر ، وتدل النتائج التى حصل عليها كثير من التلاميذ على أنهم بذلوا جهداً كبيراً يدعو إلى الدهشة والإعجاب . قال قتادة : حفظت القرآن فى سبعة أشهر(١) . وقد أتم سهل بن عبد الله التسترى حفظ القرآن وعمره ست أو سبع سنوات(٢) ، وأكمل تاج الدين الكندى القراءات العشر وله عشرة أعوام(٣) ، ويروى عمر بن أحمد بن العديم أنه ذهب إلى المكتب وعمره سبع سنوات وختم القرآن وله تسع سنين وقرأ بالعشر وله عشر سنين(٤) .

وكان الإمام الشافعى يحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، ويحفظ الموطأ وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وكان يقال له وهو ابن خمس عشرة سنة : أفتِ يا أبا عبد الله فقد والله آن لك أن تفتى ، وكان سفيان بن عيينة إذا جاءه شىء من الفتيا أو التفسير التفت إلى الشافعى وقال : سلوا هذا الغلام(٥) . ولما بلغ ابن سينا عشر سنين كان قد أتقن حفظ القرآن وحفظ أشياء من الأدب ومن أصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة(٦) .

عدد التلاميذ فى الفصل أو الحلقة

من المبادىء التربوية التى يعنى بها المربون المحدثون أن يهيئوا للصبى فرصة ليجتمع بأترابه من الصبيان ، يتحدث إليهم ويسمع منهم ، ويعدون ذلك ضرورياً لتنشئة الصبى تنشئة صالحة ، وتربية الصبى مع الصبيان وسيلة

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٢٦٧
(٢) الغزالى : الإحياء ٣ : ٥٩ (٣) النعيمى : الدارس ١ : ٤٨٣–٤٨٤ .
(٤) ياقوت : معجم الأدباء ٦ ، ٢٦
(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٦٣٢ (٦) المرجع السابق ١ : ٢١٤

لنجاح الصبي وأدعى لإقباله وحبه للدرس من أن يحاط بالرجال الذين يكبرونه فى السن وفى التفكير وفى الآمال. ومما يدعو للفخر والإعجاب أن المسلمين أدركوا هذا الاتجاه وصاغه فيلسوفهم ابن سينا أحسن صياغة فها هو ذا يقول: « ويكون مع الصبي فى مكتبه صبيةٌ حسنة آدابهم، مرضيةٌ عاداتهم، لأن الصبى عن الصبى ألقن، وهو عنه آخذ، وبه آنس[١] ». وعلى هذا كان الخلفاء لا يكتفون باستدعاء المربين لأولادهم فى القصور، بل كانوا مع هذا يرسلون الأولاد لينضموا للحلقات وليستمعوا مع لداتهم إلى الدروس، ثم يتلقون من المؤدب فى القصر لوناً آخر من الدرس يؤهلهم إلى المستقبل الذى ينتظرهم، وقدمت نماذج كثيرة لأولاد الخلفاء والعظماء الذين كانوا يسعون للانضمام للحلقة وللاستماع مع الأتراب إلى المحاضرات.

وإذا عدنا إلى هذه الحقبة التى نعنى بدراستها لنشاهد مجموعات الطلاب الذين يجلسون أمام شيوخهم لاحظنا أن عدد هؤلاء الطلاب يختلف اختلافاً بيناً فى المسجد عنه فى المدرسة، ومع أن عدد الطلاب فى المسجد كان يكثر فى حلقة عنه فى أخرى تبعاً لشهرة الشيخ وتعمقه فى مادته فإن عدد طلاب الحلقة فى المسجد كان على العموم أكثر من عددهم فى المدرسة، إذ كان المسجد مفتوحاً للجميع، وكان عدد طلاب الحلقة فيه غير محدود، ومن هنا كانت حلقات المشاهير من الشيوخ تشمل مئات من الطلاب، روى القزوينى[٢] أنه كان فى حلقة درس رضى الدين النيشابورى أربعمائة فقيه من الفضلاء. وكان يحضر مجلس أبى الطيب الصعلوكى مفتى نيشابور أكثر من خمسمائة طالب علم[٣]، وكان أبو حامد الاسفرائينى

---

(١) ابن سينا: القانون ١: ٧٩ — ٨٠

(٢) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٣١٧

(٣) السبكى: طبقات الشافعية الكبرى ٣: ١٧٠

يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد ، وكان يحضر مجلسه ما بين ثلاثمائة وسبعمائة طالب[١] . وفى مصر كان محمد بن سليمان النعالى إمام المالكية فى عصره ، وكانت إليه الرحلة والإمامة بمصر ، وكانت حلقته فى الجامع تدور على سبعة عشر عمودا من كثرة من يحضرها[٢] .

فإذا تركنا المسجد وذهبنا إلى المدرسة وجدنا أمام المدرس عددا معيناً من الطلاب لا يصح تجاوزه فى الغالب ، ثم إن هذا العدد قليل جدا بالقياس إلى عدد الطلاب فى حلقات المساجد ، وكان مما جرت عليه العادة فى المدارس أن يعين منشىء المدرسة مدرسا لها ، ويحدد فى الوقت نفسه عدد الطلاب الذين يسمح لهم بالالتحاق بها ، ولعل أكبر عدد سمح له بالالتحاق بمدرسة هو ذلك الذى كان موجودا بالمدرسة المستنصرية ، فتبعا لرواية ابن العبرى[٣] جعل المستنصر بمدرسته إيوانا لكل مذهب من المذاهب الأربعة ، ورتب لكل إيوان مدرساً ، وعين له خمسة وسبعين طالبا ليتعلموا منه . أما فى دمشق ومصر فكان العدد يقف تقريباً عند العشرين ، فقد مر عند الحديث عن وقف مدرسة ست الشام الجوانية أن سجل الواقف يشترط ألا يزيد عدد الطلاب عن عشرين طالباً بما فيهم المعيد ، وذلك بخلاف المدرس والمؤذن والقيم ، إلا أن يوجد فى ارتفاع الوقف نماء وزيادة وسعة فللناظر أن يقدر بقدر ما زاد ونما[٤] وفى المدرسة المجدية الخليلية بمصر قرر الواقف مدرسا شافعيا ومعيدين وعشرين طالباً[٥] .

تلك كانت النظم فى المدارس غير أن هـذه النظم لم تستطع البقاء فى

---

(١) المرجع السابق ٣ : ٢٥ (٢) السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٢١٢

(٣) تاريخ مختصر الدول ص ٤٢٥ (٤) النعيمى : الدارس ١ : ٣٠٣

(٥) المقريزى : الخطط ٢ : ٤٠٠

وللعب أنواع كثيرة منها ما يدعو إلى كثرة الحركة كلعب الكرة والجرى ، ومنها ما يدعو إلى قليلها كاللعب بالأشياء والحيوانات ، ومهما كان نوعها يجب على الآباء والأمهات أو المدرسين والمدرسات أن يلاحظوا أطفالهم وقت لعبهم ، وأن يرشدوهم كيف يلعبون لتمرينهم على النظام ، وأن يلعبوا معهم أحياناً لينتهزوا فرصة اللعب معهم فيربوا عقولهم ويعلّموهم [١] .

وكما جعل النوم للراحة ، جعلت اليقظة للحركة والعمل ، واللعب للأطفال هو جزء من العمل ، والأطفال مطبوعون عليه بالفطرة ، وهو يبعث فى الأطفال نشاطاً فى أجسامهم وقوة فى عقولهم ، ولذة فى حياتهم ، مادام سائراً على محور النظام والترتيب ، ومناسباً لعمر الطفل وقواه العقلية [٢] .

ويقول الغزالى [٣] : ينبغى أن يُؤذن للطفل بعد الانصراف من المكتب أن يلعب لعبا جميلا يستريح من تعب المكتب ، ومنعُ الصبى من اللعب ، وإرهاقه بالتعلم دائما ، يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأساً [٤] ويقول ابن مسكويه [٥] : وينبغى أن يؤذن للطفل فى بعض الأوقات أن يلعب لعبا جميلا ليستريح إليه من تعب الأدب ، ولا يكون فى لعبه ألم ولا تعب شديد ، فالرياضة تحفظ الصحة وتنفى الكسل وتطرد البلادة وتبعث النشاط وتذكى النفس .

وقد اتبعت المعاهد التعليمية الإسلامية نظما مفيدة ، ورياضة منظمة ، للترويح عن التلاميذ وتجديد إقبالهم على العلم ، فكان التلاميذ يمنحون أجازة يوم الجمعة ونصف يوم الخميس من كل أسبوع ، كما كانوا يمنحون إجازات أخرى

(١ ، ٢) كتاب الإرشاد والتعليم ص ٤١ ه (٣) الأحياء ٣ : ٥٩

(٤) انظر أيضاً العبدرى ، المدخل ٣ : ٣١٢ (٥) تهذيب الأخلاق ص ٢٠

ولم يُجز المسلمون أن يُرهق الإنسان قواه الجسمانية أو يضعف من احتمالها من أجل عبادة يسرف فيها ، أو حرمان مما أحلّ للناس ، فيحكى البخارى[١] أن الرسول صلى الله عليه وسلم شاهد رجلا يكثر الصلاة ويصوم ولا يفطر فأمره بعدم الإسراف فى العبادة وقال له : « إن لبدنك عليك حقا » .

وقد اتبعت هذه المبادىء فى المعاهد التعليمية ، وأدرك المربون المسلمون أن الجسم المجهد أو المريض لا يساعد العقل على الفهم ، وأوصى الأصفهانى[٢] بترفيه النفس فى طلب العلم محذراً الطالب من مواصلة الدرس والجهد دون أن يتخلل ذلك راحة ورياضة ، فهذا الجهد المتواصل ستكون نتيجته الفشل ، ويستشهد الأصفهانى بقوله صلى الله عليه وسلم أن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . ويضيف الأصفهانى أن على الطالب أن يواصل الدرس مانشط عقله وفطن ، فإذا أحس فى عقله فتورا فليتوقف عن العمل، وليجأ إلى اللعب ، فإن العقل المكدود ليس لرويته لقاح ولا لرأيه نجاح .

وكان المربون المسلمون يدركون أن من طبيعة الطفل أن يكون نشيطاً كثير الحركة ، وكانوا يغذون فيه هذه الطبيعة لعلمهم أن فى نشاط الجسم يقظة العقل وصفاء الذهن ، وبالتالى كانوا يرون أن من غير الطبيعى أن يكون الطفل هادئاً ساكناً ويرجعون سكونه إلى مرض أصابه أو بأس نزل به ، سأل أبو القاسم عبد الله بن محمد أحد علماء المغرب معيقب بن أبى الأزهر : ما حال صبيانكم فى الكتاب ؟ فأجاب معيقب : ولع كثير

---

(١) صحيح البخارى ٣ : ٤٨٩

(٢) محاضرات الأدباء ١ : ٢٨

باللعب . فقال أبو القاسم : إن لم يكونوا كذلك فعلق عليهم التمائم (١) .

وقد حفل كتاب الإرشاد والتعليم بنصائح هامة فى ذلك الموضوع نقتبس بعضها فيما يلى :

ومن العجب أن يفرح الناس بالأطفال القليلى الحركة البعيدين عن اللعب ، ويعتبروهم عقلاء متزنين ، ويتوسموا فيهم الخير ، ولم يعلموا أن الأطفال الذين طبعوا على السكون وعدم الحركة لابد أن يكونوا مصابين بأمراض جسمية أو عقلية ، بحيث ينتهى أمرهم إلى ضعف الحياة وكدر المعيشة إذا لم يؤخذوا من الصغر بالرياضة والحركة وتنبيه أجسامهم . ولذلك يجب أن يترك التلاميذ بل أن يرشدوا إلى اللعب والجرى والأعمال المساعدة على نمو أجسامهم ، لتطيب لهم لذة العيش ويفرحوا بالحياة . وتنمو أجسامهم ويتربى إحساسهم (٢) .

ومن الضرورى تعويد الجسم على الرياضة ، واستنشاق الهواء النقى ، والحركات المعتدلة من نحو المشى ، أو ركوب الخيل ، أو السباحة ، أو نحو ذلك ، فإن ذلك من أقوى الدواعى على تقوية الجسم ، ومتى قوى الجسم قويت الروح ، وعظم الأمل ، وانبعثت المسرة للعمل (٣) ..

فعلى القائمين على تربية الطفل سواء أكانوا فى المدرسة أو فى المنزل أن يجعلوا للأطفال نصيباً من اللعب والرياضة ، خصوصاً فى أواسط النهار ، وبعد انصرافهم وحضورهم إلى المنزل . ومتى آنسوا منهم ضعفاً فى الجسم ، أو مللا فى القوى العقلية ، طالبوهم بالرياضة والتفسح فى الهواء الجيد (٤) .

---

(١) انظر مقالا نشر بمجلة المعلم الجديد السنة التاسعة العدد الرابع ص ٢٥

(٢) كتاب الإرشاد والتعليم ص ٥٣٩ — (٣) المرجع السابق ص ٣٥٩

(٤) المرجع السابق ص ٥٤٠

بعض الأحيان أمام الرغبة الجامحة التى أبداها الطلاب للاستماع لمدرس ما عين للتدريس بمدرسة . يحكى السبكى[١] أن حلقة إمام الحرمين فى المدرسة النظامية بنيشابور كانت تضم ثلثمائة طالب .

ويجدر بنا أن نذكر أن التعليم فى مرحلته العليا هو الذى كان يباح فيه هذا العدد الضخم من الطلاب ليجلسوا أمام المدرسين ،أما المرحلة الأولى (الـكتّاب) فقد كان على المدرس فيها أن يعلم عدداً محدوداً من الصبيان فإنما كثر التلاميذ فى كتابه عين من المدرسين عدداً يتناسب مع عدد التلاميذ بحيث يكون لـكل فقيه عدد قليل من الصبيان ، قال ابن عبدون[٢] ويجب للمؤدب ألا يكثر من الصبيان ويمنعون من ذلك . . فإنه لن يستطيع أن يعلمهم شيئاً على ماينبغى .

وإذا كان لنا أن ندون هنا ملحوظة قصيرة فهى أن هذا النظام ـ وهو إباحة عدد كبير من الطلاب فى المرحلة العليا وتحديد العدد فى المرحلة الأولى ـ هو الذى يتبعه المربون فى العهد الحاضر ، فالمدرس الجامعى يلقى محاضراته إلى عدد قد يصل إلى بضع مئات ، فى حين يشكو مدرسو التعليم الابتدائى إذا تجاوز العدد فى فصولهم بضع عشرات .

العقل والجسم

أدرك المسلمون فى عصورهم الأولى أن هناك صلة وثيقة بين الجسم والعقل ، وقد عبروا عن هذه الصلة بالحكمة القائلة « العقل السليم فى الجسم السليم » ومن أجل هذا عنوا بالجسم ، وخففوا عنه الأعباء ، ليستطيع أن يحمل النفس الـكبيرة ، ويساعد العقل على الدرس والتدريس ، والتعلم والتعليم .

(١) طبقات الشافعية ٢ : ٢٥٢

(٢) رسالة ابن عبدون نشرت فى 1934 ' The Jounral Astietique

فى مناسبات مختلفة وأهمها إجازة عيد الفطر وعيد الأضحى ، وهذه تمتد إلى أسبوع فى الغالب .

وكان هناك تمرينات رياضية يمارسها التلاميذ ، وقد نصح عمر بن الخطاب أن يعلم التلاميذ السباحة ورمى السهام وركوب الخيل[١] كما كان الجرى أيضاً من أنواع الرياضة التى مارسها التلاميذ المسلمون[٢] ، وقد ذكرنا ذلك فيما سبق .

آخلاق التلاميذ وواجباتهم

عنى كثير من المربين المسلمين بالكتابة عن أخلاق التلاميذ وواجباتهم ، ومن المؤلفين من خصص لهذا الموضوع حيزاً كبيراً فى كتبه ومباحثه ، وسنقتبس من المصادر المتعددة موجزاً نورده فيما يلى :

على الطالب أن يكون طاهر النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات ، فطهارة النفس وحسن الأخلاق أساس للنبوغ فى العلم ، وربما حصل ردىء الأخلاق على العلم غير أنه لن ينتفع ولن ينفع به ولذلك فكأنه لم يحصّله[٣] .

وعلى الطالب أن يقلل من علائقه بالدنيا ، ويبعد عن الأهل والوطن حتى لا يشغله ذلك عن تحصيل العلوم كما سبق[٤] ، وألا ينوى بطلب العلم إقبال الناس ، ولا استجلاب حطام الدنيا ، أو الكرامة عند السلطان ، قال رسول الله (ص) « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولتماروا به السفهاء ، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم » بل يكون المقصود إزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال[٥] .

---

(١) المبرد : الكامل ص ١٥٠ (٢) كتاب الإرشاد والتعليم ص ٤٥٠

(٣) الغزالى : الإحياء ١ : ٤٠ ، العبدرى : المدخل ٢ : ٩٨

(٤) الاحياء ١ : ٤١ (٥) الزرنوجى : تعليم المتعلم ٦ — ٧ ، الإحياء للغزالى ١ : ٤٨

وعليه أن يتواضع لمعلمه . وأن يجله ويحترمه ، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق ، ملاحظاً أن حق المعلم أعظم من حق الوالدين ، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية ، وقد قيل : الآباء ثلاثة : أب ولدك ، وأب رباك ، وأب علمك وخير الآباء من علمك[1] . وقد استجاب الطلاب المسلمون لهذه النصائح فأحلوا المعلمين منهم فى مكان رافع ، قال الشافعى : كنت أقلب الورق بين يدى مالك تقليباً رفيقاً هيبة أن يسمع وقعه . وقال الربيع : والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعى ينظر إلىّ هيبةً منه[2] . ويعدد الزرنوجى بعض الآداب التى يجب على الطالب أن يلاحظها مع أستاذه فيقول : يجب ألا يمشى الطالب أمام المعلم ، ولا يجلس مكانه ، ولا يبتدىء الكلام عنده إلا بإذنه ، ولا يكثر الكلام عنده ، ولا يسأله شيئاً عند ملالته ، ويجتنب سخطه ، ويمتثل أمره فى غير معصية[3] .

ولما كان معروفاً فى المعاهد العلمية الإسلامية أن الطالب هو الذى يختار الأستاذ الذى يعجبه ليلتحق بحلقته فيُنْصَح الطالب ألا يتعجل فى اختيار أستاذه ، وأن يلاحظ فيه العلم والأخلاق ، ولا يتقيد بالمشهورين فقد يكون بين خاملى الذكر علماء أفاضل[4] ، فإذا اختار أستاذه فليتعلم الصبر والثبات عليه ، فإن تركه بعد اختياره يسيء إلى الاثنين جميعاً . وكما يتعلم الصبر والثبات على الأستاذ يتعلم ذلك أيضاً على كتاب حتى لا يتركه أبتر ، وعلى فن حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول ، وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد آخر بغير ضرورة ، فإن ذلك يفرق الأمور ، ويشغل القلب ، ويضيع الوقت[5] .

---

(١) منهاج المتعلم ١٢ ب مخطوط . (٢) ابن جماعة : تذكرة السامع ص ٨٨ .
(٣) الزرنوجى : تعليم المتعلم ص ١٢ .
(٤) ابن جماعة : تذكرة السامع ٨٥ — ٨٦ (٥) الزرنوجى تعليم المتعلم ص ١٠ .

وعلى الطالب المبتدىء أن يتحرز عن الإصغاء إلى اختلاف الناس ؛ فإن ذلك يدهش عقله ، وأن يؤجل النظر فى ذلك إلى أن يصير متقدماً فى العلم ، وأن يبتدىء بأن يأخذ من كل علم من العلوم المحمودة بطرف ، فينظر فيه نظراً يطلع به على مقصد العلم وغايته ، ثم يختار واحداً من هذه العلوم ليتبحر فيه ، على ألا يخوض فى ذلك الموضوع دفعة واحدة ، بل يراعى الترتيب ويبدأ بالأهم[1] .

وعلى الطالب أن يحبب إلى نفسه العلم حتى يألفه ويلزمه ، ويكون العلم لهوه ولذته وسلوته[2] ، كما أن عليه ألا يتورع عن أخذ العلم واصطفاء الأخلاق من أى شخص ولو كان صغير الشأن ، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان بهوان غائصها الذى استخرجها[3] ، ويجب أن يكون الطالب مملوءاً بالحماسة والنشاط وأن يُقبل على عمله برغبة وشغف[4] .

وإذا كتب الطالب لنفسه أو عن شيخه شيئاً فيلزم أن يجوّد ما يكتب ، وأن يترك حاشية ، ولا يكتب بين الأسطر[5] .

ومهما تقدم الطالب وحصل من العلم فحذار أن يظن أنه وصل الغاية فى تحصيل العلوم ، وقد مر قول ابن المبارك : لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل[6] .

---

(١) الغزالى : الإحياء ١ : ٤٢ .
(٢) ابن المقفع : الدرة اليتيمة ص ٨٣ من رسائل البلغاء .
(٣) ابن المقفع : الأدب الصغير ص ٢٢ من رسائل البلغاء .
(٤) حاجى خليفة : كشف الظنون ١ : ٢٩ .
(٥) الزرنوجى : تعليم المتعلم ص ١٤ ، تذكرة السامع لابن جماعة ٨٥ — ٨٦ .
(٦) الغزالى : الإحياء ١ : ٤٩ .

صلة التلميذ بالتلميذ

بين الطالب والطالب علاقة قدَّرها المربون المسلمون على ألا تقل عن علاقة القريب بقريبه ، والشخص بذى رحمه ، قال الإمام الشافعى : العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل[١] ، فإذا كان هؤلاء الطلاب يتلقون العلم عن شيخ واحد ، أو فى مدرسة واحدة ، فان العلاقة حينئذ يجب أن تكون آكَدَ وأقوى ، إذ أنهم يُعتَبَرون أبناء روحيين لأب واحد هو المربِّى ، ومن أجل هذا فان رباطا كرباط الأخوة يجب أن يؤلف بين قلوبهم ، قال الغزالى[٢] : وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد . ويطلق الزرنوجى[٣] وحاجى خليفة[٤] على الزميل فى المدرسة لفظ (الشريك) ولعلهما لاحظا أن هناك منفعة مشتركة تربط الزميل بالزميل ، وأن تعاونهما ينتج الخير لهما جميعاً كالذى يحدث بين الشريك والشريك فى تجارة أو أى تصرف مالى ، إذ أن تعاونهما وإخلاص كل منهما للآخر سيدرُّ الربح عليهما معاً ، وسيعمل على نجاح الهدف المشترك الذى يسعى له الاثنان .

وهناك آداب يذكرها المربون المسلمون لينيروا للطالب الطريق ، وليدلُّوه على ما يفعل وما يدع فيما يتصل بعلاقته بزملائه ، فينصحه الزرنوجى[٥] : « ألا يصادق من زملائه إلا المجد الورع ، وصاحب الطبع المستقيم ويَفِرّ من الكسلان والمعطّل والمكثار . » وينبغى ألا يفتخر الطالب على أقرانه بشىء مما يمتاز به ، ولا يتوصل بشرف إن كان له ، أو سلطان من أهله إلى إغضاب مَنْ دونه ،

---

(١) الغزالى : الإحياء ١ : ٣٨ .
(٢) المرجع السابق ١ : ٤٩ .
(٣) تعليم المتعلم ص ١٤ .
(٤) كشف الظنون ١ : ٢٩ .
(٥) تعليم المتعلم ص ١٠ .

أو تطاوله عليه ، ويعوّد ألا يُوحش الصبيان ، بل يبرّهم ويكافئهم على الجميل بأحسن منه ، وألا يعوّد الربح من الصبيان[1] .

جهود التلاميذ لتحصيل العلم

الذى يقرأ فى الأدب العربى وفى الآداب المتصلة به كالأدب الفارسى يدرك أن للمسلمين مواقف رائعة يبدو فيها حرصهم على العلم وتضحياتهم من أجله ، وتروى لنا المصادر المختلفة قصصاً مثيرة ، تسجل للطلاب المسلمين حماسة ربما كانت نادرة المثال ، وحرصاً على طلب العلم يصل بهم إلى القمة فى قوة العزم والاستهانة بالمصاعب .

وفيما يلى مجموعة قليلة من هذه القصص قصدت بها أن أدلل على هذه الحقيقة وأن أطرى هذه الهمة العالية ، ثم أروّح بها عن نفس القارئ فى بعضها طرافة وجمال :

قرأ أبو بكر بن الإخشاذ فى أول كتاب الحيوان ما عده الجاحظ من أسماء كتبه ، فرأى بينها كتاب « الفرق بين النبى والمتنبى » وقد حاول أبو بكر الحصول عليه دون نجاح ، فلما دخل مكة حاجا أقام منادياً بعرفات ينادى : رحم الله من دلنا على كتاب « الفرق بين النبى والمتنبى لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ[2] » .

ويروى عن أبى يوسف قاضى القضاة أنه قال : مات لى ولد فأمرت من يتولى دفنه ، ولم أدع مجلس أبى حنيفة خوفاً أن يفوتنى منه يوم[3] .

ورغب أبو اسحق الكازرونى أن يلتحق بمعهد ليتعلم العلم ، فقال

---

(١) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٢١ .
(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٧٢ — ٧٣ .
(٣) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ١ : ٢٠ .

له أبوه : يابنى ، نحن فقراء فتعلم التجارة لتربح نفقاتك . فأجاب الابن : نعم يا أبى التجارة لنا ضرورية وسأعمل بها نهارى كله ، ولكنه كان يذهب عند الفجر ليتلقى الدروس فإذا أقبل النهار التحق بعمله التجارى ، وكان يختلس الوقت للنظر والاستذكار وأصبح بذلك عالماً من خيرة العلماء(١) .

وكان إبراهيم الزجّاج يكسب فى اليوم درهما ونصف درهم ، فاشتهى العلم ، فذهب إلى المبرد وطلب منه أن يعلّمه ، واتفق معه على أن يدفع له ثلثى إيراده ، (درهما فى اليوم) وزاد فى الشرط فقال له : سأعطيك درهما فى اليوم أبداً إلى أن يفرق الموت بيننا(٢) .

ومر محمد بن القاسم أبو بكر بن الأنبارى بسوق النخاسين فرأى جارية حسنة الصورة كاملة الوصف . قال . فوقعت فى قلبى ، ثم مضيت إلى دار أمير المؤمنين الراضى بالله فقال : أين كنت ؟ فعرفته الأمر ، وأخبرته بالجارية . فأمر بشرائها وحملت إلى منزلى فلما عدت إلى المنزل كنت أطلب مسألة قد خفيت علىّ فاشتغل قلبى بالجارية ، فقلت للخادم : خذها إلى النخّاس فليس يبلغ قدرها أن يشغل بها قلبى عن علمى(٣) .

وحدّث الفقيه على بن عيسى الولواجى قال : دخلت على أبى الريحان البيرونى وهو يجود بنفسه الأخير ، فقال لى وهو فى تلك الحال : كيف قلت لى يوماً حساب الجدات ؟ فقلت له إشفاقاً عليه : أفى هذه الحال ؟ فأجاب : يا هذا ، أدعُ الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها(٤) ؟

وكان الأحمر صاحب الكسائى رجلا من رجال النوبة على باب الرشيد وكان يُحبُّ علم العربية ، فكان يرصد مصير الكسائى إلى الرشيد ،

(1) Di Vita des Schich p. 14, Abu-Ishaq al Kazaruni, Fdited by Fritz Meier 1948.

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٤٧ .

(٣) المرجع السابق ٧ : ٧٥ .

(٤) المرجع السابق ٦ : ٣٠٩ .

ويعرض له فى طريقه كل يوم ، فإذا أقبل تلقاه ، وأخذ بركابه ، ثم أخذ بيده وأنزله وماشاه إلى أن يبلغ الستر ، وسأله فى طريقه عن المسألة بعد المسألة ، فإذا دخل الكسائى رجع الأحمر إلى مكانه ، فاذا خرج الكسائى من الدار تلقاه لدى الستر وأخذ بيده وسايره إلى أن يركب ويجاوز المضارب ، ثم ينصرف إلى الباب . فلم يزل كذلك يتعلم المسألة بعد المسألة حتى قوى وتمكن . وقد أصبح الأحمر فيما بعد معلماً لأولاد الرشيد[1] .

ويبدو أن الطلاب ساروا سيرة معلميهم فى هذا النشاط وتلك الحماسة ، فقد كان حرص الطلاب على الأخذ والتلقى صورة صادقة لحرص المعلمين على التدريس والتعليم ، وفيما يلى أقصوصتان قصيرتان تدلان بوضوح على شغف الشيوخ بالتلقين والتحقيق مهما وجدوا فى ذلك من عناء ومشقة .

اعتقل أحمد بن طولون بكار بن قتيبة لامتناعه عن لعن الموفّق ، ووضعه فى السجن حتى بقى فيه مدة سنتين ، ولكن بكاراً ظل يحدّث وهو فى السجن ، فقد كان تلاميذه ومريدوه يجتمعون حول طاق بالحجرة التى سجن فيها وكان بكار يقف إلى هذه الطاق ليلقى خلالها درسه[2] .

وجاءت امرأة إلى أبى الحسن الزيات فاستفتته فأجابها ثم مضت لسبيلها ، فما هو إلا قليل وإذا الشيخ رحمه الله تعالى قد تغيّر وجهه ، وأخذ ثوبه فجعله فى فمه وخرج يجرى حافيا إلى أن لحق المرأة فصحح لها الفتوى ثم رجع ، فسأله أصحابه عن سبب قيامه وجريه فقال : ذكرت أنى وَهِمْتُ فى جوابها ، فأسرعت لئلا تفوتنى ، فقالوا له : لو أمرتنا لفعلنا ذلك . فقال : ما هى فى ذمة أحد منكم فلو فعلت ذلك فقد يتباطأ أحدكم فتفوت المرأة ولا تعلم جهتها[3] .

---

(١) ياقوت معجم الأدباء ٥ : ١٠٨ — ١٠٩ ومقدمة ابن خلدون ص ٢٩٩ .

(٢) ابن حجر : رفع الأصر ص ٢٦ مخطوط ؛ ابن خلكان ١ : ١٢٨ .

(٣) العبدرى : المدخل ٢ : ١٠٨ — ١٠٩ .

الرحلات لطلب العلم

لعل من الخير أن نفتتح حديثنا عن الرحلات لطلب العلم بقول الرسول (ص) لا ينال العلم براحة الجسم . وقوله : من سافر فى طلب العلم كان مجاهداً فى سبيل الله، ومن مات وهو مسافر يطلب العلم كان شهيداً [١] .

وقد شاع هذا الدستور الذى وضعه الرسول ليحث به الناس على طلب العلم ويهوّن ما يناله المرء فى سبيل العلم من عناء وجهد ، فاحتذى الشعراء والأدباء حذو الرسول ، وعبروا عن هذه المعانى بأساليب مختلفة تجدد العزم وتقوى الهمم ، قال الشاعر :

تريدين إدراك المعالى رخيصة ولا بُدّ دون الشهد من إبر النحل [٢]

وقال الأصفهانى [٣] : لا يتأدب الرجل حتى يتجنب الفراش الوطىء والدثار الدفىء . وقال ابن جماعة [٤] : ويقطع الطالبُ ما قدِرَ عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن تمام الطلب وبذل الاجتهاد وقوة الجد فى التحصيل فإنها كقواطع الطريق ، ولذلك استحب السلف التغرب عن الأهل والبعد عن الوطن لأن الفكرة إذا توزعت قصّرت عن درك الحقائق وغموض الدقائق .

وقال أبو الدرداء : لو أعيتنى آية من كتاب الله فلم أجد أحداً يفتحها علىّ إلا رجلا ببرك الغماد لرحلت إليه . وقال الشعبى : لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ما رأيت أن سفره ضاع [٥] .

---

(١) أبو الحاج : الألف با للألبا ٨ أ مخطوط . منهاج المتعلم ١٦ ب مخطوط .
(٢) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص٢٧ (٣) محاضرات الأدباء ١ : ٢٨
(٤) تذكرة السامع والمتكلم ٧٠ — ٧١ (٥) جامع بيان العلم ص ٩٥

وقد استجاب الطلاب المسلمون لهذه الدعوة ، وهبوا يسافرون لطلب العلم ، فى عهد كان السفر شاقاً والرحلات مجهدة ، إذ لم تكن هناك طرق معبدة ، ولا قوافل منتظمة ، ولكن الطلاب لم يأبهوا بعناء ولم يخشوا جهداً ، بل خرجوا فرادى وجماعات يسعون فى عزم قوى ، ومثابرة فائقة ، وبدا لهم ذلك العالم الإسلامى المترامى الأطراف وكأنه قطر واحد ، وندر أن أحس عراق بمصر أو أندلسى بالشام أنه غريب .

ويتحدث العلامة ابن خلدون[١] بإفاضة عن الرحلات لطلب العلم ، وفيما يلى موجز للفصل الذى عقده لهذا الغرض :

الرحلة فى طلب العلوم مفيدة ، لأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم تارة علماً وتعليماً وإلقاء ، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة ، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً ، والرحلة تفيد كثرة الشيوخ ، وعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها ، فتعدد المشايخ يفيد تعدد الطرق إذ أن لكل منهم طريقته فى التعليم[٢] .

والمتتبع لتاريخ الرحلات العلمية يدرك أنها ابتدأت منذ الجيل الإسلامى الأول ، وقد دعت الضرورة إلى أن تبتدىء هكذا مبكرة ، فقد تفرق علماء الصحابة فى الأقطار المفتوحة عقب فتحها ليعلموا الناس شئون الدين وليقرئوهم القرآن ويرووا لهم الأحاديث ، وأقام كل واحد من هؤلاء مركزاً علمياً بالبلد الذى نزل فيه ، ومن مشاهير علماء هذا الجيل :

عبد الله بن عمر	وكانت حلقته فى المدينة
عبد الله بن عباس	« « « مكة

(١) المقدمة ٢٩٩ — ٣٠٠   (٢) انظر أيضاً كشف الظنون ١ : ٥٧

معاذ بن جبل	وكانت حلقته فى اليمن
أبو موسى الأشعرى	« « « البصرة
عبد الله بن مسعود	« « « الكوفة
عبد الله بن عمرو بن العاص	« « « مصر

وأصبح لكل واحد من هؤلاء مدرسة خاصة وطابع معين ، ثم إن هناك بضعة أحاديث لم يروها عن الرسول إلا عدد قليل من الصحابة ، وكان للناس شغف كبير برواية الأحاديث فأخذ الناس يسمون إلى هؤلاء الصحابة لينتفعوا بعلمهم وليأخذوا عنهم الأحاديث التى تلقوها عن الرسول .

ولما جاء الجيل الثانى كان الملاحظ أن هناك فرقا بيّنا بين حلقة وأخرى ، إذ تفاوتت ميول العلماء تفاوتاً واضحاً ، واختلفت اتجاهاتهم اختلافاً ظاهراً ، فأصبح منهم من يميل إلى تفسير القرآن ، ومنهم من هو راوية للحديث ، ومنهم من يتعرض لعلم الكلام ، ومنهم من تبحّر فى الفقه ، وهكذا ، وفيما يلى أسماء بعض المشاهير من علماء هذا الجيل وهذه الأسماء عناوين واضحة لاتجاهات أصحابها وميولهم :

سعيد بن المسيب	فى المدينة
ربيعة الرأى	فى قباء
عطاء بن رباح	فى مكة
عطاء بن عبد الله الخراسانى	فى خراسان
الحسن البصرى	فى البصرة
النخعى	فى الكوفة
مكحول	فى سوريا

يحيى بن كثير في اليمامة

طاووس في اليمن

يزيد بن أبي حبيب في مصر(١)

ثم كانت قيمة الطالب في نظر الناس تتناسب مع ما قام به من رحلات لطلب العلم ، ومع عدد المدرسين الذين تلقى عنهم ، وكل هذه الظروف شجّعت الطالب أو قلْ دفعته دفعاً ليتلقى أفانين من العلم في أيّ من بقاع الأرض ، ولم تكن هذه الحماسة مقصورة على طلاب العلوم الدينية ، ولكنها شملت أيضاً طلاب الدراسات اللغوية والفلسفة والطب وغيرها وقد تحدث Professor Nicholson(٢) عن الرحلات حديثاً طريفاً حيث يقول : « وكان جلة الباحثين وطلاب العلم يرحلون في حماسة ظاهرة عبر القارات الثلاثة ، ثم يعودون إلى بلادهم كما يعود النحل محمّلا بالعسل الشهى ، ثم يجلس هؤلاء الباحثون في بلادهم ليرووا شغف الجماهير التي كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم فينالوا من علومهم ومعارفهم زاداً وخيراً عميماً ، كما كان هؤلاء الباحثون يعكفون أحياناً على تدوين ما جمعوا وما سمعوا ثم يُخرجون للناس كتباً هي بدوائر المعارف أشبه ، مع نظام رائع وبلاغة عذبة ، وهذه الكتب هي المصادر الأولى للعلوم الحديثة بأوسع ما تحتمله كلمة العلوم من معنى ، وهي مرجع العلماء والباحثين ، ومنها يستمدون فنوناً من الثقافة والمعرفة أعمق بكثير مما يظن الناقدون » .

ولنروِ فيما يلي بعضاً من الأمثلة التي توضح هذا النشاط الذي يدعو للتقدير والإعجاب .

سمع جابر بن عبد الله الأنصاري أن عبد الله بن أنيس الجهني سمع

---

(١) انظر ياقوت : معجم الأدباء : ٤١٢–٤١٣ ، السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٣٤
(٢) A Literary History of ths Arabs p. 281

حديثاً عن رسول الله (ص) فاشترى جابر بعيراً ، ثم شد رحله حتى قدم مصر على عبد الله ، وسمع الحديث منه (١) .

وقد كان جابر فى حالة مالية تمكنه من شراء بعير ليرحل عليه ، ولكن طلاباً آخرين وقفت بهم حالهم المالية دون شراء أو استئجار لما يركبون ، ومع هذا قفزت بهم هممهم العالية غير مبالين بوعثاء السفر ولا بطول الطريق ؛ كان لابن الخطيب التبريزى نسخة من كتاب التهذيب فى اللغة للأزهرى فى عدة مجلدات أراد تحقيق مافيها وسماعها على عالم باللغة ، فدُلَّ على أبى العلاء المعرى ، فجعل الكتاب فى مخلاة ، وحملها على كتفه وسار راجلا من تبريز إلى معرة النعمان ، فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل ، ومن شعره :

فمن يسأم من الأسفار يوماً ... فإنى قد سئمت من المقام (٢)

وقد نشأ يحيى بن يحيى الليثى فى قرطبة ، ورحل إلى المشرق وعمره ٢٨ سنة ، فسمع من مالك بن أنس الموطأ فى المدينة ، ورحل إلى مكة فسمع من سفيان بن عيينة ، ورحل إلى مصر فسمع من الليث بن سعد وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن ابن القاسم ، ثم عاد إلى الأندلس (٣) .

وأراد البخارى (٢٦٥ هـ) المحدث الشهير أن يجمع أكبر عدد من الأحاديث الصحيحة ، فجمع أحاديث بخارى ، ثم رحل إلى بلخ وسمع محدثيها وروى أحاديثهم ، ثم رحل كذلك إلى مرو ونيسابور والرى وبغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة ومصر ودمشق وقيسارية وعسقلان وحمص

(١) صحيح البخارى ١ : ٣١ ، جامع بيان العلم ١ : ٩٤ ، السيوطى: حسن المحاضرة ١ : ٨٨ .
(٢) ابن خلكان ٢ : ٣٤٩ ، ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٢٨٦ .
(٣) ابن خلكان ٢ : ٣٢٠ — ٣٢١ .

فجمع بهذا ما تفرق من الحديث فى الأمصار ، وأمضى فى هذه الرحلات ستة عشر عاماً ، لقى فيها عناء شديداً لايتحمله إلا الأبطال الصابرون ، وأخيراً عاد إلى وطنه(١) .

وكان سهل بن عبد الله التسترى يستذكر العلم ويحضر حلقاته فى سن مبكرة ، وقد أشكلت عليه مسألة علمية وهو فى سن الثالثة عشرة ، ولما لم يجد لها جوابا شافياً فى بلده سأل أهله أن يبعثوه إلى البصرة ليسأل عنها ففعلوا ، فلما جاء البصرة سأل علماءها فلم يشف أحدٌ منهم غلته ، فخرج إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبى حبيب حمزة بن أبى عبد الله فسأله عنها فأجابه إجابة شافية ، فأقام الصبى عنده مدة ينتفع بكلامه ويتأدب بآدابه(٢) .

وكان حنين بن اسحق الطبيب البحاثة كثير السفر لجمع الكتب وللتزود من العلم ، وقد وصل فى رحلاته إلى أقصى بلاد الروم كما طاف بمدن العراق والشام ومصر(٣) .

وقد سبق لنا الكلام عن الطلاب الذين رحلوا إلى البادية ليتلقوا هناك اللغة العربية التى لم يدخلها لحن ولا تصحيف ، وليرووا عن الأعراب الشعر والأدب والتاريخ ، وقد احتمل هؤلاء الطلاب الذين تركوا الحضر إلى البادية ألوانا من شظف العيش والخشونة ، اللذين هما طابع الحياة هناك ، ومع هذا فقد كانت حماستهم للعلم قوية ، وسعادتهم به ظاهرة ، روى أن أبا العباس ابن عم الأصمعى هلع مرة من الغربة فى البادية واشتاق إلى أهله فهمَّ بالرجوع ، ثم صادف عربيا أسمعه قصيدة مطلعها :

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٦٤٩ . (٢) الغزالى : الإحياء ٣ : ٥٩ .

(٣) انظر ابن أبى أصيبعة : عيون الأخبار ١ : ١٨٧ ، القفطى : تاريخ الحكماء ص١٢٣ .
وانظر أيضاً Khuda Bukhsh , Islamic Civilization p. 277

لقد طال ياسوداء منك المواعدُ ودون الجدا المأمول منك الفراقدُ

فقال أبو العباس : قد والله أنسيت أهلى ، وهان علىّ طول الغربة ، وشظف العيش سروراً بما سمعت [1] .

ويتحدث Sayid Ameer Ali [2] عن البيرونى أحد الرحالة المسلمين فيقول : البيرونى مواطن من خراسان نشأ فى عهد السلطان محمود الغزنوى والسلطان مسعود ، وقد قام برحلة علمية طويلة إلى الهند ، عاش فى خلالها بين الهنود ، حيث عرف لغتهم ، ودرس علومهم وفلسفتهم وآدابهم ، وتعرف على عاداتهم وأخلاقهم ، وعرف قوانينهم ودياناتهم ، وخرافاتهم العجيبة ، ثم درس جغرافية البلاد وطبيعتها ، وحشد كل هذه المعلومات فى مؤلف ضخم اعتُبِر طيلة عدة قرون أهم مرجع عن الهند وسكانها .

هذه أمثلة قليلة من صور النشاط الرائع الذى قام به الطلاب المسلمون ، وقد كان هذا النشاط فى قمته خلال القرون الأولى للاسلام ، وكانت دراسة الحديث هى الدعامة الهامة التى حفزت الطلاب على أن يبذلوا هذا الجهد العظيم ، وقد قُبِلت فى القرن الرابع الهجرى فكرة لم تكن مسلمًا بها من قبل ، تلك هى جواز تدوين الأحاديث وجواز الاعتماد فى دراستها على هذه الكتب المدوّنة من غير حاجة إلى مقابلة المحدّث ورواية الحديث عنه رواية مباشرة [3] .

وقد ترتب على هذا أن قل بعد ذلك عدد الذين يرحلون لدراسة الحديث وجمعه حتى عُدّ ابن مندة : أبو عبد الله محمد بن اسحق الحافظ الجوال (٣٥٥ هـ) ختام الرحالين ، وقد كان ابن مندة معروفاً بالحفظ والمعرفة والصدق وكثرة

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ٢ : ٣١٨ .

(٢) A. Short History of the Saracens p. 463,

(٣) الخطيب البغدادى : تقييد العلم ص ١٠١ .

التأليف ، وقد قام برحلة طويلة جلس فيها إلى ١٧٠٠ شيخ وجمع جملة من الكتب كانت عند عودته أربعين حملا[١] .

وقد ظل الطلاب على كل حال يرحلون لمقابلة الشيوخ والأخذ عنهم ، ولكن فى النصف الثانى من القرن الخامس جدّ حادث آخر ذلك هو نشأة المدارس وتزويدها بالعتاد والأساتذة الممتازين ، ومن ثم تحولت رحلات الطلاب فاتجهت إلى هذه المدارس للاستماع إلى شيوخها والانتفاع بما فيها من ميزات وتسهيلات .

وهناك نوع آخر من الرحالة المسلمين لايمكن إغفاله هنا ، هؤلاء الرحالة ليسوا طلابا يسعون ليجلسوا أمام الأساتذة والشيوخ أو يتلقوا بعض الأحاديث ، وإنما هم علماء باحثون لهم ميول مختلفة فى دراساتهم ، فمنهم من يميل إلى الدراسات الدينية ، ومنهم من يهوى الدراسات الاجتماعية أو التربوية أو الجغرافية أو نحوها ، وقد عمد هؤلاء الباحثون إلى جمع المادة التى تغذى ميولهم لامن الكتب أو النقلة ، بل من أبحاثهم وملحوظاتهم الخاصة ، فزاروا البلاد ، وجابوا البقاع ، يدونون ما يرون ، ويسجلون مايلاحظون . وقد ترك هؤلاء زاداً كبيراً للباحثين فى الدراسات الإسلامية ، ويعتبر نتاجهم المصدر الغنى الموثوق به لطلاب هذه الدراسات حتى العهد الحاضر ومن هؤلاء اليعقوبى والاصطخرى والمقدسى وابن حوقل وناصر خسرو وابن جبير وياقوت وابن بطوطة .

وقد شجع الطلابَ والباحثين على السفر ما كانوا يلاقونه من تيسير عظيم وتسهيلات نادرة وعونٍ لا ينقطع فى كل خطوة يخطونها وفى كل بلد ينزلونه ، ولنقرأ معاً صفحات قليلة متتابعة من رحلة ابن بطوطة لنقتبس منها نماذج لهذه المساعدات ولهذا العون :

---

(١) شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ١ : ٢٣٠

يقول ابن بطوطة[1] لما نزلنا مدينة اقصرا وهى فى طاعة ملك العراق قابلنا الشريف حسين النائب بها عن الأمير ، فأكرمنا إكراماً متناهياً . . وسافرنا إلى مدينة سيواس وهى من بلاد العراق ، فدعينا لننزل عند أخى جلبى وقبلنا الدعوة، وبعد ذلك طالبنا آخرون لننزل عندهم فلم يمكن ذلك لسبق الأولين ، وكان الذين سبقوا إلينا فى أشد الفرح لنزولنا عندهم ..... وبعث لنا أمير هذه البلدة بفرس وكسوة ودراهم ، وكتب لنوابه فى البلاد أن يضيفونا ويكرمونا ويزودونا . . . ونزلنا إلى مدينة أرز الروم ضيوفاً عند شيخ كبير السن قد تجاوز المائة والثلاثين . فأكرمنا وكان يخدمنا بنفسه فى الطعام ، ولما أردنا الانصراف فى اليوم الثانى شق عليه ذلك وأبى ، وقال : إن فعلتم نقصتم حرمتى وإنما أقل الضيافة ثلاث .... ونزلنا إلى مدينة يركى فقابلنا رجلا من أهلها فسألناه عن منزل مضيفنا فقال : أنا أدلكم عليه . فاتبعناه ، فذهب إلى منزله هو وأكرمنا جداً ، وفى اليوم التالى صحبنا إلى منزل مضيفنا .

ونختم هذا الموضوع بأن نورد موجزاً لنموذج من النصائح التى كان يتوجه بها العلماء لطلابهم الذين جاءوا إليهم قبيل عودة هؤلاء الطلاب إلى أوطانهم :

قال أبو حنيفة النعمان لتلميذه يوسف بن خالد السمتى حين استأذنه فى الرجوع إلى وطنه البصرة : لا ترجع حتى أفرغ إليك ، وأعرفك من الأمر ماتجعل نفسك عليه حتى يكون علمك آلة تزينك ولا تشينك ، ووسيلة لحب الناس لك لا لعداوتهم إياك . فصبر يوسف يوما حتى خلا به أبو حنيفة فأوصاه قائلا[2] :

---

(١) تحفة النظار ٢ : ٢٨٦ ـ ٢٩٥ .

(٢) الوصية كاملة مدونة فى مخطوط بجامعة اسطنبول .

كأنى بك وقد دخلت البصرة، وأقبلت على مناقضة مخالفيك، ورفعت نفسك عليهم، وتطاولت بعلمك لديهم، وهجرتهم فهجروك؟ قال السمتى: لقد كنت على وشك أن أفعل هذا. قال أبو حنيفة:

إذا دخلت البصرة استقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك، فأنزل كل رجل منهم منزلته، أكرم أهل الشرف، وعظم أهل العلم، ووقر الشيوخ ولاطف الأحداث، وتقرب من العامة، ودار التجار، واصحب الأخيار، ولا تتهاون بالسلطان، ولا تقولن من الكلام ما يُنكر عليك فى ظاهره، ولا تجيبن دعوة، ولا تقبلن هدية .... وابذل طعامك فإنه ما ساد بخيل قط، واعمد إلى زيارة من يزورك ومن لا يزورك، وإلى الإحسان إلى من أحسن أو أساء إليك، وخذ العفو وأمر بالعرف، ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك وتعاهده برسلك، ومن غاب افتقد أحواله، ومن قعد منهم عنك فلا تقعد أنت عنه، وصل من جفاك، وأكرم من أتاك، واعف عمن أساء إليك، وعزّ المحزون وهنىء من أتته فرحة، ومن استنصرك فانصره، وإذا حضرت مجلس علم وخاض الناس على خلاف ما عندك فلا تبد لهم خلافا، فإذا سئلت أجبت بما يعرفه القوم ثم تقول: وفيه قول آخر وتقول ما عندك وبمقدار استقبالهم لرأيك اشرحه ودلل عليه، وارض الناس ما رضوا لأنفسهم.

ووصية أبى حنيفة هذه جديرة بكل تقدير، وإنها لعمرى وصية متجددة ينبغى الأخذ بها، واتباع نهجها، وكم أعرض الناس عن عالم فكسدت بضاعته لأنه لم يعرف السبيل الصحيح للقرب من الناس وتوصيل معارفه إليهم.

تعليم المرأة *

قرأت فى هذا الموضوع عدة من الكتب يمكن أن يقال بحق إنها كثيرة . وفى ضوء هذه القراءة الشاملة ، أحب أن أقرر بادىء ذى بدء ، أن المرأة فى الشرق أو فى الغرب كان حظها فى التعليم ضئيلا خلال العصور الوسطى ، وأن الفرص التى أتيحت لها كانت أقل بكثير من الفرص التى أتيحت للرجل المعاصر لها .

وقبل أن نسترسل فى الحديث عن تعليم المرأة فى الشرق يجدر بنا أن نقتبس من المراجع الأوربية بعض الاقتباسات التى تصور المستوى العلمى للمرأة الغربية فى أثناء هذه العصور :

« خلال العصور الوسطى كانت العناية بالمرأة الأوروبية محدودة جداً تبعاً لاتجاه المذهب الكاثوليكى الذى كان يعدُّ المرأة مخلوقاً فى المرتبة الثانية ، وقد حرصت القرون الوسطى أن تحدَّ من سلطة المرأة الأوروبية وألا تمنحها أى لون من ألوان النفوذ ، فيما عدا المجال الضيق الذى كانت

---

* تقضى الدراسة المنهجية التى نتبعها فى هذه الدراسة أن نجعل الحديث فى هذا الفصل مقصوراً على المرأة المسلمة وتعليمها وعلى هذا فلن نعرض للكلام عن المرأة العربية قبل الاسلام ولا عن غير مشكلة التعليم من المشكلات الأخرى التى تتصل بالمرأة المسلمة ، وفى المراجع الآتية مادة نافعة للباحث فيما لن نتعرض له هنا من مشكلات تتعلق بالمرأة :

1 — The Arab Woman by M, E T. Mugannam. Cambridge printers Limited, 1937.
2 — Women in Ayyam al-Arab by Ilse Lichtenstadter, The Reyal Arabic Society, 1935.
3 — Marriage in Early Islam by Gertrude H. Sterm. The Royal Arabic Society, 1939.
4 — The Real Status of Women in Islam. An article published in the 19th c. Sept. 1891.

كتاب « الإسلام » من سلسلة « مقارنة الأديان » وكتاب « الاجتماعية فى التفكير الإسلامى » للمؤلف

تعيش فيه وهو البيت (١) » .

وهناك تفاصيل أشمل وإيضاح أدق عن الطبقات المختلفة للمرأة الأوروبية ، وحظ كل طبقة من التعليم نوردها فيما يلي :

كان Francesco da Barberico يسمح لطبقة النبيلات من الفتيات أن يتعلمن القراءة والكتابة ليتمكنّ فيما بعد من إدارة شئونهن ، وأما فيما يتعلق ببنات السادة من رجال البلاط وكذلك بنات القضاة والأطباء ومن على شاكلتهم فإنه تردد لمدة ما فى الحكم عليهن ثم قرر أنه من الخير لهن ألا يتعلمن القراءة والكتابة ، وبالنسبة لبنات التجار والصناع فقد كان الحكم حازماً بألا يتاح لهن أى لون من ألوان التعليم (٢) .

وهناك صورة واضحة أخرى يكتبها John Langdon Davies عن المرأة من الطبقة العليا ، وهو يبدأ حديثه بأن يتساءل : كيف كانت السيدة من طبقة الأميرات تعيش فى قصرها ؟ ويجيب عن ذلك بقوله : إنها فى كثير من الأحيان نالت طرفاً من التعليم فقد أمضت بضع ساعات وهى طفلة مع مؤدب خاص أو التحقت بنوع من المدارس يلتحق به الهواة ليتعلمن القراءة ، وأقصى ما كانت تستطيع أن تصله بثقافتها أن تقرأ القصص والحكايات التى كانت تشتريها من الباعة المتجولين الذين كانوا يقصون هذه القصص بأنفسهم مع نوع من النشيد والغناء ثم يبيعونها لمن يهوى استعادتها من حين إلى آخر (٣) .

ومن الممكن أن نؤكد دون تردد أن المرأة من غير طبقة الأميرات لم

---

(١) Feminism by K. A Wieth-Knudsen, translated from the Danish by Arthur G. Chater, p. 209.

(٢) The Encyclopaedia of Education IV p 1790.

(٣) A Short History of Women p. 229.

تصل إلى هذا المستوى المتواضع من الثقافة الذى وصلت له نساء الطبقة العليا .

أما عن حالة المرأة الانجليزية قبيل نهاية العصور الوسطى فقد أوجزها A. Abram بقوله :

إن الاهتمام بتعليم المرأة كان أقل كثيراً من الاهتمام بتعليم الرجل وكان المستوى العلمى الذى تحاوله المرأة محدوداً جداً بالقياس إلى المستوى الذى يتطلبه الرجل ، ويقتبس Abram رأى أحد النبلاء ويعده مرجعاً هاماً فى ذلك الموضوع لأنه يصور آماله تجاه بناته وثقافتهن ، إذ يقول : أحب أن تكون بناتى قادرات على القراءة ، وفيما عدا ذلك فالبنت ينبغى أن تتعلم الفضائل من الكتاب المقدس لتعيش فى بيتها عيشة غير شريرة .

ثم يواصل Abram كلامه بقوله : وظاهر أنه لم يُطلب أن تنال المرأة أى مستوى ثقافى أرقى من ذلك ، ومن أجل هذا كانت الأوقاف على التعليم مقصورة على تعليم الصبيان ، وليس فيها نصيب لتعليم الفتيات ، وكان أغلب الآباء يكتفون بقسط ضئيل من التعليم الأولى لبناتهم ، ثم يعملون على تزويدهم بالجانب العملى فى الحياة المنزلية ليعدوهن ليكن زوجات(1) .

هذا وصف موجز لثقافة المرأة الأوربية فى العصور الوسطى مقتبس من مراجع أوربية ، فإذا تركنا المرأة الغربية وعدنا إلى المرأة المسلمة كان من الأوفق أن أعترف بحقيقة لم يشأ كثير من الكتاب المسلمين أن يعترفوا بها ، هى أن التعليم بين النساء لم يكن منتشراً انتشاره بين الرجال وكانت نسبة المتعلمات بين النساء أقل بكثير جداً من نسبة المتعلمين بين الرجال ، ويسأل المرء نفسه ما الذى دعا إلى هذه النتيجة مع أن الدين الإسلامى لم يجعل الجنس عائقاً للمرأة دون تلقى العلم ؟ وأعتقد أن الذى عاق النساء المسلمات عن مجاراة الرجال فى التعلم إنما هو الصعوبات التى

(1) English Life & Manners in the Later Middle Ages p. 218.

كان يستهدف لها طلاب العلم فقد كانت الرحلات والحرمان والتقشف شارات الطالب المسلم . وكان العرب يضعون المرأة فى مكانة أسمى ومنزلة أعلى ، فلا يسمحون أن تتعرض لنصَب العيش وشظف الحياة ، وقد عبر الشاعر العربى عن هذا بقوله :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وعلى هذا هبطت نسبة المتعلمات من النساء ، غير أنه يجدر بنا أن نسجل أن كثيرات من المسلمات تغلبن على هذه الصعوبات بطريق أو بآخر فحصلن على جانب من الثقافة التى يمكن أن توصف بأنها عميقة ومتنوعة وهذا مالم تنله المعاصرات الأوربيات .

وقبل أن نعطى نماذج توضح ثقافة المرأة وعمقها وتنوعها يجدر بنا أن نحقق قضية هامة هى : أين كانت تتعلم الفتاة ؟ هل التحقت بالكتّاب صغيرة ؟ وانضمت إلى حلقات الرجال شابة ؟ أو كان لها مؤدب خاص ولم تختلط بالصبيان والرجال ؟

يقول الدكتور محمد فؤاد الأهوانى[1] إن البنات كن يتعلمن فى الكتاتيب. ولكن الدكتور الأهوانى يرجع عن رأيه هذا إلى الرأى الذى نعتقده صوابا فيقرر[2] أن العادة قد جرت على تعليم البنات داخل الدور .

وقد تعرض لهذا الموضوع أيضاً الدكتور خليل طوطح فى كتابه التربية والتعليم عند العرب فذكر تحت عنوان « البنت والمكتب[3] » ما يلى : ومما يذكر فى كتاب الأغانى تردد البنات إلى المكتب فى القرن الثانى للهجرة ، ثم أورد الدكتور طوطح اقتباسات غير كاملة من الأغانى يرى أنها تؤيد رأيه (وسنوردها فيما بعد) ويعلق على هذه الاقتباسات بقوله :

---

(١) التعليم عند القابسى ص٨٧ . (٢) المصدر السابق ص١٦٣ . (٣) ص٦٩ .

فمن هذا يظهر أن الفتيات ذهبن للتعلم فى المكتب ، وفى بعض الأحيان تعلمن مع الفتيان كما هو معروف اليوم فى بعض الأماكن .

ومرجع الدكتور طوطح هو الأغانى ١٤ : ٤٩ ، ٢١ : ٤٨ فإذا ذهبنا إلى الأغانى فى الموضعين المذكورين وجدنا النص الأول كالآتى : كان بالكوفة رجل يقال له على بن آدم وكان يهوى جارية لبعض أهلها (أهل الكوفة) وأنه علقها وهى صبية تختلف إلى الكتاب ، فكان يجىء إلى المؤدب فيجلس عنده لينظر إليها ، فما أن بلغت حتى باعها مواليها لبعض الهاشميين فمات جزعاً عليها[1] .

أما النص الثانى فهو كما يلى :

حدثنى القطرانى المغنى عن محمد بن حسن قال : كان خليل المعلم يلقب (خليلان) وكان يؤدب الصبيان ويعلم الجوارى الغناء فى موضع واحد ، فحدثنى من حضره قال : كنت يوماً عنده وهو يردد على صبى يقرأ بين يديه قوله تعالى : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم » ثم يلتفت إلى صبية يردد عليها :

اعتاد هـــذا القلب بَلبالُهُ أن قُرِّبت للبين أجمالُهُ[2]

وأنا إذ أنظر إلى هذين النصين لا أوافق الدكتور طوطح على الاستنباط الذى استخرجه منهما ، لأن البنت التى تقول إنها تعلمت فى عصور الإسلام الأولى ونالت قسطاً ملحوظاً من الثقافة هى البنت الحرة قبل كل شىء وهذان الاقتباسان يتعلقان بالجوارى فلا يمكن أن نأخذ منهما حكماً عاماً على أن البنت تعلمت بالمكتب مع الأولاد ، لأن تعليم الجوارى بالمكتب لا يدل بحال من الأحوال على تعليم الحرائر به ، إذ أن كراهية اختلاط الجنسين ما كانت

(١) الأغانى ١٤ : ٤٩ طبعة الساسى . (٢) الأغانى ٢١ : ٤٨ طبعة مصر .

تنطبق على الجوارى ؛ فقد كن متبذلات مُنِحْن كثيراً من التسهيلات التى لم تستمتع بها الحرائر .

ولم يكن المراد بتعليم الجوارى هو الثقافة بقدر ما كان يراد به رفع أثمانهن بتعليمهن الكتابة ، كما فى الاقتباس الأول ، أو الغناء كما فى الاقتباس الثانى . على أن الاقتباس الثانى أبعد جداً عن الموضوع لتعلقه بالغناء الذى هو صنعة أخرى صادف أن المؤدب كان يجيدها ، وكان يزاولها مع عمله البعيد عنها كل البعد كما يزاول بعض معلمى مكاتب الريف المصرى فى هذه الأيام بعض الصناعات اليدوية السهلة وهم يشرفون على أطفال المكتب ، فلم تكن هذه البنت فى الحقيقة ملتحقة بالكتاب .

وعندنا من النصوص الصريحة ما يؤكد لنا أن البنت لم تلتحق بالكتاب صبيَّةً ولم تجلس فى حلقة الرجال شابة ، وكان الغالب أن تتعلم فى المنزل عن طريق أحد أقاربها أو بمؤدب يُدْعى لها :

يروى البلاذرى[1] أنه عند مجىء الإسلام كان هناك خمسة من نساء العرب يقرأن ويكتبن ، وهن حفصة بنت عمر ، وأم كلثوم بنت عقبة ، وعائشة بنت سعد ، وكريمة بنت المقداد ، والشفاء بنت عبد الله العدوية ، التى كانت تعلم حفصة وقد طلب الرسول منها أن تستمر فى تعليمها لحفصة حتى بعد زواج الرسول منها .

ويروى البخارى[2] أن النساء قلن للنبى (ص) غلَبَنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك . فعيَّن لهن يوما يلقاهن فيه ويعلمهن .

وقد ثقَّف الأعشى ابنته وعلمها حتى أصبحت أديبة ناقدة ، ويُرْوَى

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٥٨ . (٢) صحيح البخارى ١ : ٣٨ .

أن الأعشى كان إذا قال القصيدة عرضها عليها ثم يقول لها : عُدّى لى الخزيات فتعددها له[١] .

وكان عيسى بن مسكين (٢٧٥ هـ) يجلس للطلبة إلى العصر فإذا كان بعد العصر دعا بنتيه وبنات أخيه وحفيداته ليعلمهن القرآن والعلم[٢] ، وكذلك علم أسد بن الفرات ابنته أسماء ، والإمام سحنون ابنته خديجة ، كما كان يُدعى مؤدبون خاصون لتعليم البنات فى بيوت أهل الثراء وقصور الأمراء[٣] .

وهنا يبرز لى سبب آخر يضاف إلى ما سبق إيراده عن السبب فى أن نسبة عدد المتعلمات بين النساء أقل كثيراً من نسبة عدد المتعلمين بين الرجال ، ذلك هو أن الطريق إلى تعليم المرأة كان بواسطة أحد من ذويها أو يقوم به معلم خاص وكلا هذين لا يتيسر للجمهرة العظمى من النساء فى حين أن الوسيلة لتعليم الولد سهلة فهو يلتحق بالكتاب صبياً وينضم إلى الحلقات بالمساجد إذا شب ونمت ثقافته .

وعلى كل حال فقد أنتج التعليم الخاص مجموعة من النساء اللاتى كانت ثقافتهن لا تقل عن ثقافة الرجال بل ربما بزتها فى كثير من الأحوال .

وحقيق بنا أن نشير إلى أن المرأة المسلمة كثيراً ما برهنت على أنها متزودة لا بالثقافة الإسلامية فحسب ولكن بالأخلاق الإسلامية والنبل فى أرفع صوره ، وفى هذا المجال تحفل كتب التاريخ والأدب بصور رائعة زاهية نسوق منها مثالا شهيراً ولكنه مع شهرته لم يفقد روعته وبهاءه :

---

(١) الأغانى ١٥ : ١٠٦ .

(٢) ص ٢٢ من مقدمة حسن حسنى عبد الوهاب لكتاب آداب المعلمين لابن سحنون .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٣ .

لبث عبد الله بن الزبير على إمرة المؤمنين ثمانى سنوات ودانت له العراق والحجاز واليمن ، ثم بدأ ينهزم أمام جيوش عبد الملك بن مروان التى يقودها الحجاج بن يوسف ، حتى لم يبق له إلا مكة المحاصرة بجند الحجاج والتى كانت هدفاً للمجانيق والحجارة ، فقل أصحابه وكثر عدوه ، والحجاج من حين إلى آخر يمنيه بالإمارة فى ظل الأمويين لو أغمد سيفه وبسط يده للبيعة . دخل عبد الله حينذاك على أمه أسماء بنت أبى بكر فدار بينهما الحوار الآتى :

عبد الله : يا أمه ، خذلنى الناس حتى أهلى وولدى ، ولم يبق معى إلا اليسير ومالا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار ، وقد أعطانى القومُ ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟

أسماء : الله الله يا بنى ! ! إن كنت تعلم أنك على حق تدعو إليه فامض عليه ، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن معك ، وإن قلت أنك كنت على حق ، فلما وهن أصحابك ضعفت فليس هذا فعل الأحرار ، كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير ، والله لضربة بالسيف فى عزّ أحب إلىّ من ضربة بالسوط فى ذلّ .

عبد الله : يا أماه ، أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى .

أسماء : يا بنى إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح ، امض غير متردد ولا هياب[1] .

والآن فلنتحدث عن ثقافة المرأة التى وصفناها بأنها كانت عميقة ومتنوعة ،

---

(١) ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق ٧ : ٤١٥ - ٤١٦ ، ابن الأثير ٤ : ١٤٧ .

وهذا الوصف حقيقة لا مبالغة فيها ، فقد تصدّت المرأة لموضوعات ثقافية متعددة فبرّزت فى جميعها ، وكانت فى كل منها تضارع الرجال ، وتدل على مقدرة ممتازة وكفاءة طيبة ، وفيما يلى حديث موجز عن الموضوعات التى زاولتها المرأة ، وعن بعض الشهيرات من النساء :

الدراسات الدينية :

اهتمت المسلمات اهتماماً كبيراً بالدراسات الدينية ليعرفن تعاليم الدين الجديد ، وليتعمن برواية أحاديث الرسول ، وقد مرت بنا حديثاً رواية البخارى أن النساء قلن للنبى صلى الله عليه وسلم غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك ، فعين لهن يوماً يلقاهن فيه ويعلمهن ، وقد نتج عن هذا أن حظى الجيل الإسلامى الأول وبخاصة نساء الأنصار بمجموعة من السيدات كان لهن القدح المعلى فى هذه الدراسات ، روى عن عائشة أنها قالت : نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين[1] وقد كانت عائشة نفسها واسطة العقد بين نساء هذا الجيل فقد ورد فى الأثر : خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء ، ومما يذكر لها أنها روت عن الرسول ألف حديث رواية مباشرة ، وهذا مالم يتوافر لسواها[2] .

وأقبلت النساء على رواية الحديث إقبالا عظيما فى هذا الجيل وبعده ، وقد عقد محمد بن سعد جزءاً من كتاب الطبقات الكبير لرواية الأحاديث عن النساء أتى فيه على أكثر من سبعمائة امرأة روين عن الرسول أو عن الثقات من أصحابه ، ومنهن روى أعلام الدين وأئمة المسلمين وترجم ابن حجر حياة ١٥٤٣[3] محدثة

---

(١) البخارى ١ : ٤٦ .

(٢) النواوى : تهذيب الأسماء ص ٨٤٨ .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٤ : ٤٢٤ ـ ٩٨٤

وقال عنهن إنهن كن ثقات عالمات ، كما خصص كل من النواوى فى كتابه تهذيب الأسماء ، والخطيب البغدادى فى كتابه تاريخ بغداد ، والسخاوى فى الضوء اللامع حيزاً كبيراً للحديث عن النساء اللائى كانت لهن ثقافة عالية وبخاصة فى العلوم الدينية ورواية الحديث .

ومما يدل على دقة النساء فى الرواية والحفظ أن الحافظ الذهبي اتهم أربعة آلاف من المحدثين ولكنه قال عن المحدثات : وما علمت من النساء من اتُّهمت ولا من تركوها[1] .

وهناك أسماء لامعة لبعض السيدات كان لهن فى الدراسات الدينية شأن عظيم وفيما يلى بعض منهن :

— نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على : وكانت راوية محدثة من شهرة المحدثات فى عصرها ، وكان يجلس فى حلقتها مشاهير العلماء والمجتهدين ، ولما دخل الإمام الشافعى مصر حضر إليها وسمع عنها الحديث[2] .

— الشيخة شهدة وكانت تلقب « فخر النساء » وكانت تحاضر للجماهير فى مسجد بغداد فيجلس للاستماع منها جمهور عظيم من الطلاب وكانت تحاضر — بالإضافة إلى العلوم الدينية — فى الأدب والبلاغة والشعر وقد استطاعت بثقافتها وفصاحتها أن تأخذ مكانتها بين مشاهير العلماء وفطاحل المدرسين[3] .

— زينب بنت عبد الرحمن الشَّعْرى : كانت عالمة وأدركت جماعة من أعيان العلماء وأخذت عنهم رواية وإجازة ، سمعت من محمد بن أبى القاسم بن أبى بكر النيشابورى وأبى المظفر القشيرى وغيرهما ، وأجاز لها الحافظ أبو الحسن الفارسى

---

(١) ميزان الاعتدال ٢ : ٣٩٥ .

(٢) ابن خلكان ٢ : ٢٠١ .

(٣) Ameer Ali : The Spirit of Islam p. 255.

والعلامة أبو القاسم الزمخشرى صاحب الكشاف وغيرهما من الحفاظ . وقد أجازت ابن خلكان سنة ٦١٠ وهو طفل جريا على العادة التى كانت متبعة آنذاك من أجازة الأطفال الذين ينتون فى بيوت العلم تشجيعاً لهم عندما يشبون ، وأملا فى نجاحهم فى المستقبل(١) .

– عُبَيدة جدة أبى الخير التينانى الأقطع ، وكانت عالمة فاضلة تجلس للتدريس فيجلس أمامها خمسمائة تلميذ من الرجال والنساء(٢) .

ولا بد لنا أن نشير إلى فضليات النساء اللائى يدين لهن كثير من عظماء الرجال ومشاهيرهم :

فالخطيب البغدادى قرأ صحيح البخارى على كريمة بنت أحمد المروزى وقد أسهمت بنصيب كبير فى تكوين هذا العالم الكبير(٣) .

وقد عدَّ ابن عساكر أساتذته وشيوخه الذين تلقى عنهم العلم ، وكان من بينهم إحدى وثمانون امرأة(٤) .

الأدب :

تحفل كتب الأدب العربى بالحديث عن كثيرات من الأديبات والبليغات والشاعرات اللائى كن فى كثير من الحالات نظيرات للرجال المعاصرين لهن ، وربما كان لهن التفوق عليهم ، وفيما يلى أمثلة موجزة لبعض منهن :

---

(١) ابن خلكان : الوفيات ١ : ١٧٨
(٢) ص ٥٠ من كتاب الشكوى المنشور بالمجلة الآسيوية سنة ١٩٣٠ .
(٣) ياقوت : معجم الأدباء ٩ : ٢٤٧ ؛ ابن بشكوال : الصلة فى تاريخ علماء الأندلس ١ : ١٣٣ .
(٤) ياقوت : معجم الأدباء ٥ : ١٤٠ ، النعيمى ١ : ١٠١ .

— كان النضر بن الحارث قد تعود أن يسب الرسول ويعتدى عليه قبل الهجرة، ثم كان النضر بين الأسرى يوم بدر فأمر الرسول به فقتل، فرثته أخته قتيلة بقصيدة طويلة منها هذه الأبيات :

هل يسمعنّى النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميّتٌ لا ينطقُ
أمحمّدٌ ، يانسل خير كريمة ... فى قومها ، والفحل فحل معرقُ
ما كان ضرّك لو مننتَ وربما ... منّ الفتى وهو المغيظ المُحنق
فالنضر أقرب من أسرتَ قرابةً ... وأحقّهم إن كان عتقٌ يُعتَقُ
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هنالك تُشقَقُ

قال ابن هشام : إن الرسول (ص) لما بلغه هذا الشعر قال : لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه[1].

— وكانت زوجه الفرزدق أديبة ناقدة ، يحتكم لها شعراء العصر وأدباؤه ، وقد حكمها الفرزدق بينه وبين جرير فقالت: إنه قد غلبك فى حلوه وشاركك فى مره[2].

— رابعة العدوية : أخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة ، وكانت شاعرة أديبة متصوفة تستعمل فى مناجاتها لله أسلوباً مملوءاً بالرقة والعذوبة والصفاء ، ومن ذلك قولها : إلهى ، أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟ وقولها :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى[3]

— زبيدة أم جعفر زوجة الرشيد : كانت تنظم الشعر وتناظر الرجال فى

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ١١٨ — ١١٩ .
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ٢ : ٩٣
(٣) انظر ترجمتها فى ابن خلكان .

شتى نواحى الثقافة والفكر ، وكانت فى شعرها رقيقة مُجيدة ، وكثيراً ما كانت تبعث برسائلها الفياضة أبياتاً شعرية إلى زوجها الرشيد ، ولما قتل محمد الأمين فى الحرب بينه وبين أخيه المأمون أرسلت زبيدة الأبيات الآتية إلى المأمون :

لِخَيْرِ إمام قام من خير عنصر ... وأفضل راقٍ فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين وفخرهم ... وللملك المأمون ، من أم جعفر
كتبتُ وعينى تستهل دموعُها ... إليك ابنَ عمى مع جفونى ومحجرى
أُصِبتُ بأدنى الناس منك قرابة ... ومن زال عن كبدى فقلَّ تصبرى

ولما قتل ولدها الأمين رثته بقصائد رائعة منها :

أودى بالْفَتَيْن من لم يترك الناسا ... فامنح فؤادك عن مقتولك الباسا
لما رأيت المنايا قد قصدن له ... أُصبن منه سواد القلب والراسا
فبتُّ من شجنى أرعى النجوم له ... إخال وَجْنَتَه فى الليل قرطاسا
والموت كان به والهم قارنه ... حتى سقاه ـ التى أودى بها ـ الكاسا
رزئته حين باهيت الرجال به ... وقد بنيت به للدهر آساسا[1]

— حمدة بنت زياد المؤدب وأختها زينب : يقول عنهما لسان الدين بن الخطيب[2] : شاعرتان أديبتان ، من أهل الجمال والمال والمعارف والصون ، إلا أن حب الأدب كان يحملهما على مخالطة أهله مع صيانة مشهورة ونزاهة موثوق بها ويقول ياقوت[3] إن حمدة كانت تلقب بخنساء المغرب ، وشاعرة الأندلس ، وقد خرجت مرة للتنزه بالرملة من نواحى وادى آش فرأت فتاة ذات وجه وسيم أعجبها فقالت :

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٣١٥ — ٣١٦ المطبعة البهية ١٣٤٩ هـ .

(٢) الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ : ٣١٦ . (٣) معجم الأدباء ٤ : ١٤٤ .

أباح الدمعُ أسرارى بِوَادى   له فى الحسن آثار بَوَادى
فمن نهر يطوف بكل روض   ومن روض يرف بكل وادى
ومن بين الظباء مهاة أنس   سبت لبى وقد ملكت فؤادى
لها لحظ تُرقِّده لأمر   وذاك الأمر يمنعنى رُقادى
إذا سَدَلَتْ ذوائبها عليها   رأيتَ البدرَ فى أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق   فمن حزن تسربل بالسواد (١)

— مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى : أديبة شاعرة ، كانت تعلم النساء الأدب وعمرت عمراً طويلا ومن شعرها وقد كبرت :

وما يُرتجى من بنت سبعين حجّةٍ   وسبع ، كنسج العنكبوت المهلهل
تدب دبيب الطفل تسعى إلى العصا   وتمشى بها مشى الأسير المكبل (٢)

— بدانية ، مولاة أبى المطرف عبد الرحمن بن غلبون : أخذت عن مولاها النحو واللغة لكنها فاقته فى ذلك وبرعت فى العروض ، وكانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقالى وتشرحهما ، قال أبو داود سليمان بن نجاح قرأت عليها الكتابين وأخذت عنها العروض (٣).

— حفصة بنت الحاج الركونى : يقول عنها لسان الدين بن الخطيب (٤) إنها كانت فريدة الزمان فى الحسن والظرف والأدب واللوذعية ، أديبة نبيلة جيدة البديهة سريعة الشعر . ويضيف ياقوت (٥) أنها كانت مشهورة بالحسب والأدب والجمال ، أستاذة وَلِيَتْ تعليمَ النساء فى دار المنصور أمير المؤمنين عبد المؤمن ابن على وقد تولع بها أمير المؤمنين المذكور وتغير بسببها على الوزير أبى جعفر

(١) انظر أيضاً المقرى : نفح الطيب ص ١١٤٢ .
(٢) المقرى : نفح الطيب ص ١١٤٣ .   (٣) المرجع السابق ص ١٠٧٨
(٤) الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ : ٣١٦ وما بعدها .
(٥) معجم الأدباء ٤ : ١١٩ — ١٢٢

أحمد بن عبد الملك وكان عاشقاً لها متصلا بها يتبادلان رسائل الغرام ويتجاوبان تجاوب الحمام ، ومما جرى بينهما أنه بات معها فى بستان (بحوز مؤمل) فلما حان وقت التفرق قال :

رعى الله ليلاً لم يُرَعْ بمذمّم عشية وارانا (بحوز مؤمّلِ)
وقد خفقت من نحو نجد أريجةٌ إذا نفحت جاءت بريا القرَنْفُلُ
وغرّد قُمْرِىٌ على الدوح وانثنى قضيب من الريحان من فوق جدولِ
يرى الروض مسروراً بما قد بدا له عناقٌ وضم وارتشافُ مقبّلِ

فقالت :

لعمرك ما سُرَّ الرياض بوصلنا ولكنه أبدى لنا الغِلَّ والحسدْ
ولا صفق النهر ارتياحا لقربنا ولا غرد القُمرى إلا لما وجد
فلا تحسن الظن الذى أنت أهله فما هو فى كل المواطن بالرَّشَدْ
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومَه لأمرٍ سوى كيما تكون لنا رصدْ

وبلغها أن أبا جعفر علق بجارية سوداء فكتبت إليه :

عشقت سوداء مثل ليلٍ بدائعَ الحسن قد سترْ
لا يظهر البشرُ فى دجاها كلا ولا يُبصَرُ الخفَرْ
بالله قل لى وأنت أدرى بكل من هام فى الصورْ
من ذا الذى حب قبلُ رَوْضاً لا نَوْرَ فيه ولا زَهَرْ (١)

وللسيوطى مؤلف قيم عنوانه « نزهة الجلساء فى أشعار النساء » وهو لا زال مخطوطاً بالمكتبة الظاهرية بدمشق وهو يحوى تراجم سبع وثلاثين شاعرة مع نماذج رائعة من أشعارهن ، وفيما يلى بعض ما كتبه السيوطى عن واحدة من هؤلاء :

— تقية أم على بنت أبى الفرج : كانت أديبة فاضلة وشاعرة ممتازة ، لها

(١) انظر أيضاً المقرى : نفح الطيب ص ١٠٧٨ وما بعدها .

شعر وقصائد ومقطوعات . . . نظمت قصيدة تمدح الملك المظفر تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين ، وكانت القصيدة خمرية فوصفت آلة المجلس والخمر وما تفعله بالنفوس أحسن وصف ، فلما وقف عليها تقى الدين قال : الشيخة تعرف هذه الأحوال من عهد صباها ، فبلغها ذلك فنظمت قصيدة أخرى حربية ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن صفة ثم سيرتها إليه تقول : علمى بهذا كعلمى بذاك .
ومن شعرها :

نأيت وما قلبى عن النأى بالراضى ... فلا تفترر منى بصدى وأعراضى
وإنى لمشتاق إليهم متيم ... وقد طعنوا قلبى بأسمر عراض
إذا ما تذكرت الشآم وأهله ... بكيت دماً حزناً على الزمن الماضى
أبيت أراعى النجم والنجمُ راكد ... وقد حجبوا عن مقلتى طيب أغماضى
فهل طارق منهم يُلِمُّ بناظرى ... فإن لقاء الطيف أكبر أغراضى

وقد ولدت تقية بدمشق سنة ٥٠٥ وماتت سنة ٥٧٧[١] .

الموسيقى والغناء :

يقول H. G. Farmer[٢] حفلت حياة العربى بالموسيقى من المهد إلى اللحد ، سمعها منذ كان طفلا يهدهد بالغناء والموسيقى ، وظل يسمعها طوال عمره حتى عزفت الألحان تفجعه وترثيه . وكان لكل مناسبة من المناسبات التى تمر بالعربى موسيقاها الخاصة ، فللفرح ألحانه المرحة ، وللحزن أنغامه المشجية ، ولكل من العمل أو اللعب نوع من العزف ، وللحروب موسيقاها التى تبعث الهمم وتقوى العزائم ، وللمواقف الدينية ترانيمها العذبة الفياضة . وقد حرص كل عربى ذى شأن فى تلك

(١) ورقة رقم ١٢ أ ، ب .
(٢) The Legacy of Islam P. 258

الأيام على أن تـكون عنده جارية مغنية ، وقلما كان يخلو منها بيت ، إذ كان انتشارها يشبه إلى حد كبير انتشار جهاز (البيانو) فى العهد الحاضر فى منازل الطبقة العليا من الناس .

ويستطيع قارىء هذه العبارة أن يدرك العدد الضخم من الموسيقيين والموسيقيات والمغنين والمغنيات الذين كانت تنبعث ألحانهم وأنغامهم فى العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، ويكفى أن يُذْكَر كتاب الأغانى ليستعرض الإنسان فى خاطره هذه المكانة السامية التى نعم بها فن الموسيقى وفن الغناء ، وليدرك أن طوائف متعددة أسهمت فى الرقى بهذين الفنين الجميلين ، فقد نشط الموسيقيون والمغنون والموسيقيات والمغنيات للاستجابة لنداء العصر ، وبذل الخلفاء والأثرياء من أموالهم لهؤلاء وأولئك ماشجعهم على الإجادة والإبداع ، كما نشط المؤلفون يدونون وينشرون على الملأ ما يكتبون .

وكتاب الأغانى خير مرجع لنا فى ذلك الموضوع ويجىء بعده نهاية الأرب للنويرى ونفح الطيب للمقرى ، ومن هذه المصادر نسوق الحديث عن عدد قليل ممن برزن فى هذه الصناعة :

— جميلة مولاة بنى سليم : يرى الأصفهانى[1] أنها أصل من أصول الغناء ، وعنها أخذ معبد وابن عائشة ، وحبابة وسلامة ، وعقيلة العقيقية ، والشماسيتان خليدة وربيحة ، وكانت أعلم خلق الله بالغناء ، وكان معبد يقول : أصل الغناء جميلة وفرعه نحن ، ولولا جميلة لم نـكن نحن مغنين ، وكان يقصد لها الناس ويجلسون للتعلم ، كما كان يقصدها مشهورو المغنين ليحتكموا لها ، فكانت تفاضل بينهم ، وكان حكمها دائماً موضع القبول والرضا ، وكانت تعتز بفنها اعتزازاً كبيراً حتى أنها آلت

(١) الأغانى ٧ : ١٢٤ .

على نفسها ألا تغنى أحداً إلا فى منزلها ، ومن أجل هذا كان يسعى لمنزلها سادة الدولة وعظاؤها لينعموا بصوتها الساحر ، وليسعدوا بغنائها الحنون ، وكان غناء الانتقال لها لا يعدل اللذة التى ينعمون بها والمتعة التى يحصلون عليها(١) .

— دنانير : كانت دنانير مولاة يحيى بن خالد ، وكانت صفراء مولدة ، وكانت من أحسن الناس وجهاً ، وأظرفهن ، وأكملهن ، وأحسنهن أدباً ، وأكثرهن رواية للغناء والشعر ، وكان الرشيد لشغفه بها يكثر السير إلى مولاها ليسمعها ، وكان يكثر الإقامة عنده حتى ألفها ، واشتد إعجابه بها ، فوهب لها هبات سنية ، وعلمت أم جعفر خبره فشكته إلى عمومته فصاروا جميعاً إليه فعاتبوه .

فقال : مالى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها وإنما أربى فى غنائها ، فاسمعوها فإن استحقت أن يُؤْلَف غناؤها وإلا فقولوا ماشئتم ، ثم انتقلوا إلى منزل يحيى فلما سمعوها عذروه .

ومما يدعو للإعجاب بدنانير وصنعتها الغنائية ما يحكيه الأصفهانى أنه كان لها كتاب مشهور فى الأغانى(٢) .

— علية بنت المهدى : أخت هارون الرشيد وهى من الحرائر اللاتى فقن الجوارى فى الغناء ، وكانت من أحسن الناس وأظرفهم ، تقول الشعر الجيد ، وتصوغ فيه الألحان الحسنة ، وكان بها عيب ، إذ كان فى جبينها فضل سعة فاتخذت العصائب المكللة بالجواهر لتستر بها جبينها فأحدثت شيئاً ما ابتدعت نساء ذلك العصر أجمل منه .

ويقول عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع إنه ما اجتمع فى الإسلام قط أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدى وأخته علية ، وكانت تُقَدِّم

(١) انظر أيضاً النويرى : نهاية الأرب ٥ : ٤٩ — ٥٠ .
(٢) الأغانى ١٦ : ١٣٦—١٣٩ ملخص .

عليه . ويحكى عن عريب أنها قالت : أحسن يوم رأيته وأطيبه يوم اجتمعتُ مع إبراهيم بن المهدى عند أخته عليّة وعندهم أخوهم يعقوب وكان أحذق الناس بالزمر ، فبدأت عليّة فغنتهم من صنعتهم وأخوها يعقوب يزمر عليها ، وكان مطلع المقطوعة التى غنتها عليّة هو :

تحبب فإن الحب داعيـــــة الحب   وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

وكانت عليّة تحب خادماً من خدم الرشيد اسمه (طل) وكانت تراسله بالشعر فحلف عليها الرشيد ألا تكلم (طلا) ولا تسميه باسمه ، فضمنت ذلك ، وكانت مرة بعد ذلك تقرأ القرآن والرشيد يستمع إليها فوصلت إلى قوله تعالى «فإن لم يصبها وابل فطل » ولكنها لم تشأ أن تنطق كلمة طل حفظاً على عهدها للرشيد فقالت : فإن لم يصبها وابل فالذى نهانا عنه أمير المؤمنين ، فضحك الرشيد ، وقبل رأسها ، ووهب لها طلا ، وقال : لا أمنعك بعد هذا من شىء تريدينه .

ومن شعرها الذى غنته فأبدعت فيه قولها :

نام عُـــذّالى ولم أنم   واشتفى الواشـــون من سقمى
وإذا ما قـــلت بى ألم   شك من أهواه فى ألمى(١)

ـ متيم الهاشمية : نشأت متيم بالبصرة وفيها تأدبت وغنت ، وأخذت عن إسحق وعن أبيه من قبله ، وعن طبقتهما من المغنين ، وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناء وأدباً .

حكى الهشامى قال : كانت متيم ذات يوم جالسة بين يدى المعتصم ببغداد إبراهيم بن المهدى حاضر ، فغنت متيم :

زينب طيف يعتريني طوارقه   هدواً إذا ما النجم لاحت لواحقه

(١) الأغانى ٩ : ٨٣ — ٩٥ ، نهاية الأرب ٤ : ٢٣١ — ٢٣٧

فأشار إليها إبراهيم أن تعيده ، فقالت متيم للمعتصم : ياسيدى ، إبراهيم يستعيدنى الصوت وكأنه يريد أن يأخذه . فقال المعتصم لها : لاتعيديه . فلما كان بعد أيام كان إبراهيم حاضراً مجلس المعتصم ومتيم غائبة فانصرف إبراهيم بعد حين إلى منزله ومتيم فى منزلها بالميدان وطريقه عليها ، وكانت هى فى منظرة لها مشرفة على الطريق وهى تغنى هذا الصوت وتطرحه على جوارى سيدها على بن هشام ، فتقدم إبراهيم إلى المنظرة وهو على دابته وتطاول حتى أخذ الصوت ، ثم دق الباب بمقرعته وقال : قد أخذناه بلا حمدك[١] .

— خديجة بنت الخليفة المأمون : حدثت مُلَح العطارة ـ وكانت من أحسن الناس غناء وإنما سميت العطارة لكثرة استعمالها العطر المطيب ـ قالت : غنت إحدى المغنيات يوماً بين يدى المتوكل مقطوعة عذبة منها :

بالله أخبرنَ : لمن ذا الرشا المثقل الرِّدف الهضيم الحشا
أظرف ما كان إذا ما ضحا وأملح النـاس إذا ما انتشى

فطرب المتوكل وقال للمغنية : لمن هذا الغناء ؟ فقالت أخذته من دار المأمون ولا أدرى لمن هو . فقالت ملح : أنا أعلم الناس به . قال المتوكل لمن هو ياملح ؟ قالت : الشعر والغناء جميعاً لخديجة بنت المأمون[٢] .

وكان فى قصر الخليفة عبد الرحمن الثانى جناح يسمى « دار المدنيات » وكان ينزل فيه المغنيات اللائى جُلبنَ من المدينة ، وبخاصة قَلَم وعَلَم وفَضل ، وكانت فضل أبرعهن غناء وجمالا وأكثرهن حظوة عند الخليفة[٣] .

---

(١) الأغانى ٧ : ٣١ ـ ٤٨ .
(٢) الأغانى ١٤ : ١١٤ .
(٣) المقرى : نفح الطيب ٢ ـ ٥٧٨ .

— وكانت عيدة الطنبورية امرأة فاتنة الجمال عالية الأخلاق موفورة الذكاء، وكانت تجيد العزف على الآلة الموسيقية المسماة بالطنبور، ومنها أخذت عنيدة لقب الطنبورية ثم كان صوتها غاية فى الرقة والعذوبة[١].

الطب:

تقول Mugannam[٢] « إن النساء المسلمات قمن فى الحروب الإسلامية بالدور الذى تقوم به فى العهد الحاضر منظمات الصليب الأحمر » . فيروى إن أمية بنت قيس الغفارية قالت : أتيت رسول الله فى نسوة من بنى غفار فقلنا : يارسول الله، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا — وهو يسير إلى خيبر — فنداوى الجرحى، ونعين المسلمين بما استطعنا . فقال : على بركة الله[٣] . وتقول الربيع بنت معوذ : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسقى القوم ونخدمهم ونداوى الجرحى ونردُّ القتلى والجرحى إلى المدينة[٤] .

وبالإضافة إلى هذا فإن عندنا نساء برعن فى الطب وكانت لهن شهرة عظيمة بين الأطباء، وقد ترجم ابن أبى أصيبعه لبعضهن فى مؤلفه طبقات الأطباء، كما ورد ذكر بعضهن فى تاريخ الحكماء للقفطى وفى الإحاطة للسان الدين بن الخطيب . وفيما يلى نماذج قصيرة لبعضهن:

— زينب طبيبة بنى أود : كانت عارفة بالأعمال الطبية، خبيرة بالعلاج ومداواة آلام العين والجراحات ، مشهورة بين العرب بذلك ، حدث حماد

---

(١) Ameer Ali : A Short History of the Saracens p. 456.

(٢) The Arab women p. 25.

(٣) ابن هشام ٢ : ٢٤٣

(٤) ابن حجر : الإصابة ٤ : ٥٨٥ وانظر أيضاً عبد الله عفيفى : المرأة العربية ٢ : ٤٤ — ٤٦ .

ابن إسحاق عن أبيه عن كناسة عن أبيه عن جده قال : أتيت امرأة من بنى أود لتكحلنى من رمد قد أصابنى ، فكحلتنى ثم قالت : اضطجع قليلا حتى يدور الدواء فى عينك . فاضطجعتُ ثم تمثلت قول الشاعر :

أمخترمى ريبُ المنونَ ولم أزر طبيبَ بنى أود ـ على النأى زينبا

فضحكت ثم قالت : أتدرى فيمن قيل هذا الشعر ؟ قلت : لا . قالت : فىَّ والله قيل ، وأنا زينب التى عناها ، وأنا طبيبة بنى أود ، أفتدرى من الشاعر ؟ قلت : لا . قالت : عمك أبو سماك الأسدى[(١)] .

— أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطنجالى : كانت امرأة واسعة الاطلاع كثيرة المعارف أجادت عدة علوم مع الطب ، ولكنها فى الطب كانت أبرز وأشهر[(٢)] .

— أخت الحفيد بن زهر وابنها : كانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولها خبرة جيدة فيما يتعلق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان إلى نساء المنصور ولا يُقبَلُ لمداواة أهل المنصور سواها[(٣)] .

الشئون الحربية :

نبغ فى ظل الإسلام عدد كبير من النساء المحاربات ، وقد قامت نسيبة زوجة زيد بن عاصم بدور هام فى موقعة أحد ، إذ أنه لما قامت قريش بالهجوم على جيوش المسلمين المنهزمة قبيل نهاية المعركة حاربت نسيبة بشجاعة نادرة وجرحت بسيفها أحد عشر محارباً وكانت من الأسباب التى عطلت تقدم جيوش قريش[(٤)] .

(١) ابن أبى أصيبعة ١ : ١٢٣ .
(٢) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة ١ : ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .
(٣) ابن أبى أصيبعة ٢ : ٧٠ .
(٤) Mugannam. The Arab Women p. 25

— وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالا شديداً ، وجعلت هند بنت عتبة تقول : عضدوا الرجال بسيوفكم[١] وكانت جويرية بنت أبى سفيان مع زوجها فى حومة الوغى[٢] .

— وفى موقعة صفين كان يتميز جمل أحمر تركبه الزرقاء بنت عدى الهمدانية وهى توقد الحرب وتحض شيعة علىّ على القتال قائلة : أيها الناس إن المصباح لا يضىء مع الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . . . أيها فى الحرب قدماً غير ناكصين ولا متشاكسين .

وقد استدعاها معاوية أيام خلافته فسُيِّرتْ إليه فقال لها : والله يازرقاء . لقد شركت علياً فى كل دم سفكه . قالت : أحسن الله بشارتك قال : أو يسرك ذلك؟ قالت : نعم والله . فضحك معاوية وقال : والله لوفاؤ كم له بعد موته أعجب من حبكم له فى حياته ، ثم سألها أن تذكر حاجتها . فقالت : ياأمير المؤمنين ، آليت على نفسى ألا أسأل أميراً أَعنتُ عليه أبداً[٣] .

— وفى نفس المعركة كانت عكرشة بنت الأطرش متقلدة حمائل السيف تقاتل أهل الشام وتحث قومها على الجهاد والنضال[٤] .

— وفى سنة ١٣٩ هـ غزا صالح بن على والعباس بن محمد بلاد الروم ووغلا فيها وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة[٥] .

---

(١) البلاذرى فتوح البلدان ص ١٤١ .
(٢) الطبرى : ٤ : ٢١٠٠ — ٢١٠١ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٢١٣ .
(٤) المرجع السابق ١ : ٢١٥ .
(٥) ابن الأثير ٥ : ٢٧٢ .

أعمال أخرى أسهمت فيها المرأة

أسهمت المرأة المسلمة فى نواح أخرى من جوانب الحياة الإسلامية ، فقد أهلتها ثقافتها إلى أن تشتغل بالسياسة وشئون الحكم ، وأن تكون مصلحة اجتماعية ممتازة ، أو أن تشغل بعض المناصب العامة ذات الأهمية الكبرى .

— لقد كان للخيزران نصيب كبير فى إدارة شئون الدولة ، وكانت تتدخل فى شئون السياسة تدخلا سافراً فى عهد زوجها الخليفة المهدى ، وعهد ولديها الخليفتين الهادى والرشيد ، وكان الهادى فى بدء عهده بالخلافة كثير الطاعة لها مجيباً لها ما تسأل من الحوائج للناس ، فكانت المواكب لاتخلو من بابها ، فكلمته ذات يوم فى أمر فلم يجد إلى إجابتها سبيلا ، فاعتل عليها بعلة ، فقالت لابد من إجابتى . . واشتد الخلف بينهما ، فيقال أنها دبَّرت الخلاص منه لتستأنف فى عهد خلفه الرشيد نفوذها السياسى فى الدولة[1] .

— وإذا كان مزاج الخيزران حاداً فإن عندنا سيدة أخرى هى زبيدة زوجة الرشيد ، وقد تدخلت فى السياسة ولكن بفطنة وتؤدة ، يروى أنه كان لها فى السياسة رأى تسمو به إلى التدخل فى أمور الدولة كأفطن من يكون من الرجال[2] .

ولكن زبيدة مصلحة اجتماعية كانت أبرز منها سياسية ، يقول المسعودى : وكان أحسن الناس فعلا فى أيام الرشيد أم جعفر بنت المنصور لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة واتخاذ المصانع بها ، وما أحدثته من دور للتسبيل بالثغر الشامى

---

(١) انظر المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٥٥ وما بعدها . المطبعة البهية ١٣٤٦ ه .
(٢) مجلة المدور : حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٩٧ .

وطرسوس ، وما أوقفت على ذلك من الوقوف . ومن أروع آثارها الخالدة حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز وقصة ذلك أنها حجت سنة ١٨٦ ﻫ فأدركت مايعانيه أهل مكة من المشاق فى الحصول على ماء الشرب، فدعت خازن أموالها وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال ليبدأ الحفر وليشق الطريق للماء فى كل خفض ورفع وسهل وجبل ، مسافة اثنى عشر ميلا حتى يوصل الماء إلى مكة . وقد ظهر التردد على خازن الأموال لما تصوره من كثرة التكاليف ، فأدركت زبيدة سبب تردده فقالت له بحزم : اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً وعمل العمال وتم المشروع ، ولا يزال حتى اليوم يحمل اسمها (عين زبيدة) . وقد بلغت تكاليفه مليونا وسبعمائة ألف دينار(١) .

— وفى قرطبة كانت لبانة تشغل وظيفة قل أن شغلتها امرأة ، تلك أنها كانت سكرتيرة خاصة للخليفة الحكم(٢) .

— ونختم حديثنا عن ثقافة المرأة بهذه القصة الشهيرة التى لانظن أنها سلمت من المبالغات عبر الأجيال ولكنها طريفة على كل حال:

عُرِضت على الرشيد جارية حسناء ، طلب صاحبها عشرة آلاف دينار ثمناً لها ، وعلل ارتفاع ثمنها بإجادتها وبراعتها فى الدراسات المختلفة ، وقد أغرى هذا الادعاء الرشيدَ ، فقرر أن يختبر الفتاة أولا ، ودعا لاختبارها مشاهير الأساتذة فى علم الكلام والفقه والتفسير والطب وعلم النجوم والفلسفة والأدب والشطرنج ، وأخذ هؤلاء يمتحنونها واحداً بعد واحد ، ولم تكن الفتاة تجيب عن أسئلتهم فحسب وإنما كانت فى نهاية كل اختبار توجه إلى الممتحن سؤالا ، وما استطاع

(١) مروج الذهب ٢ : ٦١٦ طبعة المطبعة البهية ١٣٤٦ﻫ .

(٢) Khuda Bukhsh : Islamic Civilization p .295

أحد منهم أن يجيب عن السؤال الذى وجه إليه . ولما أيقن الرشيد من مواهبها وثقافتها النادرة دفع فيها الثمن العالى الذى طُلب فيها .

وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نقرر أن بيع الرقيقات لم يكن مظهراً من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المألوف ، بل إن كثيراً من الإماء كن يدفعن أنفسهن بطريق أو آخر إلى السوق مختارات رجاء أن يصلن إلى القصور ليتمتعن بحياة الترف والنعيم فى بيوت الخلفاء والأمراء [١] .

---

(١) جيل نخلة : حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٩٨ . (بتصرف)

الباب الخامس

رعاة العلم وفلسفة النظم بالمعاهد العلمية

[illegible]

[illegible]

([illegible])

منشئو المعاهد العلمية

عبد الله المأمون، ونظام الملك، ونور الدين زنكى، وصلاح الدين الأيوبى، أسماء لامعة فى تاريخ الحركة العلمية التى رعاها المسلمون فى العصور الوسطى، وقد ارتبطت هذه الأسماء بتاريخ هذه النهضة ارتباطاً وثيقاً إذ كان كل من هؤلاء أمّةً وحده، وقام كل منهم بعمل ضخم كان ذا أثر كبير فى تاريخ الأمة الإسلامية. وقد حفل هذا الكتاب بالحديث عن هؤلاء الأشخاص فى مواضع متعددة وعُنِيَ بتعداد مآثرهم وأياديهم، وسأحاول هنا أن أضع بعض التفاصيل عن واحد من هؤلاء هو نظام الملك، الحسن بن على بن اسحق الطوسى، منشىء المدارس النظامية، ذائعة الصيت وعظيمة القدر. وقبل أن نبدأ هذا نخصص سطوراً قليلة لكل من الثلاثة الآخرين نشير فيها إلى مجمل النشاط العلمى الذى رعاه كل منهم:

المأمون (٢١٨هـ): يقول خودا بخش [1]: عند الحديث على النهضة الأدبية والنشاط العلمى فى العالم الإسلامى يبدو عصر المأمون وهو أزهى العصور، ومكانه القمة بالنسبة إلى سواه . . . . ومن الحق أن يقال إن جميع الحركات الثقافية فى الأقطار الإسلامية منذ عهد المأمون هى فروع للأصول التى غرسها وسقاها ذلك الخليفة العظيم.

فهذا بيت الحكمة أول مؤسسة ثقافية عند المسلمين يدين للمأمون بما منحه له من عناية، وما أضفى عليه من قوة، وما أنفق من مال، وعن طريق هذا المعهد كسبت اللغة العربية كثيراً من الزاد والمعرفة بما أجرى فى بيت الحكمة من ترجمة إليها من اللغات الأجنبية، وبواسطة بيت الحكمة حُفِظَ للإنسانية كثير

---

(1) Islamic Civilization pp. 276-277.

من تراث الإغريق الذى ضاعت أصوله ، ولم يجد العالم غير الترجمات العربية وسيلة للوصول إلى هذا التراث .

نور الدين (٥٦٩هـ) : كانت مملكة نور الدين فى سوريا أقوى مملكة قامت على أنقاض السلاجقة ، وقد خلد نور الدين اسمه كبطل من أبطال المسلمين فى حروبهم ضد الصليبيين ، واستطاع أن يضم إلى سمعته الحربية مكانه كمصلح اجتماعى كبير ، ومن أبرز إصلاحاته فى هذا المجال رعايته لشئون العلم ، فلقد أعد مملكته لتواصل حركة النشاط الذى بدأه نظام الملك ، أو لتتلقى عن العراق وخراسان ماضعفتا عن حمله بعد انهيار السلاجقة ، ومن هنا جاءت أهمية الدور الذى قام به نور الدين فهو لم يكن راعياً للعلم فقط ، وإنما كان مشرفاً على نهضته وحامياً لها حتى أسلمها إلى خلفه صلاح الدين ، ولولا نور الدين لخيف على هذه النهضة أن تفنى أو تضيع ، ولكنه واصل السير فى الطريق الذى بدأه سلفه ، فبنى فى الشام لأول مرة عدة من المدارس سبق الحديث عنها وفتح قلبه ومعاهده للمدرسين والعلماء الذين ضاقت بهم العراق وخراسان بعد ما حل بهما من شقاق واضطراب، وهكذا كان نور الدين حلقة الاتصال بين نظام الملك الذى غرس النهضة التعليمية ورعاها وبين صلاح الدين الذى كتبت لها على يديه البركة والنماء .

صلاح الدين (٥٨٩ هـ) : الحديث عن صلاح الدين الأيوبى متشعب النواحى ، ومجاله خصب فى أى ناحية من نواحيه[١] ، ولكننا نريد فى هذه الإلمامة السريعة المقتضبة أن نذكر المعنى الذى سبقت الإشارة إليه عند كلامنا على نور الدين فإن صلاح الدين كان أولا قائداً من قواد نور الدين ثم حكم مصر باسمه ، ثم خلفه على عرشه فى مصر ، ثم فى الشام ، ومن هنا يظهر بوضوح سبب التشابه بين صلاح الدين ونور الدين .

(١) تحدثنا عنه بكثير من الافاضة فى الجزء الخامس من « موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية »

وتلقى صلاح الدين غرس النهضة من سلفه ، فشيد لأول مرة المدارس فى مصر ، وفى سبيل العلم والفضل كانت تهون عليه نفقات بيوت المال[1] وكان يقول للخبوشانى المشرف على إحدى مدارسه : زد احتفالا وتأنقاً وعلينا القيام بمئونة ذلك[2] . ودخول المدارس مصر ليس سهلا فى نظر من يكتب تاريخ التربية الإسلامية ؛ لأن معناه حفظ ذلك التراث من غوغاء التتار الذين اجتاحوا معظم العالم الإسلامى ، وأفنوا كثيراً من مظاهر الرقى فيه ، وكان كرم صلاح الدين وسخاؤه داعياً لجذب العلماء والطلاب لا من العراق فحسب بل من شمالى إفريقية أيضاً حيث كانت مصر فى منتصف المسافة ، فرحل لها من هنا وهناك جمهرة كبيرة وجدوا فى صلاح الدين باراً كريماً وحامياً عظيماً ، فجمعهم الإحسان الصلاحى كما يقول عبد اللطيف البغدادى[3] .

نظام الملك (٤٨٥ هـ) : الذى حدا بى إلى اختيار نظام الملك لإعطاء بعض تفاصيل عنه ، هو الاستجابة إلى الرغبة التى سبقت الإشارة إليها والتى أبداها الكثيرون يأملون معلومات أوفى وحديثاً أوسع عن المدارس النظامية ، ولذلك سنجعل حديثنا عن نظام الملك تحليلا لنقطتين هامتين تتصلان بهذه المدارس ، وفى خلال الكلام عن النقطة الثانية سترد سيرةُ ذلك الوزير العظيم ، أما هاتان النقطتان فهما :

١ — من كان أول منشىء للمدارس فى الإسلام ؟

٢ — لماذا نسبت هذه المدارس لنظام الملك ولم تنسب لسلاطين السلاجقة ؟

والإجابة عن السؤال الأول موضع خلاف بين المؤرخين . يقول ابن خلكان[4] إن نظام الملك هو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس . ولكن السبكى[5]

---

(١) ابن جبير ص ٥٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٨ . (٣) الافادة والاعتبار ص ١٦ .

(٤) الوفيات ١ : ٢٠٢ . (٥) طبقات الشافعية ٣ : ١٢٧ .

والقريزى[١] يذكران أن نظام الملك ليس أول من أنشأ المدارس فى الإسلام ، فقد وُجِدَت المدرسة البيهقية بنيشابور قبل أن يولد نظام الملك ، والمدرسة السعيدية بنيشابور أيضاً بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود لما كان والياً بنيشابور ، ومدرسة ثالثة بنيشابور بناها أبو سعيد إسماعيل بن على ، ومدرسة رابعة بنيشابور أيضاً بنيت للأستاذ أبى إسحق الاسفرائينى ، ويحاول السبكى[٢] أن يوفق بين الرأيين فينسب إلى نظام الملك أنه كان أول من قدر المعاليم للطلبة ، فكأنَّ المقصود بإنشاء المدارس هو إنشاء هذه المعاليم وتقديرها وصرفها للطلبة .

فماذا يمكن أن يقال بعد سرد هذه الآراء ؟

لايطيب لى أن أوافق على ما اقترحه السبكى من أن المراد هو أن نظام الملك أول من قدر المعاليم للطلبة ، فإن قول ابن خلكان صريح فى أن نظام الملك هو أول من أنشأ المدارس لا أول من قدر المعاليم ، ثم أن العزيز بالله الفاطمى سبق نظام الملك بقرن تقريباً فى تقدير هذه المعاليم للطلاب[٣] .

فالمشكلة إذاً هى : هل كان نظام الملك أول من أنشأ المدارس أو لا ؟ الجواب عندى بالإيجاب إذا أريد المعنى الفنى الدقيق لهذا التعبير ؟ وأما مايطلق عليه كلمة مدارس مما ظهر قبل نظام الملك فجهد محدود ضحل لم يعمر طويلا ولم يكن قوى الأثر فى الحياة الإسلامية ، وهذا الجهد المحدود الضحل ظهر قبل مدارس نيشابور بعهد طويل .

فالذى ينسب إلى نظام الملك هو هذه النهضة التعليمية التى لم تتوقف قط ، هو هذا النظام الذى وُضع لتعليم المسلمين فى جميع البقاع ، هو هذه الشبكة من المدارس التى انتشرت فى القرى والكفور والمدن . ولا يستطيع إنسان أن يدعى أنه يجارى نظام الملك فى هذا المجال .

(١) المقريزى : الخطط ٢ : ٣٦٢ (٢) طبقات الشافعية ٣ : ١٣٧
(٣) المقريزى : الخطط ٢ : ٣٤١

أما لماذا نسبت هذه المدارس لنظام الملك ولم تنسب لسلاطين السلاجقة فإن هذا يتضح إذا تعرفنا على شخصية هذا الوزير ، لنرى مكانها وسلطانها ونفوذها بين سلاطين السلاجقة ، ودراسة هذه الشخصية يقتضينا أن نورد طرفاً من سيرته وهو ما سنشرع فيه[١] .

ولد نظام الملك يوم الجمعة الحادى والعشرين من ذى القعدة سنة ثمان وأربعمائة للهجرة بنوقان إحدى مدينتى طوس ، وليس يعنينا كثيراً أن نتتبع طفولة نظام الملك أو صباه لأن ذلك لا يهمنا كثيراً فيما نحن بصدده ، ولأننا فى الواقع ليس عندنا معلومات موثوق بها عن حياته الأولى ، فمن المعروف أن هذه الفترة من حياة الرجل العصامى تكتب فى عهد متأخر عندما يبرز نبوغه وتظهر عبقريته ، ولهذا يدخلها كثير من المبالغة والتحريف ، لتأثر الكاتب بما وصل له صاحب الترجمة من مجد وعظمة .

اتصل نظام الملك فى مطلع شبابه بخدمة على بن شاذان والى مدينة بلخ وعمل كاتباً له ، ولكن على بن شاذان كان يصادره فى كل سنة ، فهرب منه وقصد داود بن ميكائيل السلجوقى والد السلطان ألب أرسلان ، فظهر لداود منه النصح والوهبة ، فسلمه إلى ولده ألب أرسلان وقال له اتخذه والداً ولا تخالفه فيما يشير به[٢] . وقبيل وفاة السلطان طغرلبك عم ألب أرسلان أوصى السلطان

(١) من أوفى التراجم التى كتبت عن نظام الملك تلك التى كتبها السبكى فى طبقات الشافعية ٣ : ١٣٥ـ١٤٥ وقد كتبت بأسلوب رائع وصورت نظام الملك على أنه من أعظم المصلحين الاجتماعيين فى الإسلام وأن شخصيته من أقوى الشخصيات التاريخية ، ونحن اعتماداً على هذه الترجمة وعلى ما كتبه عماد الدين الأصفهانى وابن الأثير وابن خلكان وابن الجوزى عن نظام الملك نقدم ترجمة موجزة لهذا الوزير العظيم .

(٢) ابن خلكان ١ : ٢٠٢

بالأمر لسليمان بن داود أخى ألب أرسلان ، ولم ينصَّ عَلَى سليمان لكفاءته بل لأن أمه كانت عنده فتبع هواها فى ولدها ، وقام سليمان بالأمر عقب وفاة طغرلبك ، ولكنْ ثار عليه أخوه ألب أرسلان يساعده نظام الملك ، كما ثار شهاب الدين قتلمش . فلم يتم الأمر لسليمان بل تم لألب أرسلان الذى عظمت مملكته ورُهبت سلطته[1] . ولما تم الأمر لألب أرسلان عزل الكندرى وزير عمه طغرلبك لأن هذا الوزير كان فى بادىء الأمر يناصر سليمان[2] وأصبح نظام الملك إذاً ألمع شخصية فى القصر الملكى ، فأسند له ألب أرسلان أمر الوزارة ، فقام بها خير قيام وبرهن على مقدرة فائقة ومواهب عظيمة ، وبهذا خطا نظام الملك إلى قمة المجد ، ووضعت بين يديه مقاليد الأمور ، وكان بجانب تفوقه فى السياسة رجلا له دراية كاملة بشئون الحرب وميادين القتال ، وقد صحب السلطانَ ألب أرسلان فى معظم حروبه كما غزا مع الأميرَ الشاب ملكشاه عدة غزوات ، استوليا فيها على كثير من حاميات الأعداء وحصونهم ، كما قاد وحده الجيوش عدة مرات وخاض بها معارك كتب له فيها النصر[3] .

فلما اغتيل ألب أرسلان سنة خمس وستين وأربعمائة ازدحم أولاده على الملك ، ومرة أخرى لعب نظام الملك دوراً هاماً حتى وطد الملك لملكشاه ، الذى كانت سنه لاتتجاوز الثمانية عشرة ، ولم يتم لنظام الملك هذا إلا بعد أن خاض مع الأمير الشاب عدة معارك ضد أعداء الدولة من جانب ، وضد الذين قادوا ثورات داخلية من الأمراء السلجوقيين وغيرهم من جانب آخر[4] . كما استطاع نظام الملك بحكمته

---

(١) ابن الأثير : الكامل : ١٠ : ١٨ — ١٩ ، ابن خلكان ٢ : ٦٦ — ٦٧ .

(٢) ابن الأثير نفس الصفحة وقد وجئت عنق هذا الوزير بعد ذلك .

(٣) ابن الأثير ١٠ : ٢٥

(٤) المصدر نفسه ١٠ : ٢٥ ، وابن خلكان ١ : ٢٠٢

وسياسته أن يتغلب على بعض المشكلات ، وأن يجعل الأمور تستقر دون كثير من إراقة الدماء ، يروى ابن خلكان[1] أن بعض أعمام ملكشاه قد خرج عليه فعاجله جيش السلطان وهزمه ، وتبعه بعض جند ملكشاه فأسروه وحملوه إلى السلطان ، فأظهر ذلك الأمير خريطة مملوءة بكتب أرسلها الأمراء الذين يُظهرون الطاعة للسلطان ، يحثون فيها الثائر على الخروج عن الطاعة ويحسّنون له ذلك ، فدعا السلطانُ الوزير نظامَ الملك وأعطاه الخريطة ليفتحها ويقرأ مافيها فلم يفتحها ، وكان هناك كانون نار فرمى الخريطة فيه ، فاحترقت الكتب ، فسكنت قلوب الأمراء والعساكر ، وأمنوا ووطّنوا أنفسهم على الخدمة بعد أن كانوا قد خافوا من الخريطة ، لأن أكثرهم كان قد كاتبه ، وكان هذا سبب ثبات قدم ملكشاه فى السلطنة ، كما كانت هذه معدودة من جميل آراء نظام الملك .

وكل هذه العوامل جعلت السلطان يحس أنه مدين لنظام الملك وأن أباه من قبله مدين له ، ثم – بالإضافة إلى هذا – استجاب ملكشاه إلى داعى الشباب ، فشغل نفسه بالصيد واللذة ، وتمتع بالأبهة والتنوع فى الملذات[2] ، وردّ الأمور كلها كبيرها وصغيرها إلى نظام الملك قائلا له : أنت الوالد ، وحلف له وأقطعه إقطاعاً زائداً على ما كان ، من جملته طوس مدينة نظام الملك ، وخلع عليه ولقّبه ألقاباً من جملتها (أتابك) ومعناه الأمير الوالد فظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته ما هو مشهور[3] .

وبهذا أصبح نظام الملك هو الآمر المتصرف لا يجرى جليل ولا حقير

---

(١) الوفيات ٢ : ١٨١ .
(٢) السبكى : طبقات الشافعية ٣ : ١٣٩
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١٠ : ٥٤

إلا بأمره ، مستبداً بذلك ، واكتفى السلطان بالاسم وبإنفاق وقته فى اللذة والصيد[١] .

وكانت مواهب نظام الملك المتنوعة تساعده مساعدة كبيرة فى إدارة شئون الدولة التى سيطر على أمورها ، فكانت له إصلاحات ذات بال ، إذ أسقط المكوس والضرائب الجائرة ، وأزال لعن الأشعرية من المنابر[٢] كما كان حسن المعاملة للرعية كثير الحدب عليهم[٣] .

وبالإضافة إلى نجاحه فى السياسة وتدبير الملك فإنه كان تبعاً لرواية السبكى[٤] واسع الثقافة ، سمع الحديث بأصفهان من محمد بن على الأديب وأبى منصور شجاع، وبنيسابور من الأستاذ أبى القاسم القشيرى وببغداد من أبى الخطاب بن البطر وغيره ، وأملى ببغداد مجلسين أحدهما بجامع المهدى والآخر بمدرسته ، وحضر إملاءه الأئمة ، وروى عنه جماعة من العلماء ويضيف ابن الأثير(٥) أنه كان يقول تعليقاً على جلسته مجلسَ المُملِى : إنى لست من أهل هذا الشأن ، ولكنى أحب أن أجعل نفسى على قطار نقلة حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) . وكان إقباله على العلماء ، وسماحته معهم وإبطاله لعن الأشعرية داعياً إلى أن يعود إلى البلاد العلماء الأفاضل من أمثال إمام الحرمين وأبى القاسم القشيرى بعد أن كانوا هجروا البلاد ورحلوا عنها[٦] .

وكان أهل الدين والعلم والفضائل راتعين فى أنعامه ، وكان بابه مجمع

(١) السبكى : ٣ : ١٣٩ ، وابن خلكان ١ : ٢٠٢

(٢) ابن الأثير : ١٠ : ١٤١

(٣) المرجع السابق ص ٥٤

(٤) طبقات الشافعية ٣ : ١٤٠

(٥) الكامل فى التاريخ ١٠ : ١٤١

(٦) ابن الأثير ١٠ : ١٤١

الفضلاء وملجأ العلماء ، وكان نافذاً بصيراً ينقب عن أحوال كل منهم فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه . . . ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره وتدريسه ، وربما سيّره إلى إقليم خال من العلم ليحلى به عاطله ، ويحيى به حقه ، ويميت باطله[1] .

وبنى نظام الملك المدارس والربط والمساجد فى البلاد وأمدها بما تحتاج إليه من كتب ، وعين لها المدرسين والطلاب والخدم ، وبذل لهم العطايا الكريمة فأحيا بذلك معالم الدين ، ونشط من العلم وأهله ما كان خاملا مهملا فى أيام من قبله .

فإنشاء المدارس إذاً إنما هو واحد من أفضاله وأياديه ، ومأثرة ترجع له وحده ولا ترجع لسواه ، ومن هنا نسبت له هذه المدارس وحملت اسمه وعرفت به ، هذا وإذا كان من المتبع أن تنسب مثل هذه المؤسسات إلى أعظم شخصية فى الدولة فإن تسمية المدارس النظامية مطابقة لهذه القاعدة فما كان فى الدولة فى ذلك العهد من يجارى نظام الملك أو يناظر ذلك الوزير الخطير .

ويبدو أن طول الزمن ورغبة ملكشاه فى استعادة سلطانه الشرعى وإحساسه بالاجتياح بجوار نظام الملك ، كل هذا أدخل الغيرة على نفس السلطان فبدأ يتغير ، وانتهز فرصة تصرف خاطىء[2] قام به أحد أحفاد نظام الملك ، فأرسل السلطان للوزير يقول : إن كنت شريكى فى الملك ويدك مع يدى فى السلطنة فلذلك حكم ، وإن كنت نائبى فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابه ، وهؤلاء

---

(١) عماد الدين الأصفهانى : تاريخ آل سلجوق ٥٦ـ٥٧ .

(٢) القصة بأكملها فى ابن الأثير ١٠ : ١٣٨

أولادك . . . فقال الوزير لرسل السلطان : قولوا له : إن كنت ماعلمت أنى شريكك فى الملك فاعلم ، فإنك مانلت هذا الأمر إلا بتدبيرى ورأيى ، أما يذكر حين قتل أبوه فقمت بتدبير أمره وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم ، وقدت الأمور إليه . وجمعت الكلمة عليه ، وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة ، حتى أطاعه القاصى والدانى ، والآن أقبل يتجنى لى الذنوب ويسمع فىّ السعايات ، قولوا له عنى : إن ثبات تلك القلنسوة (التاج) مرتبط بهذه الدواة ، ومتى أطبقت هذه زالت تلك[١] .

وأشعل هذا الردُّ الصريحُ ثورةَ الغضب والحقد فى نفس ملكشاه فيقال أنه دبر قتله ، وقيل إن الذى اغتاله صبى ديلمى من الباطنية تقدم إليه فى صورة مستميح أو مستغيث ، فضربه بسكين كانت معه فقضى عليه[٢] .

وانطفأت هذه الشعلة المتوهجة التى بعثت النور فى عصر الظلام ، ولكن سيرته وسيرة أعماله بقيت عاطرة بعده أجيالا وقرونا ، وها نحن أولاء نجدد ذكراه بكثير من الإجلال والتقدير .

الأوقاف على التعليم

قبل بيت الحكمة كان التعليم يجرى فى أمكنة غير مخصصة له ، كان يلتقى العلماء بالطلاب فى المساجد ، كما كان الراغبون فى العلم يسعون إلى دور الشيوخ للسماع منهم فيها وهكذا ، ومن أجل هذا لم تكن هناك نفقات معينة تبذل فى سبيل نشر العلم . فلما ظهرت الحاجة إلى تأسيس مكان يخصص لرعاية العلم ونشر الثقافة، ظهرت فى الوقت نفسه فكرة أن يوقف على هذا المعهد وقف يُفْتِحُ إيراداً

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ٩ : ٦٢ وابن الأثير ١٠ : ١٣٨ .
(٢) انظر ابن الاثير فى المكان السابق

يكفى للإنفاق على شئونه وشئون القائمين بالعمل فيه ، وكان المأمون أول من أبرز هذه الفكرة للوجود ، فإنه لم يشأ أن يكون نشاط بيت الحكمة متوقفاً على سخاء الخلفاء والأمراء ، بل أراد أن يجعل نشاطه قوياً متصلا سواء أ كان الخليفة كريماً أم شحيحاً ، فهيأ للعلماء رزقاً سخياً يتقاضونه من وقف ثابت يفيض ريعه عن التكاليف المطلوبة لهذه المؤسسة الثقافية[1] . وانتشرت فكرة المأمون هذه بين من خلفه من الخلفاء والعظماء ، فأصبح من ضروريات إنشاء معهد ثقافى أو مدرسة أن يعين لها وقف ثابت ، تلقى منه ما يفى بنفقاتها ، وما يمدها بما تحتاجه من مصروفات ، ثم تطور هذا الاتجاه ، فظهرت الأوقاف أيضاً على الذين يشغلون أنفسهم بخدمة العلم فى المساجد ، بل إن بعض الأركان أو الأعمدة بالمساجد كان يوقف عليها أوقاف سخية يصرف ريعها إلى من يجلس بها للتدريس والتعليم وفيما يلى عرض سريع لنماذج من هذه الأوقاف :

نظام الملك : سبق الحديث عن النهاية الأليمة التى نزلت بالمدارس النظامية ، وكيف أن نظامية بغداد مثلا اختفت فى ظروف غامضة ، وإن مكانها اغتصب منذ عهد سحيق ، فلم يعد معروفاً بوجه الدقة للباحثين والدارسين . ويبدو — للأسف — إن هذه النهاية الأليمة حاقت لا بالبناء فقط وإنما بكثير مما كتب عنه أيضاً ، فقد كان مما ضاع على الباحثين هذه الوثيقة التى كتبت فيها وقفية نظام الملك على مدارسه . لقد ورد ذكر هذه الوثيقة فى عدة مراجع ولكن الباحثين قديماً وحديثاً لم يستطيعوا أن يحصلوا على ذاتها أو نصها .

وعلى كل حال فعندنا من المصادر ما يمدُّ الباحث فى هذا

---

(١) Sayed Ameer Ali : A Short History of the Saracens p. 274

الموضوع بمعلومات إن لم تكن كاملة فهى قريبة من الكمال :

قال سبط بن الجوزى[1] : وفيها (أى فى سنة ٤٦٢ هـ) أوقف نظام الملك الأوقاف على النظامية . وحضر الوزير والقضاة والعدول بيت النوبة ، وكتبوا الكتب وأثبتت ، ومما وقف سوقُ المدرسة وضياعٌ وأماكن وشَرَط [نظام الملك] الشروط المعروفة .

ويقول أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى[2] فى حوادث نفس السنة : وفى يوم الإثنين السادس والعشرين من جمادى الآخرة جمع العميد أبو نصر الوجوه ، فأحضر أبا القاسم ابن الوزير فخر الدولة والنقيبين والأشراف وقاضى القضاة والشهود إلى المدرسة النظامية وقرِئت كتب وقفيتها ، ووَقَف الكتب فيها فكان فى الوقف ضِياعٌ وأملاك وسوق ابتنيت على بابها .

وقد رأى ابن جبير ببغداد نحواً من ثلاثين مدرسة وهو يقول إنه ما فيها مدرسة إلا وهى يقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية التى بناها نظام الملك ، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات واسعة للإنفاق على الفقهاء والمدرسين بها وللإجراء على الطلبة[3] .

أما ما خصص من المال لرعاية الشئون الثقافية على العموم ، وكذلك ريع الأوقاف المعينة للمدارس فإن المراجع التى بين أيدينا أوردت تفصيلات نافعة عنها ، فقد ورد أن ما كان ينفقه نظام الملك فى السنة على التعليم قد بلغ

---

(١) مرآة الزمان ١٢١ — ٢ مخطوط بباريس .

(٢) المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك جـ ٨ ص ٢٥٦ .

(٣) رحلة ابن جبير ٢٢٩ .

٦٠٠,٠٠٠ دينار[١].

أما الريع الذى كانت تنتجه الأوقاف المخصصة لنظامية بغداد فقد ورد أنه كان ١٥,٠٠٠ دينار فى العام[٢] وقد كان ذلك الريع كافياً لمرتبات الشيوخ ولِمَا يدفع للطلبة ، وكان يشمل مئونة طعامهم وملابسهم وفرشهم وغير ذلك من ضرورات معاشهم حتى نبغ فيها جمع من الفقهاء الأفاضل ممن لا يحصون كثرة[٣] أما أوقاف نظام الملك على نظامية أصفهان فقد كانت تغل ١٠,٠٠٠ دينار سنوياً[٤].

نور الدين : فيما يختص بنور الدين سبق أن أوردنا وثيقة هامة تبين بوضوح الأوقاف التى عينها للمدرسة النورية الكبرى ، وقد ظهر منها أن ريعها الوفير كان يكفى للإنفاق على الطلاب والمدرسين إنفاقاً متواصلا سخياً . ومن الممكن هنا أن نعطى مثالا آخر لنؤكد هذه الحقيقة ، فقد ذكر أبو شامة[٥] أن نور الدين وقف على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وعلى أئمتها ومدرسيها وفقهائها أوقافاً كافية ، ومن مناقبه أنه عين المغاربة الذين كانوا يلحقون بزاوية المالكية بالمسجد الجامع أوقافاً كثيرة منها طاحونتان ،وسبعة بساتين،وأرض بيضاء ،وحمام، ودكانان بالعطارين ، وجعل أحد هؤلاء المغاربة مشرفاً على هذه الأوقاف[٦].

(١) ناجى معروف : المدرسة المستنصرية ص ٨
(٢) محمد عبده : الاسلام والنصرانية ص٩٨
(٣) تاريخ مساجد بغداد للألوسى ص١٠٣
(٤) سعيد نفيس : مدرسة نظامية بغداد ص ٢
(٥) الروضتين ١ : ١٦ (٦) ابن جبير : الرحلة ص ٢٨٥

الأوقاف على التعليم فى مصر* :

وجدت الأوقاف على التعليم فى مصر قبل عهد نظام الملك ونور الدين بوقت طويل ، فمنذ سنة ٣٧٨ هـ فى خلال عهد العزيز بالله أصبح الأزهر معهداً علمياً أكثر منه مسجداً[١] ، ولذلك نجد أن الوزير يعقوب بن كلس يسأل الخليفة العزيز بالله فى صلة رزق جماعة من الفقهاء فأطلقَ لهم ما يكفى كل واحد منهم من الرزق الناض وأمر لهم بشراء دار وبنائها فبنيت بجانب الجامع الأزهر . فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع وتحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلى العصر ، وكان لهم أيضاً من مال الوزير صلة[٢] . فلما جاء الحاكم عمد إلى الأوقاف يُعيِّنها للإنفاق من ريعها على المساجد والمؤسسات الثقافية ، فلقد أوقف على الجامع الأزهر ، والجامع براشدة ، ودار العلم ، أوقافاً عظيمة ذكرها فى سجل أشهد عليه قاضى القضاة مالك بن سعيد الفاروقى . وكانت الأوقاف عبارة عن جميع الدار المعروفة بدار الضرب، وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف ، وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة، ويؤكد الحاكم أن هذه الوقفية دائمة للأبد لا يوهنها تقادم السنين[٣] .

فلما جاء الأيوبيون إلى مصر نقلوا معهم حماسة نظام الملك ونور الدين ، وحمايتهما للعلم ، ثم وجدوا أنفسهم فى مصر ، أمام تراث الفاطميين العريق ، ومدنيتهم العريضة ، التى كان الفن والعلم من أنضر فروعها ، فحافظ الأيوبيون على هذا التراث المزدوج ، ورعوا العلم ، وما بخلوا فى الإنفاق

---

* الحديث عن مصر سيشمل أيضاً الحديث عن سوريا ؛ إذ امتد نفوذ الفاطميين والأيوبيين والمماليك إلى بلاد الشام فى فترات طويلة من حكم هذه الأسر ، وعلى هذا فستذكر أمثلة عن الأوقاف فى سوريا خلال هذا الحديث .

(١) Stanley Lane-Poole : Cairo 123. 121.

(٢) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٧٣ . (٣) المصدر السابق ٢ : ٢٧٢ — ٢٧٤ .

عليه ، أنشأوا كثيراً من المدارس ، وأوقفوا عليها الأوقاف السخية ، وظهرت موجة من التنافس فى هذا السبيل أخذ فيها الأمراء والوزراء والعلماء والعامة بنصيب ملحوظ ، وفيما يلى أمثلة موجزة لهذه الأوقاف :

يقول ابن جبير[١] إن كل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه[٢] يعين لها السلطان صلاح الدين أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين بها ، ويضيف المقريزى أن صلاح الدين عندما بنى المدرسة الناصرية بالقرافة وقف عليها حماماً بجوارها ، وفرناً تجاهها ، وحوانيت بظاهرها ، والجزيرة التى يقال لها جزيرة الفيل ببحر النيل خارج القاهرة[٣] .

واقتدى بصلاح الدين غيره ممن أنشأوا المدارس ورعوا العلم فى العهد الأيوبى ، ومن هؤلاء تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب الذى اشترى منازل العز التى كانت تشرف على النيل ومعدة لنزهة الخلفاء الفاطميين ، ثم جعلها مدرسة للفقه الشافعى . ووقف عليها الحمام وما حولها ، وبنى فندقاً عرف بفندق النخلة ووقفه عليها ، ووقف عليها جزيرة الروضة التى كان قد اشتراها من قبل[٤] .

ومن المدارس التى حظيت بوقف سخى المدرسة الدماغية بدمشق وكانت داراً لشجاع الدين بن الدماغ فلما مات جعلتها زوجته مدرسة للشافعية والحنفية ووقفت عليها ثمانية أسهم من أربعة وعشرين سهماً من المزرعة الدماغية ، والحصة من رجم الحيات ، والحصة من حمام إسرائيل خارج دمشق ، والحصة بدير سلمان من المرج ، ومزرعة شرخوب عند قصر أم حكيم ، وعدا كرات ، وغير ذلك[٥] .

ويذكر المقريزى[٦] ثمانية من زوايا جامع عمرو التى كانت تقام بها حلقات

---

(١) الرحلة ص ٢٧٥ . (٢) خانقاه أو خانكاه كلمة فارسية الأصل جمعها فى العربية خوانق ومعناها دار موقوفة لسكنى الزهاد والصوفية والعباد (٣) انظر كذلك الخطط ٢ : ٤٠٠ .
(٤) الخطط ٣ : ٣٦٤ . (٥) النعيمى : الدارس ١ : ٢٣٦ — ٢٣٧ .
(٦) الخطط ٢ : ٢٥٥ — ٢٥٦ .

تعليمية ويشير إلى الأوقاف التى وقفت على كل من هذه الزوايا وفيما يلى إلمامة موجزة ببعضها :

— زاوية الإمام الشافعى التى درس بها فعرفت به ، ووُقِفت عليها أرض بناحية سنديس ، وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين .

— الزاوية الكمالية بالقصورة المجاورة لباب الجامع الذى يُدْخَل إليه من سوق الغزل، رتبها كمال الدين السمنودى وعليهافندق بمصر موقوف عليها .

— الزاوية التاجية أمام المحراب الخشب ، رتبها تاج الدين السطحى وجعل عليها دوراً بمصر موقوفة عليها .

وهكذا كانت الأوقاف فى الغالب هى المورد الذى ينفق منه على التعليم فى العالم الإسلامى ، ولكن فى بعض الحالات كانت نفقات التعليم تدفع من الخزانة العامة للدولة ، ذكر المؤرخون أن الوزير ابن كلس كان يُجرى بأمر العزيز بالله ألف دينار فى كل شهر على جماعة من أهل العلم والوراقين والمجلدين (١) .

ومن الأمثلة التى تدعو للعجب والدهشة ما رواه ابن بطوطة (٢) من أن أحمد ملك إيذج كان يقسم خراج بلاده أثلاثاً ويجعل الثلث لنفقة الزوايا والمدارس .

وفى ختام هذا البحث نورد وقفية هامة هى تلك التى وقفتها ست الشام أخت السلطان صلاح الدين على المدرسة الشامية الجوانية ، وقد خُرِّبت هذه المدرسة واتُّخِذت داراً ، ولكن بقى منها بابها القديم وقد كتب على عتبته العليا نص الوقفية ، وعلى الصفحة التالية صورة هذه العتبة (شكل رقم ١٥) وتمتاز هذه الوقفية ـ فوق أن مرجعها هو النص المكتوب على العتبة وهو مرجع موثوق به تماماً ـ بأنها وقفية مفصَّلة دقيقة ، ثم بأن طريق إنفاق ريع الأوقاف ورد لنا مفصلا فى مرجع هام هو تاريخ مدارس دمشق للنعيمى ،

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ١ : ٢٩٤ من الترجمة العربية.
(٢) تحفة النظار لابن بطوطة ٢ : ٣١ .



شكل رقم (١٥) اللوح الذي سجلت عليه اوقاف المدرسة الشامية الجوانية

وفيما يلي نص الوقفية :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذه مدرسة الخاتون الكبيرة الأجلة عصمة الدين ست الشام أم حسام الدين بنت أيوب بن شادى رحمها الله ، وقفتها على الفقهاء والمتفقهة من أصحاب الإمام (الشافعى) رضى الله عنه ، والموقوف عليها وعليهم وعلى ما يتبع ذلك ، جميعُ القرية المعروفة ببزينة ، وجميع الحصة وهى أحد عشر سهماً ونصف من أربعة وعشرين سهماً من جميع المزرعة المعروفة بحرمانا ، وجميع الحصة وهى أربعة عشر سهماً وسبع من أربعة وعشرين سهما من القرية المعروفة بالتينة ، ونصف القرية المعروفة بجيدل السويدا ، وجميع القرية المعروفة بجيدل القرية ، وذلك فى سنة ثمان وعشرين وستمائة .

أما الإنفاق على هذه المدرسة فقد وضع على النسق الآتى :

أولا — يبدأ فى الإنفاق بعمارة المدرسة ، وثمن زيت ، ومصابيح ، وحصر ، وبسط ، وقناديل ، وشمع ، وما تدعو الحاجة إليه ،

ثانياً — يدفع للمدرس غرارة من الحنطة ، وغرارة من الشعير ، ومائة وثلاثون درهماً فضة ناصرية .

ثالثاً — عشر الباقى يصرف إلى الناظر عن تعبه وخدمته ومشارفته للأملاك الموقوفة وتردده عليها .

رابعاً — إخراج ثلثمائة درهم فضة ناصرية فى كل سنة ، تصرف فى ثمن بطيخ ومشمش وحلوى فى ليلة النصف من شعبان على ما يراه الناظر .

خامساً — الباقى يصرف إلى الفقهاء والمتفقهة والمؤذن والقيِّم المعدّ لكنس المدرسة ورشها وفرشها وتنظيفها وإيقاد مصابيحها ، ويعطى هؤلاء على قدر استحقاقهم على ما يراه الناظر فى أمر هذا

الوقف من تسوية وتفضيل وزيادة ونقصان وعطاء وحرمان .

وقد ذكرت الواقفة أن من شرط الفقهاء والمتفقهة والمدرس والمؤذن والقيم أن يكونوا من أهل الخير والدين والصلاح والعفاف وحسن الطريقة وسلامة الاعتقاد والسنة والجماعة كما شرطت ـ رغبة منها فى أن يظل الملتحقون بالمدرسة فى مستوى مالى لائق ـ ألا يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة المشتغلين بهذه المدرسة عن عشرين رجلا ، من جملتهم المعيد بها والإمام ، وذلك بخلاف المدرس والمؤذن والقيم إلا أن يوجد فى ارتفاع الوقف نماء وزيادة وسعة فللناظر أن يقيم بقدر ما زاد ونما[1] .

حلقة التعليم

ظهرت حلقة التعليم فى العالم الإسلامى مبكرة ، أو قل إنها ظهرت مع ظهور الإسلام ، وتعددت الحلقات واستمرت ، ولا تزال حتى العهد الحاضر تحمل طابع الماضى المجيد ، وحسبك أن تزور الأزهر ، أو تزور أحد المساجد الشهيرة فى العالم الإسلامى كله ، لترى الشيخ مقبلاً على طلابه بحماسة ظاهرة ، وترى الطلاب تركزت عيونهم فى الشيخ ، لا يرون سواه ، ولا يستمعون إلا إليه ، كأنما شُدَّت عيونهم بوجه الشيخ ، وآذانهم بما ينطق به لسانه .

ويجلس الشيخ على حشيَّة صغيرة (شلتة) أو على منصة ، ويغلب أن يكون ظهره إلى حائط أو سارية من سوارى المسجد ، ويكوّن الحضورُ حلقةً أمامَهُ ، يكون هو فى أبرز نقطة فى محيطها ، ولا يجلس المستمعون

---

(١) النعيمى ١ : ٣٠٢ ـ ٣٠٣ بتقديم وتأخير .

فى الحلقة بدون ترتيب ، وإنما لـكل طبقة منهم مكان معين فيها ، فيجلس المعيدون والممتازون من الزوار عن يمين الشيخ ويساره ، ويجلس الرفقاء فى درس واحد فى جهة واحدة من الحلقة ، ليـكون نظر الشيخ إليهم جميعاً ، ويترك فى الحلقة فراغ ليجلس فيه من يحب أن يستمع إلى الدرس من الطارئين أو الذين لا يحضرون الدرس بانتظام . والعادة أن يحرص كل فرد أن يكون قريباً من الشيخ ولـكن على ألا يتعدى المـكان الذى هو أهل له[1] .

ويفتتح الشيخ الدرس بالبسملة وبالصلاة والتسليم على الرسول وعلى آله وصحبـه ، وربمـا تلا بعض آيات من الذكر الحكيم ، أو بعض أحاديث الرسول التى يحث الطلاب فيها على طلب العلم للعلم ، وعلى التواضع فى طلبه ، وعلى حسن السيرة والأخلاق ، مبيناً لهم أن ذلك يعين على حل المشكلات وإدراك المعميات ، ثم يبدأ الدرس بعد هذا التقديم .

فإذا كان المدرس يلقى من محفوظاته ، أو من مذكرات كتبها لأول مرة ليقرأ منهـا فإن الدرس يسمى إملاء ، وفى هـذه الحالة يكون إلقاء الدرس بطيئاً فقرة فقرة أو حديثـاً حديثـاً مع اتصال السند ، ويكتب الطلاب خلف المدرس ما يمليه[2] ، فإذا ما انتهى المدرس من إلقاء حديث أو فقرة مستقلة عرَّج بالشرح والإيضاح والتفسير لـمـا يكون قد غمض فى الفقرة أو الحديث ، ويدوِّن الطلاب هذه الشروح على هامش الأوراق التى كتبت عليهـا الأصول . فإذا ما اكتملت أمالى الشيخ فى ذلك الموضوع فإنه ربما قرأ الأمالى أو قُرِئت عليه لتصحيحها ، ويجب أن نلاحظ الدقة

(١) تذكرة السامع والمتكلم موجز ص ١٤٧ ـ ١٥١ وانظر أيضاً العبدرى : المدخل ١ : ٩٩ .
(٢) معجم ابن حجر ٨ ب و ١٩ .

فى النقل وفى التصحيح ، قال الوليد بن بكر [١] « وليس النصح فى أداء الشريعة باتخاذ مجالس الأمالى مع وجود فساد الألفاظ فى النقل ، ولكن النصح والاحتياط فى أدائها ، التعاهدُ لأسباب النقل . . . ثم يقرؤه الطالب للعرض على الراوى ؛ فإن الراوى يثبت صوابه وينفى خطأه حتى لا يختلف لفظ الفرع عن لفظ الأصل » فإذا تم ذلك فإن الشيخ قد يوقع على نسخة أو أكثر من نسخ تلاميذه ذاكراً أن هذا التلميذ قرأها عليه ، ويضيف أحياناً أن يجيزه فى أن يروى ذلك عنه أو أن يدرّسه بإذنه .

ومن هذه الأمالى تكونت المخطوطات التى طبع كثير منها فأصبحت كتباً شهيرة ومنها مازال مخطوطاً حتى الآن ،واتخذت تلك الكتب أو هذه المخطوطات عناوين مختلفة حسب موضوعاتها ، واحتفظ بعضها بلفظ « الأمالى » عنواناً ، مثل أمالى القالى وأمالى المرتضى وأمالى ابن الحاجب .

وإذا كان الدرس سيلقى من كتاب يمكن الحصول عليه فقد كان المتبع أن يحصل الطالب على نسخة منه ، وأن يقرأ بنفسه الدرس وحده أو مع أحد زملائه قبل أن يلقيه المدرس ، ثم يجىء الشيخ فيعطى فكرة عامة عن موضوع الدرس ، ثم يبدأ فى قراءته فى الكتاب ، والطلاب يستمعون إليه ناظرين فى نسخهم ، ويقطع المدرس قراءته من حين إلى آخر ليشرح للتلاميذ اللفظة الشاذة أو الجملة الصعبة أو الخبر الغريب [٢] . ويكتب التلاميذ على هامش الكتاب ما يلقيه الشيخ من شروح وإيضاحات ، وكانت لهذه الشروح وتلك الإيضاحات أهمية كبيرة يرحل لها الطلاب المسافات الطويلة ويتحملون من أجل الحصول عليها ألواناً من المشقة والجهد ، ثم إذا حصلوا عليها يعدونها غنماً يجب الحرص عليه والبخل به

---

(١) الوجازة فى صحة القول بأحكام الإجازة ١٨ ب ، ١٩ أ مخطوط .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٢٨٢ .

أن يضيع . روى أن الغزالى سار من طوس إلى جرجان ليستمع إلى الإمام أبى نصر الإسماعيلى وقد عأتى عنه تعليقات مفيدة ، ثم رجع إلى طوس . قال الغزالى : فقُطِعَت علينا الطريق ، وأخذ العيارون جميع ما معى ومضوا فتبعتهم ، فالتفت إلىّ مقدَّمهم وقال : ارجع ويحك وإلا هلكت . فقلت له : أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد علىّ تعليقتى فقط ، فما هى شىء تنتفعون به . فقال : وما هى تعليقتك ؟ فقلت : كتب فى تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابة تعليقات عليها . فأمر بعض أصحابه فسلم إلىّ المخلاة[1] .

وكانت فقرات أغلب الكتب تنتهى بدائرة مثل ٥ كالدائرة التى بين آيات القرآن الكريم فى بعض طبعات المصاحف ، فإذا ما انتهى الدرس عند فقرة معينة فإن الشيخ والتلاميذ يضعون خطاً مائلا بهذه الدائرة علامة لما وصل إليه الشرح .

وكان لكل طالب الحق فى أن يسأل أى سؤال لاستيضاح ما صعب عليه فهمه ، فقد ورد عن الرسول (ص) أنه قال : شفاء الجهل السؤال . وأنه قال : العلم خزانة مفتاحها السؤال . وحث على بن أبى طالب الطلاب ألا يهابوا السؤال ويستحيوا منه فقال : قُرنت الهيبة بالخيبة والحياء بالحرمان[2] . وقال شيخ للمأمون : أقبيح بى أن أستفهم ؟ فقال : بل قبيح بك أن تستبهم[3] وقيل لدغفل : بم أدركت هذا العلم ؟ فقال بلسان سئول وقلب عقول ، وكنت إذا لقيت عالماً أخذت منه وأعطيته[4] .

---

(١) ترجمة الغزالى : الأحياء ١ : ٢ .
(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٢٣ .
(٣) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٢٦ .
(٤) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٢٧ ، ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١١٨ .

ولكن الأسئلة كانت تجرى تبعاً لآداب خاصة فكان على الطالب أن يسأل تفقهاً لا تعنتاً[1] ولا رياء[2] ثم كان عليه أن يختار الوقت المناسب لإلقاء سؤاله ، فلا يقاطع مدرسه وهو يتكلم ، ولا زميله وهو يسأل[3] .

وكان الطلاب يشجّعون على أن يسألوا ، ولكن على أن تفتح أسئلتهم آفاقاً جديدة ، وأن تدل على عمق وإعمال فكر ؛ فإذا حدث ووُجّه سؤال تافه للمدرس فإن ذلك ربما أثار الضحك أو السخرية ففى مجلس أبى عبيدة (على بن عبيد الله السمسمى المتوفى سنة ٤١٥ هـ) سأل أحدُ الحاضرين قائلا : رحمك الله يا أبا عبيدة ما العنجيد ؟ قال أبو عبيدة : ما أعرف هذا . قال الرجل : سبحان الله أين يذهب عنك قول الأعشى :

يوم تُبدى لنا قتيلةُ عن جيـــدٍ تليع تزينه الأطواق

فقال أبو عبيدة : عافاك الله ، عن حرف جر والجيد العنق . ثم قام ثان وثالث فسألا مثل ذلك ، فأخذ أبو عبيدة نعليه واشتد ساعياً فى مسجد البصرة يصيح بأعلى صوته : من أين حُشرت البهائم علىّ اليوم ؟ من أين حشرت البهائم على اليوم ؟[4]

وكان المدرس أحياناً يقوم مقام السائل . فيلقى على الطلاب بضعة أسئلة ليختبر فهمهم ، وليجيب بنفسه على ما تعسر عليهم أن يجيبوا عنه ، وهو بهذا يعطى فرصة للطلاب محدودى المواهب أن ينتفعوا بما تستدعيه هذه الأسئلة وأجوبتها من إعادة للموضوع وزيادة بسط لمسائله .

---

(١) ابن قتيبة : المكان السابق .
(٢) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ١ : ٢٧ .
(٣) العبدرى : المدخل ١ : ٩٠ .
(٤) ياقوت : معجم الأدباء ٥ : ٢٧٠ .

مراحل التعليم

تنقسم مراحل التعليم فى العهد الحاضر فى أغلب الدول المتمدينة إلى أربعة : التعليم الابتدائى ـ التعليم الثانوى ـ التعليم الجامعى ـ الأبحاث والدراسات العليا. ومما يدعو إلى الدهشة أن هذه المراحل كانت متبعة ومتميزة فى العصور الوسطى عند المسلمين . صحيح أنهم لم يضعوا الحدود الفاصلة بين كل مرحلة وأخرى كما هو متبع فى العهد الحاضر ولـكنهم ألتقوا بهذا التطور الطبيعى فاتبعوه فى معاهدهم. وقبل أن نسوق كلام المؤرخين المسلمين عن هذه المراحل لعل من الأوفق أن نتذكر أن التعليم الابتدائى فى العهد الحاضر يشمل دراسة موجزة سريعة واضحة للتاريخ والجغرافيا والرياضة وغيرها ، وأما التعليم الثانوى فزيادة فى الإيضاح والتفاصيل لهذه الموضوعات ، وفى التعليم الجامعى يكون التخصص والتعمق والتعليل ، فإذا تذكرنا ذلك فلندع ابن خلدون يذكر لنا نظريته عن مراحل التعليم وكيف يجب أن تـكون عند المسلمين ، قال :

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلم إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلا قليلا يُلْقِى عليه المدرس أولا مسائل من كل باب من الفن ، هى أصول ذلك الباب ، ويقرب له فى شرحها على سبيل الإجمال ، ويراعى فى ذلك قوة عقله ، واستعداده لقبول ما يرد عليه ، حتى ينتهى إلى آخر الفن ، وعند ذلك يحصل له ملـكة فى ذلك العلم ، إلا أنها جزئية وضعيفة وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله .

ثم يرجع إلى الفن ثانية فيرفعه فى التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ، ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن الإجمـــال ويذكر له ما هنالك من

(١) المقدمة ص ٣٩٤ .

الخلاف ووجهه ، إلى أن ينتهى إلى آخر الفن فتجود ملكته .

ثم يُرْجَع به ثالثاً وقد شدا فلا يترك عويصاً ولا مهماً ولا مغلقاً إلا وضحه وفتح له مقفلة فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته .

وليس بعيداً عن هذا ما ذكره الغزالى فى ذلك الموضوع فهو يقول : وعلى الطالب المبتدىء أن يتحرز عن الإصغاء إلى اختلاف الناس ، فإن ذلك يدهش عقله ، وينبغى أن يؤجل النظر فى ذلك إلى أن يصير متقدماً فى العلم ، وأن يبتدىء بأن يأخذ من كل علم من العلوم المحمودة بطرف فينظر فيه نظراً يطلع به على مقصد العلم وغايته ، ثم يختار واحداً من هذه العلوم ليتبحّر فيه ، على ألا يخوض فى ذلك الموضوع دفعة واحدة بل يراعى الترتيب ويبدأ بالأهم[1] .

ويحث ابن خلدون[2] المعلم على أن يتبع هذه المراحل بكل دقة ويعيب على بعض المعلمين جهلهم بطرق التعليم وإفادته ، إذ يلقون على المتعلم فى أول تعليمه المسائل المغلقة من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه فى حلها ، ويحسبون ذلك مراناً على التعليم ، وصواباً فيه ، فهم بذلك يخلطون على المتعلم بما يلقون له من غايات الفنون فى مبادئها قبل أن يستعد لفهمها ، فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجياً ، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا فى الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحية ، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلاً بدراسة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذى فوقه حتى تتم الملكة فى الاستعداد ثم فى التحصيل ويحيط بمسائل الفن .

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ج ١ ص ٤٢ — وقد مر ذكر هذه الفقرة فى الفصل السابق عند الحديث عن أخلاق التلاميذ وواجباتهم ، وأعيد ذكرها هنا لأنها وثيقة الصلة بما نتحدث عنه الآن .

(٢) المقدمة ص ٣٩٤ .

تلك هى نظرية المسلمين فيما يتعلق بمراحل التعليم فإذا ذهبنا إلى الواقع وجدنا أنه فى أغلب الأحوال لم يكن بعيداً عن الفكرة النظرية ، فقد وجد التعليم الابتدائى فى الكتّاب حيث كان التلاميذ يتلقون مبادىء عامة فى الموضوعات ، أما التعليم الذى يشبه التعليم فى المرحلة الجامعية فى العهد الحديث فقد وجد فى دكاكين الوراقين ومنازل العلماء والصالونات الأدبية كما مرّ ذلك موضحاً بجملة من الأمثلة.

أما المسجد فقد وجدت فيه المرحلتان الثانية والثالثة ، إذ كان يعقد فيه حلقات مختلف مستواها فمنها ما هو إلى الإجمال والوضوح أميل ، وهذه أقرب إلى التعليم الثانوى ، ومنها ما هو أرفع مستوى وأكثر عمقاً وتلك بالتعليم الجامعى أشبه . ويتضح من هذا أننى لا أميل إلى أن أوافق على الرأى الشائع الذى يجعل المسجد فى مستوى التعليم الجامعى فقط ، فالحقيقة أن المسجد اتسع للنوعين جميعاً ، فإننا لا يمكن أن ندعى أن الزوايا الثمان التى كانت فى جامع عمرو هى جميعها فى مستوى واحد ، فالمقريزى يصف إحداها وهى زاوية الإمام الشافعى بأنها نسبت للشافعى حيث كان يجلس بها للتدريس ، ويضيف بأنه لم يزل يتولى تدريسها أعيان الفقهاء وجلة العلماء ، ويتحدث المقريزى عن غيرها من الزوايا ناسباً إياها إلى مؤسسها أو إلى مدرس أقل شهرة وأهمية من الإمام الشافعى ومن جاء بعده فى التدريس بزاويته[1] .

وكانت الحال فى مسجد دمشق كالحال فى مسجد عمرو بل إن كلام ابن جبير يفيد أن المراحل الثلاث وجدت فى هذا المسجد ، إذ ينص على أن الصبيان كان لهم موضع فيه يقرأون القرآن ويتلقون مبادىء العلوم[2] وقد سبق أن ذكرنا عند الحديث عن الكتاب أن بعض معلمى الكتاتيب كانوا يتخذون من المسجد مكاناً لتعليم الصبيان .

---

(١) الخطط ٢ : ٢٥٥ — ٢٥٦ .   (٢) الرحلة ٢٦٥ ، ٢٧٢ .

وعلى هذا فقد كان الصبى المسلم يتلقى تعليمه الأولى فى الـكتّاب الذى غلب أن يكون خارج المسجد ، فإذا انتهى بنجاح من تلقى هذه الطائفة من مبادىء العلوم فإنه حينئذ يلتحق فى المسجد بحلقة من الحلقات التى تدرس بها كتب سهلة التناول غير معقدة ولا كثيرة التفاصيل ، فإذا قطع فى هذا الدور شوطاً موفقاً استطاع إذاً أن يلتحق بحلقات أخرى فى نفس المسجد أو فى مسجد آخر حيث يجلس إلى الشيوخ المشاهير الذين يدرسون كتباً عالية المستوى كثيرة التفاصيل والتعمق والإحاطة .

واختلفت مكانة المساجد العلمية وشهرتها ، فمساجد الأقاليم وبعض المساجد الصغيرة بالعاصمة كان أغلب حلقاتها مما يناسب الصبيان الذين فرغوا حديثاً من الـكتاتيب ، كما تخصص الأزهر مثلا فى الدراسة الجامعية فلا يؤم حلقاته إلا من شدا عقله — كما يقول ابن خلدون — ومن كانت له معرفة تؤهله للاستفادة من الدراسة العالية التى كانت تعقد فيه .

ولما أنشئت المدارس فى العالم الإسلامى كان من اللاحظ أن مستوى المدرسة يتوقف على مستوى من يُعين للتدريس بها ، فإذا تركت المدرسة للمعيدين أو إذا عُيِّن فيها مدرس غير متبحر فى العلوم فهى حينئذ فى مستوى التعليم الثانوى ، فإذا أتيح لهذه المدرسة نفسها أن يعين فيها مدرس فذ من المعروفين بالتعمق ،وسعة الاطلاع ، وحسن العرض ، فإن مستوى المدرسة يرتفع وتصير بالتعليم الجامعى أشبه ، وتدلنا المراجع التى بين أيدينا[1] على أن مستوى كثير من المدارس كان يتأرجح تبعًا للمدرس الذى يقوم بالعمل ، غير أن بعض المدارس كالمدارس النظامية كانت جامعية المستوى دائماً ، ذلك لأنها ما كان يعين بها إلا خيرة الشيوخ ومشاهير العلماء وقد مرّ ذكر كثير منهم .

---

(١) انظر التميمى وحسن المحاضرة فى مواضع متعددة .

أما المرحلة الرابعة وهى مرحلة الأبحاث والدراسات العليا فقد عرفت أيضاً فى العالم الإسلامى . يروى ابن الأنبارى[١] أن أمير المؤمنين المأمون أمر الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب ، وأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار، وصيَّر له الوراقين وألزمه الأمناء والمُنفِقين ليبدؤوه بما يحتاجه من كتب ، ووكل به الجوارى وخدماً للقيام بما يحتاج إليه ، فجعل الوراقون يكتبون عنه حتى صنف كتاب المعانى ، وأمر المأمون به فكتب فى الخزائن ، ثم خرج الفراء إلى الناس ليملى عليهم ذلك النتاج .

وقد تحدثنا فى مكان آخر من هذا الكتاب عن الترجمة التى كانت تدور فى بيت الحكمة وفى بيت بنى شاكر وغيرهم ، مع إضافة شروح وتعليقات على الأصل الذى يترجم عنه ، ومثل هذا العمل إنما هو نوع من الأبحاث والدراسات العليا .

الداخلية فى المدارس

عرف المسلمون النظام الداخلى فى دور العلم منذ عهد مبكر ، فمنذ شُيِّد الأزهر منذ أكثر من ألف عام ، استقبل هذا المعهد العظيم أفواج الطلاب من بلدان القطر المصرى ومن بلدان العالم الإسلامى كله ، وكان كثير من هؤلاء يلازمون الإقامة فيه ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم ، وتحمل إليهم الأطعمة والخبز والحلوى بانتظام . ويذكر المقريزى[٢] أن عدتهم فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة بلغت سبعمائة وخمسين رجلا ما بين عجم وزيالعة ومن ريف مصر والمغاربة .

وأما عن النظام الداخلى بمصر فى عهد الدولة الأيوبية فيحدثنا عنه

---

(١) طبقات الأدباء ١٢٢ — ١٢٨ (٢) الخطط : ٢٧٦ — ٢٧٧ .

ابن جبير[1] حديث شاهد عيان فيقول : وقد جعل السلطان صلاح الدين جامع ابن طولون مأوى للغرباء يسكنونه ويحلقون فيه وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر . . . وما من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى إليها ويلزم السكن فيها .

ويذكر Stanley Lane poole[2] أن المدرسة الناصرية التى بناها صلاح الدين بمصر كانت تشمل مساكن للطلاب والمدرسين بالإضافة إلى أمكنة الدراسة وغيرها من الملحقات الضرورية . وعلى ذكر الداخلية التى خصصت للمدرسين بهذه المدرسة نذكر أن الملك الأشرف موسى بن العادل (٦٣٥ هـ) لما اشترى دار صارم الدين قايماز وبناها مدرسة خرّب حمام الدار وبناه مسكناً للشيخ المدرس بها[3] .

ويبدو أن الداخلية وُجِدت أول ماوجدت متصلة بالأزهر ، ولكنها انتقلت منه إلى سواه من المدارس فى العالم الإسلامى كله ، ففى العراق كانت الداخلية بالمدارس النظامية شيئاً أساسياً ، ذكر عماد الدين الأصفهانى[4] مانصه : « وسكن المدرسةَ النظاميةَ ببغداد من جملة الشريعة رجالُها » وكانت داخلية المدرسة المستنصرية غاية فى الفخامة ، وكان الملتحقون بها من طلاب ومدرسين ينعمون بسخاء الخليفة وكرمه فى الإنفاق عليهم ، يقول ابن العبرى[5] : إن المدرسة المستنصرية لم يعمر فى الدنيا مثلها ، إذ كانت فى أعظم وصف فى صورتها ، وآلاتها ، واتساعها ، ودورها ، وزخرفتها ، وكثرة فقهائها ، ووقوفها ، رتب فيها المستنصر

---

(١) الرحلة ص ٣٢ .
(٢) The Story of Cairo p. 160 .
(٣) النعيمى ١ : ١٩ .
(٤) زبدة النصرة ص ٦٢ .
(٥) تاريخ ابن العبرى ص ٤٢٥ .

أربعة من المدرسين ، لكل مذهب مدرس ، كما رتب ثلثمائة فقيه لكل مذهب ٧٥ فقيهاً ، ورتب لهم من المشاهرات والخبز والطعام فى كل يوم ما يكفى كل فقيه ويفضل عنه ، وبنى لهم داخل المدرسة حماماً خاصاً للفقهاء ، وعيّن طبيباً خاصاً يتردد عليهم فى بكرة كل يوم يتفقدهم ، وبنى مخزناً فيه كل مايحتاج إليه من أنواع ما يطبخ من الأطعمة ، ومخزناً آخر فيه أنواع الأشربة والأدوية(١) .

أما عن سوريا فقد أجمعت كل المراجع على أن الداخلية كانت تعد مرفقاً هاماً من مرافق مدارسها ، وقد زرت هذه البلاد ورأيت عدة من مدارسها الأثرية وكان فى كل منها أمكنة مخصصة لمبيت الطلاب . وتعتبر المدرسة النورية الكبرى التى أوردنا عنها دراسة مفصلة نموذجاً صادقاً لمدارس سوريا الأخرى وللنظام الداخلى بها وقد تحدث ابن جبير(٢) حديثاً ممتعاً وهو يصف إحدى مدارس حلب وموقع القسم الداخلى بهذه المدرسة فقال بعد حديثه عن جامع حلب وفخامته : ويتصل بالجامع من الجانب الغربى مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة ، فهما فى الحسن روضة تجاور أخرى ، وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ، ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلى كله بيوت وغرف لها طيقان تطل على عريش كرم يثمر عنباً تحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً أمامها فيمدُّ الساكن فيها يده ويجنيه دون كلفة ولا مشقة .

وللطالب فى القسم الداخلى آداب فصّلها ابن جماعة فى كتابه « تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم » ونحن نورد منها هنا طرفاً :

---

(١) انظر أيضاً فى ذلك Khuda Bukhsh : Islamic Civilization p. 287

(٢) رحلة ابن جبير ٢٥٣ .

يهتم ابن جماعة بهذا المجتمع الذى سيقوم فى المدرسة ، ولهذا يرى أن تُخَصَّص الداخلية إلى الطلاب الذين عُرِفوا بحسن أخلاقهم وسماحتها حتى يكونوا فى الداخلية متوادين متحابين ، كما يرى أن تكون الداخلية المخصصة للفتيات فى أمكنة منعزلة لا يكثر أن يمر بها الرجال[١] وإذا سكن الطالب فى البيوت العليا خفف المشى والاستلقاء عليها ، وخفف وضع ما يثقل كى لا يؤذى من تحته[٢] ولا يجلس أو يقف على باب المدرسة أو فى صحنها ، ويقلل الدخول والخروج ما أمكنه[٣]، وألا يعمل ما يؤذى زملاءه الساكنين[٤] ، ويتجنب على العموم كل العادات القبيحة[٥] .

---

(١) تذكرة السامع ص ٢٢٩ .
(٢) تذكرة السامع ص ٢٣ .
(٣) تذكرة السامع ص ٢٣١ .
(٤) تذكرة السامع ص ٢٣٣ .
(٥) تذكرة السامع ص ٢٣٤ .

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

(١) [illegible]
(٢) [illegible]
[illegible]

(٣) [illegible]
(٤) [illegible]

الباب السادس

نظم تعليمية جديدة بمصر في العهد الفاطمي

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بين التعليم والعلم :

هناك حقيقة هامة حددت موقفي فيما ينبغي أن يكتب في هذا الفصل من معلومات ، تلك أن موضوعنا الأساسي في هذه الدراسة هو التعليم لا العلم ، ومن أجل هذا لزم أن نتحدث عن : المعلم ، والمتعلم ، والمكان الذي تدور الدراسة فيه ، والموضوع الذي يُدْرَس ، ثم نذكر فذلكة ختامية هامة عن أشهر من أسسوا المدارس وعن الأوقاف على التعليم ونظام الحلقة وغيرها من فلسفة النظم بالمعاهد العلمية ، ويبدو أن فصول الرسالة السابقة قد استوعبت الحديث عن كل هذه العناصر . أما عن منهاج الدراسة فمن الواضح أنه كان يختلف اختلافاً يسيراً أو كبيراً باختلاف الأمكنة التي تدور فيها الدراسة ، فللكتّاب منهاجُه ، وللمؤدبين خطة خاصة يرتسمونها ، وللمسجد اتجاهه ، وللصالونات الأدبية تنوعها وتطورها ، ومن أجل هذا تحدثنا عن الموضوعات التي كانت تدرس عند حديثنا عن كل مكان انعقدت فيه أو قامت به دراسة ، وأعطينا من الأمثلة مجموعة كافية للإيضاح والإبانة .

أما العلوم التي ارتقت في العالم الإسلامي والتي أولاها كثير من قادة المسلمين عناية وتشجيعاً كعلوم الشريعة والفلسفة والطب والرياضة فليس هنا مكان الحديث عنها لأنها تخرج بنا من التعليم إلى العلم ، ثم هي في الوقت نفسه موضوعات معقدة طويلة يحتاج الواحد منها إلى كتاب قائم بذاته ، بل إن الكثير منها دُرِس في كتب قائمة بذاتها[1] .

من أجل هذا لم يكن من الطبيعي أن نتعرض هنا للحديث عن هذه العلوم ، وكانت النية أن تقف هذه الدراسة عند نهاية الباب الخامس ، غير أن التعليم في مصر في العهد الفاطمي اتخذ صبغة خاصة ، ومال إلى اتجاه معين ، ذلك هو

من الأبحاث الحديثة عن الطب عند المسلمين :

١ - قوانين الصحة عند المسلمين الدكتور أحمد صدقي - القاهرة ١٩١٠ . =

نشر المذهب الإسماعيلى الذى كان يعتنقه خلفاء الدولة . وكان نشر هذا المذهب والدعاية له يتبعان خططاً جديدة لم يكن هناك عهد بها ، فتغير بذلك موضوع الدراسة وطريقتها، ولا يزال كلاهما غيرواضح تماماً ، إذ فَقَدَ العالَمُ الإسلامى كثيراً من المؤلفات القيمة التى كتبها قادة الشيعة ، وكان فقدان هذه المؤلفات غالباً على يد مسلمين يعتنقون المذهب السنى ، لاعتقادهم أن ما تدعو إليه إنما هو انحراف عن الدين الحق الذى يدينون به ، ثم إن مانجا من كتب الإسماعيلية احتفظ قادتهم بالأكثرية الغالبة منه سراً . ورغبوا عن طبعه وإذاعته لاعتقادهم أنه كتب الخاصة لا لعامة الناس . وقد انتهزتُ فرصة رحلتى بدول الشرق الأوسط سنة ١٩٥٠ فقابلت بعض شيوخ الشيعة الأفاضل، وكثيراً ممن يعنون بهذه الدراسة ، وقد أتيح لى بذلك أن أقرأ جملة من مخطوطاتهم ، وأتعرّف على الكثير من آرائهم التى أدون قبساً

---

٢ — فضل العرب على الجراحة   للدكتور حسين الهوارى القاهرة ١٩١٧ .

٣ — Arabian Medicine : Edward Browne, London 1921.

٤ — الآت الطب والجراحة والكحالة عند العرب   الدكتور أحمد عيسى القاهرة ١٩٢٥ .

٥ — Arabian Medicine : Campbell, London 1926.

٦ — الطب العربى وآثاره   الدكتور زكى على القاهرة ١٩٣١ .

٧ — Encyclopoedia Britannica, S. V. Medicine.

ومن الأبحاث الحديثة عن العلوم الرياضية عند المسلمين :

١ — History of physics in its Elementary Branches : Cajoria, New York 1929.

٢ — علوم العرب الرياضية وانتقالها الى أوروبا لأحمد فهمى أبو الخير .

٣ — Mathematical Recreations : Rouse Ball, London 1914.

٤ — Encyclopoedia Britannica, S. V. Mathematics.

٥ — The Encyclopoedia of Education p. 1041.

منهـــا فيما يلى ، وبخـــاصة فيما يتعلق بالجـــانب التعليمى أى بوسائل تقـــديم هذه الأفـــكار للناس :

المذهب الإسماعيلى فى مصر

عندما فتح الفاطميون مصر سنة ثمان وخمسين وثلثمائة أدركوا أنهم أمام شعب له قدمٌ فى الثقافة والمدنية منذ عهد طويل ، كما أدركوا أن استسلام المصريين كان تبعية سياسية ، لا خضوعاً يتصل بالعقيدة والمذهب ، ومن أجل هذا نجد ذلك الشعب المغلوب يطلب من قائد الفاطميين وثيقة مكتوبة يعلن فيها أن يكون للمصريين الحق المطلق فى الاستمرار على مذهبهم الدينى الذى يرضونه ، وأنه لن يكون هناك أى ضغط من هذه الجهة على ميول الناس ومعتقداتهم ، وقد هدّد المصريون بالمقاومة إن لم تتحقق لهم هذه الرغبة ، ومنحهم جوهر هذه الوثيقة المفصّلة التى يقول فيها : « . . . . وذكرتم وجوهاً التمستم ذكرها فى كتاب أمانـكم ، فذكرتها إجابة لـكم وتطميناً لأنفسكم ، وهى إقامتـكم على مذهبكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ومن فقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم [١] . . . . » وعلى هذا أدرك الفاطميون أن نشر مذهبهم بين المصريين لن يكون عملا يسيراً ، ومن هنا بدءوا يرسمون الخطط ويحشدون القوى للتأثير فى هذا العناد أو قل العداء الذى أظهره المصريون ضد التشيع منذ اللحظات الأولى .

وكانت خطة الفاطميين تشمل مرحلتين : المرحلة الأولى مرحلة التعليم

---

(١) المقريزى : الخطط ٦٧ ـ ٧٠ .

والتشريع، والمرحلة الثانية مرحلة الدعوة السرية ، وقد اتضحت هاتان المرحلتان من السجل الذى صدر عن الخليفة الفاطمى بتوليته داعى الدعاة وقد سبق إيراده، ونحن نعود فنقتبس منه الفقرة التالية قال :

« واتل مجالس الحكم على المؤمنين والمؤمنات ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقلْ أفهامهم بتقبُّله ، وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشدَّ العَقْد على كل منقاد ظاهر [١] » .

وعلى هذا النحو سار داعى الدعاة ونوابه، فهم يدرسون فى الجهر علوماً وتشريعات عامة مع لمحات حول المذهب الشيعى، حتى إذا عثروا بين جماهير المستمعين على مستجيب للدعوة الشيعية راغب فى الزيادة من علومها وأفانينها نقلوه من المجالس العامة إلى المجالس الخاصة ومن علوم الجهر إلى علوم السر . ثم هم فى العلوم السرية لا يُطلعون المستجيب عليها دفعة واحدة بل يتدرجون به من مرتبة إلى مرتبة من مراتبها التى تبلغ تسعاً ، ولا ينقلونه من واحدة إلى أخرى إلا إذا تقبل السابقة وهضمها . فإذا انتهى من الدرجات التسع كان قد وصل إلى أعلى درجات التشيع وأسمى مراتبه .

ومن الطبيعى أن الجانب السرى ومراتبه التسع لاتدخل فى نطاق دراستنا عن التربية الإسلامية ، لأن التربية الإسلامية تبحث عن التعلم العلنى لا عن الاتجاهات السرية ، هذا إلى أن المقريزى[٢] قد تحدث بإفاضة عن هذه الاتجاهات ودرجاتها ، فمن الممكن أن يعود إليه من يرغب فى دراسة هذا الموضوع .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ١٠ : ٤٣٤ ـ ٤٣٩ .
(٢) الخطط ١ : ٣٩١ ـ ٣٩٧ .

أما علوم الجهر فكانت تتصل بنشر العقائد الإسماعيلية ، وقد أتيح لى أن أجمع هذه العقائد من أمهات الكتب والمخطوطات الإسماعيلية ، وليس هنا مكان ذكرها ، ويمكن أن يجدها القارىء فى الجزء الثانى من موسوعة التاريخ الإسلامى(١) ، أما تقديم هذه العقائد للناس فهو الذى يعنينا هنا لأنه جانب تعليمى ، وقد اتخذ الفاطميون لنشر مذهبهم وسائل لاتقلُّ فى أهميتها عن حوانيت الوراقين ومنازل العلماء وغيرها من الوسائل التى ذكرناها من قبل ، وأهم هذه الوسائل هى :

١ — حلقات التعليم .

٢ — الشعر .

٣ — الاحتفالات بمناسبات معيَّنة .

٤ — إسناد الوظائف المهمة لأتباعهم الإسماعيلية .

ومن الواضح أن هذه الوسائل لاتزال شديدة الأهمية حتى العهد الحاضر لنشر فكر الحاكم ، فمعاهد العلم طالما أُدخلت على مناهجها أفكار يوصى الحاكم بنشرها ، والشعرُ كان يمثل وسائل الإعلام الموجودة فى العصر الحديث ، ولاتزال الاحتفالات فى المناسبات المختلفة وسيلةً لدى بعض الحكام للتأثير على الشعوب ، أما إسناد الوظائف للأشياع والأتباع فهو أسلوب مهم لنشر مذهب أصحاب السلطة والنفوذ .

---

(١) ص ٢ : ١ — ١٥٧ .

الانحراف فى الشعر كان أعمق :

سنرى عندما ندرس الوسائل الأربع التى ذكرناها آنفا أن بها كثيرا من الاتجاهات التى لا يرتضيها أهل السنة ، وكانت حلقة العلم والشعر أهمّ هذه الوسائل وأدومها ، بيد أن الشعر كان أكثر انحرافا من حلقات العلم ، ذلك لأن الشعر كان — كما قلنا من قبل — يمثّل الصحافة التى تتجه للجماهير وتعمل على أن تؤثر فيهم ، أما حلقات العلم فتتجه للخاصة ولابد من الحذر عند مخاطبة هؤلاء .

وستدارس فيما يلى تلك الوسائل بشىء من التفصيل :

جهود الفاطميين لنشر مذهبهم

(١) بواسطة حلقات التعليم :

سبق القول بأن الفاطميين كانوا يهتمون بنشر مذهبهم اهتماماً كبيراً ، وأنهم لمسوا أن المصريين لن يستجيبوا بسهولة لذلك المذهب الجديد ، وأنه لابد للوصول لهذا الهدف من بذل جهود كبيرة ، وكان من أهم هذه الجهود إنشاء معاهد للعلم وتعيين الشيوخ ليجلسوا للناس ليعلموهم ويرشدوهم ، وهكذا بكّر الفاطميون بإنشاء الأزهر أقدم جامعة إسلامية ، أو قل أقدم جامعة عالمية ذات شأن . وجاء بعد الأزهر عددٌ من المساجد التى انتظمت فيها حلقات تعليم ، وضنّ الحاكم بالجهود أن توزع فى المساجد بين العبادة والعلم فأنشأ دار العلم [١] حيث يخلو العلماء للطلاب وحيث لا يأوى إلا الراغبون فى الثقافة وتحصيل العلم ، ثم أعدّ الفاطميون ووزراء الفاطميين قصورهم [٢] لتقوم بها مجالس منتظمة للثقافة الرفيعة ،

---

(١) المقريزى : الخطط ٢ : ٣٤١ . (٢) ابن حجر : رفع الأصر ١٩١ أ ، ب .

وفى هذه أو تلك كان يجلس داعى الدعاة أو الوزراء للدعاية الصريحة أو المستترة للمذهب الجديد .

وكان يعقوب بن كلس يجلس بنفسه للناس ليقرأ لهم كتاباً ألّفه فى الفقه يتضمن ماسمعه من المعز لدين الله ومن ابنه العزيز بالله ، وهو مبوّب على أبواب الفقه ، ويقع فى حجم نصف صحيح البخارى ، ويشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية ، وكان يجلس ليقرأ منه وبين يديه خواص الناس وعوامهم ، وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء ، وأفتى الناسُ به ودرسوا فيه بالجامع العتيق .

وكان القاضى النعمان يجلس بالمسجد [1] ليقرأ للناس ، ثم كان قاضى القضاة على بن النعمان يجلس بالجامع الأزهر ليقرأ مختصر أبيه فى فقه آل البيت .

أما عن دار الحكمة فقد مر حديث قصير عنها ، ونريد أن نضيف الآن أن الحاكم أراد فى بادىء الأمر أن يجذب لها الناس على أنها للدراسة الحرة فى جميع المذاهب فدعا إليها الشيوخ من السنيين والشيعيين وقرئت فيها فضائل الصحابة ، ولكن سرعان ما أُبعِد عنها شيوخ أهل السنة ، بل قُتِلَ بعضهم وتأكدت بذلك ميولها المذهبية وأصبحت بما فيها من استعداد وتيسير على الطلاب من أبرز الأمكنة فى الدعاية لمذهب الدولة [2] ، كما كانت هذه الدار المكان الذى يجتمع فيه داعى الدعاة بالدعاة والفقهاء لتنظيم أمور الدعوة [3] .

أما عن قصور الخلفاء فقد فتحها الخلفاء لأتباعهم ليلقوا فيها الدرس ، وقلدهم فى ذلك وزراؤهم ، وفى قصر الخليفة كان هناك مكان يسمى (المحوّل)

---

(١) الخطط ٢ : ٣٤١ . (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤ : ٢٢٣ .
(٣) الخطط ١ : ٣٩١ .

وهو يشبه مانسميه الآن (قاعة المحاضرات) ، وقد كان المحول قبلة أنظار المصريين من مختلف الطبقات ، وكذلك كان يرد إليه الطارئون على مصر ليتلقى فيه هؤلاء وأولئك علوم أهل البيت ، وكانت هذه المجالس تعرف بمجالس الحكمة أو مجالس الدعوة (١) .

قال القاضى النعمان : أخرج إلىّ المعز لدين الله كتاباً عن علم الباطن ، وأمرنى أن أقرأه على الناس فى كل يوم جمعة فى مجلس قصره المعمور ، فكثر ازدحام الناس وغصّ بهم المكان (٢) . وكان القاضى محمد بن النعمان يجلس على كرسى بالقصر لقراءة علوم أهل البيت وكان يقبل عليه الناس إقبالا عظيما حتى أنه فى إحدى جلساته فى ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ كثر الحاضرون مما سبب أن مات فى الزحام أحد عشر رجلا (٣) .

وكانت هذه المجالس تُقَرَّرُ للناس كل على حسب طبقته . فكان لآل على مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، وللعامة والطارئين مجلس ، وللخدم مجلس ، وللنساء مجلس ، وهكذا . ثم كان للمبتدئين مجلس وللمستجيبين مجالس على حسب درجاتهم . وكانت إذا انتهت القراءة أقبل المؤمنون أو المؤمنات على الداعى فيمسح على رءوسهم بالقطعة التى بها إمضاء الخليفة (٤) .

وكان الدعاة فى الأقاليم يؤدون المهمة التى كان داعى الدعاة يقوم بها فى القاهرة من شرح المذهب الشيعى والدعاية للعقائد الاسماعيلية (٥) .

وقد جمعت هذه الدروس المذهبية فى مجموعة كبيرة من الكتب فُقِدَ أغلبها فى خلال الأحداث التى مرت بالدولة الفاطمية فى أثناء قيامها ، والتى أطاحت

---

(١) الخطط ١ : ٣٩٠ – ٣٩١

(٢) المجالس والمسايرات ٦٨ أ ، ب (٣) الخطط ١ : ٣٤١ و ٣٩١

(٤) المرجع نفسه . (٥) الخطط ١ : ٣٩١

بكثير من تراثها العلمى بعد سقوطها ، ولكن لحسن الحظ لا تزال هناك مجموعة قيمة من هذه الكتب نذكر منها : أساس التأويل الباطن ، دعائم الإسلام ، تأويل دعائم الإسلام ، المجالس المؤيدية ، المجالس المستنصرية ، المجالس والمسايرات ، وفيما يلى نماذج موجزة لهذه المجالس العلمية .

١ — من المجلس العاشر من الجزء الرابع من تأويل دعائم الإسلام .

(درس من داعى الدعاة للدعاة)

قال النعمان : قال رسول الله (ص) صِلُوا صفوفكم ، وحاذوا بين مناكبكم ؛ فتعديل الصفوف وسد ما فيها من الفُرَج من واجب الصلاة وحدودها فى الظاهر . ومثله فى الباطن اعتدال أهل الدرجات فى دعوة الحق على درجاتهم وحدودهم التى حُدّت لهم ، لا يتجاوز أحد منهم حده إلى غيره ، ومن رأى منهم خللا فليجتهد حتى يسده [1] .

٢ — من المجلس التاسع من المائة الثانية من المجالس المؤيدية .

(درس للعامة)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله محمد ، وعلى أخيه وابن عمه على بن أبى طالب البرزخ بين البحرين : العذب الفرات والملح الأجاج ، وعلى الأئمة من ذريته هداة من ذرأ الله من خلقه والمتممين كلمة عدله وصدقه . . . . أيها المؤمنون ، صِلُوا ما أمر الله به أن يوصل بقوله « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » [2] فأولو الأمر هم الأئمة ، وتذكروا قوله تعالى « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » [3] والنعيم فى بعض الروايات هو ولاية على بن أبى طالب [4] .

---

(١) المجلس كله ١٢٢ ب — ١٢٥ ب (٢) سورة النساء الآية ٥٩
(٣) سورة التكاثر الآية ٨ (٤) المجلس كله من وجه الورقة ١٩ الى ظهر الورقة ٢١

(ب) الشعر فى خدمة المذهب الإسماعيلى :

كان الشعر هو صحافة ذلك العهد أو محطات الإرسال والإذاعة فيه ، يقول Nicholson [1] إن الشعراء كانوا يقودون أفكار الجماهير ويوجهونها ، فكانت مقطوعاتهم الشعرية تقوم مقام النشرات السياسية أو خطب البلغاء والفصحاء الذين يؤيدون حكومة ما أو يعارضونها . ومن هنا اتجه الخلفاء الفاطميون للشعراء ليجذبوهم نحوهم ، وليستغلوا لصالح الدعوة هذه القوة الكبيرة ، وبالغ الخلفاء فى إكرام الشعراء ومنحهم الهدايا العظيمة بين الحين والحين ، فأغرى ذلك الشعراء وانطلقوا يؤيدون الدعوة الجديدة ويجمعون بشعرهم لها الأنصار والأتباع ، وقد أصبح مما يشين الشاعر أن يمدح الخليفة دون أن يضمن شعره فنوناً من العقائد الإسماعيلية ، داعياً لها حاثاً على اعتناقها ، ومن هنا أصبحت دواوين شعراء الفاطميين مصدراً هاماً من المصادر التى نستقى منها عقائد الإسماعيلية ، وقد أدى شعر هؤلاء الشعراء مهمته فى أثناء حياتهم كما دام هذا الشعر يؤدى نفس المهمة بعد وفاتهم ؛ إذ ظل شعرهم يُروى ويُدرس وينتقل من جماعة إلى أخرى ومن جيل إلى جيل .

وفيما يلى نماذج مختارة من شعر ثلاثة من شعراء الفاطميين ذوى الأثر الكبير فى ذلك الموضوع :

١ – من شعر ابن هانىء [2] :

ص ٣ – ٧

هو علة الدنيا ومن خُلِقت له ولعلة ما ، كانت الأشياء
هذا أمين الله بين عبـــاده وبلادِه ، إن عُدّت الأمناء
فاسلم إذا راب المنيـة حادث واخلدْ إذا عمّ النفوس فناء

---

(١) A. Literary History of the Arabs p. 241.

(٢) ديوان ابن هانىء طبعة القاهرة ١٢٤٧ .

ص ٧ — ١٠

وللهِ علم ليس يُحجب دونكم ولكنه عن سائر الناس محجوب
وأنت معدّ وارث الأرض كلها فقد حُمّ مقدورٌ وقد خط مكتوب

ص ٢٦

حل رَقّادَة المسيحُ حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالى وكل شىء سواه ريح

ص ٣٠

ما أجزل الله ذخرى قبل رؤيته ولا انتفعت بإيمان وتوحيد

ص ٣١ — ٣٥

إمام له مما جهلت حقيقةٌ وليس له — فيما علمت — مزيد
وإن الذى سمّاك خير خليفة لمُجْرى القضاء الحتم حيث تريد

ص ٥٥ — ٥٩

إمام رأيت الدين مرتبطاً به فطاعته فوز وعصيانه خسر

ص ٦٢ — ٦٤

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
هذا الذى ترجى النجاة بحبه وبه يُحَطُّ الإصر والأوزار
هذا الذى تُرجى شفاعته غداً حقاً وتخمد أن تراه النار
أنتم أحباء الإله وآله خلفاؤه فى أرضه ، الأبرار
شرفت بك الآفاق ، وانقسمت بك الـ أرزاق والآجال والأعمار

ص ٩٦ — ١٠٠

فافخر فمن إنشائك الفردوس إن عُدّت ، ومن إحسانك التنزيل

ص ١٠٠ — ١٠٤

وعلمتَ من مكنون علم الله ما لم يؤتَ فى الملكوت ميكائيلا

ص ١٠١ — ١٢٨

ومتصلٌ ، بين الإله وبينه ممرٌ من الأسباب لم يتصرم

ص ١٣٧ — ١٤٠

ماذا نريد من الكتاب ؟ نواصب وله ظهور دونها وبطون

لو كان رأيك شائعاً فى أمة علموا بما سيكون قبل يكون

ص ١٥٠ — ١٥٣

هو الوارث الأرضَ عن والديـن أب مصطفى وأب مرتضى

شهيدى على ذاك حكم النبى بين المقام وبين الصفا

٢ — من شعر الأمير تميم (١) :

ص ٢٣

وإنك أنت المصطفى الملك الذى بطاعته من ربنا نتقرب

ولولاك كان الملك فى غير أهله وكان على أفق الشريعة غيهب

ص ٥١ — ٥٢

لولا العزيز أمين الله ما لجأت نفسى إلى ملجأ منه ولا وَزَرِ

يا ابن الأئمة والهادين متصلا بصفوة الله أهل الوحى والسور

ما أنت دون ملوك العالمين سوى روح من القدس فى جسم من البشر

وأنت بالله دون الخلق متصل وأنت لله فيهم خير مؤتمر

ص ٦١

يا صفوة الله من بَرِيَّتِهِ وسرَّ عليائه الذى ظهرا

ص ٦٣

يا حجة الله التى أشرقت فينا ، ويا صاحب كنز الجبار

---

(١) الديوان نسخة خطية فى مكتبة الدكتور كامل حسين .

ويا هدى من ضل عن رشده واشتبه الحق عليه فجار
أبوك جلا الظلم والبغى عن شرائع الدين وأنت المنار

ص ٦٨ – ٦٩

بدت لك آيات عليك شواهد بأنك أنت المصطفى من أولى الأمر
وإنك أنت الخامس القائم الذى تدين له أرض العراقين بالقسر
وإنك مهدىُّ الأئمة كلهم وصاحب ذا الوقت المسمى وذا العصر

ص ٢٦٦

يا حجة الرحمن عند عباده وشهابه فى كل أمر مقبل
من لم يكن فى صومه متقربا بك للإله فصومه لم يُقْبَلِ

٣ — من شعر المؤيد فى الدين[1] (داعى الدعاة فى عهد المستنصر) :

ص ٢٠١

بنفسى مستنصرٌ بالإله جنود السماء له ناصره
شهدت بأنك وجه الإله وجوه الموالى به ناضره

ص ٢٠٥

وهم أولو الأمر أئمة الهدى عصمة من لاذ بهم من الردى
مفروضة طاعتهم على الأمم قاطبة من عرب ومن عجم
اقرأ : أطيعوا الله والرسولا ثم أولى الأمر بهم موصولا

ص ٢٣١ — ٢٣٢

فوجهك وجه الإله المنير ونورك من نوره كالحجاب
يداك يدا الله مبسوطتان وأنت له الجنب غيرَ ارتياب
وأنت المثيب لأهل الثواب وأنت المعاقب أهلَ العقاب

(١) طبعة القاهرة ١٩٤٩ .

ص ٢٧٣

قصر به يصلى السعيرَ عدوُّه　　وإلى الولى به تحنُّ جنانهُ
قد حله وجه الآله وجنبه　　ولسانُ صدق محمدٍ وجَنانهُ
ملكٌ ، ملائكةُ السماء جنودُه　　وملوكُ مَنْ فوق الثرى عُبدانه
أيصح توحيد بغير ولائه　　وولاؤه لكتابه عنوانه
أم هل لقرآن كريم منزلٍ　　فى بيته إلا عليه بيانهُ

ص ٢٧٩

معد أمير المؤمنين الذى بدا　　شهاباً يضى الغرب والشرق ثاقبا
يقوم مقام الله بين عباده　　متيحاً لهم روح الحياة وسالبا
وتَلْقى النبى المصطفى إن لقيتَه　　خلائق لاهوتيـة وضرائبا
ترى منه إن صلى النبى مصليا　　وتحسبه إن قام يخطب خاطبا

(هـ) الاحتفالات بمناسبات معينة :

اهتم الفاطميون بأن يقوّوا الدعوة فى نفوس أتباعهم ، وأن يعملوا على كسب أتباع جدد بين الحين والحين ، واقترحوا لذلك مناسبات متعددة يحتفلون بها ، حيث تجرى فى هذه الاحتفالات رسوم ونظم تجدد الدعوة وتقربها إلى القلوب ، فكانوا يحتفلون بستة موالد : (مولد النبى ﷺ ، ومولد على ، ومولد فاطمة ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد الخليفة الحاضر) وكانوا يحتفلون كذلك بمناسبة رأس السنة وعاشوراء وعيد الفطر وعيد النحر وعيد الغدير ونحوها مما وُزِّع خلال العام حتى تتجدد الذكرى وتظل العقائد حاضرة فى الأذهان ، وفيما يلى تفاصيل موجزة عن بعض هذه الاحتفالات :

عيد الغدير : سبق أن تحدثنا عن غدير خم الذى يعتقد الشيعة أن الرسول ﷺ

عال عنده : « إن علياً منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى ، وهو وليكم بعدى » وقد تم ذلك فى الثامن عشر من ذى الحجة عقب حجة الوداع . وغدير خم موضع يبعد عن الجحفة بثلاثة أميال .

ويوم الغدير عيد من أسعد الأعياد عند الشيعة ، حافل بمظاهر السرور والغبطة ، حكى المقريزى [١] أن الشيعة كانوا يُحيُون ليلته بالصلاة ويصلّون فى صبيحته ركعتين ، ويلبسون فيه الجديد ، ويعتقون الرقاب ، ويكثرون من عمل البر ، ومن الذبائح ، وكان الناس يجتمعون بجامع القاهرة وفيهم القراء والفقهاء والمنشدون ، فيكون جمعاً عظيماً يستمر إلى الظهر ، وحينئذ يصل ركب الخليفة الذى يكون قد أرسل إلى الخطيب بدلة من الحرير يخطب فيها ، وأرسل له كذلك ثلاثين ديناراً ، فإذا وصل الركب دُفِع إلى الخطيب كراسٌ محرَّر من ديوان الإنشاء يتضمن نص ما قاله النبى ﷺ إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب يوم الغدير فيلقيه الخطيب مع الخطبة حتى إذا فرغ ونزل صلى قاضى القضاة بالناس ركعتين [٢] ، فإذا انتهت الصلاة خرجت الجموع إلى القصر فتخرج لهم الجائزة [٣] وروى المقريزى [٤] أيضاً أن الاسماعيلية كانوا يتبادلون التهانى بهذا العيد وأنه عندهم أعظم من عيد النحر وينحرفيه أكثرهم . وكان الخليفة يذهب بنفسه إلى الميدان ويذبح ما جرت به العادة ، ثم يذبح الجزارون بعده مثل عدد الكباش المذبوحة فى عيد النحر ، ويأمر بتفرقة ذلك للخصوص دون العموم (كان غير الشيعة لا ينالون شيئاً من عطايا وهبات ذلك اليوم) ولنعطى فكرة عن عدد ما يذبح فى ذلك اليوم ننقل ما رواه المقريزى [٥] من أن عدة ما ذبح ثلاثة أيام النحر وفى عيد الغدير

(١) الخطط ١ : ٣٨٨ – ٣٨٩ و ٤٩٢ (٢) الخطط ١ : ٣٨٩
(٣) المصدر السابق . (٤) المصدر نفسه ١ : ٣٨٩ – ٣٩٠
(٥) الخطط ١ : ٤٣٦

سنة ٥١٥ هـ كان ألفين وخمسمائة وواحداً وستين رأساً من النوق والبقر والجاموس والكباش نصفها فى عيد النحر والنصف الآخر فى عيد الغدير .

عاشوراء : هو يوم العاشر من المحرم وهو التاريخ الذى قتل فيه الحسين ابن على بكربلاء سنة ٦١ هـ على يد جيوش الأمويين ، ومن هنا يظهر أنها كانت مناسبة حزينة باكية ، وكان الفاطميون يتخذون ذلك اليوم يوم حزن تتعطل فيه الأسواق ، ويخرج المنشدون إلى جامع القاهرة وينزلون فيه بين النوح والنشيد ، وكان الخليفة يجلس فى ذلك اليوم على الأرض ، متلثماً يُرى به الحزن ، كما كان القاضى والداعى والأشراف والأمراء يظهرون بغير مناديل وهم ملثمون حفاة ، ويعمل فى ذلك اليوم السماط العظيم المسمى سماط الحزن ، ويتكوّن الطعام الذى يُقدّم عليه فى ذلك اليوم من العدس الأسود والملوحات والمخللات والأجبان وخبز الشعير المغيَّر لونه قصداً ، وكان الشعراء ينشدون فى هذه المناسبة شعراً يرثون به أهل البيت عليهم السلام ، وينحون باللائمة على من غَصَبَ الخلافة من أصحابها الحقيقيين ، ثم يذكر قُصَّاصهم ما رواه أصحابهم من أن السماء لما قتل الحسين بكت عليه ، وأنه لم يُقلَبْ حجر من أحجار بيت المقدس يوم قتل الحسين إلا وجد تحته دم ، وأن الدنيا أظلمت يوم قُتِل ، ولم يمسّ أحد شيئاً من زعفران فيجعله على وجهه إلا احترق ، وأن الأمويين أصابوا إبلا فى عسكر الحسين فنحروها وطبخوها فصارت مثل العلقم فما استطاعوا أن يسيغوا منها شيئاً (١) .

أعياد الميلاد : سبق أن عددنا الموالد الستة التى كان يحتفل بها الفاطميون

---

(١) الخطط ١ : ٤٣٠ — ٤٣٢ و ٤٩٠

وقد وضح المقريزى طريقة الاحتفال بهذه الموالد ونصيبها فى الدعاية المذهب الإسماعيلى ، ولم يكن من التتبع أن تنحر الذبائح فى هذه المناسبات السعيدة ، بل كانت تصرف بدل اللحوم كميات كبيرة من الحلوى والكعك[1] ،وكان يصرف لدار الفطرة عشرون قنطاراً من السكر لتصنعها حلواء يابسة من طرائفها ، وتعبأ الحلوى فى بضع مئات من الصوانى النحاسية . تفرق تلك الصوانى فى أرباب الرسوم ، كما توزع كميات كبيرة للقراء والفقراء . وكان الناس يجتمعون فى جموع حاشدة وعلى رأسهم قاضى القضاة ، وداعى الدعاة ، والنقباء ، والرؤساء ، وخطباء المساجد . وكان خطباء المساجد يخطبون فى هذه الجموع خطيباً بعد خطيب ويتحدثون عن النبى ﷺ والسعادة بمولده وما منّ الله به على ملة الإسلام من رسالته ، ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة ، فإذا كان الاحتفال بمولد الحسين تحدث عن فضله ، وعلمه ، ودعاء الرسول له ، ومكانته من علىٌ وفاطمة ، وكيف ثبتت له الإمامة ، وكيف جهر برأيه لإعلاء كلمة الله غير مستضعف ولا مكترث بقوة . . . وينتهى أيضاً بالدعاء للخليفة الحاضر وهكذا[2] .

(د) إسناد الوظائف للإسماعيلية :

كان من الطبيعى أن يعتمد الخلفاء الفاطميون فى قيادة أمور الدولة على رجال يعتنقون مذهبهم ويدينون باتجاههم ويرجع السبب فى ذلك كما ذكره ابن منجب أحد رؤساء الكتاب فى الدولة الفاطمية إلى « أن موظفى الديوان

(١) انحدرت الى العهد الحاضر فى مصر عادة بيع الحلوى وشرائها فى أثناء الاحتفال بمولد الرسول ومولد الحسين وغيرهما ، بل ان اعياد الميلاد التى تقيمها الأسر فى المناسبات الخاصة تقدم فيها الفطائر والحلوى أكثر مما تقدم اللحوم والطعام ، مما يوحى بأن الناس فى حياتهم العامة والخاصة تأثروا — دون أن يفطنوا — بما ابتكره الفاطميون .

(٢) الخطط ١ : ٤٣٢ — ٤٣٣ ، ٤٩١

يجب أن يكونوا شيعيين ، فالتشيع لموظف الدولة الفاطمية لا يقل عن الإسلام ، بل إن التاريخ يحدثنا أن بعض الخلفاء الفاطميين اشترطوا التشيع فى الموظف إذا كان مسلماً ولم يشترطوا الإسلام فيه ، وعلى هذا فقد عيّن العزيز — والدولة فى أوج عظمتها — عيسى بن نسطورس المسيحى وزيراً ومنشّا اليهودى واليا على الشام ، ويبدو أن فكرة الفاطميين كانت إن اليهود والنصارى لن يتعصبوا ضد مذهب الدولة ، أما المسلمون السنيون فمن المحتمل أو المتوقع أن يحاربوا المذهب الإسماعيلى فى السر أو العلانية . ثم كان من الطبيعى أن يكافىء الفاطميون أتباعهم من المغاربة بإسناد المناصب الرئيسية إليهم فهم الذين استجابوا لهذا المذهب من قبل ، ودرسوه ودانوا به ، وتحمسوا له ، وهم الذين حملوا لنشره السيوف ، وقهروا به الأعداء ، ودخلوا به ديار مصر .

غير أن الفاطميين وجدوا من الحكمة أن يعملوا على استقرار الحياة ، وأن يتجنبوا ثورة المصريين ريثما يتم الاستقرار والهدوء ، ولهذا أرجئوا بعض الوقت شغل الوظائف بأتباعهم وتركوها فى يد الموظفين السنيين الذين كانوا يشغلونها حين دخول الفاطميين ، فأُقِرّ جعفر بن الفرات فى الوزارة ، وترك أبو طاهر محمد بن أحمد فى كرسى القضاء ، واستمر بنو عبد السميع يقومون بالخطابة[1] .

ومن الطبيعى أن هذا كان حلا مؤقتاً للمشكلة ، وأن الفاطميين أخذوا ينتقصون من نفوذ هؤلاء ويعيّنون معهم من يستولى على السلطة شيئاً فشيئاً ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت أمور الدولة الهامة فى أيدى الشيعيين ، فأسندت الوزارة ليعقوب بن كلس واضطلع بنو النعمان بشئون

---

(١) ابن دقماق ٤ : ٦٤ .

القضاء[1] وصرف بنو عبد السميع عن الخطابة وجعلت خطابة الجامع العتيق لجعفر بن الحسن الحسيني وجعل إلى أخيه الخطابة بالجامع الأزهر[2].

وجاء بعد ذلك سلسلة من الوزراء وجُلُّهم بين عالم إسماعيلي سع الثقافة في المذهب ، أو على الأقل تابع من أتباع المذهب الذين يدينون به[3].

أما منصب قاضي القضاة فقد تولاه في العهد الفاطمي بضع وأربعون قاضياً ، وكانوا جميعاً إسماعيلية فيما عدا قليلا جداً منهم ، وقد اشتُرِط على هؤلاء أن يحكموا بمذهب الخليفة . وأول سني شغل منصب القضاء في العهد الفاطمي هو أبو طاهر محمد بن أحمد الذي سبق ذكره ، وقد أمره جوهر أن يحكم في المواريث بقول أهل البيت ، وكذلك في الطلاق ، وفي هلال رمضان[4] . وممن ولي القضاء من غير الفقهاء الإسماعيلية أيضاً أحمد بن محمد بن أبي العوام وكان حنبلياً فاشترط عليه الخليفة (الحاكم بأمر الله) أنه إذا جلس للحكم أن يكون معه أربعة من فقهاء الإسماعيلية لئلا يقع الحكم بغير ما يذهب إليه الخليفة[5] .

ولما اختير أبو العباس أحمد للقضاء وهو سني المذهب اشترط ألا يحكم بمذهب الدولة فلم يُمكّن من ذلك[6] .

أما منصب داعي الدعاة فهو عميق الصلة بالمذهب الاسماعيلي ، وكان بطبيعة الحال لا يشغله إلا من عمق في هذا المذهب وأجاده ، وكان داعي الدعاة أعظم

---

(١) ابن ظافر : الدول المنقطعة ٤٩ ب ، ٥٠ أ ، ٦٦ ب مخطوط

(٢) المقريزي ٢ : ٢٠٨

(٣) انظر قائمة وزراء الفاطميين : حسن المحاضرة ٢ : ١٢٩ - ١٣٧

(٤) رفع الأصر ورقة ٩٨ مخطوط (٥) المرجع نفسه ١٩ ب

(٦) حسن المحاضرة ٢ : ١٠٤ :

شخص فى الدولة بالنسبة للإشراف على نشر تعاليم المذهب ، وكان يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيّا بزيه ، وطالما أُسند منصبا قاضى القضاة وداعى الدعاة لشخص واحد .

وكان الوزير وقاضى القضاة وداعى الدعاة يختارون من الشيعيين من يعمل معهم ويعاونهم على القيام بما وكل لهم ، وكان داعى الدعاة على وجه الخصوص يختار الدعاة والنقباء من خاصة العارفين بالمذهب المتحمسين له ، وكان فقهاء الدولة تحت نفوذه ، وقد وجد كثير من المصريين ألا مناص لهم من الخضوع لرغبة الخلفاء فتظاهروا بالاستجابة للمذهب الجديد كى ينعموا بهذه الوظائف وكى لا يعرضوا أنفسهم لنقمة القائمين بالأمر .

المصريون والمذهب الإسماعيلى

تظاهر المصريون أو أغلبهم باعتناق المذهب الإسماعيلى خلال حكم الدولة الفاطمية طلباً للسلامة وتخلصاً من عنت الفاطميين ورجال دولتهم (١) . ويبدو أن المصريين لم يتأثروا كثيراً بالدعاية والشعر والتدريس ، وكان سيرهم فى موكب الإسماعيلية مجرد تظاهر لتفادى العنف والقسوة دون اعتقاد أو إيمان ، ومن أجل هذا نجد أنه ما كادت الدولة الفاطمية تسقط حتى هوى المذهب الإسماعيلى دون أن تقوم له قائمة بعد ذلك ، ومما يدل على أن الفكرة الاسماعيلية لم تتغلغل فى نفوس المصريين أن الحركات التى ظهرت فى عهد الأيوبيين لإعادة النفوذ الفاطمى كانت حركات هزيلة شاحبة لم تجد استجابة من الجماهير ولا قبولا من أفراد

---

(١) ذكر المقريزى أمثلة من التعذيب والتنكيل اللذين كانا ينصبان على من يظهر المقاومة لمذهب الدولة أو عدم الرضاء به أو التعدى له ، وقد أدى هذا التعذيب فى بعض الحالات إلى الموت (الخطط ١ : ٣٥٥ ، ٢ : ٣٤١) .

الشعب ، ويحدثنا ابن واصل[1] أن اثنى عشر شيعياً انتهزوا فرصة غياب صلاح الدين عن مصر فى إحدى حملاته الحربية فطافوا بشوارع القاهرة يهتفون ويدعون الناس أن ينضموا لهم لإعادة سلطان الفاطميين ، ولـكن أحداً لم يستجب لدعوتهم فتفرقوا مذعورين .

وقد استطاع صلاح الدين أن يقضى على المذهب الإسماعيلى فى مصر دون كبير عناء وأحل محله المذهب السنى ، وكان أول ما فعل أن حذف اسم الخليفـة العاضد الفاطمى من الخطبة ودعا للخليفة المستضىء بالله العباسى ، وقد تردد صلاح الدين فى تنفيذ ذلك بادىء الأمر ثم أوعز إلى أحد أتباعه أن يفعل ذلك فى أحد المساجد ليرى رد الفعل عند الجماهير ، ولـكن أحداً لم يحرك ساكناً مما دعا صلاح الدين أن يأمر جميع خطباء المساجد أن يفعلوا ذلك فى الجمعة التالية[2] وشرع صلاح الدين فى تغيير الدولة وإزالتها فحجر على العاضد ، وأوقع بأمراء الدولة وعساكرها ، وقتل ابن عبد القوى آخر داعى دعاة للدولة الفاطمية ، وكان قتله على أثر المؤامرة التى كان يراد بها إعادة الحكم الفاطمى[3] ، وأنشأ بمدينة القاهرة مدرسة للفقهاء الشافعيـة ، ومدرسة للفقهاء المالـكية ، وصرف قضاة مصر المتشيعين كلهم ، وفوّض القضاء لصدر الدين عبد الملك ابن درباس الشافعى فلم يستنب عنه فى إقليم مصر إلا من كان شافعى المذهب فاختفى مذهب الشيعة حتى فُقِد من مصر كلها[4]

وفى ختام دراستنا الشاملة عن التربية الإسلامية ، نرجو أن نـكون قد ملأنا الفراغ الواسع حول هـذا الموضوع ، فأبرزنا جانباً مهماً من جوانب الحضارة الإسلامية ، تلك الحضارة التى تُعَدُّ بحق منحة السماء لسكان الأرض .

---

(١) مفرج الـكروب ورقة ٢٢٩ أ و ب مخطوط

(٢) الروضتين ١ : ١٩٤ (٣) المصدر نفسه ١ : ٢١٩

(٤) المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٩ و ٢ : ٣٤٣

مصادر البحث

ملاحظتان :

(١) الكتب التى ستذكر هنا هى فقط الكتب التى وردت فى ذيل صفحات هذا الكتاب وأما الكتب التى أسهمت فى هذا البحث بطريق غير مباشر فلا داعى لإيرادها فى هذه القائمة لكثرتها .

(٢) نظمت المراجع فيما يلى حسب الترتيب الابجدى للاسم الذى اشتهر به المؤلف مع صرف النظر عن (ابن - أب - أل) .

أولا - المخطوطات والمصورات

١ - تميم (الأمير تميم)	ديوان الأمير تميم	مخطوط ملك الدكتور كامل حسين
٢ - الجاحظ	رسالة المعلمين	مخطوط بالمتحف البريطانى ٣١٣٨ ومدرسة الحجيات بالموصل .
٣ - جعفر بن منصور	الفترات والقرانات	مصور ملك الدكتور كامل حسين
٤ - ابن الجوزى (سبط)	مرآة الزمان	مخطوط بدار الكتب المصرية ٥٥١ تاريخ
٥ - أبو الحاج	الألف باللآلبا	مخطوط بمكتبة بايزيد باستامبول ٥٣٣٦
٦ - ابن حجر	رفع الاصر عن قضاة مصر	مخطوط بدار الكتب المصرية ١٠٥ تاريخ
٧ - «	معجم ابن حجر	مخطوط بدار الكتب المصرية ٢٥ مجاميع م
٨ - «	أنباء الغمر فى أبناء العمر	مخطوط بدار الكتب المصرية ٢٤٧٦ تاريخ
٩ - «	تأويل التأسيس	مخطوط بدار الكتب المصرية ٤٤٦ تاريخ
١٠ - ابن خنزابة	مجالس أبى مسلم	مخطوط بدار الكتب المصرية ٧٧ أدب

١١ - ابن زولاق أخبار سيبويه المصرى مخطوط بمكتبة تيمور بدار الكتب المصرية ١٤٦١

١٢ - سبط بن العجمى كنوز الذهب فى تاريخ حلب مخطوط ملك الدكتور سامى الدهان

١٣ - السلفى أصول سماعات أبى الحسن مخطوط بمكتبة Professor Arberry

١٤ - سليان بن احمد إرشاد البشر مخطوط بمكتبة آل كاشف الغطاء بالنجف

١٥ - السيوطى نزهة الجلساء فى أخبار النساء مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق ٤٥٨٦

١٦ - ابن شداد (محمد بن على) الأعلاق الخطيرة مخطوط بلاهاى رقم ١٤٦٦

١٧ - الصابى رسوم دار الخلافة مخطوط بالمتحف العراقى رقم ١٥

١٨ - الصفدى التذكرة الصلاحية « ملك Professor Arberry

١٩ - طاش كبرى زاده رسالة فى علم الأدب « بالمتحف العراقى رقم ٧٢١

٢٠ - ابن ظافر تاريخ الدول المنقطعة « بالمتحف البريطانى ٣٦٨٥ O

٢١ - ابن عبد البر أدب المجالسة « بدار الكتب المصرية ١٢٣ مجاميع م

٢٢ - على بن حنظلة عقائد الاسماعيلية « ملك الأستاذ عباس العزاوى ببغداد

٢٣ - عمارة اليمنى النكت المصرية مصور بدار الكتب المصرية ٨٠٤٨ م

٢٤ - ابن عنبة عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب مخطوط بمكتبة الأوقاف ببغداد رقم ٢٨٠٨

٢٥ - العينى عقد الجمان مخطوط بدار الكتب المصرية ٨٢٠٣ أ

٢٦ - القابسى الفضلة مخطوط نشره الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

٢٧ - ابن قاضى شهبة مناقب الشافعى وأصحابه مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق ٥٧ تاريخ
٢٨ - القمى اعتقاد الصدوق « بمكتبة آل كاشف الغطاء بالنجف
٢٩ - الكرمانى الرسالة الوضية « ملك الدكتور كامل حسين
٣٠ - الكلينى أصول الكافى « بدار الكتب المصرية رقم ١ مواعظ شيعية
٣١ - المؤيد فى الدين المجالس المؤيدية « ملك الدكتور كامل حسين
٣٢ - الموسوى منتهى المراد « بدار الكتب المصرية ٥٣٤٤ تاريخ
٣٣ - النعمان بن محمد (داعى الدعاة) دعائم الإسلام مصور بدار الكتب ١٩٦٦٥ ب
٣٤ - « « « « تأويل دعائم الإسلام مصور مكتبة جامعة القاهرة
٣٥ - « « « « أساس التأويل الباطن مخطوط بدار الكتب المصرية ٢٤٣٤٦ ب
٣٦ - « « « « المناقب والمثالب مخطوط بدار الكتب المصرية ١١٥٤٧٢
٣٧ - « « « « المجالس والمسايرات مصور مكتبة جامعة القاهرة
٣٨ - ابن واصل مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب مخطوط بجامعة Cambridge 1-1-1-6
٣٩ - الوليد بن بكر الوجازة فى صحة القول بأحكام الإجازة مخطوط ملك الأستاذ عباس العزاوى ببغداد
٤٠ - المؤلف غير معروف : منهاج المتعلم مخطوط بالمكتبة العثمانية بحلب ١٢٢١
٤١ - المؤلف غير معروف : نصيحة إلى هارون الرشيد مخطوط بمكتبة جامعة استامبول رقم ٦٢٧٧ أ

٤٢ ـ المؤلف غير معروف فى اللبس مخطوط بمكتبة أسعد أفندى باستامبول بمجموع ٦٩٦

ثانياً ـ كتب عربية مطبوعة

٤٣ ـ ابن الأثير عيون الأنباء الناشر : Ed. August Muller 1884

٤٤ ـ ابن الأثير الكامل فى التاريخ طبعة ليدن ١٨٥١

٤٥ ـ الدكتور أحمد أمين فجر الإسلام القاهرة ١٩٣٢

٤٦ ـ » » » ضحى الإسلام القاهرة ١٩٣٢

٤٧ ـ » » » ظهر الإسلام القاهرة ١٩٣٢

٤٨ ـ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى : التعليم عند القابسى الطبعة الأولى

٤٩ ـ أحمد بن يحيى المرتضى المنية والأمل حيدر أباد ١٣١٦ هـ

٥٠ ـ أسعد طاس ذيل ثمار المقاصد الطبعة الأولى

٥١ ـ ابن الأنبارى طبقات الأدباء القاهرة ١٢٩٤ هـ

٥٢ ـ البخارى صحيح البخارى ليدن ١٨٦٢

٥٣ ـ ابن بشكوال الصلة مدريد ١٨٨٢

٥٤ ـ ابن بطوطة تحفة النظار باريس ١٨٥٣

٥٥ ـ البلاذرى فتوح البلدان القاهرة ١٣٥٠ هـ

٥٦ ـ بهاء الدين العاملى الكشكول » ١٣٠٥ هـ

٥٧ ـ البيهق المحاسن والمساوىء ليبسك ١٣٢٠ هـ

٥٨ ـ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة القاهرة ١٩٣٨

٥٩ ـ الثعالبى يتيمة الدهر دمشق ١٣٠٥ هـ

٦٠ ـ الجاحظ الحيوان الناشر الأستاذ عبد السلام هارون ١٩٣٨

٦١ ـ » البيان والتبيين القاهرة ١٣٣٢ هـ

٦٢ ـ » التاج فى أخلاق الملوك » ١٩١٤

٦٣ ـ الجاحظ رسائل الجاحظ لنشرها النوبى

٦٤ - ابن جبير الرحلة ليدن ١٩٠٧
٦٥ - ابن جماعة تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم حيدر أباد ١٣٥٣
٦٦ - الجهشيارى كتاب الوزراء والكتاب القاهرة ١٩٣٨
٦٧ - جورجى زيدان تاريخ التمدن الإسلامى « ١٩٠٢
٦٨ - ابن الجوزى (عبد الرحمن) المنتظم حيدر اباد ١٣٥٩ ﻫ
٦٩ - « « أخبار الحمق والمغفلين دمشق ١٣٤٨ ﻫ
٧٠ - « « مناقب بغداد بغداد ١٣٤٣ ﻫ
٧١ - « « صيد الخاطر القاهرة ١٩٢٧
٧٢ - ابن الحاج (العبدرى) المدخل « ١٩٢٩
٧٣ - حاجى خليفة كشف الظنون ليبسك ١٨٢٥
٧٤ - ابن حجر الإصابة فى تمييز الصحابة كلكتا ١٨٧٣
٧٥ - « « الدرر الكامنة حيدر اباد ١٣٤٩ ﻫ
٧٦ - ابن حجة الحموى ثمرات الأوراق (على هامش المستطرف) القاهرة ١٣٠٨ﻫ
٧٧ - الحريرى المقامات القاهرة ١٢٦٦ ﻫ
٧٨ - دكتور حسن ابراهيم الفاطميون فى مصر « ١٩٣٢
٧٩ - « « « تاريخ الإسلام السياسى « ١٩٤٠
٨٠ - حسين الأصفهانى محاضرات الأدباء « ١٢٨٧ ﻫ
٨١ - ابن حنبل المسند « ١٣١٣ ﻫ
٨٢ - ابن حوقل كتاب صورة الأرض ليدن ١٩٣٨
٨٣ - أبو حيان التوحيدى الإمتاع والمؤانسة القاهرة ١٩٢٩
٨٤ - « « « الصداقة والصديق طبعة القاهرة
٨٥ - « « « المقابسات القاهرة ١٩٢٩
٨٦ - الخطيب البغدادى تاريخ بغداد « ١٣٤٩ ﻫ
٨٧ - « « تقييد العلم دمشق ١٩٤٩
٨٨ - ابن خلدون المقدمة الناشر عبد الرحمن بن محمد بدون تاريخ
٨٩ - « « العبر القاهرة ١٢٨٤ ﻫ
٩٠ - ابن خلكان وفيات الأعيان « ١٢٧٥ ﻫ

٩١	خليل طوطح	التربية عند العرب	الطبعة الأولى
٩٢	الخياط المعتزلى	الانتصار والرد على ابن الروندى الملحد	طبعة دار الكتب ١٩٢٥
٩٣	ابن دقاق	الانتصار	القاهرة ١٣٠٩ هـ
٩٤	الذهبى	تاريخ الإسلام	حيدر اباد ١٣٣٧ هـ
٩٥	الزرقانى	شرح المواهب اللدنية	القاهرة بدون تاريخ
٩٦	الزركشى	تاريخ الدولتين	تونس ١٢٨٩ هـ
٩٧	الزرنوجى	تعليم المتعلم	استامبول ١١٩٢ هـ
٩٨	زكريا الأنصارى	اللؤلؤ النظيم فى روم التعليم	القاهرة ١٣١٩ هـ
٩٩	دكتور زكى مبارك	النثر الفنى	القاهرة ١٩٣٤
١٠٠	زين الدين العاملى	منية المريد فى أدب المفيد والمستفيد	القاهرة ١٩٤٦
١٠١	ابن الساعى	الجامع المختصر	بغداد ١٩٣٤
١٠٢	السبكى	طبقات الشافعية الكبرى	القاهرة ١٣٢٤ هـ
١٠٣	»	معيد النعم ومبيد النقم	ليدن ١٩٠٨
١٠٤	ابن سحنون	آداب المعلمين	تونس ١٣٤٨ هـ
١٠٥	السخاوى	الضوء اللامع	القاهرة ١٣٤٨ هـ
١٠٦	السمعانى	كتاب الأنساب	Gibb Memorial Edition
١٠٧	ابن سيده	المخصص	القاهرة ١٣١٦ هـ
١٠٨	ابن سينا	القانون	روما ١٥٩٣
١٠٩	السيوطى	حسن المحاضرة	القاهرة ١٣٢١ هـ
١١٠	»	تاريخ الخلفاء	دمشق ١٣٥١ هـ
١١١	»	تبييض الصحيفة فى مناقب أبى حنيفة	حيدر اباد ١٣٣٤ هـ
١١٢	»	بغية الوعاة	القاهرة ١٣٢٦ هـ
١١٣	»	الإتقان فى علوم القرآن	» ١٢٨٧ هـ
١١٤	أبو شامة	الروضتين	» ١٢٨٧ هـ
١١٥	ابن شحنة	الدر المنتخب فى تاريخ حلب	بيروت ١٣٠٩ هـ
١١٦	ابن شداد (بهاء الدين)	المحاسن السلطانية	القاهرة ١٣١٧ هـ
١١٧	شهاب الدين بن أحمد	المستطرف فى كل فن مستظرف	» ١٣٠٨ هـ

١١٨ - الشهرستانى الملل والنحل ليبسك ١٩٢٣ م
١١٩ - الشهيد المنية فى آداب العلم طبعة القاهرة
١٢٠ - الشيزرى نهاية الرتبة القاهرة ١٩٤٦
١٢١ - صلاح الدين المنجد خطط دمشق بيروت ١٩٤٩
١٢٢ - طاش كبرى زاده مفتاح السعادة حيدر اباد ١٣٢٩ م
١٢٣ - الطبرى تاريخ الأمم والملوك ليدن ١٨٨١
١٢٤ - ابن الطقطق : الفخرى فى الآداب السلطانية والأمم الإسلامية القاهرة ١٩٢٣
١٢٥ - ابن طولون الصالحى القلائد الجوهرية دمشق ١٩٤٩
١٢٦ - أبو الطيب محمد الوشى ليدن ١٣٠٢ م
١٢٧ - ابن ظافر بدائع البدائه القاهرة ١٢٩٨ م
١٢٨ - عباس العزاوى العراق بين احتلالين بغداد بدون تاريخ
١٢٩ - ابن عبد البر جامع بيان العلم القاهرة ١٩٣٧
١٣٠ - ابن عبد الحق البغدادى مراصد الاطلاع طبعة بغداد
١٣١ - ابن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز القاهرة ١٩٢٧
١٣٢ - ابن عبد ربه العقد الفريد « ١٩١٣
١٣٣ - عبد الرازق الحصان الحسبة بغداد ١٩٤٦
١٣٤ - عبد اللطيف البغدادى الإفادة والاعتبار الناشر Faulder
١٣٥ - عبد الله بن بشر حق اليقين صيدا ١٣٥٢ م
١٣٦ - عبد الله عفيفى المرأة العربية القاهرة ١٩٣٥
١٣٧ - ابن عبدون رسالة ابن عبدون نشرت فى The Journal Asiatique 1934
١٣٨ - ابن العبرى تاريخ مختصر الدول بيروت ١٨٩٠
١٣٩ - ابن العربى أحكام القرآن طبعة القاهرة بدون تاريخ
١٤٠ - ابن عساكر تاريخ دمشق دمشق ١٣٢٤ م
١٤١ - ابن العماد شذرات الذهب القاهرة ١٣٥٠ م
١٤٢ - عماد الدين الأصفهانى تاريخ آل سلجوق ابريل ١٨٨٩
١٤٣ - الغزالى إحياء علوم الدين القاهرة ١٣٠٦ م

١٤٤	الغزالى	الرسائل العشرة	القاهرة ١٩٣٤
١٤٥	«	إلجام العوام	« ١٣٠٦ هـ
١٤٦	الغزى	نهر الذهب فى تاريخ حلب	حلب ١٣٦٢ هـ
١٤٧	ابن الفقيه	كتاب البلدان	ليدن ١٣٠٢ هـ
١٤٨	أبو الفدا	البداية والنهاية	القاهرة ١٣٥١ هـ
١٤٩	أبو الفرج الأصفهانى	الأغانى	طبعة الساسى
١٥٠	دكتور فريد رفاعى	عصر المأمون	الطبعة الأولى
١٥١	ابن الفوطى	الحوادث الجامعة	بغداد ١٣٥١ هـ
١٥٢	القالى	الأمالى	القاهرة ١٣٤٨ هـ
١٥٣	ابن قتيبة	عيون الأخبار	« ١٩٢٨
١٥٤	«	المعارف	« ١٣٠٠ هـ
١٥٥	القرشى	معالم القربة	الناشر Prof. Levy
١٥٦	القزوينى	آثار البلاد وأخبار العباد	الطبعة الأولى
١٥٧	القسطلانى	المواهب اللدنية	الطبعة الأولى
١٥٨	القفطى	إخبار العلماء بأخبار الحكماء	ليبسك ١٣٢٠ هـ
١٥٩	القلقشندى	صبح الأعشى	القاهرة ١٩١٣
١٦٠	الكتبى	فوات الوفيات	« ١٢٩٩ هـ
١٦١	كشاجم	أدب النديم	الاسكندرية ١٣٢٩ هـ
١٦٢	كمال الدين هبة الله	الدرارى فى الذرارى	استامبول ١٢٩٨ هـ
١٦٣	الكندى	كتاب الولاة والقضاة	Gibb Memorial
١٦٤	كوركيس عواد	خزائن الكتب القديمة فى العراق	بغداد ١٩٤٨
١٦٥	لسان الدين بن الخطيب	الإحاطة فى تاريخ غرناطة	القاهرة ١٣١٩ هـ
١٦٦	الماوردى	الأحكام السلطانية	« ١٨٥٣
١٦٧	«	أدب الدنيا والدين	استامبول ١٢٩٩ هـ
١٦٨	المؤيد فى الدين	ديوان المؤيد	القاهرة ١٩٤٩
١٦٩	المبرد	الكامل	الناشر Wright
١٧٠	المتنبى	ديوان المتنبى	طبعة الحلبى ١٩٢٦

١٧١ - مجير الدين	الأنس الجليل	القاهرة ١٢٨٣ هـ	
١٧٢ - محمد زاهد الكوثرى	حسن التقاضى فى سيرة أبى يوسف القاضى	القاهرة ١٩٤٨	
١٧٣ - محمد صادق الصدر	الشيعة	بغداد ١٣٥٢ هـ	
١٧٤ - محمد عبد الله عنان	الحاكم بأمر الله	القاهرة (الطبعة الأولى)	
١٧٥ - محمد عبده	الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية	« ١٣٢٣ هـ	
١٧٦ - دكتور محمد كامل حسين	نظرية المثل والممثول	« ١٩٤٨	
١٧٧ - محمد كرد على	خطط الشام	الطبعة الأولى	
١٧٨ - « « «	الإسلام والحضارة العربية	طبعة لجنة التأليف ١٩٣٤	
١٧٩ - « « «	رسائل البلغاء	القاهرة ١٩٤٦	
١٨٠ - محمود الألوسى	تاريخ مساجد بغداد	بغداد ١٣٤٦ هـ	
١٨١ - محمود دهمان	المقصورة التاجية	دمشق ١٩٥٠	
١٨٢ - محمود عكوش	الجامع الطولونى	القاهرة ١٩٢٧	
١٨٣ - المرتضى	تنزيه الأنبياء	النجف ١٢٥٠ هـ	
١٨٤ - المرزبانى	الموشح	القاهرة ١٣٤٣ هـ	
١٨٥ - المسعودى	مروج الذهب	الناشر babeir	
١٨٦ - ابن مسكويه	تهذيب الأخلاق	القاهرة ١٣٢٣ هـ	
١٨٧ - ابن مسكويه	سقوط الخلافة العباسية	القاهرة ١٩١٤	
١٨٨ - ابن المعتز	ديوان ابن المعتز	القاهرة ١٨٩١	
١٨٩ - المعرى	رسالة الغفران	القاهرة ١٩٠٣	
١٩٠ - المعرى	رسائل أبى العلاء	اكسفورد ١٨٩٨	
١٩١ - المقدسى	أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم	ليدن ١٩٠٦	
١٩٢ - المقرى	نفح الطيب	القاهرة ١٢٨٩ هـ	
١٩٣ - المقريزى	الخطط	« ١٢٧٠ هـ	
١٩٤ - «	اتعاظ الحنفا	القدس ١٩٠٩	
١٩٥ - ابن منجب	قانون الرسائل	الطبعة الأولى	

١٩٦ - ابن منجب الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة القاهرة ١٩٢٤

١٩٧ - ناجى معروف المدرسة المستنصرية بغداد ١٩٣٥

١٩٨ - ابن نباته المصرى سرح العيون القاهرة ١٢٧٨ هـ

١٩٩ - ابن النديم الفهرست « ١٣٤٨ هـ

٢٠٠ - النعيمى الدارس فيما فى دمشق من المدارس دمشق ١٩٤٨

٢٠١ - أبو نواس ديوان أبى نواس القاهرة بدون تاريخ

٢٠٢ - النويرى نهاية الارب طبعة دار الكتب المصرية

٢٠٣ - ابن هانىء الأندلسى ديوان ابن هانىء القاهرة ١٢٧٤ هـ

٢٠٤ - ابن هشام السيرة « ١٣٣٢ هـ

٢٠٥ - ياقوت معجم الأدباء الناشر Margolioth

٢٠٦ - ياقوت معجم البلدان القاهرة ١٣٢٢ هـ

٢٠٧ - اليعقوبى البلدان ليدن

٢٠٨ - يوسف بن عبد الهادى ثمار المقاصد بيروت

ثالثاً - كتب مطبوعة بلغات أجنبية

Barthold, W. Turkestan Down to the Mongol Invasion. Lubzac, 1928 — 209

Brockelmann, C. Geschichte der Arabisher Litteratur. Weimar 1896-902 — 210

Browne, E. A Literary History of Persia. London 1906 211

Dozy, R. Dictionnaire des Noms des Yétements chdz les Arabes. Amesterdam 1845 — 212

Gertrude Stern Marriage in Early Islam. The Royal Asiatic Society 1939 — 213

Gibb, H. Arabic Literature. Oxford 1928 — 214

Gibb, H Muhammadanism. Oxford 1949 — 215

Hitti P. The History of the Arabs.
London 1949. — 216
Ilse Lichtenstadter Women in Ayyam al-Arab.
The Royal Society 1935 — 217
John Longdom A Short History of Women.
The Royal Society 1937 — 218
Khuda Bukhch Contribution to the History of Islamic.
Civilization Calcutta 1905 — 219
Lammens Etudes sur le Régne du Calife Omaiյade
Moawia, ler. Paris 1908 — 220
Lane-Poole Cairo. London 1912 — 221
Lane-Poole History of Egypt in the Middle Ages.
London 1901 — 222
Matiel Mugannam The Arob Women, London 1937 223
Mez. Adam Die Renaissance des Islams; (Arabic
translation) . Cairo 1940 — 224
Nicholson, A, A Literary of the Arabs,
Cambridge 1920 — 225
Palmer, E. Harun al-Rashid. marcus Ward 1881 — 226
Paul Monroe, the Educational Renaissance of the Sixteenth
Century, New York 1904 — 227
Richard Coke Baghdad, the City of Peace.
Thornton 1927 — 228
Rosenthal The Tecknique and Apprrooch of Muslim
Scholarshib. Analecta Orientalia 1947 — 229
Sarre, E. Islamic Bookbindings.
Berlin 1923 — 230
Sayid Ameer Ali A Short History of the Saracens.
London 1916 — 231
Sayid Ameer Ali The Spirit of Islam,
London 1940 — 232
٢٣٣ - طهران ١٣١٢ هـ مدرسة نظامية بغداد (فارسى) سعيد نفيسى
Thomas Arnold and Adolf Grohmann | The Islamic Book, Germany MCMXXIX — 224
Thomas Arnold and Guillaume | The Legacy of Ielam. London 1949 — 135

Wellhausen The Arab Kingdom and Its Fall, (English Translation). Calcutta 1927 236
William Muir The Life of Muhammad, London 1894 237

رابعا ــ دوائر معارف

Encyclopaedia of Islam 238
Eneyclopaedia and Dictionary of Education 239
Enej clopacdia of Religion and Ethics. 240
The Dcitionary of Isiam. 241
٢٤٢ دائرة معارف البستانى
٢٤٣ دائرة معارف القرن العشرين محمد فريد وجدى

خامسا ــ مطبوعات دورية

Islamic Culture. 244
The Nineteenth Century 245
The Journal of Education 246
The Journal Asiatique. 247
٢٤٨ المشرق
٢٤٩ المعلم الجديد (عراقية)
٢٥٠ مجلة الجامعة الإسلامية (تصدر فى حلب)
٢٥١ يادجار (فارسية تصدر فى طهران)

سادسا ــ وثائق وكتب لم يعرف مؤلفوها

٢٥٢ وقفية الملك المعظم على مدرسته بالشام (مخطوط لدى الأستاذ صلاح الدين المنجد)
٢٥٣ لوحات أثرية ورد صور بعضها فى الكتاب
٢٥٤ كتاب الإرشاد والتعليم لبعض الرجال الصوفية
٢٥٥ المجالس المستنصرية
٢٥٦ رسائل إخوان الصفا

فهارس الأعلام

ملاحظات :

١ ـ اعتمد هذا الكتاب على مصادر عدّة ، وتحاشيا للإسهاب لم نورد فى قائمة الأعلام أسماء مؤلفى هذه المصادر اكتفاء بورودها فى ذيل صفحات الكتاب وفى مصادر البحث .

٢ ـ الطريقة المتبعة فى تنظيم هذه الأعلام مبنية على عدم اعتبار الملحقات (أبو ـ ابن ـ ال) فيما عدا بعض الأسماء حيث تعد (أبو) جزءا من الاسم مثل أبى بكر فى التعريف بأبى بكر الصديق .

٣ ـ إذا تكرر الاسم فى صفحة واحدة وضعنا رقم الصفحة وبعده حرف « م » أى مكرر .

٤ ـ لم نضع فى هذه القوائم اسم الرسول صلى الله عليه وسلم لكثرة وروده فى صفحات متعددة ، ولنفس السبب لم نورد الكلمات الآتية : العراق ـ بغداد ـ مصر ـ القاهرة ـ دمشق .

(ب)

(ع)

(ق)

(ك)

فهرس الطوائف

فهرس الأماكن